الاصطفاء من سيرة المصطفى

مختصر كتاب رسول الله وخاتم النبيين

ديــن ودولــة

ⓒ عبد العزيز بن إبراهيم العُمري، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العُمري، عبد العزيز بن إبراهيم
الاصطفاء من سيرة المصطفى مختصر كتاب رسول الله وخاتم النبيين دين ودولة/
عبد العزيز بن إبراهيم العُمري ـ الرياض، ١٤٣٤هـ
٧٣٦ ص؛ ١٤ سم × ٢١ سم
ردمك: ٩ ـ ٣٢١١ ـ ٠١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ٩١٢٢/١٤٣٤

رقم الإيداع: ٩١٢٢/١٤٣٤
ردمك: ٩ ـ ٣٢١١ ـ ٠١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤م

الاصطفاء من سيرة المصطفى

مختصر كتاب رسول الله وخاتم النبيين

ديــن ودولة

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري

أستاذ السيرة النبوية

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (بالرياض)

بيرسـان

● اسم الكتاب: **الاصطفاء من سيرة المصطفى ـ مختصر كتاب رسول الله وخاتم النبيين ـ دين ودولة**

● تـــأليـــف: **أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري**

● **الطبعة الأولى: 2015م**

● ISBN 978 - 389911 - 110 - 9

● **جميع الحقوق محفوظة للمؤلف**

ص. ب: 10437 ـ الرياض 11635

E-mail: azizomary@hotmail.com

● يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، بدون تغيير بإذن المؤلف (دون مقابل).

● الناشر: **بـيسـان للنـشـر والـتـوزيـع**

ص. ب: 5261 ـ 13 بـــيروت ـ لـبـنـان

تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961

E-mail: info@bissan-bookshop.com

Website: www.bissan-bookshop.com

Facebook: **مكتبة بيسان للنشر والتوزيع**

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا الجهد لكل من ينفذ أمر الله تعالى في قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾

[الأحزاب: ٥٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْءَاخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد؛

فأعترف بأن المؤلفات في السيرة النبوية كثيرة، والجهود عظيمة، وما صدر منها في أزمان مختلفة جَلّ أن يُحصى، وفضلها كبير، وقد غُطيت السيرة إجمالاً، دروساً وأدباً وعلماً، شارك في ذلك جميع من كتب وألّف فيها، جرى تحبيبها إلى الناس وعرضها بأساليب مختلفة ولغات متعددة ومستويات شتى.

ومع اعترافي وشكري ودعائي لكل هؤلاء السابقين لي في مجال السيرة، فقد أردت أن أنضمّ إلى صفوفهم، لعلي أجد لي فيها موضع قدمٍ كمن يقف خلف إمامه في الصلاة (إمام المرسلين ﷺ).

ورأيت أن الكتابة في سيرة المصطفى ﷺ تحقق سعادةً آملُ

منها أن أكون ضمن تلك الصفوف المتراصة خلف المصطفى ﷺ، لعلي أنال بها شفاعته وأحظى بلقائه، وإني لأرجو من الله ذلك.

وعند مطالعة السيرة النبوية أو الكتابة فيها فإنها تؤدي إلى محبته ﷺ، في كل أحواله وأعماله ﷺ فتشعر بالحب يتضاعف في قلبك، وبالروح الإيمانية فتزداد قوة ويقيناً، فسيرته قريبة من النفس سهلة التناول والتطبيق يستطيع أن يقتدي بها الناس كلّهم، ليست خاصة بفئة معينة أو قوم دون آخرين.

ولعل أهم ما دفعني للكتابة في السيرة هي محبة الرسول ﷺ والتقرب إلى الله بذلك، وهذا شرف أفتخر به وأذكره وأريده وأردّده، وأطمع من ذلك في محبة الله ومحبة من رسوله ﷺ حين أَرِدُ حوضَه، بإذن الله ورحمته.

ولعلي أفيد من يقرأ في السيرة، وقد حاولت جهدي أن أسلك منهجاً معيناً في الكتاب الأصلي الذي جرى اختصاره، واضعاً أمام عيني أن أخدم القارئ لسيرة النبي ﷺ من عامة المسلمين، بالحقائق من دون زيادة.

وقد صدر هذا الكتاب في الأصل بعنوان **رسول الله وخاتم النبيين** في خمسة أجزاء شاملة للسيرة، مع أن كل جزء كان له عنوانه الخاص.

وقد طلب مني أحبابٌ كثرٌ العملَ على اختصاره لتيسير قراءته وليكون سهل الترجمة، فأعددت هذا المختصر الذي بين

يديكم، بعد اجتهاد ونظر في ما يمكن إبقاؤه أو حذفه من كتابي الأصلي مع بعض التعديلات الأخرى.

وقد اخترت منهجاً لهذا الكتاب المختصر كنت عملت به في كتابي الأصلي يقوم على الاستفادة من مصادر السُّنة في الروايات المرتبطة بالسيرة وتقديمها على غيرها، وخصوصاً ما يرتبط بأحكام شرعية، وأشرت إليه بالتفصيل في مواضعه في الهوامش.

وحاولت الدمج بين ذِكْر الحدث وفِقْهه، والاستفادة من دروسه في حياة الناس عامّتهم وخاصّتهم، وأبرزت الجوانب الحضارية الإنسانية والتنظيم والإدارة في السيرة النبوية.

وتطرقت للنظم الإسلامية في العصر النبوي، وتأسيسه ﷺ لدولة الإسلام، والقيم التنموية والمدنية التي بثها في المجتمع البشري ﷺ، وأدارها بنجاح وتميز، وصارت نبراساً للبشرية، وللإدارة الإنسانية الشاملة.

ولئن لم يُكتب لي أن أنال شرف رؤيته ﷺ فإني آمل أن لا يفوتني شرف صحبة سيرته وحياته، عبر أسفار الكتب ونبض القلم، وفيض الحب والمشاعر، ونقل ذلك لأحبابه المؤمنين به، ومن يرغب التعرف عليه ﷺ.

ومع بُعد الزمان فقد كنت أُحسّ بقربي منه ﷺ وارتباطي بالزمن الذي أُعتقت فيه الإنسانية من رباط الوثنية ودخل الناس

في توحيد الله تعالى، والخضوع له وعبوديته، وأردت أن يشاركني القارئ الكريم في الشعور والإحساس هذين.

وأجد هنا، أن من الواجب عليّ أن أقدّم جزيل الشكر والعرفان لأخي معالي الدكتور علي بن إبراهيم بن حمد النملة الذي شجعني على العمل في هذا المؤلَّف مثلما شجعني على اختصاره في هذا الكتاب الذي بين يديكم، من الكتاب الأصلي (**رسول الله وخاتم النبيين**) الذي صدر في خمسة مجلدات، واستفدت من ملاحظاته جزاه الله عني خير الجزاء، كما أدعو لكل من كان عوناً لي في إنجازه ونشره.

الرياض وبريدة

رجب ١٤٣٤هـ

أهداف دراسة السيرة النبوية وفوائدها

النبي ﷺ أحبُّ الخلق إلى الله، اصطفاه من بينهم، وحمّله رسالته، فمحبة الله وحبنا له تدفع لمعرفته ودراسة سيرته.

وهذا جزء من حقه علينا ﷺ وعلامة حقيقية لمحبته ومحبة الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

كما أن دراسة سيرة المصطفى ﷺ فيها معرفةُ ما كان عليه ﷺ من تجسيدٍ حيٍ للإسلام، حيث عاش ﷺ عبداً لله جمع بين الدنيا والآخرة، وهـذا ماثلٌ في سلوكه ﷺ في تطبيقٍ عملي للإسلام ولشريعته وأحكامه، وبذلٍ للنفس والمال في سبيل الله.

كما أن سيرة رسول الله ﷺ فيها دراسةٌ لتاريخ أعظم البشر وأفضلهم، والناس فُطروا على دراسة سير العظماء على وجه العموم، ومعرفة سيرهم وحياتهم وقصصهم، وكل أمة من الأمم تحاول أن تبرز عظماءها، وتغزو بهم وبسيرهم العالم، بل

ويلمِّعونهم وينسجون حولهم القصص، الكاذبة أحياناً، ليظهروا للناس أن لديهم من يفتخرون به من الأعلام والرجال.

أما نحن المسلمون، فحبيبنا وزعيمنا وقائدنا ﷺ هو أحسن وأفضل البشر، سيّد ولد آدم، ولـذلك فإننا بدراسة سيرة المصطفى ﷺ نلبي هذه الحاجة الموجودة طبيعياً عند الناس، بأن نغطي هذه الحاجة بالمعلومات الصادقة الصحيحة، التي يحرص الناس بطبيعتهم على الاطلاع عليها، ونغطيها بمن يجب علينا أن ندرس حياته وسيرته لكي نتعلق به. وهنا لا بُدَّ من التأكيد على أن غير المسلمين جعلوا النبي ﷺ أبرز البشر، فكيف بنا نحن أتباع رسول الله ﷺ، الـذين ينبغي أن لا نقدم أي إنسان عليه ولا نتعلم سيرة أحد أو تاريخ بشر قبله، لا ملكاً ولا وزيراً ولا عالماً ولا عظيماً ولا كائناً من كان قبل رسول الله ﷺ.

وهذا مايكل هارت، المؤرخ الأميركي، الذي زعم إنه يؤرخ للإنسانية في كتابه: «أعظم مائة رجل في تاريخ البشرية The100 ARanking of the most inflential persons in history «وضع رسول الله ﷺ أول إنسان في تاريخ البشرية، حيث قال ما نصه: «لقد اخترت محمداً ليكون في أول القائمة، ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ومعهم حق في ذلك، لكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً على المستوى الديني والدنيوي، هو قائد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد

مرور (١٣) قرناً من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قوياً متجدداً»،[١] وهذا يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وقد قال عنه جوستاف لوبون في كتابه: «حضارة العرب»: «إذا قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد أعظم من عرفه التاريخ».[٢]

وقد قال عنه وليم موير Muer: «مهما ندرس حياته نجدها على الدوام كتلة فضائل مجسّمة، مع نقاء سريرة، وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان».[٣]

إن الله سبحانه وتعالى تَعبّدَ الأمة الإسلامية بدراسة حياة الأنبياء السابقين وسنن الله في الأمم الماضية تبعاً لموقفهم من أنبيائهم ودعوتهم لله، وقد جعلهم نبراساً يُحتذى وذكراً يُتلى، وقدوة وتثبيتاً لرسوله ﷺ، ومن ثمّ فقصص النبي ﷺ وسيرته تثبيت لمن يتعلمها من المسلمين، خصوصاً أنها مرتبطة بكتاب الله وسنة نبيه ورسوله ﷺ من الذين جعلهم الله نبراساً، قال

---

(١) مايكل هارت، **أعظم مائة رجل في التاريخ**، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري، القاهرة، ص ١٤.

(٢) جوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص ١٤.

(٣) محمد خير الدرع، **نبي الإسلام شخصيته حياته رسالته في عرض جديد**، ص ٦.

تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩].

كل هذه الآيات وغيرها تؤكد أن دراسة ما جرى للأنبياء السابقين جزءٌ من القرآن والدين والعلم الشرعي، الذي يوجه حياة محمد ﷺ وحياة أمته معه، وبالتالي فإن في دراسة حياته تربية للأمة، وعلم لا غنىً عنه إلى يوم القيامة.

كما أن في دراسة سيرته امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى وعبودية له، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، معلمنا الأول ﷺ بأمر الله، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ

وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١] وبالطبع فإن التأسّي لا يكون إلا بعلم سُنّته، وسيرتُه وشمائله جزءٌ من سنّته، فيها قدوة للمؤمنين به في سائر أحوالهم، فهو قدوة للدعاة في حَمْل الهمّ والعمل الجادّ وسموّ الأهداف والغايات، وحب الخير للناس والرحمة بهم.

وللأزواج في التعامل والرحمة والعطف والحنان والحب الحقيقي.

وللزعماء والقادة قدوة في الإدارة وتقديم مصلحة الأمة، والرحمة بالناس والبعد عن الأنانية، والأمانة والإخلاص والسياسة بما يرضي الله، واستعمال الأصلح للناس في أعمالهم.

وللجيران قدوة في معرفة حقوقهم، وحسن التعامل مع جيرانهم والرفق بهم والهداية لهم وحفظ حقوقهم وحسن الصلة بهم.

وللمصلحين قدوة في الصبر والتحمّل، وسموّ الأهداف وترتيب الأولويات، والتغيير الاجتماعي للأصلح بهدوء وفعالية، وسعي لتنمية الإنسان، وحفظ حقوقه.

فهو للآباء قدوة في العطف، والتربية والرحمة، والحب الحقيقي والتعلم، وللفقراء قدوة في الصبر على الجوع والعفة والأمانة، وللأغنياء قدوة في الصدقة والتواضع، والإيثار

والأمانة والوفاء بالعهد، وعدم الإسراف، وللمريض قدوة في الاحتساب، وطلب الأجر والبحث عن الدواء فيما أحل الله وعدم الإثقال على الآخرين.

وعلى العموم فهو قدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر من سائر الأمة، ونُذكِّر أنه بدون علم لا يمكن التأسي...

في دراسة سيرته ﷺ تحقيق لمحبته:

فمحبته مُقدِّمةٌ على النفس، ومحبته محبة لأخلاقه وفضائله، محبة المُحْسَن إليه للمُحْسِن بالثناء والإجلال والتقدير، كيف لا وإحسانه ﷺ قائم للمسلمين وللإنسانية جميعاً إلى يوم القيامة، بما حمل لهم من هداية الله، فمحبته أعظم وأسمى مراتب المحبة، فهو أعظم الناس تأثيراً في حياتنا ﷺ لنؤدي بعض حقه علينا ونقدمه على أنفسنا، وعلى كل شيء آخر، لنأخذ عنه ونقدم أوامره على غيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقد قال الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده وفي رواية والناس أجمعين».(١)

وكذلك يتبين لنا فضل الله على نبيه ﷺ وفضله سبحانه علينا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب الإيمان، باب «وحب الرسول ﷺ من الإيمان»** ج١/ ٩.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

ومن المعروف للمسلمين جميعاً، بل ولمن سبقهم من الأمم أهمية دراسة تاريخ الأنبياء:

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

في معرفتنا بسيرة الرسول ﷺ نعرف مختلف الأمم والأنظمة التي حكمت العالم وسادت قبل الإسلام، سياسياً أم فكرياً ودينياً أم أخلاقياً، ونعرف النعمة التي أحدثها الإسلام في حياة الناس، كما قال عمر رضوان الله عليه: (لا يعرف الإسلامَ من لا يعرف الجاهلية).

إن الصدق في سيرة المصطفى ﷺ لا يقابله أي طرح تاريخي عن شخصية أخرى مهما كانت تلك الشخصية.

فنحن بدراسة السيرة نتعلم صدقاً، لا زوراً كما يحدث لبعض الشخصيات، كما أننا نصل إلى تفصيلات وحقائق لا تتوفر لغيره ﷺ.

ولا بد من معرفة أن ذكره ﷺ سابق لزمانه، حيث إن الحديث عنه ﷺ كان في زمن الأمم السابقة، ففي زمن عيسى يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ

إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

كما تحدث موسى عليه السلام في زمنه، يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. إن أخبار محمد ﷺ وصفاته عرفت قبل ولادته بقرون، حيث كان علماء أهل الكتاب ينتظرون مبعثه، ولا تزال في بعض كتب النصارى إشارات قوية وواضحة لرسول الله ﷺ نبيّ آخر الزمان.(١)

بدراسة السيرة نتعرّف على كتاب الله، فحياة الرسول ﷺ مليئة بالأحداث التي نزلت فيها آيات من كتاب الله سبحانه وتعالى في مناسبات مختلفة.

كما أن بعض أسماء سور القرآن الكريم ارتبطت بأحداث السيرة، كما في الأنفال والتوبة، والإسراء، وطه، والأحزاب، والشرح، والعلق، والهُمَزة والفيل، وقريش والكوثر، والكافرون، والنصر، والفلق.

---

(١) انظر: الموضوع المتعلق بـ (العالم وانتظار الرسول ﷺ) من هذا الكتاب.

مع أن بقية السور لا تخلو من آيات مرتبطة بأحداث السيرة، وبالتالي فدراسة سيرته ﷺ تعطي الإنسان تصوراً صحيحاً عن ما ورد في كتاب الله من أسباب النزول، وتعطيه انطباعاً خاصاً وكأنه يعيش عصر تَنَزُّل القرآن، والتحديات التي تعرّض لها رسول الله ﷺ، ومعه الأمة والمجتمع المسلم، وكيف ثبَّت الله إيمانهم بما شاهدوه من أحداث عرفوها في القرآن المنزل عليهم في تلك الفترة.

إن في دراسة السيرة معرفة جيل الصحابة وفضلهم وتنمية محبتهم ومعرفة درجاتهم التي أشار الله إليها في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد].

وقد وضّح البخاري وغيره في كتابه **الصحيح** مناقب هؤلاء الصحابة.[1]

هذا الكلام عن رسول الله وأصحابه أخبر به موسى بني إسرائيل قبل ما يزيد على ألف سنة من مبعثه ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[الأعراف].

أولئك تلاميذ محمد ﷺ الذين كان منهم خلفاء راشدون،

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، كتاب المناقب.

وقادة محنكون وسياسيون وأبطال فاتحون وعلماء قادوا العالم وأظهروا فيه العدل والتوحيد والرحمة.

وبدراسة السيرة نعرف الخصائص النبوية[1] التي أنعم الله بها على رسوله المصطفى.

خصائصه متعددة، أولها الرحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فهو أعظم البشر، علّمه وأدّبه رب العالمين كما قال ﷺ: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).[2]

اختاره واصطفاه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

خاتم الأنبياء، وأرحم الناس، وأكرم الناس، وأصدق الناس، وأنظف الناس، وأطهر الناس.

---

(١) لمزيد من التوسع انظر: كتاب **الخصائص النبوية للإمام السيوطي** (رحمه الله)؛ وأبوبكر الجزائري، **هذا الحبيب يا محمد**.

(٢) حَسّنه عدد من العلماء، وله شواهد.
انظر تخريجه عند: أحمد الحداد في، **أخلاق النبي في القرآن والسنة**، ج٢/ ١٠٣٣.

أُيّد بالمعجزات والبينات والبراهين والكرامات، شاهدها معاصروه وأدركها العلماء ومحبوه، علا ذكره على سائر الخلق بما له من حق، وبما وعده الحق تبارك وتعالى.

صلى الله عليه والملائكة وأمر العباد بذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ١و٢].

فتح الله له ونصره وغفر له، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: ١و٢].

إن دراسة السيرة النبوية تقوي عزائم المؤمنين وتعلمهم الصبر وتفتح لهم الأمل بانتصار الحق على الباطل، وبغلبة دين الله على ما سواه، وبالقوة بعد الضعف، وبأن الله ناصِرٌ دينه ونبيّه وأمته إلى يوم الدين.

إن السيرة النبوية علم بذاته ومفتاح لعلوم متعددة، فمن خلالها يتعلم المسلم الأخلاق وتطبيقها والعقيدة وأصولها، والأحكام الشرعية والآداب المرعية، والعدل والنظم الإسلامية وسياساتها الشرعية وكسب الناس لدين الله.

كما يتعرف دارسو السيرة على كثير من الحقائق التي ارتبطت بأحداث السيرة.

ويدرك الإنسان، مختلف مراحل حياة الرسول ﷺ وتدرّجه في دعوته.

كيفية دراسة السيرة النبوية:

إن أي باحث أو قارئ للسيرة النبوية ينبغي عليه أن يستشعر شخصية الرسول ﷺ، وما له من حقوق وخصائص حباه الله إياها، اصطفاه لوحيه ورسالته من بين خلقه، وأعطاه عصمة ثابتة لا يتطرق إليها شك في الدين والأخلاق في توحيده الخالص لله سبحانه وتعالى، وعصمته من الشِّرك، والكذب قبل البعثة وبعدها، في عدله وإنصافه وأمانته ورحمته بالناس قبل البعثة وبعدها، في عناية الله به وحفظه وتأديبه له قبل البعثة وبعدها منذ مولده ﷺ وأنه ليس لأحد أن يخطِّئ رسول الله ﷺ إلا ما ذكره ربه تبارك وتعالى في معرض تأديبه له، كما في قصة الأعمى في سورة عبس، أو في أسرى بدر، أو فيما ذكره هو ﷺ ولا يُقبل من أحد من البشر غير ذلك.

وبالتالي فإن على دارس السيرة أن يلتزم الأدب مع النبي ﷺ.

حين الحديث عنه ﷺ وعن سيرته وحقه ومحبته ﷺ وما له في أنفسنا وقلوبنا، ويجب أن نرتبط بالأدلة الشرعية، ونتذكر ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى وما أخبر به رسول الله ﷺ من أنه عبد لله ورسوله، وأنه بشر من البشر، لكنه أفضل البشر كما قال ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء

الحمد ولا فخر، وما من نبيّ يومئذٍ آدمُ فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أوّل من تنشقُّ عنه الأرض». (١)

ففي مصافّ العظماء هو الأول لا يسبقه أحد، لكنه صلوات ربي وسلامه عليه أكد أنه عبد من عباد الله تعالى، كما ورد ذلك في آيات عديدة من كتاب الله كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ويأتي التأكيد على عبوديته في معرض الحديث عن رفعه والإسراء به، حتى لا يأتي من يسير على خطى النصارى ويخرجه عن بشريته فيغلوا فيه كما غلوا في عيسى عليه السلام، فمع ذكر هذه الكرامة الفريدة لرسول الله ﷺ يأتي التأكيد على عبوديته لله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] مع أنه لو ذكرت الآية أسْرىٰ برسوله لكانت حقاً، لكنها تؤكد على مقام العبودية الذي هو تكريم له ولسائر البشر، كما جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ

---

(١) رواه **الترمذي في صحيحه، باب فضل النبي** ﷺ رقم: (٣٦١٥)، وروى **البخاري** أجزاءً منه في **صحيحه، كتاب التفسير**، سورة الإسراء، **ومسلم في كتاب الإيمان**.

ابن كثير، تفسير سورة الإسراء، ج ٢/ ١٠٨٥.

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] مذكراً بعبوديته ﷺ لله ومع ذلك فإن مقامه لا يصل إليه أحدٌ، من البشر فلا يقدم المسلم أحداً من البشر لا من الأهل ولا من الولد ولا غيرهم على محبة رسول الله ﷺ.

وقد أكرمه الله بالعبودية مع اصطفائه بالوحي والرسالة، وليس في هذا ضعف وإهانة لرسول الله ﷺ بل من كمال رسول الله ﷺ أن يكون عبداً، وليس ككل العبيد حيث كان ﷺ عبداً شكوراً كما قال صلوات ربي وسلامه عليه لأمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) حينما رأته يقف من الليل يصلي حتى تتفطّر قدماه فكأنها أشارت على الرسول ﷺ أن يكفيه بعض ذلك، فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً»،(١) لم يقل نبياً شكوراً ولا رسولاً شكوراً، لأنه يرى أن من كمال نبوته ﷺ أن يكون عبدالله، وذلك تصديقاً لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

لكنه سيد البشر ﷺ وهو قدوة الناس، جاء ليقودهم للعبودية الحقة لله تعالى وحده، فكان ﷺ في مُقّدمهم وأمامهم في أمر الله.

كان ﷺ يعيش حياة البشر، يأكل وينام ويتزوج ويبيع

---

(١) من حديث البخاري، في **التمهيد**، **باب قيام الليل**، ومسلم في **صفة القيامة** «**باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة**» برقم: (٢٨٢٠).

ويشتري يصادق ويعادي، كل ذلك داخل عبوديته لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إن أيّ دارس للسيرة النبوية وأحداثها ينبغي عليه أن يستشعر العصر الذي عاشه النبي ﷺ وإمكاناته وظروفه، ليدرك الصعوبات التي واجهها ﷺ وأصحابه، يدرك المناخ ودرجة الحرارة، وحجم الإنتاج الزراعي والحيواني والاقتصادي في منطقته ومحدودية الإمكانات المادية والبشرية والثروات الطبيعية في بيئته مقارنة بغيرها.

كما يدرك الظروف الجغرافية والعادات والتقاليد وأحوال العرب قبل الإسلام، ما يجعله يكوِّن تصوراً صحيحاً عن الوضع الذي عاشه الرسول ﷺ ليعطيه حقه من التقدير وحق أصحابه رضي الله عنهم.

وعليه أن يدرك مختلف المراحل لسيرة النبي ﷺ ولدعوته.

كما أن على الدارس أن يربط أحداث السيرة بما ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى، وأن يرجع إلى كتب التفسير والى أسباب النزول إن احتاج الأمر إلى ذلك.

كما ينبغي ربط السيرة بالحوادث المعاصرة في المجتمعات

الإسلامية والإنسانية،[1] وتأثير العصر النبوي علينا في زماننا، ومعرفة سنن الله في الخلق.

كما ينبغي أن يدرك أنه أمام شخص اصطفاه الله سبحانه وتعالى وحرّم الكذب عليه ويتذكر قول الرسول ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار».[2]

وبالتالي فإنه ﷺ ليس بحاجة أن يُكذب عليه أو يُكذب له.

والباحث العلمي في سيرة النبي ﷺ يجد أنها غُطّيت بدقائق الأحداث وتفصيلاتها.

وقد عدّ كثير من العلماء علم السيرة علماً قائماً بذاته، وكانوا يرونه قسماً من السنة النبوية.

خصائص السيرة النبوية

لا شك أن سيرة النبي ﷺ عِلمٌ عظيم عن شخصية مُصطفاةٍ من الربّ تبارك وتعالى، وأحداثٌ شهد عليها القرآن فيما تنزّل من آيات تتلى إلى يوم القيامة، وبالتالي تميزت بخصائص منها:

- أنّ صاحبها أفضل البشر، رفع الله له ذكره، وأدّبه فكان سيّد

---

(١) انظر: سر الختم عثمان علي، **تدريس السيرة النبوية في مناهج التاريخ المدرسية**، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٢هـ، ص ٣٥.

(٢) متفق عليه: من رواية **البخاري في صحيحه**، **كتاب العلم باب إثم من كذب على الرسول** ﷺ، ج ١/ ٣٦

ولد آدم على الإطلاق، منذ وجد الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- عُلوّ المصدر في هذه السيرة النبوية المؤيدة بآي القرآن الكريم في أغلب حوادثها وعامّة مغازي المصطفى ﷺ وخُلقه وسجاياه.
- أنها أدقّ سير الأنبياء والصالحين تفصيلاً ودقة حيث تابع الصحابة جوانب حياته الخاصة والعامة كافةً ونقلوها لنا بدقة متناهية، كما لم تُنقل سيرة بشرٍ آخر من قبله ﷺ.
- أنها أصحّ سيرة عرفتها البشرية، صاحِبُها الصادق الأمين ﷺ، نقلها الصادقون من أصحابه، عُرف ناقلوها، وصحّت أسانيدها.
- أنها جمعت في ثناياها أعمال الرسول ﷺ التعبدية والدنيوية، وسياسته الشرعية وجهاده ومغازيه، ومن عاصره من أصحابٍ وأُممٍ وأقوام.
- ارتباط السيرة وأحداثها بمعالم جغرافية محدّدة ومعروفة، تدعمها وتؤكد مصداقيتها وتمكننا من متابعة أحداثها.
- أنها مليئة بالدروس والعبر التي يمكن للمسلم خصوصاً وللإنسان عموماً مهما كانت حاله ومكانته ووظيفته أن يستفيد منها، ليصل إلى أسباب النجاح، والسعادة الدنيوية والأخروية.
- أنّ في حياة الرسول ﷺ وإيواء الله له في يُتمه وحفظه

وعصمته من الناس معجزة تُشاهد وتُحسّ من خلال السيرة النبوية، ومن خلال نصر الله وحفظه دينَه وانتشاره ومراحل حياته ودعوته، صدق الله فيها ما وعد نبيّه وما وعد عباده الصالحين في أيامه.

- أنّها نالت اهتماماً عظيماً من الأمة؛ فقهائها وعلمائها ومحدّثيها.
- أن فيها تطبيقاً حياً لمعرفة سنن الله في الكون والحياة ونصر الله لنبيه، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].
- أنّ السيرة تعالج جوانب حياة الرسول ﷺ كافةً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وتغطي حياته وصفاته وشمائله وتربط ذلك برسالته ونبوته واصطفاء الله له.
- أنّها تؤرّخ لعصر انقلاب عالمي وتغير في حياة البشرية، نُقل فيها الناس من الوثنية إلى التوحيد، ومن الشِّرْك إلى عبادة الله وحده، ومن الجاهلية إلى الإسلام.
- تأثير السيرة العظيم في نفوس المطلعين عليها، ومساهمتها الكبرى في التأثير على السلوك وتقويمه وتزكية النفس والأخلاق وتربيتها على حب الرسول ﷺ.
- من خلالها يتم التعرف على الدور العظيم لأصحاب

النبي ﷺ ونُصرتهم له بالنفس والمال والأهل، ومحبتهم عند الله وعند رسوله وأتباعه، وبالتالي الدفاع عنهم أمام أعدائهم المستنقِصين إياهم، وهم أحبّاء رسول الله وأصهاره، من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وأمهات المؤمنين وبقية آل البيت والصحابة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

- جمال السيرة وحقيقتها وكمالها وواقعيتها وطيب حياة صاحبها ﷺ.
- أنّ السيرة النبوية المدخل الصحيح لفهم القرآن الكريم، وما تَنزَّل فيه من آيات على رسول الله ﷺ في مختلف مراحل حياته.

أحوال العرب في العصر الجاهلي

ببعثة النبي ﷺ سطع النور وانقشع الظلام وساد التوحيد والعلم والمعرفة، والحق والعدل، ولذلك عرُف ما قبل الإسلام بالعصر الجاهلي تمييزاً له، ولمعرفة فضل الإسلام على العالم عامة والعرب خاصة، لا بدّ من معرفة الأحوال قبيل الإسلام في المجالات كافة، إذ أن الإسلام جاء مهيمناً على الحياة ليس على المسار الديني فحسب، بل وعلى المسار الدنيوي، بأخلاقه ومعاملاته وعاداته وسائر تشريعاته وسلوكياته. ولما كانت الجزيرة العربية عامةً هي مسرح أحداث السيرة بالدرجة الأولى، فإنه لا بد من الاطلاع على أوضاعها، ومعرفة أحوالها قبل مبعث النبي ﷺ؛ فبلاد العرب من الناحية الجغرافية شبه جزيرة كبرى، تحيط بها البحار من جهاتها الثلاث، الغربية والجنوبية والشرقية، وسطها صحراء قاحلة محدودة المياه والموارد، وإن وجدت مناطق حضرية داخلها فهي محدودة جداً، مقارنة بمساحتها الكبرى، إلا أنها تعد مناطق واحات زراعية منتجة،

كما وجد في جنوبها منطقة اليمن وعُمان وهما مناطق جبلية زراعية معتدلة المناخ إلى حدّ ما، صعبة التضاريس.

الجوانب الدينية:

كان معظم العرب وثنيين تنتشر بينهم عبادة الأصنام ولها مراكز مشهورة في بلاد العرب كافة، يأتون إليها ليقدموا لها العبادة والقرابين ويطلبون منها العون والمساعدة، كلٌ حسب طريقته، ولم تسلم منها منطقة في بلاد العرب على الإطلاق حتى مكة موطن الحنيفية.

وجدت مجموعات من يهود، تركزوا في منطقة المدينة المنورة (يثرب) وفي خيبر، إضافة إلى يهود خيبر وتيماء وفَدَك ووادي القُرى، الذين يشكلون تجمّعاً لا يستهان به.[1]

كما وجد بعض أفراد ومجموعات عرفوا بالموالي، يعودون لأصول غير عربية ــ في الغالب ــ في مختلف المراكز الحضرية، وقد شاركت الفئات على اختلافها من عرب ويهود وموالٍ في أحداث السيرة النبوية من دون استثناء.

كما انتشرت النصرانية بين بعض القبائل العربية، وكانت نجران من أهم مراكزها في بلاد العرب.[2]

---

(١) صابر طعيمة، **التاريخ اليهودي العام**، ج ٢/ ١٤.

(٢) راجع: محمد بن عوض العتيبي، **نجران في عصر النبوة والخلافة الراشدة**، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ والحضارة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، للعام الجامعي ١٤٣٠هـ، غير منشورة.

كانت النصرانية بين العرب، كغيرهم، قد تعرّضت للتحريف وتحوّلت إلى وثنية، يعبدون فيها عيسى بن مريم ويقدسون قُسُسَهم ورهبانهم ويقدّمون أوامرهم على أوامر الله.

وقد عرُف نصارى العرب بشيء من العلم والثقافة أكثر من غيرهم من المجموعات وتبادلوا ثقافتهم مع الروم وعرب الشام والعراق وخصوصاً المناذرة والغساسنة.[١]

الحياة الاجتماعية:

وتتأثر كثيراً بالحياة الدينية والمعتقدات السائدة، وقد ساد بين العرب دون استثناء شرب الخمر ولعب الميسر وأكل الربا، كما كان الرجال لا يتورعون عن الزنا، الذي كانت الحرائر تكرهه.[٢]

كانوا يكرهون البنات ولا يوِّرثونهن[٣] كما كانوا يعددون الزوجات بلا حدود بل وبعض النساء يعدِّد الأزواج.[٤]

---

(١) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ٣/ ١٥٥، ٣٨٧.

(٢) راجع: محمود شكري الألوسي، **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب**، ج٢/ ٤.

(٣) ابن كثير، **تفسير**، ج ١/ ١١١٦.

(٤) انظر: جواد علي **المفصل**، ج٥/ ٥٣٩. وانظر: حديث عائشة عند **البخاري**، في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ج ٦/ ١٣٢.

كما كان بعضهم يتزوج امرأة أبيه غصباً عنها وكانوا يجمعون بين الأختين.[1]

وقد وجدت بعض الأخلاق والعادات الحسنة والخصال عند العرب في الجاهلية، منها إكرام الضيف والشجاعة والفروسية وقوة البديهة والذكاء وحب الحرية.[2]

أما في مجال اللغة فكانت العربية في أوج قوتها وفصاحتها وبلاغتها مع اختلاف محدود في اللهجات.[3]

وكانوا على جانب قويّ من البيان والبلاغة.

ومن ذلك جاءت معجزة رسول الله ﷺ في كتاب الله، متحدية لهم في أقوى جانب عندهم، كما كانت بلاغة رسول الله ﷺ في حديثه أروع البلاغة، عجزوا عن مجاراتها أو الإتيان بمثلها، ناهيك عن استحالة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو حتى «بعشر سورٍ مثله مفتريات» كما جاء في قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

---

(١) انظر: **ابن كثير تفسيره**، ج١ / ٤٥٣؛ جواد علي، **المفصل**، ج ٥/ ٥٢٩.

(٢) انظر: جواد علي، **المفصل**، ج ٥/ ٤٠٢؛ محمود شكري الألوسي، **بلوغ المرام**، ج١/ ٤٦.

(٣) شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي**، ص ١٢٣.

أحوال العالم الدينية في العصر الجاهلي

لا شك أن العالم كبير وواسع ويصعب الإحاطة به على وجه العموم، وبالدرجة الأولى يمكن الحديث عن المناطق المتاخمة لبلاد العرب والتي أثرت وتأثرت في عصر السيرة النبوية، وقد أوضح القرآن الكريم وبإيجاز الأوضاع العامة للعالم في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وفي الناحية الدينية، وهي الأساس المتحكّم غالباً في تصرفات الناس، كانت الديانتان السماويتان اليهودية والنصرانية، ذواتا علم وكتاب وتراث.

اليهودية:

ديانة حملها أتباع موسى عليه السلام من ذرية يعقوب ــ إسرائيل ــ حيث أنزلت عليه التوراة، وكانوا على التوحيد وُجِد فيهم أنبياء في أوقات متفرقة، وقد حرّفوا التوراة وقتلوا أنبياءهم بغير

حق، وخالفوا وصيّة أنبيائهم، سيِّئو الأدب مع الله، اشتهروا بأنهم أهل كتاب، حيث لديهم التوراة والأسفار المختلفة، أقرب إلى الحق من الوثنيين، ومع ذلك نالوا غضب الله بسوء أدبهم معه.

كما أنهم قدّسوا أحبارهم وقدّموا أقوالهم على الله وأوامره. كما حرّفوا التوراة عمداً.

ومع ذلك فقد كانوا يزعمون انتظار نبيٍ آخر الزمان ليتبعوه ويعرفوا الحق الذي بعث به محمد ﷺ.

النصرانية:

ديانة أتباع عيسى عليه السلام، من أكثر الديانات انتشاراً في العصر الحاضر، وهم فرق متعددة، كانت سائدة في الشام والعراق ومصر والحبشة وأوروبا الجنوبية والشرقية، ومدعومة بقوة الروم السياسية والعسكرية والمالية.(١)

وأدّى دخول الروم فيها إلى توثينها وإدخال الشِّرك فيها منذ القرن الرابع الميلادي على يد [قسطنطين الأكبر]، حيث خرجت عن التوحيد وبدأت بـتأليه المسيح وأصبح من لا يعبد المسيح يعدّ خارجاً على العقيدة الرسمية للكنيسة، وقوتها السياسية دولة الروم وخدمها من غساسنة العرب أو ملوك الحبشة. ودخل

(١) انظر: فاروق الدملوجي، **تاريخ الأديان**، ص ٥٨٣.

الصراع بين النصارى في تفصيلات مختلفة حول طبيعة المسيح، وأخذ يكفر بعضهم بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً، فوقع الصدام بين نصارى الروم ونصارى مصر وقام العداء بينهم.[١]

وكان نصارى العرب في الجاهلية غالباً من اليعاقبة[٢] كما كان جزء من نصارى فارس والعرب، وخصوصاً في العراق، نساطرة،[٣] ويختلفون عن نصارى الروم.

وجملة القول في كل أتباع النصرانية في العصر الجاهلي أنهم دخلوا الوثنية من أوسع أبوابها قبل بعثة النبي ﷺ.

المجوسية:

تقوم على عبادة النار بالدرجة الأولى، إضافة إلى بعض مظاهر الطبيعة كالكواكب والشمس وغيرها،[٤] كانت لهم معابدهم الخاصة المنتشرة في إيران وسائر بلاد فارس، حيث تقف معها دولة الفرس وتحميها وتنشرها في كل أنحاء الإمبراطورية الفارسية وما يخضع لها، وقد دخلت بلادَ العرب وانتشرت بالدرجة الأولى في منطقة البحرين شرقي الجزيرة

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر: أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٢٦.

(٢) انظر: **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، **الندوة العالمية للشباب الإسلامي**، الرياض، ص ٥٠٣.

(٣) انظر: **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، ص ٥٠٢.

(٤) أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٢٦.

العربية، حيث وجد جماعة من الفرس أثرت على السكان المحليين، وانتشرت معابدها وما يتبعها من أساطير وكهان.

وكانت الزرادشتية ديانة سابقة للمجوسية قيل إن المجوسية تطورت عنها.[١]

البوذية:

ديانة وثنية تعتمد على عبادة الأصنام وتقيم لذلك الهياكل والمعابد ويخدمها الكهنة والسحرة والمشعوذون،[٢] وكانت تنتشر في الهند وما وراءها من جنوب وشرق آسيا إلى الصين.

وتقوم هذه الديانة في زعمهم على تعدد الآلهة والصراع، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقد صاحبها في موطنها الديانة الهندوسية، التي أغرقت في زعم تعدد الآلهة وكثرتها.[٣]

ومع أن الوثنية العربية وعبادة الأصنام سائدة في شتى أصقاع بلاد العرب، وخصوصاً في مكة المكرمة، إلا أن البعد الفلسفي لم يكن بعمق الوثنيات الأخرى، فلم تكن لدى العرب ثقافة مكتوبة حول آلهتهم المزعومة وإنما كان في غالبه تقليداً أعمى

---

(١) مهدي رزق الله. **صفوة السيرة النبوية**، ص ٥١.

(٢) أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٢٧.

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٢٨.

وزعم بأنها تقرِّب إلى الله. قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وكانوا ينكرون البعث، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

الحالة السياسية في العصر الجاهلي

من المعلوم لكل ذي عقل، أن الرسول ﷺ جاء بدين التوحيد وإخلاص العبادة لله، وأنه أقام دولة، أسس لها نظاماً ساسها بالشرع والدين، وأقامها بالعدل حتى صارت في آخر حياته ذات كيان قوي، تمكنت بعد وفاته ﷺ أن تسقط الدول المجاورة لها وتضعف بعضها، وتسيطر على مناطق شاسعة منها، لتنشر التوحيد وتحيي الناس على عبادة خالقهم، بعد أن سرقهم الطغاة وأضلّوهم، وبالتالي فلابد من إلمامة سريعة بالوضع السياسي لبلاد العرب وما جاورها، قبيل مبعث رسول الله ﷺ.

أحوال العرب السياسية:

لم يكن هناك نظام واضح محدد في الجزيرة العربية، وخصوصاً في وسطها، ولم تكن هناك دولة يشار لها، حيث سادت الأنظمة والأعراف القبلية، ومع ذلك فقد عرف في وسطها وجود مملكة لبني حنيفة، وإن كانت إسمية لا يتضح

لها نظام وقد كتب رسول الله ﷺ لملكها هوذة بن علي الحنفي.[1]

كما عُرفت مملكة في البحرين غير واضحة المعالم أيضاً والأرجح أنها خاضعة للفرس ونفوذهم إلى حد كبير،[2] وقد كتب الرسول ﷺ لملكها في حينه [المنذر بن ساوي العبدي]،[3] الذي أسلم وأسلم معه جمعٌ من العرب والفرس من أهل البحرين.[4]

ولا يمكننا ــ في هذا النطاق ــ معالجة حال بلاد العرب السياسية أو نظمها الإدارية دون أن نفرق بين ممالك كانت قائمة ـ كما في اليمن ــ وبين مدن ذات طابع سياسي أقل تنظيماً وإدارة كما في مكة والمدينة قبيل الإسلام.

الأعراب:

توجد في بلاد العرب الكثير من القبائل المنتشرة، وكانت كل قبيلة تنقسم إلى أفخاذ وبطون عدة يجمعها رابط أساس هو رابط الدم والقرابة بالدرجة الأولى، ويفرقها هذا الرابط أيضاً.

---

(١) انظر: كتب الرسول ﷺ لملوك العالم (كتابه لهوذة بن علي الحنفي) ضمن هذا الكتاب.

(٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٨٩.

(٣) انظر كتب الرسول ﷺ لملوك العالم (كتابه للمنذر بن ساوي العبدي) ضمن هذا الكتاب.

(٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٨٩ ـ ٩٠.

وكانت كل قبيلة تدير شؤونها بنفسها، وتحل مشكلاتها عن طريق زعماء القبيلة وحكامها، وهذه القبائل في العادة ترفض الخضوع لتنظيم سياسي معين، إلا أنه يوجد في كل قبيلة زعيم معيَّن تهبّ إليه عند الحاجة، فيتشاورون فيما بينهم، ويتخذون قراراً جماعياً في مجلس ذلك الشيخ،[1] ومع ذلك فإنه لم تكن هناك جهات رسمية تنفيذية تقوم بأعباء الإدارة والتنظيم ومتابعة الأوامر، وفي حال تعرض القبيلة لهجوم معاد من إحدى القبائل الأخرى، كعادة العرب في العصر الجاهلي، فإن القبيلة بكاملها تهبّ للدفاع عن نفسها وتستعد استعداداً كاملاً لمثل هذه الأمور، ولا يمكن أن نلمس نظاماً سياسياً معيناً لدى هذه القبائل يمكن أن يوجه دفة الأمور بدقة في شؤون القبيلة.

وقد جرت في الجزيرة العربية محاولات عدة في بعض القبائل لإقامة مملكة أو نظام ملكي، عن طريق تتويج أحد أفراد القبيلة ملكاً، إلا أن معظم هذه المحاولات لم تنجح.[2]

مكة والمدينة:

لا بد لنا من الإلمام بما كانت عليه الأحوال السياسية في

---

(١) د. صالح أحمد العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، الجزء الأول «الدولة العربية قبل الإسلام» ١٩٦٠م، بدون مكان الطبع، ج ١/ ١٥٨.
د. صبحي الصالح، **النظم الإسلامية نشأتها وتطورها**، ط ٥، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٥٠.

(٢) د. صالح أحمد العلي، **المرجع السابق**، ج ١/ ١٦٠.

مكة والمدينة قبيل الإسلام، وكان هناك تأثير لهذه الأحوال على بعض تطبيقات النظم الإسلامية فيما بعد، خصوصاً أن مكة والمدينة أرض الإسلام الأولى.

كانت تعيش في مكة وما حولها قبيل الإسلام بعض القبائل أهمها قريش.[1] ومكة منذ القدم مقدسة لدى العرب عموماً، يفد إليها الحجاج منهم، كما أن أهل مكة كانوا تجاراً حاذقين ينتقلون للتجارة بين اليمن والحجاز والشام والعراق وغيرها، فيما عرف برحلة الشتاء والصيف، التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [قريش: ٢].

وهم بذلك يكتسبون خبرات سياسية واجتماعية تميزهم، رغم أن الطابع العام في مكة كان يشبه النظام القبلي، حيث لا توجد حكومة مركزية معينة مسؤولة عن إدارة البلد وتنظيمها، وهناك ما يعرف بـ(دار الندوة) يجتمع فيها كبار القوم من قريش يتباحثون فيها حول أهم شؤونهم الحربية والاجتماعية والتجارية،[2] كما أن هناك اجتماعات أخرى جانبية تناقش فيها هذه الأمور تعقد في الغالب في حلقات حول الكعبة،[3] وحال

---

(١) المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ترتيب وضبط يوسف أسعد داغر، ط ٢، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٣ - ١٣٩٣هـ، ج ٢/ ٣٣.

(٢) جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ٤/ ٤٤.

(٣) مولوي. س. أ. حسيني: **الإدارة العربية**، ص ٢٨.

الحرب يعطون الراية إلى شخص أو أشخاص معينين، كما كان هناك قواد مختصون بقيادة القوافل التجارية، أما ما عدا ذلك فلا نكاد نلمس نظاماً سياسياً معيناً يدير شؤون البلد إدارة كاملة، كما في بعض الممالك المجاورة لبلاد العرب، بل على العكس نرى أهل مكة يرفضون أن يملِّكوا عليهم رجلاً منهم أرسله (قيصر الروم) ويتهكمون به.[١]

ولعل ذلك مما ساعد على وجود الظلم والفساد في المجتمع المكي.[٢]

أما في المدينة المنورة، فكان الوضع مختلفاً عن مكة إلى حد ما، حيث كان يسكن المدينة خليط من العرب من الأوس والخزرج وجماعات مختلفة من اليهود[٣] وقد كان لهذا التنوع في السكان دور كبير في اضطراب الأمور فيها، وقيام الحروب بين الأوس والخزرج بين الحين والآخر[٤] بتذكية من يهود المدينة.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٤٤، حاشية (٢)؛ وابن حبيب، **المنمق في أخبار قريش**، ص ١٥٤؛ والزبيري، **نسب قريش**، ص ٢١٠.
شلبي، روؤف: **المجتمع العربي قبل الإسلام**، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص١٣٧.

(٢) محمود شاكر، **السيرة النبوية**، ص ٣٣.

(٣) جواد علي، **المفصل**، ج ٤/ ١٣١؛ محمد العيد الخطراوي، **المدينة في العصر الجاهلي**، ص٥٥، ٦٨.

(٤) جواد علي، **المفصل**، ج ٤/ ١٣٨؛ صبحي الصالح، **النظم الإسلامية**، ص ٤٨؛ محمد العيد الخطراوي، **المدينة في العصر الجاهلي**، ص ١٤٦.

أما يهود المدينة أنفسهم فكان لديهم شيء من التنظيم الداخلي فيما بينهم، يدل على ذلك انتشار حصونهم وتنظيمها، ووجود زعماء يتحدثون باسمهم.

وبالنسبة للعرب في المدينة من الأوس والخزرج، فقد كانوا في الغالب يعتمدون على التنظيم القبلي السائد عند الأعراب في البوادي، رغم أنهم سكان مدن وقرى إلا أنهم تنظيمياً يصطبغون بالصبغة القبلية، وبذلك سَهُل على اليهود السيطرة عليهم،[1] وإيقاع المشاكلات بينهم، واستمر الوضع في المدينة دون إدارة أو تنظيم مسؤول عن شؤون البلد ومصالحها المختلفة حتى ظهور الإسلام.

كما كانت مملكة المناذرة قائمة قبيل الإسلام في مدينة الحيرة في العراق في المناطق المجاورة للفرات، يسكنها العرب إضافة إلى بعض الفرس والأنباط،[2] إلا أن السيطرة فيها كانت للمناذرة وملوكهم، وكانوا يخضعون لكسرى فارس خضوعاً تاماً.

وجدت مملكة الغساسنة في الشام قبل الإسلام بفترة طويلة،[3] وقد تردد اسم هذه المملكة العربية كثيراً في

---

(١) د. محمد عمارة، **الإسلام وفلسفة الحكم**، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٥٠.

(٢) جورجي زيدان، **العرب قبل الإسلام**، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس، دار الهلال القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٢٤.
د. صالح أحمد العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، ج ١/ ٧٤.

(٣) محمد أحمد باشميل، **العرب في الشام قبل الإسلام**، الطبعة الأولى، دار الفكر بيروت، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، ص ١٨٦.

المصادر، نظراً لارتباطها الشديد بالأحداث العظيمة التي صاحبت الفتح الإسلامي في بلاد الشام، حيث إن ارتباط هذه المملكة بالروم جعل الروم يدفعون بهم عدة مرات لمواجهة الجيش الإسلامي الفاتح في معارك عديدة، منفردين أو مشاركين للروم بحكم ديانتهم في تلك المعارك، كاليرموك وغيرها.

وقامت في اليمن في الجاهلية ممالك عربية اشتهرت بقوتها وتعددت ملوكها، إلا أن الأحوال في اليمن قبيل الإسلام قد تغيرت، إذ استولى عليها الأحباش بتحريك من الروم، ونازعوا أهل البلاد من العرب، إضافة إلى الفرس ومن ينوب عنهم.

وفي فارس: قامت فيها دولة قوية منذ القدم مرت بمراحل حضارية متطورة في تلك الأيام، إلا أن ما يهمنا معرفته عن مملكة فارس هو السنوات الأخيرة التي سبقت احتكاك هذه الدولة بالإسلام.

نظام الحكم في فارس قام على تنظيم ملكي استبدادي طبقي يميز بين الناس.

وللـــروم:[1] دولة حكمت مصر والشام وشمال إفريقيا وشرق ووسط أوروبا كانت ولايات تابعة لإمبراطورية الروم، ومركزها القسطنطينية، وقد كان المسيطر الفعلي على الحكم في

(١) سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم الروم، وأشارت إلى الحروب الدائرة بينهم وبين أعدائهم من الفرس.

هذه المملكة هو الإمبراطور نفسه الذي كان له الحق في اتخاذ القرارات، يساعده في عمله لجنة فرعية تعمل معه،[1] وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٣]، والديانة العامة للدولة هي (النصرانية) حيث كان لرجال الدين مكانة خاصة في الدولة.

(١) ستيفن رنسيمان، **الحضارة البيزنطية**، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٨.

العالم وانتظار الرسول

كان إبراهيم عليه السلام وأبناؤه من بعده موحِّدين، ودعا الله سبحانه وتعالى أن يجدد التوحيد في بنيه، وفي ساكني البيت الحرام، فكانت دعوته في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

اليهود:

أقام اليهود في المدينة وخيبر انتظاراً لمبعث الرسول صلى الله عليه وسلم[1] فلما ظهر من غيرهم كفروا به. وقد أشارت الآيات إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٤٣. وانظر: **الطبري، تفسيره** للآية.

وجاءت أخبار كثيرة عن يهود وعلمائهم زمن النبي ﷺ تبين معرفتهم التامة بصفاته.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

كما أكد سبحانه وتعالى معرفتهم للنبي ﷺ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقد كان المعاندون له يعرفون حقاً أنه نبيّ، وعلى رأسهم [حُيَيّ بن أخطب] وغيره من زعماء يهود المدينة الذين عرفوا أنه صادق وأنه نبي هذا الزمان واتخذوا العداء موقفاً.[1]

وقد بقيت حتى الآن إشارات في التوراة إلى بيت الله وبعث محمد واتّباعه فيه في المزامير (٨٤: ٥ ــ ٧٦):

«طوبى لأناس عزهم بكه، طِف بيتك في قلوبه عابرين في وادي البكيين يعبرونه ينبوعاً».

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/ ٢٢٠.

والنص كما يظهر يشير إلى مكة والبيت الحرام والطواف به.

"Blessed is the man whose strength is in thee in whose Heart are: the ways of them passing through the valley of (Baca) make it well"

(Psalms 89 -5-76)[1]

وقد دلت نصوص في التوراة، الطبعة العربية وغيرها مما بقى فيها من الحق، على وجود نبي من بني إسماعيل، ففي سفر التكوين (١٧ــ٢٠) ما نصه:

«وأما إسماعيل فسمعت وها أنا أباركه وأنميه وأكثره جداً ويلد اثني عشر رئيساً وأجعل نسله أمة عظيمة».[٢]

وفي سفر التثنية (١٨ــ ١٥) «يقيم لكم الرب إلهكم نبياً من بينكم من إخوتكم بني قومكم فاسمعوا له. . . . . سأقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك، وألقي كلامي في فمه فينقل لكم إليهم جميع ما أكلمه به. وكل من لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أحاسبه عليه»[٣] والمقصود من ذرية اسماعيل، فهم أخو

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٥٣، نقلاًعن Jewish Encyclopedia. Y. 11 P. 415..

(٢) انظر: ص ١٩، **الكتاب المقدس، العهد القديم**.

(٣) انظر: ص ٢٣٧، **الكتاب المقدس**؛ وانظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٥٤؛ وقد قارنت ما نقله الندوي بنصوص العهد القديم فوجدت تفاوتاً في بعض الألفاظ مما يوحي بإختلاف كل طبعة عن الأخرى، حسب الترجمة أو الهوى. .

إسحاق، واليهود يعترفون إنهم يحملون كتاباً محرَّفاً وإنهم يقومون بتعديله كما يزعمون بحكمتهم ولباقتهم.[1]

كما ورد في أسفار اليهود: «وسوف أزلزل كل الأمم وسوف يأتي (حمده) لكل الأمم وسوف أملأ هذا البيت بالمجد كذلك قال رب الجموع» ـ (سفر حجي ٩/ ـ٧ ـ٩)[2].

النصارى:

كانت لهم السيطرة في مصر والشام وعامة بلاد الروم، وانتشرت بين العرب خصوصاً في شمال الجزيرة العربية تميم وقضاعة وغيرها، وفي نجران مركز النصرانية جنوب الجزيرة العربية، وقد دلّ القرآن الكريم على أن عيسى عليه السلام حدث أتباعه عن محمد ﷺ فطلب منهم أتباعه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].[3]

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٥٥ نقلاً عن Jewish Encyclopedia. Vol. 9P. 589.

(٢) انظر النصوص كاملة عند عبد الأحد داود في: **محمد ﷺ كما ورد في كتابات اليهود**، وقد أشار إلى وجود الاسم حمده: ويعني محمد في النسخ وحرفت إلى (الأمُنية) في بعض النسخ الجديدة، ص ٣٧.

(٣) انظر: مهدي رزق الله، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، ج ١/ ١٣٢.

ومن المعروف في قصة إسلام سلمان الفارسي التي رواها البخاري في صحيحه أن سلمان رضي الله عنه قد أخبره أحد علماء النصارى في الشام بقرب مبعث نبي آخر الزمان، وأوصاه باتباعه، وأنه رضي الله عنه أُسترق حتى صار عبداً ليهودي في المدينة، ولما سمع كلام النبي ﷺ ورأى علامة النبوة التي أخبره بها علماء النصارى آمن بالرسول ﷺ واتبعه.

وقد عمل عدد ممن اهتدى من النصارى في العصر الحديث في البحث عن ما ذكر عن محمد ﷺ، من كتب النصارى، وكان معهم القس المصري سابقاً [إبراهيم خليل أحمد] الذي نشر كتاباً بعنوان «**محمد في التوراة والإنجيل**»، واعتمد فيه على الكتاب المقدس بجزءَيْه العهد القديم والعهد الجديد، ومما قال: «يحتوي الكتاب المقدس على نصوص شديدة الوضوح حول رسالة وشخصية الرسول الأمي ﷺ وضوحاً بيِّناً لا لبس فيه».[1]

ويمكن الاستدلال بالآيات الواردة عن أهل الكتاب في اليهود كما في النصارى، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ١٤٦].

وقد كتب عبد الأحد داود المسمّى [ديفيد بنجامين

(١) إبراهيم خليل أحمد، **محمد في التوراة والإنجيل**، دار المنار، ١٤٠٩هـ، ص ٣٠.

كلداني]، وكان قسيساً نصرانياً فأسلم، كتاباً حول الموضوع بعنوان: «**محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى**.»[1]

وقد كتب عدد من المسلمين عن الموضوع منهم المرحوم الشيخ أحمد ديدات في كتابه: «**ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ**»، وقد نشرت منه ملايين النسخ باللغتين الانجليزية والعربية،[2] ومن النصوص الباقية إلى الآن ما ورد في إنجيل يوحنا (٥: ١٦): «فأنا ذاهب إلى الذي أرسلني، ولا أحد منكم يسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ والآن قلت لكم، فملأ الحزن قلوبكم صدقوني، من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزي».

وكذلك ما ورد في إنجيل متى (٢١: ٤٢ و ٤٣، ٤٤): «أما قرأتم في الكتب المقدسة: الحجر الذي رفضه البنّاءون صار رأس الزاوية؟ هذا ما صنعه الرب، فيا للعجب!.

لذلك أقول لكم: سيأخذ الله ملكوته منكم ويسلمه إلى

---

(١) البروفسور عبدالأحد داود، **محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى**، ترجمة حمد فاروق الزين، ط ١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ.

(٢) **ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد**، كتيب نشر باللغة الإنجليزية عشرات المرات وترجمه إبراهيم خليل أحمد إلى اللغة العربية، ويمكن لأي شخص أن يجد نص الكتاب ويحمله من مواقع الإنترنت حيث يوجد في الكثير من المواقع العربية والإنجليزية (www.4shared.com).

شعب يجعله يثمر، من وقع على هذا الحجر تهشم. ومن وقع هذا الحجر عليه سحقه».

وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي كَمثلِ رجلٍ بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنةٍ من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاّ وضعت هذه اللبنة فقال أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».[1]

ورد في إنجيل يوحنا (١٦: ٧ و ٨) «صدقوني، من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزي. أمَّا إذا ذهبت فأرسله إليكم. ومتى جاء وبخَ العالم على الخطيئة والبر والدينونة»، وقد ورد في نسخة أخرى من إنجيل متى: «قلت لكم حتى متى جاء وقت حدوثه تذكرت أنه سبق أن أخبرتكم به. ولم أقل لكم هذا منذ البداية لأني كنت معكم أما الآن عائد إلى الذي أرسلني ولا أحد منكم يسألني أين تذهب؟ عندما أخبرتكم بهذا ملأ الحزن قلوبكم، ولكني أقول لكم الحق، من الأفضل أن أذهب لأني إن كنت لا أذهب لا يأتيكم المعين».[2]

ومن الغريب أن الكتاب الذي راجعته كتاب تفسير للأناجيل

---

(١) رواه **البخاري في صحيحه، كتاب المناقب**، باب: ١٨.

(٢) النص في «**التفسير التطبيقي للكتاب المقدس**»، شرح إنجيل يوحنا (١٦: ٦. ٧)، ص٢٢٩٦، ٢٢٩٧.

وللعهد القديم لما جاء عند النص المذكور تجاوزه ولم يفسر المُعين المذكور في النص وتجاهله وتحدث عن موضوع آخر وهو موت المسيح للتكفير وليمحو خطايا الناس.[١]

وتؤكد الأبحاث أن اللفظة الأصلية في إنجيل يوحنا كانت (Periglytos) أي أحمد أو محمد وأنها حرفت عمداً في اللاتينية إلى (Paracletc) المعزي لإبعاد الناس عمداً عن أحمد الأصلية في الإنجيل وصرفهم عن الحقيقة،[٢] كما ورد في النص: «فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل يتكلم مما يسمع ويخبركم بما سيحدث سيمجدني لأنه يأخذ كلامي ويقوله لكم»[٣] (يوحنا ١٦ : ١٣).

---

(١) انظر: ص ٢٢٩٦، من التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، وللمزيد من التوضيح حول هذا النص وغيره راجع عبدالأحد داود، في كتابه **محمد ﷺ كما وراد في كتب اليهود والنصارى**، ص٢٣.

(٢) عبدالأحد داود، ص ١٤٢.
وقد أورد عبد الوهاب النجار في كتابه **قصص الأنبياء** أنه في سنة ١٨٩٤م ناقش المستشرق الإيطالي كارلو نيلنو الفونسو، ت: ١٩٣٨م ـ عن معنى بيريكليتوس فأجاب أن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها المعزي. فقلت: أنا أسأل الدكتور كارلو نيلنو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً؟. فقال: معناه (الذي له حمد كثير). فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال: نعم. فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد. فقال: يا أخي أنت تحفظ كثيراً، ثم افترقنا وقد ازددت بذلك تثبتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح: [ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد].
انظر: النجار، **قصص الأنبياء**، القاهرة، دار التراث، (د. ت)، ص٤٧٣.

(٣) **الكتاب المقدس، العهد الجديد**، ص ١٦٩.

ولعل هذا مما يوافق قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: ٤]

وفي الإنجيل ما يوافق الحديث عن بعثة النبي ﷺ، ومما ورد في إنجيل يوحنا (١٥: ٢٥): «ومتى جاء المعزي الذي أرسله إليكم من الأب، روح الحق المنبثق من الأب، فهو يشهد لي، وأنتم أيضاً ستشهدون، لأنكم من البدء معي»، وكذلك في يوحنا (١٦: ١٣): «فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما سيحدث».

وقد أكد القرآن الكريم أن صفة الرسول ﷺ وأصحابه ممثلة في التوراة والإنجيل معروفة لدى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذلك في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [سورة الفتح: ٢٩].

ومن النصوص الثابتة في سفر أشعيا (٢١: ١٣) عنوان: «على العرب» وفيه: «بيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدادانيين، هاتوا ماء للعطشان يا سكان تيما، استقبلوا الهارب

الجائع بالخبز، هم هاربون من أمام السيوف، من أمام السيف المسلول والقوس المشدودة وويلات الحرب». [1]

ولعلّ هذا النص يشير إلى الوحي الذي نزل على النبي العربي الأمين محمد ﷺ. والأمر ـ في نظري ـ هذا محل اجتهاد، فيه إشارة إلى هروب اليهود من بلاد العرب أمام سيف النبي ﷺ وسيوف أصحابه من بعده، إشارة إلى سقوطهم وخروجهم بعد ذلك من خيبر زمن عمر رضي الله عنه باتجاه الشام مروراً بتيماء، [2] قبيل الفتح الإسلامي، زمن السيف المسلول والقوس المشدودة، زمن (الفتح الإسلامي). وهذا استشعار للنصّ قد يكون محل نظر. والله أعلم.

وكذلك يمكن استشعار الحديث عن سيطرة المسلمين على بيت المقدس زمن عمر بن الخطاب، ولعلّ من ذلك ما ورد في إنجيل متى (٢١: ٥): «قولوا لابنة صهيون هو ذا مليكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان و جحش بن أتان»، ومن المعروف من زعماء النصرانية فيها أن عمر كان متواضعاً راكباً على حماره، وقد ذكر علماؤهم في حينها أنهم يجدون صفته في كتبهم [3] فلعل هذا ما يشير إليه النص السابق، ــ وهذا اجتهاد مني ــ.

---

(١) **الكتاب المقدس**، ص ٤٨٥.

(٢) انظر: موضوع فتح خيبر من هذا الكتاب؛ والبلاذري، **فتوح البلدان**، ص٤٨.

(٣) انظر: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٤٥؛ والطبري، تاريخه، ج ٤/ ١٥٩.

وقد لاحظت أن بعض من حللوا النص، ومنهم عبد الأحد داود، لم يتطرقوا إلى ربطه بفتح بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.[1] بل ربما بعضهم ربطه بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة شمالاً، وهذا اجتهاد مَحلّ نظر في تصوري.

ولاشك على الإطلاق بورود شيء من الحديث عن فتح المسلمين للبلاد في الكتب السابقة عند اليهود والنصارى، ولعل ما يصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، والزبور من الكتب السابقة للنبي ﷺ نزل على داوود وتلاه يهود.

وورد في سفر أشعياً.

عبد الرب «سفر أشعياً» (٤٢: ١ ــ ٨):

«ها عبدي الذي أسانده، والذي اخترته ورضيت به! جعلت روحي عليه، فيأتي للأمم بالعدل، لا يصيح ولا يرفع صوته، ولا يسمع في الشارع صراخه، قصبة مرضوضة لا يكسر وشعلة خامدة لا يطفئ، بأمانة يقضي بالعدل، لا يلوي ولا ينكسر، حتى يقيم العدل في الأرض، فشريعته رجاء الشعوب، هذا ما قال الرب خالق السماوات وناشرها باسط الأرض مع خيراتها، وواهب شعبها نسمة الحياة روحاً للسائرين فيها.

---

(١) عبد الأحد داوود، **محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى**، ص٨٩، ٩٠.

«أنا الرب دعوتك في صدق وأخذت بيدك وحفظتك. جعلتك عهداً للشعوب ونوراً لهداية الأمم، فتفتح العيون العمياء، وتخرج الأسرى من السجون والجالسين في الظلمة من الحبوس أنا الرب، وهذا أسمي».

وقد ورد هذا النص في إنجيل متى (١٢: ١٨) منسوباً إلى النبي أشعيا، وحاولوا ربط الصفات الواردة بالمسيح عليه السلام.[١]

ولعلّ فيها إشارات كثيرة لما ورد عن النبي ﷺ في القرآن من أنه المصطفى والسراج المنير.

وقد ورد نصّ في أسفار اليهود سفر التثنية (٣٣). جاء فيه: «وهذه هي البركة التي بارك فيها موسى رجل الله بني إسرائيل قبيل موته فقال: «أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من جبل سعير وتجلى من فاران»، والنص لا يزال في العهد القديم المتداول وفاران هي منطقة مكة المكرمة،[٢] حيث نزل الوحي على رسول الله ﷺ، ولعل هذا النص مع ما فيه من تحريف يمكن حين قراءته تذكر ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [سورة التين: ١ـ ٣]،

---

(١) انظر: **الكتاب المقدس، إنجيل متى** بعنوان: «الله المختار» (١٢: ١٨)، ص ٢١.

(٢) انظر: الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤/ ٢٢٥؛ وانظر: **موسوعة ويكيبيديا العالمية الالكترونية**، التي وصفت فاران بأنه جبل حراء بمكة المكرمة، (www.ar.wikipedoa.com).

وفي سفر التكوين(٢١: ٨ ــ٢٠) ما يؤكد على أن فاران هي موطن هاجر وابنها إسماعيل بعد أن أخذهما إبراهيم إلى صحراء فاران. وفي النصّ إشارة إلى بئر زمزم وشرب هاجر وطفلها منه.

طرد هاجر وإسماعيل (٢١: ٨-٢١):

«وكبر الصبي وفطم، وأقام إبراهيم وليمة عظيمة في يوم فطام إسحق، ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يلعب مع ابنها إسحق، فقالت لإبراهيم: «أطرد هذه الجارية وابنها! فابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق». وساء إبراهيم هذا الكلام، لأن إسماعيل، كان أيضاً ابنه. فقال له الله: «لا يسوؤك هذا الكلام على الصبي وعلى جاريتك. اسمع لكل ما تقوله لك سارة، لأن بإسحق يكون لك نسل. وابن الجارية أيضاً أجعله أمّةً لأنه من صلبك».

فبكر إبراهيم في الغد وأخذ خبزاً وقربة ماءٍ، فأعطاهما لهاجر ووضع الصبي على كتفها وصرفها، فمضت تهيم على وجهها في صحراء بئر سبع. ونفد الماء من القربة، فألقت هاجر الصبي تحت إحدى الأشجار ومضت فجلست قبالته على بعد رميتي قوس وهي تقول في نفسها: «لا أريد أن أرى الولد يموت». وفيما هي جالسة رفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الصبي، فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: «ما لك يا هاجر؟ لا تخافي. سمع الله صوت الصبي حيث هو.

قومي احملي الصبي وخذي بيده، فسأجعله أمة عظيمة»، وفتح الله بصيرتها فرأت بئر ماء، فمضت إلى البئر وملأت القربة ماء وسقت الصبي».

وكان الله مع الصبي حتى كبر، فأقام بالصحراء، كان رامياً بالقوس. وحين أقام بصحراء فَارَان، زوجته أمه بامرأة من أرض مصر.

ولاشك أن هذا النص تعرض لتحريفات كثيرة، ومع ذلك بقيت إشارات تصدق ما ورد عن إسماعيل ونبع الماء له في فاران (مكة) وتؤكد ما ذكره الرسول عن إسماعيل في قوله: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً».(١)

ومن المؤكد أنه لم يُعرف إدعاءٌ بنبوة لأي إنسان في فاران منطقة مكة في أي زمن بعد عيسى عليه السلام، بل إن الله حمى هذا المكان من ظهور أي مدِّعٍ للنبوة، فمع ظهور متنبئين بعد الرسول في اليمن ونجد واليمامة، فإنه لم يظهر أي مدِّعٍ للنبوة في مكة لا قبل الرسول ﷺ ولا بعده، وهذا من حماية الله له.

وقد ورد في سفر حبقوق (٣ ــ ٦)، وهو من أسفار العهد القديم (التوراة) ما نصه: «الله يجيء من تيمان، القدّوس من جبل فاران، غطى جلاله السماوات وامتلأت الأرض من التهلّل

(١) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب الجهاد والسير**، باب التحريض على الرمي، ج٣/ ٢٢٧.

له. يجيء كلمعان البرق ومن يده يسطع النور وفيها تستتر عزته. قدام وجهه يسير الوباء ووراء قدميه الموت، يقف فتهتز الأرض، وينظر فترتعد الأمم تتحطم جبال الدهر، وتنخسف تلال الأزل، حيث سار في قديم الزمان». [١]

وقد تحدث كثير من المصادر عن تغيير أصاب هذا السِّفْر في طبعاته الأخيرة، وأنه اختُزل في أصله المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٤م على نص جاء فيه: «وامتلأت الأرض من تحميد أحمد ملك بيمينه رقاب الأمم». وفي النسخة المطبوعة في لندن ١٨٤٨م، ونسخة بيروت ١٨٨٤م: «لقد أضاءت السماء من بهاء محمد وامتلأت الأرض من حمد زجرك في الأنهار، واحتدام صوتك في البحار، يا محمد أُدْنُ لقد رأتك الجبال فارتاعت». [٢] لعل في هذا تصديقاً لقوله ﷺ: (نُصِرتُ بالرعب مسيرة عام). [٣]

كما ورد في إنجيل متى (١١: ١٤) بشارة من عيسى بالقادم من بعده في قوله: «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي».

---

(١) ص ١١٧٤ من **العهد القديم**.

(٢) انظر: **مجلة البشارات**، العدد الأول. نقلاً عن: (http:/ www.hurras.org، بتاريخ ٢٧/ ١١/ ٢٠١٠م)

(٣) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب الجهاد والسير**، باب نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، ج٤/ ١٢.

وفي إنجيل لوقا (١ : ١٤): «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المَسَرّة ويؤكد العلماء، على أن الترجمة محرفة وأنها في الأصل: «اقترب السلام للأرض وتيسيره بين الناس محمد». [١]

وضمن الأناجيل المعروفة أنجيل برنابا «Gospel of arnaba»، [٢] وهو إنجيل مشهور اكتشف في الفاتيكان في أوائل القرن السادس عشرالميلادي، [٣] وقد طبع بعد ذلك باللغات الإيطالية والأسبانية والإنجليزية في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي. [٤]

وتشير بعض الدراسات إلى أن البابا [جلاسيوس] سنة ٤٩٢م قبل بعث النبي ﷺ قد أشار إلى إنجيل برنابا ووضعه ضمن قائمة الكتب المنهيّ عنها. [٥]

---

(١) انظر: عبدالأحد داود ١٣٨،
وأحمد أحمد علي السقا، غصن الرب في سفر أشعيا النبي، ص٥٤

(٢) إنجيل برنابا (Gospel of Barnaba ترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة، ١٩٠٨م، نقلاً عن النسخة الإنجيلزية التي ترجمها لونسدال راغ ولورا راغ من النسخة الإيطالية الأصلية التي سربت من مكتبة الفاتيكان، وقد قدم للترجمة وعلق عليها الدكتور أحمد حجازي السقا، نشرتها دار الأمل، أربد، الأردن، ٢٠٠٥م، وقد حظيت الترجمة عند خروجها لأول مرة بعناية خاصة من الشيخ محمد رشيد رضا في المنار، سنة ١٣٢٦هـ.

(٣) www.ar.wikipedoa.com

(٤) www.ar.wikipedoa.com

(٥) انظر: **إنجيل برنابا**، ترجمة الدكتور: خليل سعادة، ص ٩٨.

ويصرّ كثير من المنتمين للكنيسة على إنكار هذا الإنجيل وما ورد فيه ــ لوضوح ما فيه من أخبار عن الرسول ﷺ كما سيأتي ــ، مع أن طبعاته الأولى كانت قبل قرابة ٣٠٠ سنة باللغات الأوروبية؛ الأسبانية والإيطالية والإنجليزية، ولم يعرف في العالم العربي وبين المسلمين إلا من خلال تلك الطبعات الأوروبية منذ قرابة مائة سنة تقريباً.

والملاحظ لمن يطالع هذا الإنجيل تشابه بعض ما ورد فيه بما ورد في القرآن من التوحيد والنهي عن الشِّرك، ومن بشرية المسيح عليه السلام، ورفضه أن يعبد أو أن يُنسب إبناً لله ويؤكد على أنه رسول بشر ابن لمريم [عليها السلام] من لحم ودم.

وقد وردت إشارات واضحة لمحمد ﷺ في إنجيل برنابا، مع التصريح باسمه كما هو محمد، ومن ذلك ما ورد في الإصحاح الثالث والستين بعد المائة:

«وذهب يسوع مع تلاميذه إلى البرية وراء الأردن، فلما انقضت صلاة الظهيرة جلس بجانب نخلة وجلس تلاميذه تحت ظل النخلة، حينئذ قال يسوع: أيها الإخوة إن سَبْق الاصطفاء لسر عظيم حتى أني أقول لكم الحق: إنه لا يعلمه جلياً إلا إنسان واحد فقط، وهو الذي تتطلع إليه الأمم الذي تتجلى له أسرار الله تجلياً، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم، لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه النخلة،

بلى: إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا تقي رحمة الله المؤمنين بذلك الإسم من الشيطان.

أجاب التلاميذ: يا معلّم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم؟ أجاب يسوع بابتهاجِ قلب: إنه محمد رسول الله، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها، كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمراً بعد انقطاع المطر زمناً طويلاً فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله وهي رحمة ينثرها الله رذاذاً على المؤمنين كالغيث.»[1]

ولعل هذا الكلام يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وبقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

كما جاء في الإصحاح الرابع والعشرين بعد المائة ما نصّه: «لما كان الله واحداً كان الحق واحداً، فينتج من ذلك: أن التعليم واحد وأن معنى التعليم واحد فالإيمان إذاً واحد، الحقَّ أقول لكم: إنه لو لم يُمْحَ الحق من كتاب موسى لما أعطى الله داود أبانا الكتاب الثاني، ولو لم يفسد كتاب داود لم يعهد الله

(١) إنجيل برنابا، ص ٢٩٣.

بإنجيله إليّ، لأن الرب إلهنا غير متغير ولقد نطق رسالة واحدة لكل البشر، فمتى جاء رسول الله يجيء ليطهر كل ما أفسد الفجار من كتابي حينئذ أجاب من يكتب: يا معلم ماذا يجب على المرء فعله متى فسدت الشريعة وتكلم النبي المدعي؟ أجاب يسوع: إن سؤالك لعظيم يا برنابا، لذلك أفيدك أن الذين يخلصون في مثل ذلك الوقت قليلون لأن الناس لا يفكرون في غايتهم التي هي الله، لعمر الله الذي تقف في حضرته إن كل تعليم يحوّل الإنسان عن غايته التي هي الله لشرّ تعليم، لذلك يجب عليك ملاحظة ثلاثة أمور في التعليم: أي المحبة لله وعطف المرء على قريبه وبغضك لنفسك التي أغضبت الله وتغضبه كل يوم، فتجنب كل تعليم مضاد لهذه الرؤوس الثلاثة لأنه شرير جداً».

ومن الشواهد في إنجيل برنابا في الإصحاح الثامن بعد المائتين:[1]

«فقل له: من كان ابن إبراهيم هذا؟ أجاب يسوع: إن غيرة شرفك يا الله تؤججني ولا أقدر أن أسكت، الحق أقول: إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيّا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض».

وقد ورد في إنجيل برنابا شيء من خصائص الرسول ﷺ

(١) **إنجيل برنابا**، ص ٣٢٧.

ومن ذلك موقفه في الشفاعة الكبرى للخلق يوم القيامة، ومع أنه من الواضح أن في النص تحريف ففيه كلام من بقايا الحق نطلع عليه، على أن لا نتجاوز ما ورد في الأحاديث الصحيحة من خصائص الرسول ﷺ.

يصف برنابا هذا الموقف للرسول ﷺ نقلاً عن كلام عيسى عليه السلام في الإصحاحين الرابع والخمسين والخامس والخمسين في نص طويل يتفق في مضمونه مع حديث الشفاعة، ويختلف في بعض ألفاظه، وهي محل نظر، وما ورد يؤكد معرفة تلاميذ عيسى عليه السلام، وبرنابا واحد منهم، بهذه المكرمة والخاصية للمصطفى ﷺ، وقد جاء فيها (٥٤: ١٢: ٣٣): «ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الاصفياء الذين يصرخون: أذكرنا يا محمد، فتتحرك الرحمة في رسول الله لصراخهم، وينظر فيما فعله خائفاً لأجل خلاصهم، ثم يحيى الله بعد ذلك كل مخلوق فتعود إلى وجودها الأول، وسيكون لكل منها قوة النطق علاوة، ثم يحيي الله بعد ذلك المنبوذين كلهم الذين عند قيامتهم يخاف سائر خلق الله بسبب قبح منظرهم، ويصرخون: أيها الرب إلهنا لا تدعنا من رحمتك، وبعد هذا يقيم الله الشيطان الذي سيصير كل مخلوق عند النظر إليه كميت خوفاً من هيئة منظره المريع، ثم قال يسوع: أرجو الله أن لا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم، إن رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظر لأنه لا يخاف إلا الله وحده.

ويذهب رسول الله ليجمع كل الأنبياء الذين يكلمهم راغباً إليهم أن يذهبوا معه ليضرعوا إلى الله لأجل المؤمنين، فيعتذر كل أحد خوفاً ولعمر الله إني أنا أيضاً لا أذهب إلى هناك، لأني أعرف ما أعرف وعندما يرى الله ذلك يذكر رسوله كيف أنه خلق كل الأشياء محبة له، فيذهب خوفه ويتقدم إلى العرض وباحترام والملائكة ترنم: تبارك اسمك القدوس يا الله إلهنا، ومتى صار على مقربة من العرض يفتح الله لرسوله كخليل، لخليله بعد طول الأمد على اللقاء، ويبدأ رسول الله بالكلام أولاً فيقول: إني أعبدك وأحبك يا إلهي، وأشكرك من كل قلبي ونفسي، لأنك أردت فخلقتني لأكون عبدك، وخلقت كل شيء حباً فيِّ لأحبك لأجل كل شيء وفي كل شيء وفوق كل شيء، فليحمدك كل خلائقك يا إلهي، حينئذ تقول كل مخلوقات الله: نشكرك يا رب وتبارك اسمك القدوس، الحق أقول لكم: إن الشياطين والمنبوذين مع الشيطان يبكون حينئذ: حتى أنه ليجري من الماء من عين الواحد منهم أكثر مما في الأردن، ومع هذا فلا يرون الله، ويكلم الله رسوله قائلاً: مرحباً بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد، تنل كل شيء، فيجيب رسول الله: يا رب أذكر أنك لما خلقتني قلت: إنك أردت أن تخلق العالم والجنة والملائكة والناس حباً فيِّ ليمجدوك بي. أنا عبدك، لذلك أضرع إليك أيها الرب الإله الرحيم العادل أن تذكر وعدك لعبدك، فيجيب الله كخليل يمازح خليله، ويقول: أعندك شهود

على هذا يا خليلي محمداً؟ فيقول باحترام: نعم يارب، فيقول الله: إذهب وادعهم يا جبريل، فيأتي جبريل إلى رسول الله ويقول: من هم شهودك أيها السيد؟ فيجيب رسول الله: هم آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وداود ويسوع بن مريم، فينصرف الملاك وينادي الشهود المذكورين الذين يحضرون إلى هناك خائفين.

فمتى حضروا يقول لهم الله: أتذكرون ما أثبته رسولي؟ فيجيبون: أيُّ شيء يا رب؟ فيقول الله: إني خلقت كل شيء حباً فيِّ ليحمدني كل الخلائق به، فيجيب كل منهم: عندنا ثلاثة شهود أفضل منا يا رب، فيجيب الله: ومن هم هؤلاء الثلاثة؟ فيقول موسى: الأول الكتاب الذي أعطيتنيه. ويقول داود: الثاني الكتاب الذي أعطيتنيه، ويقول الذي يكلمكم: يا رب إن العالم كله أغره الشيطان فقال: إني كنت ابنك[1] وشريكك، ولكن الكتاب الذي أعطيتنيه قال حقاً: إني أنا عبدك، ويعترف ذلك الكتاب بما أثبته رسولك، فيتكلم حينئذ رسول الله ويقول: هكذا يقول الكتاب الذي أعطيتنيه يا رب، فعندما يقول رسول الله هذا يتكلم الله قائلاً: إن ما فعلت الآن إنما فعلته ليعلم كل أحد مبلغ حبي لك، وبعد أن يتكلم هكذا يعطي الله رسوله كتاباً مكتوباً فيه أسماء كل مختاري الله، لذلك يسجد كل مخلوق لله

(١) هذا يؤكد براءة عيسى من الشرك، ويؤكد عبوديته وإخلاصه لله تعالى.

قائلاً: لك وحدك اللهم المجد والإكرام لأنك وهبتنا لرسولك». [١]

كما توجد شواهد كثيرة من إنجيل برنابا فيها أحاديث للمسيح عليه السلام شبيهة بأحاديث رسول الله ﷺ، ومن ذلك وصف الجنة في الإصحاح التاسع والستين بعد المائة: «لم تر عينا إنسان ولم تسمع أذناه ولم يدرك قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه». [٢]

وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وهذا مصداق لقول المصطفى ﷺ عن الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر». [٣]

كما يتفق إنجيل برنابا مع ما عند المسلمين في القرآن والسنة عموماً دون التفصيل فيما يرتبط بالمسيح نفسه ورفعه إلى السماء، وذلك في الإصحاح السادس عشر بعد المائتين في ما نصه: «فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبّح الله إلى الأبد». [٤]

---

(١) انظر: **إنجيل برنابا**، ص ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦.

(٢) **إنجيل برنابا**، ص ٢٩٨.

(٣) متفق عليه. انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب التفسير**، سورة السجدة، ج ٦/ ٢١.

(٤) **إنجيل برنابا**، ص ٣٣٤.

وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[النساء: ١٥٧].

ونحن لا نشك أن التحريف وقع في كتب اليهود والنصارى الأصلية وما تفرع منها باعترافهم هم، ومع ذلك فإن الحق واضح عند بعضهم، خصوصاً أن الرسول ﷺ إنما دعاهم لتوحيد الله واحترام الأنبياء السابقين وتقديرهم والسير على مبادئهم من تقدير الله وتعظيمه، والوصاية بشرعه الذي جاء به أنبياؤه السابقون، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤].

وقد كان الأمر واضحاً عند رسول الله ﷺ في مكاتبته لهرقل وغيره من زعماء النصارى في زمانه.

مثقفو الغرب المعاصرون ونظرتهم للنبي ﷺ:

يلاحظ أن عدداً كبيراً من المثقفين الغربيين خلال القرنين الماضيين شهدوا بصدق الرسول ﷺ أو أشاروا إلى شيء من ذلك في كلام منصف إلى حد ما، وإن اختلفنا معهم في النصوص والمضمون أحياناً. وقد كان كثير من الدارسين

الأوروبيين لشخصية الرسول ﷺ غير منصفين[1]، يقول درمنغم «من المؤسف حقاً أن بالَغَ هؤلاء المتخصصون في النقد أحياناً فلم تزل كتبهم رسماً، وكانت كتبهم عامل هدم على الخصوص[2]» وقد اهتمّت مؤلفات عدة بهذا الموضوع وأوردت شواهد له.[3]

ولعل القرن الثامن عشر أكثر القرون بداية لظهور حقائق علمية في الغرب تنصف الرسول ﷺ في عيون الأوروبيين، كما ذكر مكسيم رودنسن (Maxim Rudensn) في قوله: «بظهور عدد من المؤرخين الأوروبيين المستنيرين في القرن الثامن عشر بدأت تكتمل معالم صورة، هي صورة محمد الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع».[4]

---

(١) الكردي، راجح عبدالحميد؛ **شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي**، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٦هـ، ص١٥.
انظر: محمد رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، ط ٥، دار المنار، القاهرة، ١٣٦٧هـ

(٢) درمنغم: إميل، **حياة محمد**، ترجمة عادل زعيتر، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨٨م.

(٣) انظر: الحسيني الحسيني معدي، **الرسول ﷺ، في عيون غربية منصفة**، ط ١، القاهرة، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦م.
وانظر: عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص ٢٢٥؛ وانظر: أحمد بن حجر آل بوطامي، **الإسلام في نظر منصفي الشرق والغرب**، وعدنان النحوي، **النبي العظيم والرحمة المهداة**.

(٤) الحسيني معدي، ص ١٢٩.

ويشير الكاتب الإنجليزي برنارد وشو (Gerorge Bernard shaw) إلى بداية تفهم أوروبا لمحمد ﷺ رغم محاولة تشويه صورته في قوله: «إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد، وبدأت تعيش دينه، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمها بها من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى». (١)

كما يشير مارسيل بورزار (Marcel Pourzar) إلى ظهور الحق حول محمد ﷺ ودينه رغم التشوية فيقول: «سبق أن كُتب كل شيء عن نبي الإسلام ﷺ فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها، والصورة التي خلفها محمد ﷺ عن نفسه تبدو، حتى وإن عُمد إلى تشويهها، علمية في الحدود التي تكشف فيها وهي تندمج في ظاهرة الإسلام عن مظهر المفهوم الديني وتتيح إدراك عظمته الحقيقية».

لم يكن محمد ﷺ على الصعيد التاريخي مبشراً بدين وحسب، بل كان كذلك مؤسس سياسة غيّرت مجرى التاريخ، وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق». (٢)

لقد كانت دراسة حياة الرسول ﷺ مؤثراً كبيراً على بعض الغربيين رغم محدودية مصادرهم للدراسات وتشويه بعضها للحقائق، إلا أن وميض الحق بين الأسطر أعطى بعضاً منها

---

(١) الحسيني معدي، **الرسول ﷺ في عيون غربيه منصفة**، ص ١٠٥.
(٢) **المصدر السابق**، ص ١١٤.

انطباعاً قوياً صادقاً أثر على مجرى حياتهم بقوة، فهذا لامارتين (Alphonse de lamartine) يقول ما نصّه: «أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، من ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرساً لتبليغ الرسالة وصلواته أركان العقيدة. إن الرسول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق». (١)

ويؤكد بروي (Eduard Perroy) على أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء وأن شريعته إلهية شاملة ونظام اجتماعي خلاق فيقول: «جاء محمد بن عبد الله ﷺ، النبي العربي وخاتم النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة «في دعوته» لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضاً الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد أعداء المسلمين.. ونشر الدين

(١) المصدر السابق، ص ٤٢.

الحنيف. . وعندما قُبض النبي العربي ﷺ، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل». (١)

كما يدافع (لايتنز) (Leitner) عن الرسول ﷺ وعن الوحي المنزل ويؤكد على وجود الكثير من العلامات الدالة على صدق نبوته في قوله: «بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ﷺ ليس اقتباساً بل قد أوحى إليه به ولا ريب بذلك، طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القلبي الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنه قد أوحي إليه».

إن الديانة النصرانية التي ودّ محمد ﷺ إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح عليه السلام تخالف التعاليم السّرية التي أذاعها بولس (Paul) والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى. . ولقد كانت آمال محمد ﷺ وأمانيه أن لا تخصص

---

(١) الحسيني معدي، **مصدر سابق**، ص١١٢.

بركة دين إبراهيم عليه السلام لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعاً، ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام.[١]

ولعل من أهم ما لفت نظر بعض عقلاء الغربيين قضية التوحيد، وهي جوهر الدين الذي دعا إليه الرسول ﷺ وأخبر ﷺ أنها دعوة الأنبياء جميعاً، كما جاء ذلك في آيات قرآنية متعددة وأحاديث نبوية.

يقول فولتير (Voltaire): «إن عقيدة محمد خالية من الشك والغموض، والقرآن شهادة مجيدة على وحدانية الله».[٢]

ويقول روم لاندو (Rom Landau): «. . لم ينسب محمد ﷺ في أيّما يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى أعجوبية، على العكس، لقد كان حريصاً على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس».[٣]

ويؤكد تويبي (Arnold J. Toyubee) على قضية التوحيد عند الرسول وما يرتبط بذلك من التشريع ونظام، تبعها سلطة تنفيذية أو لقوة وإقامة للعدل فيقول: «لقد كرَّس محمد حياته

---

(١) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص ١٥٢.
(٢) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص ١٦٧.
(٣) المصدر سابق، ص١٥٠.

لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية (وهما الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم)، وتم ذلك فعلاً بفضل نظم الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معاً..»[1].

ويستشهد واشنجتون إيرفنج (washington Irving) بحادثه فتح مكة ليؤكد أن محمداً خاتم الأنبياء فيقول ما نصه: "كان محمد ﷺ خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعو الناس إلى عبادة الله».

كانت تصرفات الرسول ﷺ في: «أعقاب فتح» مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو».[2]

ويؤكد إدوارد رمسي (Edward Ramsay) رسالة النبي ﷺ وتركيزه على التوحيد فيقول: «جاء محمد للعالم برسالة الواحد القهار، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فبزغ فجر جديد كان يُرى في الأفق، وفي اليوم الذي أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد ما فقد من العدل والحرية أتى الوحي من عند الله إلى رسول كريم، ففتحت حججُه العقلية السديدة أعين أمة

(١) الحسيني المعدي، **مصدر سابق**، ص ١١٦.
(٢) الحسيني المعدي، **مصدر سابق**، ص ١١١.

جاهلة، فتنبّه العرب، وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان العبودية». [١]

وتقول كارين أرمسترونج: (Karen Armstrong) «وعلى هذا، فإن كان ذلك النصر السياسي هو الإنجاز الوحيد لمحمد فمن حقه علينا أن يحوز إعجابنا لكن نجاح محمد اعتمد على الرؤية الدينية التي نقلها العرب، والتي اعتنقتها بدورها الرعية من شعوب الإمبراطورية، وذلك لأنها لبت حاجة روحانية لديهم، غير أن محمداً والمسلمين الأوائل لم يحققوا انتصاراتهم بسهولة كما يحلو للبعض أن يتخيل، ولكنهم اشتبكوا في معارك شرسة يائسة، ولولا أن الاعتبار الأول للنبي ورفاقه المقربين كان للدين، ما كتب لهم البقاء». [٢]

وكثير من الغربيين يصف الرسول ﷺ بالمصلح وبصاحب الرؤية، ويمتدحه وإن لم يؤمن به، يقول جولد تسيهر: «. . . الحق أن محمداً كان بلا شك أول مصلح حقيقي في الشعب العربي من الجهة التاريخية، ففي هذا العصر نرى النبي يستخدم حنكته المفكرة ورويته الدقيقة وتبصره العالي، في مقاومة خصومه الذين شرعوا في معارضة مقاصده وغاياته في داخل موطنه وخارجه». [٣]

---

(١) **المصدر السابق**، ص ١٠٣.

(٢) كارين أرمسترونج، **سيرة النبي محمد**، ص ٧٣.

(٣) الحسيني المعدي، **مصدر سابق**، ص ١٤٨.

وقد ضاق بعضهم ذرعاً بعدم إيمان الغربيين بنبوة الرسول ﷺ واعتبر ذلك عاراً عليهم، يقول توماس كارليل (Tomas Carlyle): «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث في هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاع مزوّر». (١)

وها هو المؤرخ الأمريكي المشهور ول ديورانت: (Will Durant) الذي عرف عندهم بأنه أبو التاريخ يقول: «يبدو أن أحداً لم يُعنَ بتعليم محمد ﷺ القراءة والكتابة.. ولم يُعرف عنه أنه كتب شيئاً بنفسه.. ولكن هذا لم يحُلْ بينه وبين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفاً قلّما يصل إليه أرقى الناس تعليماً، كان النبي من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم، وإذا ما حكمنا على العظمة.. كان محمد من أعظم عظماء التاريخ». (٢)

ويشير بعضهم إلى مثالية الرسول ﷺ وكماله وإلى قصور أوروبا عن ما جاء به ﷺ.

يقول الأديب الألماني جوته (Johann Wolfgang von Goethe): «إننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد...، ولقد

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٦.
(٢) المصدر السابق، ص ١٢٨.

بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد... وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد». [١]

ويشير برنارد شو (Bernard Shaw) الكاتب الإنجليزي الشهير إلى مناسبة تعاليم الرسول ﷺ للعصر الحاضر، وفي هذا إيمان بشريعته وصلاحيتها لكل الأزمنة، وقد انطلقت قبل ١٤٠٠ سنة فيقول: «يجب أن يُسَمَّى منقذ الإنسانية، وإني أعتقد لو أن شخصاً مثله تولى الحكم المطلق في العالم المعاصر، لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب به ما هو في أشد الحاجة إليه من سلام وسعادة». [٢]

ويشير غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) الطبيب والمؤرخ الفرنسي، إلى بدايات لدى الغرب لإنصاف النبي ﷺ فيقول: «إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمداً مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كُثُر عن الاعتراف بفضله...

«استطاع محمد ﷺ أن يبدع مثلاً عالياً قوياً للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة

---

(١) الحسيني المعدي، **مصدر سابق**، ص ١٧٤.

(٢) **المصدر السابق**، ص ١٦٧.

محمد على الخصوص. . ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى. .».

«. . . لا شيء أصوب من جمع محمد لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة. ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد». (١)

ويمتدح إيتين دينيه (Etienne Dinet) دينيه رسول الله ﷺ وشخصيته وتميزها فيقول: «إن الشخصية التي حملها محمد ﷺ بين برديه كانت خارقة للعادة وكانت ذات أثر عظيم جداً حتى إنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع وأعطاها صفة الشيء الجديد. . .». (٢)

ويعبر كتاب أوروبيون بعمق عن إعجابهم بالرسول ﷺ ومنهم: جاك بيرك (Jacques Augustin Berque)، فيقول: «لا شك أن الإسلام الذي اختار الخالق له محمداً كان جديراً بمحمد وكان محمد جديراً به». (٣)

كارل بروكلمان الألماني (Carl Brockelmann)، يقول: «جعل رسول الإسلام الجزيرة العربية نقطة انطلاق لرسالته

---

(١) **المصدر السابق**، ص١٥٤.

(٢) الحسيني المعدي، **مصدر سابق**، ص ١٢٧.

(٣) **المصدر السابق**، ص ١٧١.

العظيمة التي حوربت كثيراً وما زالت، لكن الانتصار دائماً للحق، وما جاء محمد إلا بالحق والحقيقة». [1]

وتظهر لدى بعض الغربيين قناعة بنبوة رسول الله ﷺ، بل يؤكد بعضهم أنه خاتم الأنبياء وأنه جدير بهذا الشرف العظيم، يقول العالم الفرنسي كليمانت (Clement): «لم يكن محمد نبياً عادياً، بل استحق عن جدارة أن يكون خاتم الأنبياء ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلماً». [2]

وقد امتدح كثير من الغربيين موقف النبي محمد ﷺ من النصرانية والديانات السماوية الأخرى، وإنصافه لأهلها واحترامه للمسيح عليه السلام فهذا برنارد شو (George Bernard show)، يقول: «لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأوروبا بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي».

«وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٠.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧١.

الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم».

«لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة، ومؤسس دولة.. هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ».(١)

وأشار بعض النصارى إلى موقف الرسول ﷺ من عيسى عليه السلام، واحترامه له في السنة والقرآن المنزل عليه، يقول المستشرق الفرنسي لويس سيديو (Louis-Pierre-Sédillot): «لقد حل الوقت الذي توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة الأمر في زاوية من آسيا فارتقت إلى أعلى مقام، فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون، ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد».

«كان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد ﷺ بعث هذه الأمة بعثاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً..».(٢)

---

(١) الحسيني المعدي، **مصدر سابق**، ص ١٧٥.

(٢) الحسيني معدي، **مصدر سابق**، ص ١٤٧.

عصر الرسول ﷺ:

إن الحديث عن سيرة الرسول ﷺ يتطلب منا تحديد عصره الذي عاش فيه بدقة، وهو ما يعرف عند الباحثين بزمن الدراسة أو الإطار الزماني، وإن كان ما يرتبط بعلم السيرة النبوية يبدأ قبل ولادة الرسول ﷺ، ولذلك فإن البداية الزمنية لعصر الرسول ﷺ قبل ولادته بفترة يصعب تحديدها، لارتباط ذلك بحياة قريش في مكة، وبوالدي رسول الله.

ومولده ﷺ في يوم اثنين من عام الفيل، وهذا ثابت بنص حديث نبوي قال فيه ﷺ (يوم الاثنين يوم ولدت فيه)،[1] وذكر كثير من العلماء أن مولده كان في ١٢ من ربيع الأول عام الفيل ويوافق سنة ٥٧١م.

وإن أمكن تحديد عصر الرسول ﷺ بدقة من ميلاده إلى وفاته فلا يمكن عزله عن ما سبقه.[2]

أما نهاية عصر الرسول ﷺ فهو موضع إجماع تام، حيث كانت بوفاته ﷺ ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول الموافق ٨ حزيران/ يونيو ٦٣٣م.[3]

---

(١) رواه **مسلم في صحيحه**، حديث رقم: ١١٦٢.

(٢) انظر: د. عبدالعزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي**، ص ٣٨؛ ومحمد عزة دروزة، **عصر النبي**، دار اليقطة، بيروت، ١٣٨٤هـ.

(٣) عبد السلام الترمانيني، **أزمنة التاريخ الإسلامي**، ج ١/ ٢٩.

ولعل وسط هذا العصر وعقده حادثة الهجرة التي قسمته إلى قسمين رئيسين وكانت في السنة الأولى من الهجرة وتوافق سنة ٦٢٢م.[١]

موطن الرسول ﷺ:

مكة، أو أم القرى[٢] هي موطن النبي ﷺ فيها ولد، وفيها بُعث، وفيها تربى وترعرع وتزوج، وعمل وعاش معظم حياته، وربّى ذريته، واختار أصحابه.

تقع مكة في بطن وادٍ، حيث وضع إبراهيم زوجته هاجر وابنها إسماعيل، قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

كانت مكة موطن التوحيد الأول في بلاد العرب منذ أيام سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل [عليهما السلام]، حيث دعا إبراهيم لها ولأهله، وبنى الكعبة، وحج الأنبياء من بعده لهذا البيت والحرم:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ

---

(١) عبد السلام الترمانيني، **أزمنة التاريخ الإسلامي**، ج ١/ ٣٤٤.

(٢) أشهر من أن تعرف، وكتبت فيها عدد كبير من المؤلفات القديمة والحديثة يصعب حصرها.

إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٩].

أما طبيعتها الجغرافية فتختلف عن كثير من أجزاء الجزيرة العربية، حيث تحيط الجبال بالوادي من كل مكان.

وتسكن قريش وأحلافها مكة، وهي قبيلة متحضرة ذات أسفار وتجارة، وعلاقات خارجية جيدة مقارنة ببقية القبائل والبلدان.(١)

اشتهرت مكة بوجود الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

كانت مكة مقسّمة إلى أرباع بين أقسام قريش وأفخاذها

---

(١) طالع: أحمد إبراهيم الشريف، **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول**، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

المختلفة، يمكن من خلالها تحديد مواطنهم وبيوتهم وتجمعاتهم داخل مكة، كما كانت لدى هذه الفصائل وظائف محددة في القبيلة، منها السقاية والرفادة، والراية،[1] كما كانت تفرض العشور كنوع من الضريبة على التجار القادمين لمكة.

واشتهرت مكة بدار الندوة،[2] التي يجتمع فيها أهل الرأي المعروفين في قريش بـ (الملأ) وهم الزعماء الذين كانوا يسعون لقوة قريش ووحدتها.

كما كانوا متمسكين بجاهليتهم مدافعين عن ضلالات قريش حفاظاً على موروثهم من عبادة الأصنام وغيرها، كما يظنون بكل جهل وعَمى بعيداً عن الحق عصبية باطلة، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وبذلك كان تفكيرهم ضعيفاً موروثاً بلا عقل، يقلدون مسائل محدودة وتغيب عنهم المسائل الحاسمة.[3]

كانوا يزنون ويشربون الخمر ويأكلون الربا ويأتون المعازف

---

(١) انظر: الزبيري، **نسب قريش**؛ وابن حبيب، **المحبر**.

(٢) الأزرقي، **تاريخ مكة**، ص ١٠٧، ١١٠؛ ابن حبيب، **المنمق في أخبار قريش**، ص ٨٧.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٧٨؛ وانظر: **تفسير ابن كثير**، سورة النور، ج٢/ ١٦٧٩.

والمراقص وكل أسباب الهوى، تغلبهم الشهوات بحكم عدم إيمانهم بالبعث والحساب،[1] قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وكان الشرك يضرب بأطنابه في مكة.[2]

نسب المصطفى المختار ﷺ :

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب [شيبة] بن هاشم بن عبد مناف بن مضر بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن آدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.[3]

وما بعد عدنان محلُّ نظر عند كثير من العلماء سوى اتصاله بإسماعيل.[4]

وقد ورد أنه ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم

---

(١) انظر: **تفسير ابن كثير**، سورة الجاثية، آية: ٢٤، ج ٢/ ١٦٩٩؛ وانظر: موطن الرسول ﷺ هذا الكتاب.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٧٨.

(٣) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٨٣؛ والبخاري يحذف بعض الآباء ويوصله إلى عدنان ابن إبراهيم ج، ج ٤/ ٢٣٨.

(٤) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ١/ ٧١.

إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار». [١]

ميلاد المصطفى الحبيب ﷺ:

تزوج عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ من آمنة بنت وهب أم الرسول، وبقي معها فترة من الوقت وظهر حملها برسول الله ﷺ وتقدمت بها أشهر الحمل فإذا بعبد الله والد رسول الله ﷺ يموت قبل أن تتم الحمل[٢] وأذن الله للجنين أن يولد في ربوع مكة. رأت أمه قبل مولده ﷺ رؤيا كما ورد عن النبي ﷺ: «أني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل في طينته وسأخبركم عن ذلك أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين». [٣]

وقيل إن أمه رأت عند مولده رؤيا وكأنه خرج منها نور أضاءت منه بصرى من أرض الشام. [٤]

---

(١) **صحيح مسلم**، ج ١٥/ ٢٦، **شرح النووي**.

(٢) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات الكبرى**، ج ١/ ٩٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٥٨.

(٣) **ابن كثير، تفسير**، ج ١/ ٢١٢؛ وراجع **صحيح البخاري**، كتاب **المناقب**، باب خاتم النبيين، ج ٤/ ١٦٢؛ و**شرح ابن حجر على الباب**.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٥٨؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٥٨؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٠٦؛ انظر: د. أكرم العُمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ج١/ ١٠١.

تاريخ مولده لم يَخْلُ من آراء مختلفة[1] مع أنه ثبت عنه ﷺ أنه قال: «يوم الاثنين يوم ولدت فيه».[2]

وبظروف المولد كان يصعب التحديد، حيث كان عند الناس مولوداً عادياً يتيماً لكنه عند الله المصطفى من البشر، وآخر أنبيائه وأفضل عباده، وما كان أحد من الخلق يعلم ذلك ساعة ولادته أو أثناء حمله، وإلا لسعى شياطين الإنس والجن إلى أذاه، فأخفى الله سره، ولم يطلع أحد على ذلك حتى رسول الله ﷺ نفسه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد اجتهد العلماء في تحديد يوم ميلاده فقال بعضهم إنه ولد في الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل،[3] ويوافق سنة ٥٧١ للميلاد،[4] وهذا الاختلاف في يوم ميلاده لا ينقص من قدره ﷺ، فهو سيّد ولد آدم ولا شك، ولم يذكر أنه ﷺ انشغل بتحديد هذا اليوم.

---

(١) انظر: تفصيلات الخلاف عند ابن كثير في **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٠٠؛ وعند الطرهوني في **صحيح السيرة**، ج ١/ ٢٧١.

(٢) **صحيح مسلم**، حديث رقم: ١١٦٢.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٥٨؛ محمد أبو شهبه، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٧٣؛ أبوالحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٩٩.

(٤) انظر: عبد السلام ترمانيني، **أزمنة التاريخ الإسلامي**، ص ١١.

وأما مكان ميلاده ﷺ فكان في دار عمه أبي طالب في شَعْب بني هاشم، وكانت طوال قرنين كاملين ضمن الدور المجاورة للحرم، انتقلت من مالك إلى آخر، حتى حجتِ الخيزرانُ أم هارون الرشيد زمن خلافته، فجعلت منها مسجداً، وهي قريبة من الحرم معروف موضوعها حالياً، حيث توجد فيها مكتبة مكة المكرمة إلى الشرق من الساحة الملاصقة للمسعى وهو أمر متواتر لدى علماء مكة وأهلها.

وبعد ولادته مباشرة أرضعته ثويبة جارية عمّه أبي لهب،[1] وحضنته بركة الحبشية (أم أيمن)، جارية والده عبد الله، وكان بها باراً طوال عمرها، حيث أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وشهدت وفاته.

أول ما فعلته أمه ومن معها من النساء بعد ولادة الحبيب المصطفى ﷺ أن أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بذلك المولود اليتيم، لابنه العزيز عبد الله، فأقبل عبد المطلب مسرعاً مسروراً وضمّ الحبيب إلى صدره، متذكراً يُتمه وفقد والده عبد الله، فحمله إلى الكعبة وشكر الله ودعاه[2] وسماه محمداً،

---

(١) ابن سعد، **السيرة النبوية** من الطبقات، ج ١/١٠٨؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج١/ ٢٢٣.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/١٠٩؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٠٩، ٢٠١.

وهو اسم نادر بل شبه معدوم في حينه عند العرب،[1] يتيماً آواه الله.

قبل الحديث عن يُتم الرسول ﷺ يتبادر إلى الذهن عناية الله ورعايته له في يتمه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، وكانت أمه آمنة بنت وَهبْ تعطف وتحنّ عليه، حيث ولدته بعد وفاة والده عبد الله، وكان جده عبد المطلب محل والده يكفله ويتفقده ويشفق عليه ما بقي من حياته، حتى وصل عمر الرسول ﷺ ثماني سنوات تخلل ذلك رضاعته في بني سعد.

وقد انضاف إلى يتمه من أبيه يتمه من أمه، حيث توفيت والدته آمنة بنت وهب عندما بلغ النبي ﷺ ست سنين، وكانت في رحلة إلى المدينة. وعند العودة توفيت في الأبْواء ودفنت هناك.

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن، وواصلت الطريق إلى مكة، حيث أوصلته إلى جده عبد المطلب، فزاد عطفه عليه ورعايته له، واستمرت حاضنته أم أيمن تتابع وضعه وتقوم على حاله بمتابعة من جده عبد المطلب، كانت محبةً للرسول ﷺ وحنونة عليه عرف لها ﷺ ذلك، وكان يَصِلها في المدينة بعد الهجرة،[2] ويقول عنها (هي أمي بعد أمي).

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٢٤.

(٢) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٤٣٢.

شبابه ﷺ:

نشأ رسول الله ﷺ في رعاية جده عبد المطلب فمات وله من العمر ثمان سنوات، فرعاه وكفله عمه أبو طالب، وعنده عاش ﷺ بقية صباه ثم شبابه، كان أبو طالب متعلقاً به محباً له. وقد دلت مختلف الروايات على اصطحاب أبي طالب له في إحدى رحلاته إلى الشام.[١] وقد أورد بعض الرواة قصة بحيرا الراهب في رحلة لأبي طالب إلى الشام، وهي رواية أسقطها كثير من العلماء مع أنها وردت بأسانيد مقبولة عند الترمذي وغيره وقد شكك فيها الذهبي[٢] وابن القيم في زاد المعاد[٣] وغيرهم من علماء السيرة المعاصرين،[٤] وقد استغلها كثير من المستشرقين في محاولة نسبة دعوة الرسول إلى الإسلام لما تلقاه من الراهب، ومحاولة نسبه القرآن لما تعلمه من بحيرا، متجاهلين أبسط القواعد العلمية في العقل والقياس، وصغر سن النبي لو صحت الرحلة والرواية، كما يتساءل الباحث أين هم من تواتر نزول القرآن حسب الأحداث

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٨٠؛ ابن سعد، **السيرة النبوية** من **الطبقات**، ج١/ ١٢١، الندوي، **السيرة النبوية**، ص ١٠٥، انظر: **المغازي**، ابن أبي شيبة، ص ٩١. وانظر: تعليق المحقق.

(٢) **السيرة النبوية**، ص ٥٥.

(٣) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ١/ ٧٦.

(٤) د. أكرم العُمري، **السيرة الصحيحة**، ج ١/ ١١١؛ والندوي، **السيرة النبوية**، ص ١٠٥.

التي ذكرتها الآيات طيلة حياته ﷺ إلى آخر أيام الرسول ﷺ، لكن العمى عن الحق والكره للنبي ﷺ جعل هؤلاء يتمسكون بمثل هذه الرواية متجاهلين أبسط القواعد العلمية تبعاً لهواهم.[١]

كان ﷺ يستشعر المسؤولية الملقاة على عمه أبي طالب ويحاول بجدية تقديم ما يمكنه لمساعدته في إعالة أولاده ولذلك اشتغل ﷺ في رعي الغنم في سن مبكرة، وكان يساعد عمه بما يحصل عليه من مال جراء الرعي قال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله ﷺ قال: نعم كنت أرعاها على قراريط[٢] لأهل مكة».[٣]

كان هذا العمل من أبواب الكسب الذي يورث عزة النفس، والغنى عن الآخرين، ومساعدة من هو بحاجة النبي ﷺ مع عمه فيما يحصل عليه من مال الرعي، وقد كان الرسول ﷺ جاداً

---

(١) انظر: فنسنك وآخرين، **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ٣/ ٣٩٨؛
R. Goltheril, "**Achri stristian Bahira legencl. " Zcits Chrift Fur)) Assyriologie**, 13 (1898) pp. 189-242: 14 (1898) pp. 203-268, 151900. pp. 56-102, 16 (1903) pp. 125-166)؛ نقلاً عن: محمد فارس الجميل، **رحله النبي ﷺ إلى الشام، قراءة نقدية**، ص ٧، بحث غير منشور في حينه.

(٢) جمع قيراط وهو جزء من الدينار (ابن حجر، فتح الباري، ج ١٠/ ٥)؛ وانظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ١٢٥.

(٣) رواه **البخاري في صحيحه**، ج ٣/ ٤٨.

يعلم الصحابة العمل والكسب والإنتاج والاستغناء عن الآخرين، وحياة الكدح.[1]

كان ﷺ منذ وعى كارهاً للأصنام، مبغضاً لها، لم يشهد شيئاً من مشاهدها.

وعصمه الله من المعاصي قبيل بعثته ﷺ في صباه وشبابه ورجولته ومن كل قبيح.[2]

كما أنه ﷺ كان يكره الخمر، ورغم انتشارها في مكة فلم يعرف أنه شربها قط.

الصدق والأمانة كانت من صفات الرسول ﷺ في صباه وشبابه،[3] وكان عطوفاً رحيماً رغم صغر سنة ﷺ وحقاً كما قال ﷺ: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي».[4]

حقاً لقد اصطفاه الله وحفظه ورعاه قبل البعثة وبعدها،[5] إنها حماية إلهية لم تكن إلا لمحمد ﷺ، وتربية ربانية وتأديب من الباري جلّ وعلا وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) انظر ما كتبه الشيخ محمد الغزالي في **فقه السيرة** حول (حياة الكدح)، ص ٥٩.

(٢) انظر: جمال ما كتبه الندوي في **السيرة النبوية** بعنوان: «**التربية الإلهية**»، ص ١٠٩.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٨٨.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٨٣.

رجولتــه ﷺ:

لما بلغ الرسول ﷺ مبلغ الرجال كان محل ثقة الناس واحترامهم، فلم يعرف من هو أصدق منه بمكة ولا أكثر أمانة منه حتى أنه عرف بالصادق الأمين.[١]

عرف ﷺ بصلته للرحم، وعطفه على الفقراء وأهل الحاجة، ويمكن أن نلخص أهم صفاته في ما قالته عنه خديجة (رضي الله عنها) وقد خبرته عن قرب: «ما كان الله ليخزيك أبداً إنك لَتصِلُ الرحم وتُقري الضيف وتحمل الكَلَّ وتُكسِب المعدوم وتعين على نوائب الدهر».[٢]

كان يحمل صفات الإنسانية والرحمة والفضائل، أطهر الناس وأبرُّ الناس، وأعدل الناس وأسماهم خلقاً ﷺ.

منذ شبابه ورجولته قبل مبعثه وبعده كان همه العدل والإنصاف، وألاَّ يظلم أحداً من الناس، ولذلك شارك وعمره عشرون سنة[٣] في معاهدة مع بعض رجال قريش عرفت بـ(حلف الفضول)،[٤] حيث تعاقدوا في دار عبد الله بن جدعان، وكان من أشراف مكة، أن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى حقه.

---

(١) **المصدر السابق**.

(٢) من رواية **البخاري** في صحيحه، **باب كيف كان بدء الوحي**، ج ٧/ ١٢٨.

(٣) ابن سعد، **السيرة النبوية** من **الطبقات**، ص ١٢٨.

(٤) انظر: ابن سعد، **السيرة النبوية** من **الطبقات**، ص ١٢٨.

كان ﷺ له أصدقاء مميزون عرفوا بصدقهم وعلوّ أخلاقهم في هذه المرحلة، على رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه،[1] الذي كان قريباً من سِنّ رسول الله ﷺ مألوفاً في قريش إضافة إلى أصدقاء آخرين أمناء ورد ثناء الرسول ﷺ عليهم.

كانت أمانة محمد ﷺ لافتة للنظر، وفي قريش من يرغب في تشغيل أمواله ومن يعمل له في التجارة بِجُعْل معين، وكانت خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) من ثريات قريش، لا تأمن كل أحد أن يتاجر بمالها، حيث يرغب كثير من الرجال في ذلك، ومع هذا تسأل وتتحسّس وتبحث عن أكثر الرجال أمانة ليعمل في مالها، مع وجود خبرة في هذا المجال، فسمعت بمحمد ﷺ وصدقه وأمانته، فحرصت على أن تستأجره ليعمل في مالها بشيء تجعله له من الربح فوافق ﷺ على العمل في مالها.

فسافر الرسول ﷺ في تجارتها إلى عدد من الأسواق المجاورة لمكة في بلاد العرب.

سمعت خديجة (رضي الله عنها) من مولاها مَيْسَرة ما يؤكد لها صدق الرسول ﷺ وأمانته وجربته وخبرته، فقد كان متسامحاً حسن المعاملة، محافظاً على حقوق الآخرين، فأعجبت خديجة

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٥٠.

(رضي الله عنها) بأخلاق النبي ﷺ وأمانته وتقديمه الأدب والأخلاق على المال، وتؤكد الأخبار نمو مال خديجة ببركة النبي ﷺ وعمله لها بأمانة.

لا شك أن أسفار النبي ﷺ في تجارة خديجة ودخوله أسواق العرب واحتكاكه بالناس وزعماء العرب وأشراف القبائل قد أفاده كثيراً، ونمَّى خبرته ومعرفته بالناس والقبائل والبلدان وأخبارها.

زواجه من خديجة (رضي الله عنها): [1]

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب،[2] سيدة شريفة عاقلة حكيمة، والدها خويلد بن أسد من أشراف مكة، قتل في حرب الفجار، تزوجت قبل رسول الله ﷺ ثم استقلّت، صاحبة مال وفير، عُدت من أثرياء مكة، كانت تستأجر التجار للمضاربة في مالها، وكان ممن استأجرتهم رسول الله ﷺ، فاختبرته فكان أميناً.

كما أنها ناقشت النبي ﷺ وسمعت منه وتعاملت معه، فرأته

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/ ١٨٧. ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٣١.

(٢) وضع البخاري في صحيحه، باب تزوج النبي ﷺ خديجة وفضلها، ج ٤/ ٢٣٠، **كتاب المناقب**، باب (٢٠)؛ وانظر: أبي عبيدة معمر بن المثنى، **أزواج النبي ﷺ**، تحقيق يوسف علي بديوي، دار مكتبة التربية، بيروت١٤١٠،هـ، ص ٥٥.

رفيع الأخلاق حميد السجايا فأحبته وأعجبت به وبسجاياه، وكانت تسمى عند قومها (الطاهرة العفيفة).[١]

كانت في الأربعين من عمرها، وقد حرص أشراف الرجال من قريش على خطبتها والزواج بها لكنها ترد الخُطاب بأدب،[٢] وكانت تعلم دوافع بعضهم المادية وغيرها فهي صاحبة مال كلٌّ يطمع فيها.

ومن خلال عمل الرسول ﷺ لها عرفت زهده في المال مع عفته ونزاهته وطهارته وسمو أخلاقه فرغبت في الزواج منه.[٣]

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى قد هيأ لنبيه الخير، واصطفى له المرأة الصالحة التي رغبت في الزواج منه بمبادرة منها، وبحكمة إلهية.

و بكل أدب بعثت إليه من صويحباتها من تفاتحه في ذلك وتلمّح له في الأمر، ففاتحته وبينت له رغبة خديجة في الزواج منه، مع شرفها ومكانتها في النسب، وأن رغبتها منه لحسن خلقه وصدق حديثه، وقيل إن نفيسة بنت منية جاءت إلى النبي ﷺ وهي الخاطبة فقالت: ما يمنعك أن تتزوج، فقال ما بيدي ما

---

(١) ابن سعد، **السيرة النبوية** من **الطبقات**، ج١/ ١٣٠؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ص١٠٩؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٦٣.

(٢) انظر: محمد الطرهوني، **صحيح السيرة**، ص ١٦٧.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٨٩؛ ابن سعد، **السيرة النبوية** من **الطبقات**، ج١/ ١٣١؛ انظر: الطرهوني، **صحيح السيرة**، ج ١/ ١٦٧.

أتزوج به. قالت: فإن كُفيتَ ذلك ودُعيتَ إلى الجَمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب فسأل ﷺ ومن هي، قالت: خديجة، قال ﷺ: من لي بذلك فقالت نفيسة علَيَّ،[1] فرغب الرسول ﷺ في الزواج العفيف الصحيح ممن رغبت فيه وممن هيأها الله له واختارها.

وسارع إلى أعمامه فذهب معه عمه عَمَّاهُ وأبو طالب وبعض أشراف قريش إلى عم خديجة عمرو بن أسد وخطبوا للنبي ﷺ، وتم زواج محمد بن عبد الله ﷺ بخديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) لتصبح أم المؤمنين حبيبة رسول الله أم أولاده وبناته رضوان الله عليهم زوجة في الدنيا وفي الجنة.

كان عمر المصطفى ﷺ خمسة وعشرين عاماً، قضى معها ﷺ حوالى أربع وعشرين سنة، وأنجبت له جميع أولاده عدا إبراهيم. وقد ماتت (رضي الله عنها) ولها من العمر خمس وستون سنة. وحقق هذا الزواج لرسول الله ﷺ الراحة النفسية والحضن العاقل المميز للرسول ﷺ ومكانته، اختارها الله تعالى واختار رسوله ﷺ لها من بين سائر الرجال قبل مبعثه، وقفت بأمر الله ورحمته مع الرسول ﷺ ساعة نزول الوحي، استعملت عقلها وأحبته لما تعرف من خلق وصفات فيه، ورحمة الله بالصالحين وحسن ظنها بالله، وأنه لا يخزي الأخيار، راجعت

(١) انظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ١٣٢.

أهل العلم في زمانها [ورقة بن نوفل] حيث أخذت النبي ﷺ لمن يعلم ويثبت، كل هذا كان ثمرة من ثمرات هذا الزواج المبارك.

حادثة بناء الكعبة:

تعرضت الكعبة قبل البعثة النبوية بقرابة خمس سنوات لحادثين أدّيا إلى تصدّعها، حيث كانت قريش تغطي الكعبة بالجلود والصوف، تشكل منها أستار الكعبة، يوصل بعضها ببعض، وكان من عادتهم في الجاهلية أن يجمّروا الكعبة بشيء من البخور، فعلق بعض الجمر بأستارها فاحترقت وتصدعت، ثم تعرضت إلى سيل هدم جوانب منها، فقررت قريش إعادة بنائها من جديد.[1]

كان أسلوب البناء في مكة بسيطاً عماده الحجارة والطين وسقف من الخشب البسيط، وقد مرت سفينة آتية من بلاد الروم متجهة إلى الحبشة، ولما وصلت قبالة الشعيبة[2] الواقعة غرب مكة وهي ميناؤها في العصر الجاهلي تحطمت السفينة، وكانت محملة بالأخشاب، ومعها رجل اسمه [باقوم] مشهور بالنجارة فجاءت قريش وأخذت هذه الأخشاب، واستدعت ذلك النجار القبطي ليقوم بعمل سقف الكعبة، وبدأت قريش تهدّ ما تبقى من

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ج ١/ ١٦٠.

(٢) ميناء على البحر الأحمر مقابل مكة يعرف بهذا الاسم إلى اليوم.

الكعبة لتعيد بناءها[١] حتى وصلوا إلى أسس معينة معروفة عندهم لا يتجاوزونها ولا يمسّونها.[٢]

أنفقت قريش على البناء من المال الحلال، واستعانوا بالقبطي [باقوم]،[٣] وتقاسمت بطون قريش أركان الكعبة وزواياها، حيث اختص كل قوم بجهة من البناء لما يرون في ذلك من الشرف والفخر وحتى لا تذهب بذلك قبيلة دون أخرى أو بطن من قريش دون آخر.[٤]

وحينما أتموا البناء اختلفوا في وضع الحجر الأسود مكانه، فكل فريق من قريش يريد أن يذهب بفخرِ وَضْعِ الحجر الأسود في مكانه حتى كادوا أن يقتتلوا.[٥]

ثم اتفقوا أن يحكِّموا أول داخل للحرم، فكان أول داخل للحرم هو المصطفى ﷺ فلما رأوه صاحوا جميعاً: «هذا الأمين هذا محمد رضيّنا الأمين»، وهذه شهادة مباشرة من قومه له حتى من عاداه بعد ذلك.[٦]

---

(١) الأزرقي، **أخبار مكة**، ج ١/ ١٥٧؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٢/ ٢٢٨.

(٢) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ١٤٥.

(٣) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ١٤٥؛ السهيلي، **الروض الأنف**، ج ١/ ١٢٤.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٩٥.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٩٧.

(٦) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٩٧.

فما كان منه ﷺ إلا أن وضع رداءه، وحمل الحجر الأسود ووضعه على الرداء، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطرافه وحملوه، حتى إذا وازى موضعه في الكعبة وضعه الرسول ﷺ بيده الشريفة، فرضي القوم وطابت نفوسهم[١].

وقد جزم أصحاب السِّير على أن عمر الرسول ﷺ حين إعادة بناء الكعبة كان خمسة وثلاثين عاماً.[٢]

إرهاصات ما قبل البعثة:

الله سبحانه وتعالى اصطفى نبيه وأدبه ورباه وعلمه قبل البعثة بل وقبل الولادة وبعدها،[٣] ولم يعلم أحد من البشر بذلك لحكمة يعلمها الله، وإن كانت البشرية قاطبة وأهل الديانات السماوية خصوصاً بانتظاره ﷺ، وقبيل البعثة حدثت لرسول الله ﷺ بعض الأمور التي تدل على قرب مبعثه، كما سلك ﷺ بعض السلوكيات التي فيها مزيدُ تقَرُّبٍ إلى الله وتفكُّرٍ في ملكوته.

ثم كان من هذه الإرهاصات الرؤيا الصالحة كما ورد في حديث عائشة (رضي الله عنها): «إن أول ما بدأ به رسول الله

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٩٧، **مسند الإمام أحمد**، ج٣/ ٤٢٥.

(٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٢/ ٣٢٤؛ الذهبي، **السيرة النبوية**، ص ٧٧.

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص١٠٩؛ ومحمد علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٧٦.

ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». [1]

ثم كان رسول الله ﷺ يخرج في شعاب مكة وأوديتها متفكراً في خلق الله يطوي البطون والأودية متأملاً متفكراً ذاكراً الله تعالى موحِّداً على ملة إبراهيم. [2]

مع ما مضى من عمر الرسول ﷺ قبل الوحي فإن الوحي لم يكن عنده ولا بمشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ثم إنه حُبِّب إليه الخلاء ﷺ، حيث كان ﷺ موحِّداً على ملة إبراهيم، كارهاً لما عليه قريش، مؤمناً بالله وحده، متفكراً في مُلكه، فحبّب إليه الخلوة، واختار لذلك غار حراء[3] في جبل إلى الشرق من مكة يعرف اليوم بجبل النور على يسار الخارج إلى الطائف من طريق السيل، ــ اليوم ــ فكان ﷺ يصوم ويخلو في الغار الأيام والليالي ذوات العدد تقرباً إلى الله تعالى، حيث هُدِي إلى ذلك، ولم يأته به أمر، لكنه سلوك فطري يقرب إلى الله تعالى سلكه المصطفى ﷺ، حتى قيل إنه يمكث شهراً

---

(١) من رواية البخاري، **كتاب بدء الوحي**، حديث رقم ٣؛ وابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/ ٢٣٤.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٣٤.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٣٤.

من كل سنة، وقد حُبّب إليه ذلك كما ورد في حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: «ثم حُبّب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنّث ــ يتعبد ــ فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء». (١)

وكان ﷺ في هذه المرحلة لم يُبعث بعد كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ١٦].

كان شهر رمضان أحبَّ الشهور إلى النبي ﷺ خلوةً وصياماً قبل مبعثه، وكانت خديجة تصبر على بُعد النبي عنها في خلوته، وتعلم أنه رجل خير لن يصيبه من الله إلا كل خير، وتواسيه وتشجعه، وكان ﷺ إذا قضى خلوته ورجع إلى مكة بدأ بالحرم(٢)وطاف حول الكعبة متجنباً الأصنام.

كان الغار بوضعه الجغرافي يعطي فرصة قوية للاطلاع على الفضاء ورؤية الأرض من علو ومعرفةِ عظيمِ خلق الله تعالى. (٣)

وكان ﷺ منذ أن وعى كريماً معطاءً وقد زاد عطاؤه وكرمه

---

(١) رواه البخاري، **فتح الباري**، ج ٢٦/ ١٩٧. ومسلم، ج ١/ ١٣٩، ١٤٠.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٣٥.

(٣) محمد أبو شهبه، **السيرة النبوية**، ص ٢٥٦.

وكثرت مساعدته للمحتاجين عندما قارب الأربعين من عمره، حتى صارت صفة من صفاته التي تميز بها ﷺ، وذكرته بها خديجة عند نزول الوحي، ولعل صدقاته كانت تكثر في شهر رمضان قبل أن يوحي الله كما كانت كذلك بعد مبعثه: «حيث كان أجود ما يكون في رمضان ﷺ».[1]

(١) انظر: حديث البخاري في صحيحه، **باب كيف كان بدء الوحي**، (٥)، ج ١/ ٤.

البعثة والاصطفاء

الوحي:

الوحي بمفهومه الشرعي: «إعلام الله أنبياءه ورسله بما يبلغه الوحي لهم من شرع أو كتاب»[1] بواسطة أو مباشرة ويعني ما أنزله الله على أنبيائه، وله معنى لغوي يعني الإعلام الخفي والسريع.[2]

نزول الوحي:

لم يُعرف عن النبي ﷺ قبل نزول الوحي أي ذكر له، أو حديث.

ولم يتقوّل بشيء من عنده أو يتحدث عنه ﷺ أو يتعلم شيء من الوحي المنزل على الأنبياء السابقين، أو أشكاله قبل بعثته

---

(١) صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، ص٢٣.

(٢) أبو شهبة، **المدخل لدراسة القرآن الكريم**، ص ٧٣، محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج١/ ٢٦٧.

ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]. وفي شهر رمضان بعد أن بلغ رسول الله ﷺ الأربعين من عمره نزل عليه الوحي لأول مرة بغار حراء، في جبل النور بمكة المكرمة، قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٢]. في تلك الليلة المباركة جاء الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو كما أوضحت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في حديثها المشهور الذي رواه البخاري عن عروة بن الزبير عن خالته عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت

ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. (١)

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) فقال: زمِّلوني، زمِّلوني فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فذكر لخديجة ما رآه وما سمع، وأخبرها وقال: لقد خشيت على نفسي فقالت، خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتُقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزلّ الله على موسى يا ليتني فيها جَذَعاً [شابّاً]؛ إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أوَمُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودِي، وإنْ يدركني يومُك أنصركَ نصراً مؤزّراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي. (٢)

---

(١) صحيح البخاري، **كتاب بدء الوحي**، الحديث (٣)، ج ١/ ٣؛ وانظر: شرح ابن حجر له في **فتح الباري**؛ وانظر: **ابن كثير في تفسيره**، ج ٢/ ٢٠١٠.

(٢) انظر: ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص١٠٣.

وورد أنه ﷺ قال: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [سورة المدثر].(١)

إن أول الآيات نزولاً على رسول الله ﷺ وكل الآيات كذلك رحمة من الله تعالى تفتح العلم الإلهي للبشرية وسائر أنواع العلوم (إنها القراءة اقرأ) وأي قراءة باسم ربك ومن ربك، إنه الخالق لك وللخلق استقبل الوحي الإلهي بأمر الله، وليس من تلقاء نفسه، إنه الوحي الذي نزل على من قبله من الأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣]، وقد تتابع القرآن بعد ذلك واتضح الوحي وأنواعه وأحواله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، ويقول تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ

(١) ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ١٩٣٤.

وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩١ ـ ١٩٤]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٧]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

كان شوق الرسول ﷺ للقرآن ولتعلمه وحفظه شديداً في بداية الوحي، وفي كل حياته، فنزل قول الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٨]، وقوله تعالى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

بدء الدعوة:

حين نزول سورة المدثر كانت واضحة في أمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله وإنذار الخلق الذين بعث إليهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ

فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]، إنها الرسالة والدعوة، وما تتطلبه من جد وعمل وإنذار وصبر وطهارة إنه إنذار الخلق وقيادتهم إلى الله وتوحيده، والخلوص من الشرك، والاستعداد لذلك بالطهارة والنقاء والبعد عن الشر، وحب الخير للناس إنه القيام بأمر الله، قال تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ٢]، إنه أمر الله لرسوله بتكبير الله مع العباد.

وأم المؤمنين خديجة هي أول من أسلم وآمن بالرسول ﷺ[١] لم يسبقها بذلك لا ذكر ولا أنثى، كما أنها (رضي الله عنها) هي أول من صلى مع رسول الله ﷺ.[٢]

كما سارع إلى الإسلام بنات النبي ﷺ، ولذلك فإنهن أسلمن مباشرة مع أمهن خديجة، وخصوصاً الكبار منهن، اقتداء بأمهن وتصديقاً بأبيهن، ولعل الأم لها دور في دعوتهن (رضي الله عنهن). وقد نص بعض العلماء على أنه: «لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناتها».[٣]

كما كان في بيت النبوة علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي كان في رعاية المصطفى ﷺ، تخفيفاً على والده في عبء النفقة،

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٤٠؛ وابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٢٦.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٤٤. الصلابي، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٢٦.

(٣) انظر: محمد أبو شهبه، **السيرة**، ج ١/ ٢٨٤

فأكرمه الله بذلك، وكان من المستجيبين مباشرة لدعوة النبي ﷺ، ولم يصل عمره عشَر سنوات.[1]

وبقاء علي رضي الله عنه في بيت النبوة نال به شرف الحياة مع رسول الله ﷺ قبل مبعثه، واطلع من أموره على ما لم يره غيره وهناك رجل آخر نال شرف العشرة والتعامل مع الرسول ﷺ وهو مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه،[2] الذي آثر البقاء مع رسول الله ﷺ على العودة إلى أهله وقال لأهله: شهدت منه ما يجعلني لا أدعه، حينما رغبوا في دفع ثمن له وأخذه معهم وكان مولى رقيقاً لرسول الله ﷺ فبادر الرسول ﷺ بعتقه ودعاه باسمه وأصبح كل من هو داخل بيت رسول الله ﷺ مؤمناً به، الزوجة والبنات وابن العم والمولى، فكانوا يصطفون وراء إمامهم رسول الله ﷺ مصلين مصدقين مؤمنين،[3] وهذا من رحمة الله لرسوله ومن صدقه، حيث آمن به من في بيته جميعاً.

وأول من أسلم وآمن برسول الله ﷺ من الرجال أبو بكر الصديق رضي الله عنه،[4] وهو صاحب رسول الله ﷺ منذ وقت مبكر،

---

(١) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٣٠؛ محمد أبو شهبه، **السيرة**، ج ١/ ٢٨٤؛ والصلابي، **السيرة**، ج ١/ ١٣٧.

(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٣٧.

(٣) انظر: حديث البخاري في **فضائل الصحابة**، رقم ٣٦٦١؛ وابن كثير، **السيرة النبوية**، ج١/ ٤٣٧.

(٤) انظر: ابن أبي **شيبة**، **المغازي**، ص ١٣٠.

ربطتهما علاقة خاصة، عرف كل منهما صدق الآخر وجربه وعرف أمانته.[١]

وكان رجلاً مباركاً تحرك منذ إسلامه داعية للإسلام ولرسول الله ﷺ، كان ينتقي الرجال الصادقين العقلاء ليدعوهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ، وقد أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنه معظم العشرة المبشرين بالجنة ومنهم عثمان بن عفان، والزبير ابن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنهم أجمعين.[٢]

وقد أخذ الإسلام ينتشر سراً بين قريش، وزاد عدد المسلمين وكان بعض المسلمين لا يعرف بإسلام الآخر، وكل من أسلم يعمل داعية لله ورسوله ﷺ، ويعرض الإسلام على من يثق به ممن حوله.[٣]

كان المسلمون الأوائل من أشراف مكة وفيهم من المستضعفون من أمثال بلال بن رباح وعمار بن ياسر وخباب بن

---

(١) انظر: **فضائل الصحابة** عند البخاري في صحيحه، **باب مناقب أبي بكر الصديق**، ج ٥/ ١٩٢.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٢٥- ١٣٨؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٥٠.

(٣) صالح الشامي، من **مَعين السيرة**، ج ١/ ١٩٨.

الأرت وعبد الله بن مسعود، وكان معظم المسلمين من الشباب.

كما كان فيهم عدد من النساء، منهن أسماء بنت أبي بكر الصديق، وفاطمة بنت الخطّاب، وفاطمة بنت المحلل، وفكيهة بنت يسار، ورملة بنت أبي عوف، وأمينة بنت خلف زوجة خالد ابن سعيد بن العاص، وسمية أم عمار (رضي الله عنهم أجمعين) وغيرهن،[١] وبالتالي تكونت بيوت وأسر مسلمة وسط مجتمع مكة الكبير.

كان المسلمون الأوائل يشاركون بعضهم في تلاوة القرآن والصلوات مختفين في الشعاب والأودية والبيوت،[٢] وقد عرفوا من خلال تلاوة القرآن والسماع من النبي ﷺ أن أتباع الأنبياء يتعرضون للأذى والقتل.

كان الرسول ﷺ يربى أصحابه على التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحَمْل هَمّ البشرية وربطها بخالقها وإنقاذها من الشرك،[٣] والاستجابة الكاملة لله تعالى ونزاهة القلوب، وحب الخير للناس، وتقوى الله والرغبة في ما عنده، وابتغاء الدار الآخرة، واتخاذ الأسباب والتوكل على الله.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٥٦؛ وانظر: إبراهيم العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٤؛ وصالح الشامي، من **مَعين السيرة**، ص ٣٨.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٤٦، ج ١/ ٢٦٣.

(٣) انظر: علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٤٤.

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم، ملتقى للمؤمنين برسول الله ﷺ وبعضهم ببعض، فيها ينهلون من نبي الرحمة مباشرة، فكان هؤلاء نواة أمة الإسلام الكبرى التي ضربت في كافة أنحاء الأرض حتى اليوم الحاضر، إنهم دعاة الخير وحملته للبشرية، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

بعد مضيّ ما يقرب الثلاث سنوات من الدعوة إلى الإسلام وانتشاره بين بطون قريش، وشدة تكتم المسلمين حتى أن بعضهم لا يعرف بعضاً،(١) نزل عليه ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، جاء أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بإظهار دعوته وإنذار قومه في قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].(٢)

فخرج رسول الله ﷺ إلى الحرم وهو منطقة فضاء، وصعد على الصفا حيث ارتفع على الصخرة وأشرف على المكان، وأخذ ينادي الناس (وا صباحاه).(٣) وكان هذا الأسلوب متبعاً

---

(١) انظر: أكرم العُمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ج ١/ ١٤٠

(٢) انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ١/ ١٠٥٣.

(٣) من رواية للبخاري في صحيحه، **كتاب التفسير**، باب سورة تبّت يدا أبي لهب وتب، ج٦/ ٩٤.

عند العرب للدعوة للاجتماع والاستماع لمتحدث في أمر هام وخطير عند الإحساس بذلك، وأخذ ﷺ ينادي في قريش: «يا بني فهر، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، يا بني فلان، يا بني فلان، حتى اجتمع القوم فقال أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصدِّقِيَّ؟ فقالوا ما جربنا عليك كذباً، لقد كانت تلك شهادة عامة من الجميع بصدق الرسول ﷺ فقال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم، فكان في الحضور عمه أبو لهب فرد عليه بعنف وقسوة وتجبر: «تباً لك سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا». (١)

فنزل رسول الله ﷺ وقد بلّغ علناً أمام أهل مكة جمعاء أمر ربه، وكان رد أبي لهب وهو عمه ومن أقرب الناس إليه رداً قاسياً عنيفاً صعباً وأنزل الله على رسوله ﷺ وفيه آيات تتلى إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١ ـ ٥]. لم يكن موقف العناد خاصّاً بأبي لهب، بل شاركه فيه امرأته التي استمر أذاها للرسول ﷺ. (٢)

كما أنه ﷺ قال في تلك الدعوة الأولى: «يا معشر قريش

---

(١) انظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢٠٠، وإبراهيم العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٦.

(٢) انظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢٠٠.

اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئتِ من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً».[1] كان كلام رسول الله ﷺ واضحاً وقوياً وهو يدعو إلى الله وأنه نذير ولن ينفع أحد إلا الصلة بالله وطلب رضاه، وأن قرابتهم له لن تنفعهم وحدها ولا يملك رسول الله ﷺ شيئاً لمن لم يطلب رضا الله بالإيمان والتوحيد والتصديق.

أذى المشركين للرسول ﷺ ومالقي منهم:[2]

كانت بداية الأذى من أبي لهب وامرأته، وأخذ قومه وخصوصاً الزعماء العتاة المعاندون، في المشاركة في أذى رسول الله ﷺ و أصحابه، وكان على رأس هؤلاء عمرو بن هشام (أبو جهل) كما أسماه الرسول ﷺ بعدما أصرّ على الكفر والعناد، وكان يسمى عند الجاهليين أبا الحكم بن هشام.[3]

---

(١) انظر: صحيح البخاري، **تفسير سورة الشعراء، باب وأنذر عشيرتك الأقربين**، ج ٦/ ١٦، وانظر: التخريج عند إبراهيم العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٦.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، باب ما جاء في أذى قريش للنبي ﷺ وما لقي منهم، ص١٠٧؛ وانظر: **البخاري في صحيحه**، باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين في مكة، ج ٤/ ٢٣٨.
وانظر: سليمان بن عبد الله بن السويكت، **محنة المسلمين في العهد المكي**، مكتبة التوبة، ط ١، الرياض، ١٤١٢هـ.

(٣) انظر: ابن حبيب، **المنمّق في أخبار قريش**، ص ٣٤٠، ٣٦٦.

وأما زعيمة المؤذين لرسول الله ﷺ من النساء فكانت امرأة أبي لهب، وتسمى جميلة بنت حرب.[1]

إن هذا الأذى لرسول الله ﷺ استمرَّ بعد الجهر بالدعوة عشر سنوات، يضاف إليها ثماني سنوات بعد الهجرة حتى فتح مكة، كان يحمل لواءها عتاة القوم، فإذا سقط بعضهم، كما حدث في بدر، حملها آخرون، حتى أذن الله بفتح مكة والقضاء نهائياً على قوتها، وكانت في بداية الجهر بالدعوة جميلة زوجة أبي لهب من أشد الناس أذى لرسول الله، وقد آذى أبو لهب وامرأته أم جميل رسول ﷺ بقية حياتهما حتى هلكا على الكفر.

كانت قريش وكفارها يصبون شتى أنواع الأذى على رسول الله ﷺ ويستهدفون ثنيه ومن معه عن الإسلام، كما كانوا يصدون الناس عن السماع لرسول الله ﷺ بعد أن انتشرت دعوته ويعقدون الاجتماعات ويحيكون المؤامرات لمنع الناس من السماع لهذا الدين، كما كانوا يوجهون أشد أنواع الأذى الجسدي والمعنوي لرسول الله ﷺ في محاولة منهم للصد عن سبيل الله.

ومع ما لقي رسول الله ﷺ شخصياً من أذى قومه فقد كان عمه أبا طالب يمنع عنه الأذى بما يستطيع، وكان لا يزال على دين قريش يحسبون له حساباً، وخصوصاً في بداية الدعوة أملاً

---

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢/ ٢٠٤٥.

منهم أن يكون عوناً لهم على النبي ﷺ كحال أبي لهب، لكنه كان عوناً للنبي ﷺ ومدافعاً عنه،[1] فوصله ﷺ من الأذى الشيء الكبير مع دفاع عمه عنه.

ويتنزل القرآن حياً على رسول الله ﷺ في حال هؤلاء المعاندين، يرصد ما قالوا ويبادرهم برد من لدن حكيم عليم. إذا استشعر الإنسان القصة والرد الإلهي على هؤلاء علم أنه قرآن محكم منزّل على رسوله، منجّم حسب الحوادث، آيات تتلى إلى يوم القيامة، وقد كان أبو جهل وغيره من عتاة الكفر وأسياد مكة المتكبرين، يتواصون بعدم السماع لكتاب الله فينزل على رسوله، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

كما أنهم إذا سمعوا تكبّروا فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]. وحاولوا أن يسخروا من الرسول ﷺ ويستنقصونه ببشريته وفعله ما يفعل الناس، فكان رد القرآن عليهم واضحاً، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۚ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٦٥؛ ابن سعد، **السيرة النبوية** من **الطبقات**، ج ١/ ٢٠١؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٦٤.

لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] رداً على من أنكر أن يبعث الله بشراً، وقالوا لو كان ملكاً فرد عليهم القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام]، وطالب بعضهم أن يكون معه ملك، فجاء قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، وطلب أولئك المعاندون آيات وعلامات، ليس بحثاً عن الحق ولكن عناداً ومكابرةً، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

كما أتهم الرسول ﷺ بأنه يتعلم القرآن من بعض النصارى في مكة أو من غلمانهم،[1] فرد عليهم القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقد حاولوا تفريق جمع المسلمين فاتهموا أتباع الرسول ﷺ بأنهم الضعفاء وأردوا منه فراقهم ليجلسوا معه، فنهاه القرآن عن ذلك وأمرهم بالثبات، وأمر الرسول ﷺ بالصبر معهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ويتنزل القرآن حياً في كل مناسبة يرد عليهم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج ١/ ١٠٧٧.

واتهموا الرسول ﷺ بأنه جاء بأساطير الأولين، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٥ ـ ٦]، واتهموه بالمجنون، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦]، واتهموه بأنه ساحر، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾[ص: ٤]، وطالبوا بأمور مختلفة أخرى، قال تعالى: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، كما دافع القرآن عنه وعن استهزائهم بالنبي وذكّره بالأنبياء قبله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وكان القرآن الكريم يذكر الرسول ﷺ بأن من قبله من الأنبياء نالهم من الأذى واستهزئ بهم من أقوامهم.

المضطهدون الأوائل والشهداء:

لم يكتف المشركون بأذى الرسول ﷺ بل صبوا جام غضبهم على أصحابه في محاولة منهم لإرجاعهم عن الإسلام وصدهم عن دين الله وتأديب بقية قريش وخصوصاً الشباب وتخويفهم بما يمكن أن يحصل لهم لو أسلموا كما حصل

للمؤمنين ولرسول الله ﷺ، فكان الأذى البدني لمن اتبع الرسول ﷺ جزاءً في الصد عن سبيل الله وإبعاد الناس عن دينهم، لكن هذا لم يؤثر فيهم، وصمد الأبطال منهم، فكانوا أمثلة للمسلمين عبر الزمان تُحتذى في الصبر والتحمل والشهادة في سبيل الله والصبر على دينه، والأمثلة على هؤلاء الأبطال رجالاً ونساءً سمية وياسر وابنهما عمار، وبلال الحبشي رضي الله عنه.

كما كان هناك عدد من الإماء نالهن عذاب مواليهن من قريش، منهن حمامة أم بلال بن رباح، وأم عنيس، وزنيرة، وجارية بني المؤمل والنهدية وابنتها، وكانتا جاريتين لامرأة من بني عبد الدار من قريش،[1] وقد تعرضن جميعهن للأذى ومحاولة حرفهن عن دينهن وقد كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه دور في إنقاذهن بأن اشتراهن من أهلهن وأعتقهن في سبيل الله.[2]

وكان سعد بن أبي وقاص من أوائل المؤمنين برسول الله ﷺ، وكانت عنده أُمٌّ هو أبرّ الناس بها قبل إسلامه، فلما أسلم زاد في بره بها ولم ينقص، فلما علمت بإسلامه ـ وكان مطيعاً لها ـ أرادت بحكم معرفتها ببره واستجابته لأمرها أن تثنيه عن الإسلام وتوقعه في حيرة، فقالت يا سعد: لتدعن هذا الدين أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فقال لها: لا تفعلي يا أمّه فإني

(١) محمد أبو شهبه، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٤٦.
(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣١٩.

لا أدع ديني لشيء، فلما رأت إصراره بدأت إضراباً عن الطعام والشراب، فمكثت يوماً وليله لم تأكل فأصبحت جاهدة، فاستمرت على ذلك إلى اليوم الثالث وهي لم تأكل، فأصبحت تريه حالها وجهدها لعله يترك دينه، فلما رأى ذلك قال: يا أمّه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني لهذا الشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي،[1] وكانت تذكره بأمر دينه ببرّ الوالدين وهو يدرك أن الدين لا يُترك لأجل ذلك، ونزل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥].[2]

الهجرة الأولى إلى الحبشة.[3]

اشتد الأذى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، وكان الرسول ﷺ يواسي أصحابه ويأمرهم بالصبر ويضرب لهم الأمثلة

---

(١) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١/ ١٠٩؛ ابن كثير، **تفسيره**، ج ٢/ ١٤٢٦.

(٢) انظر: ابن كثير، **تفسيره**، ج ٢/ ١٤٦٢.

(٣) انظر: العودة، سليمان بن حمد، **الهجرة الأولى في الإسلام** (فقه المرويات)، ط ١، دار طيبة، الرياض. ١٤١٩.
أبو بكر، علي الشيخ أحمد، **معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة**، ط ١، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٣هـ.

في أتباع الأنبياء السابقين، وكان القرآن يتوالى نزولاً على رسول الله ﷺ بقصص الأمم السابقة ونصر الله للمؤمنين، وكان يعزيهم ويفتح أمامهم باب الأمل واسعاً، في وقت كان الرسول ﷺ يؤكد لأتباعه أنهم منتصرون، وإن الله سبحانه وتعالى سينشر هذا الدين في كل مكان، وكان هدفهم في هذه المرحلة المحافظة على الدين وتقديمه على كل شيء، ولو أدى الأمر لترك مكة (فراراً بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان).[1] وكان الرسول ﷺ على معرفة بالممالك المجاورة لبلاد العرب، وبأوضاعها الدينية والسياسية ومدى العدل بين ملوكهم وأنظمتها واحترامها للإنسان وحقوقه، ومع ارتباط الرسول ﷺ بالله وثقته به وتوكله عليه، فقد كان يأخذ بالأسباب ويأمر بها، وهذا جزء من الدين الذي جاء به، ولذلك فكر الرسول ﷺ في ملجأ يحتمي به المسلمون، ودار هجرة تحميه سواء دار الهجرة المؤقتة أو الدائمة بصحبة الرسول ﷺ، وقد كانت الآيات القرآنية تنزل على الرسول ﷺ تشير إلى سعة أرض الله، وإلى الصبر وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]،[2] وفي قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾

(١) انظر البخاري، صحيحه، **كتاب المغازي، باب هجرة الحبشة**، ج ٤/ ٢٤٤.
(٢) انظر: **ابن كثير، تفسيره**، ج ٢/ ١٦١٦.

[العنكبوت: ٥٦]،[١] كما أشير إلى الهجرة في وقت متأخر،[٢] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧].

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا الملجأ والمخرج بما يعلمه من أحوال الأمم فقال ﷺ لأصحابه: «لو خرجتم لأرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدقٍ حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».[٣]

وكان هذا التوجيه لعامة المسلمين القادرين خوفاً عليهم من الفتنة، وكان أول ما ينطبق عليه أمره آل بيته من المسلمين ﷺ، فكان من المهاجرين الأوائل ابنته رقية وزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه،[٤] وغيرهما من المسلمين. ولم يكونوا من المستضعفين وحدهم، بل الأشراف هم الأوائل. فخرجوا متسللين سراً وهم من الطبقات كافة، فيهم الفقير والغني، الصغير والشاب، الرجل والمرأة، وكان عددهم أربعة عشر رجلاً وامرأة، وقد وصل هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة ولقوا من ملكها النجاشي أصحمة، كل إكرام، وسمع منهم

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٤٤١.
(٢) ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٢٢.
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١ / ٣٠.
(٤) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/ ٢٠٤.

وحماهم، ومنع الأذى عنهم، وقد أسلم رضي الله عنه وصلى عليه الرسول ﷺ [1] عند موته.

وكان من علماء النصارى، ولا شك أنه ناقش المسلمين عن ما جاء به رسول الله ﷺ وعن دعوته، وأنه نتيجة ذلك دخل في الإسلام وآمن به وصدقه. وقد قرن البخاري باب الهجرة إلى الحبشة في كتاب المغازي بباب آخر أسماه باب موت النجاشي ذكر فيه خمسة أحاديث كلها تدل على إسلام النجاشي.

وكانت هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة النبوية.[2] وقد استمرت عدة أشهر، وصلت في نهايتها أخبار غير صحيحة بأن قريشاً قد أسلمت، فعاد كثير منهم إلى مكة.[3]

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

لما اكتشف المسلمون إصرار قريش على معاندة الرسول ﷺ وأذى أصحابه، وأنه لا صحة لما قيل من أخبار إسلام قريش، ظهرت الحاجة إلى خروج عدد آخر من المسلمين الذين زاد عددهم في مكة، خصوصاً بعد سماعهم بأمن أصحابهم

---

(١) **صحيح البخاري، باب موت النجاشي**، ج ٤/٢٩٦؛ وانظر: ما جاء في أمر الحبشة، وأمر النجاشي وقصة إسلامه عند ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ١٦٥.

(٢) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢٠٦.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٦٤؛ ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢٠٥.

المهاجرين الأوائل، فخرج جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ في عدد من المسلمين حتى وصل عددهم إلى ثلاثة وثمانين رجلاً وإحدى عشرة امرأة،[١] وقيل أكثر من ذلك.

وقد وصل أولئك إلى الحبشة وأمِنوا والتقوا بالنجاشي أكثر من مرة وظهر لهم صدقه وحماهم وآواهم، وقد حاولت قريش استرجاعهم لمكة، فحاورهم النجاشي وسمع من جعفر ومن معه، وقرر حمايتهم ورفض طلب قريش.[٢]

وقد جاء بعد ذلك إسلام حمزة عم النبي، ثم إسلام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حيث كان منذ إسلامه حريصاً على نصرة النبي ﷺ وإغاظة قريش. وقد كان شجاعاً، ذا شخصية قوية مميزة وفاعلة.

وكان إسلام عمر عزة للمسلمين، يقول ابن مسعود: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»،[٣] ويقول أيضاً: «لقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا نصلي».[٤]

---

(١) ابن سعد، **السيرة النبوية** من الطبقات، ج ١/ ٢٠٦.
(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨، والنص له؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٦٥ ـ ١٦٩؛ وابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٤.
(٣) رواه البخاري في صحيحه، **فتح الباري**، ج ١٤/ ١٨٦.
(٤) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٣/ ٣٧٠.

المقاطعة الظالمة : [1]

كانت قريش تمارس أقسى أنواع العقوبة والإيذاء للرسول ﷺ ولمن يؤمن به أو يدافع عنه وعن أتباعه، وقد جربت كل أنواع الأذى، كما عزمت قريش على قتل النبي ﷺ فحرص عمه أبو طالب على الدفاع عنه، وشاركه في ذلك بنو هاشم وبنو المطلب.

ويبدو أنه نتيجة للضغوط وللخوف على الرسول ﷺ فقد اضطر المدافعون عنه إلى التجمع في شِعْب بني هاشم.[2] وفي هذه الأثناء اجتمع زعماء المشركين في مكة، وذلك في السنة العاشرة من البعثة،[3] وائتمروا فيما بينهم على أن يكتبوا بينهم عقداً، يتعاهدون فيه على مقاطعة بني هاشم والمطلب ومن يقف معهم في الدفاع عن الرسول ﷺ، وكان فيه أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا يبتاعوا، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً حتى يسلّموا رسول الله ﷺ إليهم ليقتلوه، وقد كتبوا ذلك في صحيفة علقوها في جوف الكعبة، في محاولة منهم لإكسابها شرعية وإعطائها قوة تنفيذية بين قريش وأحلافها.

---

(١) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، وذكر حصار قريش رسول الله ﷺ في الشِّعب، ج ١/ ٢٠٨؛ وابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٥، خبر الصحيفة.

(٢) السهيلي، **الروض الأنف**، ج ٢/ ١٢٧.

(٣) انظر د. أكرم العُمري، **السيرة النبوية**، ص ١٨٢.

وقد استمرت هذه المقاطعة ثلاث سنوات.[1] واشتد الجوع والأذى، والحاجة في المسلمين وذوي رَحِمِ الرسول ﷺ والمدافعين عنه.

وقد اضطر المحاصَرون المقاطَعون إلى أكل ورق الشجر والجلود من شدة الحاجة، وكان في بني المطلب وهاشم حمية دفعتهم للدخول مع الرسول والمؤمنين في هذا الحصار وهذه المقاطعة، عدا أبي لهب.[2]

وأثناء الحصار كان أفراد من قريش من ذوي رحم المحاصَرين تأخذهم الرحمة فيقومون بتهريب الطعام للمحاصَرين ليلاً بشكل سري.[3]

وبعد ثلاث سنين من الحصار تلاوَمَ بعض عقلاء قريش، واتفق مجموعة منهم على الجهر بإلغاء المقاطعة، ومطالبة قريش بتمزيق الصحيفة، والعودة عن مقاطعة بني هاشم وأتباع النبي ﷺ، وكان على رأس هؤلاء الرافضين للمقاطعة المطالبين بإلغائها، هشام بن عمرو بن ربيعة، وكان من أشراف القوم، فمشى إلى رجال من قريش أَنِسَ منهم المساندة وكُرْه المقاطعة (فاستثار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة، والخروج من هذا التعاقد الظالم، ولما كانوا خمسة اجتمعوا

---

(١) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢٠٩.
(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٣٥١.
(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٥٤.

وتعاقدوا على نقض الصحيفة).[1] وقام زهير بن أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب في نادي قريش وقال: «يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكَى، لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة الظالمة».[2]

وحاول أبو جهل جاهداً منع نقض الصحيفة، لكن أصحاب الفكرة غلبوا في الحديث، فقال أبو جهل قولته المشهورة: «إنه لأمر قضي بِلَيل».[3]

وعاد الرسول ﷺ ومن معه إلى حياتهم العادية وسط المجتمع المكي، ونشطوا في التجارة بيعاً وشراءً، واستغنوا بذلك بعد أن كانوا منعوا منه، ومورست عليهم إجراءات صارمة لعزلهم اقتصادياً واجتماعياً ومعنوياً من أهل مكة.[4]

وفاة خديجة رضي الله عنها:[5]

كانت أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) نعم الزوجة والصاحبة والمؤآنسة والمعينة للنبي ﷺ، آسته بمالها، وأعانته

---

(١) أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ١٣٩.

(٢) انظر: عنوان السهيلي في **الروض الأنف**، ج ٢/ ١٢٧، وابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢١.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٧٤؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٤٥.

(٤) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢٠٩.

(٥) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٤١٥، (وفاة أبي طالب وخديجة).

بنفسها، أول من آمن به وصدقه، نعم الزوجة لخير الخلق ﷺ. أثنى عليها رسول الله ﷺ فقال في الحديث الذي رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد».[١]

كانت زوجته الوحيدة حتى ماتت، وأم أولاده وبناته، أحسن النساء خُلقاً وأحبهن لرسول الله ﷺ، دفعت عنه الأذى الكثير بنفسها، وبتوجيهها لبناتها (رضي الله عنها)، كما شارك أقاربها في الدفاع عن النبي ﷺ، إرضاءً لها، ولما يعرفونه منها عن صدق النبي وحسن عشرته.[٢]

وفي العام العاشر من البعثة النبوية،[٣] توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، وكان ﷺ راضياً عنها محباً لها، مُبشرها بالجنة في أكثر من موضع وقد كانت وفاتها في العام الذي توفي فيه عمه أبو طالب، وكان خير مدافع عن رسول الله ﷺ، ولذلك سمي هذا العام عام الحزن.[٤]

وفاة أبي طالب:

قبيل وفاة أبي طالب مرض واشتكى في السنة العاشرة

---

(١) صحيح البخاري، **كتاب المناقب** (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها)، ج ٤/ ٢٣٠.

(٢) انظر: زواج الرسول ﷺ من خديجة (رضي الله عنها) من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢١١.

(٤) الصلابي، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٦٧.

للبعثة،[1] وكان الرسول ﷺ مشفقاً عليه داعياً إياه للإسلام والخير، منذ مبعثه، ولكنه لم يؤمن ويعلن إسلامه. وفي الوقت نفسه لم يتوقف عن مساندة المصطفى ﷺ ودعمه والوقوف معه وحمايته. روى البخاري «أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: أي عَمِّ قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبد المطلب فقال النبي: «لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنه»،[2] فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].[3]

وقد كان النبي ﷺ محباً لعمه مشفقاً عليه، يرى معروفه ويشكر له وقوفه إلى جانبه، ويدرك أن لا منقذ من النار لأي كان إلا شهادة أن لا إله إلا الله، وكان ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يقولها أبو طالب، ولكن حضور أبي جهل وأمثالهم من

---

(١) انظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢١١.

(٢) انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب المناقب**، باب قصة أبي طالب، ج ٤/ ٢٤٦.

(٣) انظر: **ابن كثير**، **تفسيره**، ج ١/ ١٤٢١.

شياطين الجن وتأكيدهم على ملة عبد المطلب، حيث لم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبد المطلب.[1]

ومات على ذلك فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً وقد رأى بعض العلماء أن آية النهي عن الاستغفار للمشركين لم تكن في أبي طالب، ومع ذلك ففيها نهي عام عن الاستغفار لمن مات على غير الإسلام، ولو كانوا أولي قرابة الرسول ﷺ، وهذا واضح من الآية.

لقد كان أبو طالب مسانداً للرسول ﷺ، وبموته خفّ دعم النبي ﷺ وضعف مناصروه وتزامن ذلك مع وفاة خديجة فسمي عام الحزن.[2]

الإسراء والمعراج (٩ هـ):

الإسراء والمعراج[3] من الأحداث المهمَّة والمعجزات الخاصة بنبينا محمد ﷺ. ولعل تسمية سورة من سور القرآن الكريم بـ(الإسراء)، وورود كمٍّ هائل من الأحاديث حول الحادثة

---

(١) من حديث البخاري، **باب قصة أبي طالب**، ج ٤/ ٢٤٧.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤١٦.

(٣) أُلِّف العديد من الكتب والرسائل حول الحدث قديماً وحديثاً، ولا يزال الكثير منها مخطوطاً. انظر: **الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي، المخطوط السيرة والمدائح النبوية**، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن.

دليل على أهمية الحدث ومكانته في حياة الرسول ﷺ، وفي النبوة والرسالة.

فالإسراء هو ذهاب الرسول ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في جزء من ليلة، ورجوعه، في الليلة نفسها بطريقة معجزة ومحددة.(١)

والمعراج هو الصعود به ﷺ من بيت المقدس، والعروج به إلى السموات السبع، ورؤيته من آيات الله الكبرى ورجوعه إلى بيت المقدس في الليلة نفسها.(٢)

والإسراء فيه ربط بين بيت الله الحرام في مكة والمسجد الأقصى في بيت المقدس، وارتباط للنبي ﷺ بمن سبقه من الأنبياء، وارتباط دعوة التوحيد التي جاء بها بدعوات من سبقه ﷺ، فالرب واحد والدين واحد وأصل البشر واحد: قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] والهدف واحد، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقد نصّت الآيات على الإسراء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ

---

(١) انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٩٥؛ ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٥/ ٤٩؛ ومهدي رزق الله، ص ٢٣٣؛ ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢١٣.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٢٠؛ ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج١/ ٢١٣.

ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ومن الواضح أن الإسراء بجسده وروحه ﷺ.

بداية الإسراء حينما كان رسول الله ﷺ نائماً في بيته بمكة، فأتاه جبريل عليه السلام فأخذه إلى بئر زمزم فشقّ صدره وطهرّ قلبه وحشي إيماناً وحكمة.[١] وهذا الشق لا ينافي شقه في حوادث أخرى،[٢] وأحضر له البراق، دابة لها سرعة وحركة مخصوصة لا يعلمها إلا الله تعالى.

وركبه الرسول ﷺ، فأوصله سريعاً إلى بيت المقدس.[٣]

وعند المسجد الأقصى رُبط البراق في الحَلَقة التي كانت تربط به الأنبياء.[٤]

وصلى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم أتاه جبريل بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، فاختار ﷺ اللبن، فقال جبريل: «هُديتَ الفطرة[٥]، أما إنك لو أخذت الخمر غويت وغوِيَتْ أمتك».

---

(١) انظر: **صحيح البخاري، باب المعراج**، ج ٤/٢٤٨؛ **صحيح مسلم**، ج ١/١٤٨؛ وابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/٩٨.

(٢) انظر: حادثة شق الصدر في بني سعد. من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/٣٩٧.

(٤) من **حديث مسلم**، ومن رواية **ابن أبي شيبه، المغازي**، ص ١٢٠.

(٥) من رواية **مسلم في صحيحه**، وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/٣٨٧.

وقد أورد ابن إسحاق أنه ﷺ وجد نفراً من الأنبياء فيهم إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ﷺ.[١]

ثم عُرج برسول الله ﷺ إلى السماء. وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه باب المعراج[٢] أورد فيه حديثاً مطولاً عن أنس بن مالك، ذكر فيه معلومات مختصرة عن رحلة الإسراء والمعراج، مع أن تفصيلاتها في روايات أخرى كثيرة.

كان رسول الله ﷺ يحدث عمَّا رأى أثناء المعراج في أحاديث كثيرة نقلت عنه، سواء منها وصف الجنة أم وصف النار، وقد أعطى ﷺ كنوزاً عظيمة من العلم والآيات شاهدها أثناء المعراج، فكان يحدث عنها الأمة بقية حياته في أوقات متفاوتة، مما يصعب معه الحديث عمَّا رأى رسول الله ﷺ في معراجه في حديث واحد.[٣]

وقد استشهد كثير من العلماء بما ورد في سورة النجم من آيات وربط بينها وبين المعراج برسول الله ﷺ يقول الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/٣٩٨؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٩٩.

(٢) **صحيح البخاري**، ج ٤/٢٤٨.

(٣) انظر ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/٢٧٢، ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص١٢٠.

إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١ ـ ١٨].

ثم أعيد رسول الله ﷺ من معراجه إلى بيت المقدس ومنها رجع إلى مكة في ليلته.

وحّدث ﷺ أهل مكة عن الحدث في صباح اليوم التالي، وأثار استغرابهم.

وقد تميز أبو بكر الصديق رضي الله عنه في صبيحة الإسراء بموقفه من رسول الله ﷺ فقد فرح المشركون بالخبر وهم يعرفون عقل أبي بكر الصديق وتمحيصه للأخبار، لكنهم لا يقيسون بمقاسه ذاته وبُعد نظره ونظرته للرسول ﷺ.

فسارع أناس من مشركي مكة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأخبروه بما قال الرسول ﷺ من المعراج فقال رضي الله عنه: «والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني بالخبر يأتيه من المساء في ساعة ليل أو نهار فهذا أبعد مما تعجبون منه».[1] ثم إن الصديق رضي الله عنه أقبل على النبي ﷺ يسأله

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٩٩؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٩٧.

أمام القوم ليصدقه، فكلما تحدث النبي ﷺ وذكر شيئاً قال له: صدقت، فيقول له النبي رضي الله عنه: «وأنت يا أبا بكر الصديق».[١]

وزمنُ الإسراء بدقةٍ مختلَفٌ فيه، فمنهم من يراه في شهر ربيع الأول، ومنهم من يراه في رجب وغير ذلك.[٢]

والعبرة ليست بالزمن ذاته، ولكنها في الحدث وتشريف الرسول بذلك، والدروس المستفادة منه ومعرفة ظروفه ونتائجه.

العرض على القبائل.[٣]

لقد كان من رحمة الله لنبيه ﷺ وما صنعه له وتربيته وتعليمه أن هيأ له ما جعله يتعرف على القبائل ومواطنها، فقد عمل الرسول ﷺ في تجارة خديجة، وكانت له مكانة عند أهل مكة، فكان يخالط القادمين إليها من مختلف القبائل، كما كان ﷺ من المترددين على أسواق العرب التي كثيراً منها ما يكون موسمياً حيث يقدم العرب إلى سوق عكاظ قرب الطائف،[٤] ثم

---

(١) الحاكم، **المستدرك**، ج ٣/ ٦٣؛ وصححه الذهبي؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/ ٣٩٩.

(٢) انظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢١٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٢/ ١٠٧؛ محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤١٨.

(٣) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، في النبي ﷺ حين عرض نفسه على العرب، ص ١٢٤.

(٤) انظر: ناصر الرشيد، **سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام. . تاريخه ونشأته وموقعه**، ط١، دار الأنصار، القاهرة، ١٣٩٧هـ.

ينصرفون منه للحج لقرب زمنه ثم تتصل الأسواق إلى مجنة وذي المجاز.[1]

وحينما بعث الرسول ﷺ وظهرت دعوته حاربه قومه منذ البداية، وكانت دعوته عالمية ليست محصورة بمكة وأهلها، بل هي للخلق من أنفسهم وفيهم.

وتنزل عليه من الآيات من أول البعثة ما يؤكد عالمية رسالته وإنها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وأن الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة].

فما كان ليحصر نفسه في مكة، ومنذ البداية كان يدعو في الأسواق، وبين القادمين لمكة من خارجها.

كما كان ﷺ يغشى تجمعات القبائل في موسم الحج، فيعرض دعوة الإسلام عليهم وكان يتبعه أبو لهب، محاولاً إبعاد الناس عن السماع له ﷺ. وكان النبي ﷺ يقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به. فكان أبولهب يصد الناس عنه ويَحصِبُه ويقول لهم إنه مجنون، فكان بعضهم يرد عليه رداً قبيحاً، ويقول للرسول ﷺ: قومك أعلم بك ويردون عليه رداً قبيحاً.[2]

---

(١) راجع: سعيد الأفغاني، **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٤هـ.

(٢) انظر: ابن كثير، **السيرة**، ج ٢/ ١٨٥؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٢٤.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصحب النبي ﷺ حينما كان يطوف على القبائل وخصوصاً في موسم الحج، فيضيف خبرة أخرى لمعرفته بالقبائل ومواطنها وعددها وقوتها، وكان أبو بكر يسأل أحياناً «كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة؟».[1]

وفي السنة العاشرة للبعثة والسنة التي تلتها، أكثر ﷺ من عَرْض نفسه على القبائل وخصوصاً بعد عودته من رحلة،[2] وقد نقلت المصادر بعض التفصيلات عن تلك اللقاءات.

وممن عرض الرسول ﷺ نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة، فقال أحد أشرافهم وهو بحيرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب، ثم سأل النبي ﷺ أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر لله يضعه حيث يشاء، فقال: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك.[3]

---

(١) **مسند الإمام أحمد**، ج٣/ ٤٩٢. ؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٦٦.

(٢) انظر إلى أسماء هذه القبائل وعرض الرسول ﷺ نفسه عليها عند ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٢٤؛ وراجع السمعاني في كتابه **الأنساب**.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٢٥؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٧١.

وجاء وفد الأنصار في رجب قبل الموسم الذي يليه وقابل الرسول ﷺ.[1]

وممن قابل الرسول ﷺ من القبائل بنو شيبان بن ثعلبة من بني بكر بن وائل.

فكان ردهم عليه: إن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلينا من العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم ويعرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان اللهم فلك ذلك يا أخا قريش، فتلا عليهم رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفتح: ٨] ثم نهض»[2].

لقد كان الرسول ﷺ عالمياً في الدعوة، لم يقبل من يحد من دعوته جغرافياً أو بشرياً أو زمانياً، ولذلك لم يقبل من بني شيبان إلا إجابة مطلَقَة دون أن تحدهم حدود فارس بلداً أو سياسةً.

---

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٢٥؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٢٤.

(٢) انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٢/ ١٦٧، ١٦٨؛ والصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد** ج ٢/ ٥٩٦-٥٩٨؛ والصلابي، **السيرة**، ج ١/ ٤٤٣، ٤٤٤.

كان ﷺ يؤسس لدولة إسلامية لها قاعدتها التي تنطلق منها إلى العالم كافة لا يحدها سكان ولا تقطع معاهدة أو تخالفها ابتداء، كما أنه لا يريد شروطاً تجعل السلطة من بعده لقبيلة معينة، أو زعيم معين، فهي دعوة ودولة عالمية، الإخلاص والاستجابة فيها لله تعالى وحده، وكأنه ﷺ يعلم أن هذه الدعوة ستخوض حرباً مع كسرى فارس في يوم من الأيام ولذلك لم يقبل استثناء شيبان.

اللقاء الأول بالأنصار:

كان الأوس والخزرج من سكان المدينة المنورة،[1] وقد حدثت بينهم بعض الحروب أشهرها يوم بُعاث،[2] وقد كان كل منهم يبحث عن من يحالفه، ويعضده ويساعده في هذه الحرب فكان أول سماع لهم بالإسلام.[3]

كانت هذه الحرب باعثاً لهم على السماع من النبي ﷺ حينما قدموا لمكة لطلب المساعدة، كما كانت مما دفعهم

---

(١) انظر: ابن قتيبة، **المعارف**، ص ١٠٩؛ والنويري، **نهاية الأرب**، ج ١/ ٣١١؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/ ٤٢٨؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٧٢.

(٢) أحد أشهر أيام الحروب بين الأوس والخزرج في الجاهلية. انظر: جواد علي، **المفصل**، ج٤/ ١٤٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب مناقب الأنصار**، باب مناقب الأنصار، ج ٤/ ٢٢١.

للاتحاد خلف النبي ﷺ، وقد عضتهم الحرب وأكلتهم فوجدوا بعد ذلك في مبادئه الوحدة والسلام.

وكان يهودُ يعيشون في المدينة مع الأوس والخزرج، ويحدثونهم بقرب مبعث نبي آخر الزمان ويهددونهم به، فقد ذكر أن يهوداً إذا وقع بينهم وبين جيرانهم من الأوس والخزرج قتال هددهم يهود وقالوا لهم: «إن نبياً مبعوثاً الآن قد أطل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عادٍ وإِرَمْ». فلما قابل الأوس والخزرج رسول الله ﷺ أثناء عرضه لنفسه على القبائل قال بعضهم لبعض: «تعلمون والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهودُ فلا يسبُقَنَّكم إليه».[1]

وعندما لقيهم رسول الله ﷺ، قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا يقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٢٩.

الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.[1]

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم لُقياهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى انتشر بينهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وصلها ذكر رسول الله ﷺ.[2]

بيعة العقبة الأولى:

كان الرسول ﷺ يخبر أصحابه بقرب تحديد مكان معين لهجرتهم، يجتمع فيه معهم في ذاك المهجر، وكان بعضهم قد هاجر فعلاً إلى الحبشة قبل ذلك، وما زالوا هناك، لكن الجميع كان بانتظار المكان الموحد الذي يأذن به الله لرسوله بالهجرة ليلحقوا به أو يسبقوه. وقد زاد ضغط قريش لإخراج الرسول ﷺ من مكة، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه رأى ذلك المكان، ورؤيا الأنبياء حق، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهَلِي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب».[3]

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٢٩.

(٢) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ١٧٦؛ مهدي رزق الله، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، ج ١/ ٢٨٨.

(٣) رواه البخاري، **باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة**، ج ٤/ ٢٥٢.

كان يهود قد استوطنوا المدينة وما حولها من نخيل وحَرّاتٍ [أراضٍ حجارتها سوداء نَخِرة] لمعرفتهم بموطن مهاجره ﷺ، وانتظاراً له.

وفي العام الثاني عشر من البعثة النبوية اتفق مجموعة ممن أسلم من الأنصار، وكانوا قد عرفوه وعلموا بدعوته قبل ذلك التاريخ بعدة أشهر، على أن يرتبوا للقاء خاص مع رسول الله ﷺ.

كانوا اثني عشر رجلاً،[1] عشرة من الخزرج واثنان من الأوس،[2] فيما عرف ببيعة العقبة الأولى.

وقد روى شاهد عيان من أصحاب ليلة العقبة وهو عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه» فبايعنا على ذلك.[3]

كانت هذه البيعة بيعة دعوة سلمية عمادها التوحيد والطاعة، لم يذكر فيها قتال ولذلك سماها بعض الصحابة ببيعة النساء.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية، أمر العقبة الأولى**، ج ١/ ٢٩٢.
(٢) د. أكرم العُمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ج ١/ ١٩٧
(٣) رواه البخاري، **باب وفود الأنصار**، ج ٤/ ٢٥١.

«فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم (مصعب ابن عمير)، وأمره أن يقرأهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة مصعب»،[1] كما كان إمامهم في الصلاة رضي الله عنه.[2]

وتم استقباله رضي الله عنه في المدينة ونصرته والدفاع عنه من قبل المسلمين الأوائل من الأنصار.

وكانت لمصعب رضي الله عنه جهود كبرى بمساعدة رجال من الأنصار، لنشر الإسلام في المدينة بالحسنى، وخصوصاً بين الأشراف والزعماء الذين لهم تأثيرهم على البقية.

لقد اجتهد مصعب بن عمير رضي الله عنه أيما اجتهاد عاماً كاملاً أسلم فيه على يديه عدد كبير من الأنصار، وأعدهم للقاء رسول الله ﷺ في مكة في موسم حج سنة ثلاث عشرة للبعثة النبوية.

لقد صدق مصعب بن عمير رضي الله عنه في هذا العمل وفي غيره وهو من الذين قال الله فيهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].[3]

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٩٣؛ وانظر: **حديث البخاري**، ج ٤/ ٢٦٣.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٢٩٣.

(٣) تفسير الطبري، ج ١٠/ ٢٨٠؛ تفسير ابن كثير، ج ٢/ ١٤٨٨.

بيعة العقبة الثانية:

انتشر الإسلام في بيوت الأنصار في المدينة، فكانوا يتدارسون القرآن ويصلّون خلف مصعب وينتظرون لقاء النبي ﷺ. كان هناك تنسيق بين مصعب وبين رسول الله ﷺ ليَقدُم بهؤلاء المؤمنين، حيث كانوا أشد شوقاً للقاء رسول الله ﷺ ينتظرون ذلك ويعدون له.

كما كان رسول الله ﷺ ينتظر أمثال هؤلاء المصدّقين المؤمنين. ويظهر أنه خلال لقاءات مسلمي الأنصار في المدينة كان يقول بعضهم لبعض، كما روى جابر بن عبد الله «متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟!».[1]

وقد أورد ابن إسحاق رواية مطولة ووافية في سيرته عن شاهد عيان لبيعة العقبة الثانية بتفصيلات دقيقة حيث روى عن كعب بن مالك قال: «خرجنا إلى الحجّ وواعدنا رسول الله ﷺ من أوسط أيام التشريق قال: فلما فرغنا من الحجّ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبدُ الله بن عمرو بن حَرام أبو جابر، سيِّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنَّا نكتم مَن معنا من قومنا من المشركين أمرَنا، فكلَّمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيَّد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنَّا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حَطباً للنار غداً،

(١) انظر: د. أكرم العُمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ج ١/ ١٩٨.

ثم دَعَوْناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسْلم وشَهد معنا العَقبة، وكان نقيباً.

قال: فنِمْنا تلك الليلة مع قومنا في رِحالنا، حتى إذا مضى ثلثُ الليل خَرَجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلَّل تسلُّلَ القَطا مُسْتخفِين، حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، معنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب، أمّ عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجَّار، وأسماء بنت عمرو ابن عديّ، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع.

قال فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسولَ الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه (عمه) العبَّاس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أَحَبّ أن يحضُر أمرَ ابن أخيه ويتوثَّق له، فلما جلسَ كان أوّل متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج، قال: وكانت العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوْسها: إن محمداً منَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّ من قومه ومَنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترَوْن أنكم وافُون له بما دعوتموه إليه، وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم تروْن أنكم مُسْلموه وخاذِلوه بعد الخروج له إليكم، فمن الآن فَدَعُوه، فإنه في عزّ ومَنَعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سَمِعنا ما قلت، فتكلَّم يا رسول الله، فخذْ لنفسك ولربك ما أحببتَ.

قال: فتكلم رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال أُبايعكم على أن تَمْنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ الَبراء بن مَعْرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحقّ (نبيّاً)، لمنعنَّك مما نَمْنع منه أُزُرَنا فبايعْنا رسولَ الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحَلْقة، وَرثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القولَ، والبرَاءُ يكلّم رسولَ الله ﷺ، أبو الهيثم بن التَّيِّهان، قال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، ــ يعني اليهود ـ وإنَّا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فَعَلْنا ذلك ثم أظهرك اللهُ أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسّم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهَدْم الهَدْم، أنا منكم وأنتم مني، أُحارب مَنْ حاربتم، وأسالِم من سالمتم». (١)

كان المبايعون من الأنصار رضوان الله عليهم يدركون تماماً خطورة البيعة وما يترتب عليها، حيث تختلف شروطها عن بيعة العقبة الأولى، فقد كانت بيعة حرب تختلف عن بيعة النساء. (٢) وكان هذا واضحاً، ومع ذلك فإن العباس بن عبادة الأنصاري أراد للقوم أن يعوا ما يقومون به، فقال: «يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢.
(٢) انظر: الغزالي، **فقه السيرة**، ص ١٦٠.

أموالكُم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة؟ قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه».[1]

لقد كانوا صادقين في البيعة، فقالوا لرسول الله ﷺ والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل مِنىً غداً بأسيافنا، فقال ﷺ: «لم نُؤْمَر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»،[2] فرجعوا إلى رحالهم. وقد طلب منهم رسول الله ﷺ أن يُخرجوا له اثني عشر نقيباً من بينهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، كانوا على قومهم.[3]

وبعد انصراف الناس من منى تيقنت قريش من الخبر، فحاولوا أن يمسكوا بأناس من الأنصار فتمكنوا من القبض على سعد بن عبادة رضي الله عنه، وربطوا يديه إلى عنقه وجروه إلى مكة وأخذوا يضربونه رضي الله عنه ويؤذونه ويسبونه.

احتاجت البيعة إلى تنظيم وترتيب سبقها على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه ومن آمن من الأنصار.

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٤٦.
(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٤٦.
(٣) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٩٨.

كما كان الأمر واضحاً عند الرسول ﷺ، فهو سيقف معهم كما وقفوا معه: (الدم الدم والهدم الهدم).[1]

وقد علمهم الرسول ﷺ الترتيب والنظام والمسؤولية والشورى في وقت واحد بأن طلب منهم أن يخرجوا لهم ــ بأنفسهم ــ اثني عشر نقيباً يكونون مسؤولين عن قومهم، فالمرحلة القادمة غير الماضية والترتيب والتنظيم وتحديد المسؤوليات واستشارة الآخرين من سنته ﷺ.[2]

وهكذا كان الأنصار منظمين ومستعدِّين لاستقبال الرسول ﷺ في دار الهجرة مدينة المختار دار الأنصار ورجالها.

كانت هذه البيعة إعلاناً بفتح باب الهجرة لرسول الله ﷺ مستقبلاً وفي أجل قريب ــ بإذن الله ــ وفي الوقت نفسه فتح باب الهجرة للمؤمنين ليسبقوا الرسول ﷺ إلى المدينة لتأسيس المجتمع المسلم ودولته النبوية ونظامه المدني والعسكري.

وقد شدد مشركي مكة قبضتهم على المسلمين بعد أن عرفوا تفاصيل البيعة، فضيقوا على الصحابة من مسلمي قريش وغيرهم في مكة، فكانوا يشكون لرسول الله ﷺ فيأمرهم بالهجرة، ويقول: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».[3]

---

(١) انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٩٨.

(٢) انظر: محمد الغزالي، **فقه السيرة**، ص ١٥٩.

(٣) انظر: صالح الشامي، **من مَعين السيرة**، ص ١٥٣.

هجرة أصحاب الرسول ﷺ:

الهجرة في اللغة العربية: الخروج من أرض إلى أخرى،[1] وفي المصطلح الشرعي: هي ترك بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والبلد الذي يَسْلَم فيه بدينه،[2] انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

أما سببها فهو الحفاظ على الدين وتطبيقه ونصرته والتجمع مع الرسول ﷺ وأصحابه والاستعداد لنشر الدين وبذل المال والنفس في سبيل الله، وتسهيل عبودية الله لعباده بإقامة نظام يتيح لهم ذلك.

وقد أمر الرسول ﷺ الصحابة في مكة وخارجها بأن يلحقوا بإخوانهم في المدينة، ومن المؤكد أنه لولا مضايقة قريش لما خرج المهاجرون، وبالتالي فالمهاجرون أُخرجوا من ديارهم كما يقول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

كما كان الأنصار (رضوان الله عليهم) محبين لهؤلاء

---

(١) الزبيدي، **تاج العروس**، ج ٣/ ٦١١.

(٢) انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٣/ ٦١١؛ أبو فارس، محمد عبدالقادر، في ظلال السيرة الهجرة إلى النبوية، ط ١، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٢هـ.

المهاجرين مواسين لهم، قائمين بحقهم فامتدحهم الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقد ذهب المهاجرون الأوائل ومن ناصرهم بفضل السبق على غيرهم، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وتتابع المهاجرون ومنهم ابن أم مكتوم وعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله، وعمار بن ياسر، وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود، وبلال بن رباح، وزيد بن حارثة، وحمزة ابن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو كبشة، وعبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب، والزبير بن العوام وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعتبة بن غزوان، وعثمان بن عفان ﷺ وغيرهم.[1]

وقد تحدثت المصادر عن منازل هؤلاء المهاجرين على أصحابهم من الأنصار الذين قال الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٢٩، ٣٣١.

حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

نزل بعض العزاب على عزاب مثلهم كنزولهم على سعد بن خيثمة الأنصاري رضي الله عنه.

وقد كان الأنصار يتنافسون على إيواء المهاجرين وسكناهم ومواساتهم، حتى أنهم كانوا يقترعون على سكنى من يصلهم من المهاجرين،[١] وكانت الآيات تتنزل على الرسول ﷺ في الثناء على المهاجرين والوعد بنصرهم. يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢]. وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].[٢]

وقد تحدثت الكثير من الآيات عن المهاجرين رضي الله عنهم.[٣]

أهل الصفة:

وهم عدد من المهاجرين سكنوا حجرة في مسجد رسول الله ﷺ، عرفوا بأهل الصفة، كانوا عزاباً فقراء لا يجدون ما

---

(١) عبد الحميد طهماز، **سيرة النبي**، ص ٢٤٦.

(٢) انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ٢١.

(٣) انظر: الجمل، أحمد عبد الغني النجولي، **هجرة الرسول ﷺ وصحابته في القرآن والسنة**، ط ١، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٩هـ.

يأكلون[1]، وكان رسول الله ﷺ إذا أتته صدقة بعث إليهم «أهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها». [2]

وكان ﷺ يجري عليهم كل يوم «مُداً من تمر بين رجلين». [3]

وكان رسول الله ﷺ يطلب من ذوي العائلات من الصحابة إطعامهم، فكان الأنصار (رضوان الله عليهم) يأخذون بعضاً من أصحاب الصفة إلى منازلهم فيطعمونهم ويواسونهم: «إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء وإن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس، وإن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق النبي ﷺ بعشرة». [4]

وكان بعض هؤلاء يحاول العمل في السوق كحمال، أو يحتطب أو يؤدي أي شيء ممكن من البيع أو الشراء البسيط، وما كانت ظروفهم تساعدهم ومع ذلك فإن الرجل إذا باع حطباً أو غير ذلك جاء بطعام لأصحابه. [5]

---

(١) أبو تراب الظاهري، **أصحاب الصفّة**، **دار القبلة**، جدة، ١٤٠٣هـ

(٢) رواه **الإمام أحمد في مسنده**، ج٣/ ٢٨٧.

(٣) رواه **الإمام أحمد في مسنده**، ج٣/ ٢٨٧.

(٤) أبو نعيم، **حلية الأولياء**، ج٢/ ٢٢ ـ ٣٣. الصوياني، **السيرة النبوية**، ج٢/ ٣٢.

(٥) أبو نعيم، **حلية الأولياء**، ج١/ ٣٤٨.

هجرة النبي ﷺ

أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأهله ودورهم في الهجرة:

لم يكن رسول الله ﷺ أول من هاجر من الأنبياء، فقد سبقه إبراهيم عليه السلام في الهجرة، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

كما أن اعتداءات المشركين واستفزازاتهم ومحاولتهم حبسه أو قتله ﷺ كانت وراء هجرته من مكة، وهي أحب بلاد الله إلى الله وإلى رسوله. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠]، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٦].

ولا شك أن قوم الرسول ﷺ من كفار قريش تضامنوا على إخراجه، كما عبر الله عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣].

وتؤكد آية الهجرة والصحبة إخراج الذين كفروا للرسول ﷺ ونصر الله في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

كما تؤكد الأحاديث أنه ﷺ أُخرج من مكة، وكان يدعو على من أخرجه.

ورسول الله ﷺ يحب مكة أشد الحب، فيها ولد وترعرع وتزوج ورزق، إضافة إلى ما يعلمه الرسول ﷺ ويعلمه الناس من حرمة مكة، ومكانتها عند الله.

ولعلّ ما يشهد لذلك قول الرسول ﷺ حينما التفت إلى مكة عند هجرته «والله إنّكِ لأحبّ أرض الله إليّ وإنك لأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك». (١)

هاجر عدد من أصحاب رسول الله ﷺ في الفترة من بيعة العقبة التي وقعت في اليوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة (١٣هـ) للبعثة النبوية، الأولى قبل الهجرة، وزادت أعدادهم بالتدرّج، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه مستعداً للهجرة تنفيذاً لأمر

(١) الزرقاني، **المواهب**، ج ١/٣٢٨؛ **ابن ماجه، سننه، كتاب السير، باب إخراج الرسول ﷺ من مكة**، ص ٢٣٩.

رسول الله ﷺ للصحابة بالهجرة، إلا أن الرسول ﷺ كان يطلب التريث من أبي بكر الصديق لأمر يعلمه الله ورسوله، ولا يعلمه الصديق نفسه.

وكان الرسول ﷺ ينتظر الأمر من الله تعالى والإذن له بالهجرة بتدبيره سبحانه وتعالى وهو الذي يمكر لرسول الله ويهيئ له ﷺ. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وكان الصديق رضي الله عنه يستعد لحاجة رسول الله في الهجرة وخصوصاً الرواحل وما يلزمها، قبل أن يعلم أنه رفيقه في الهجرة.

وقد اجتهدت قريش في وضع الخطط ليحولوا دون هجرة الرسول ﷺ وخططوا لقتله ﷺ.

فاتى جبريلُ عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلمَّا كانت عَتْمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعليّ بن أبي طالب: نمْ على فراشي وتَسجّ بِبُرْدي هذا الحَضْرمي الأخضر، فَنَمْ فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرْده ذلك إذا نام.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حَفْنة من تراب

في يده، فلا يَرَوْنه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩]. حتى فرغ رسولُ الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تَنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيَّبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم. قال: فوضع كلّ رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلّعون فَيرَوْن عليّاً على الفراش متسجيّاً بِبُرْدة رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائماً، عليه بُرده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام عليّ رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا.

قال ابن إسحاق: وكان مما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ

شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٢١]. (١)

كما كان أبو بكر أيضاً ﷺ خير رفيق لرسول الله ﷺ في تلك الرحلة، وظهرت منه مواقف مختلفة كان يفدي رسول الله ﷺ بنفسه، منها:

إن الرسول ﷺ لما أقبل على غار جبل ثور ليدخله طلب منه الصديق ﷺ الانتظار حتى يتأكد من الغار وسلامته للرسول ﷺ.

وأثناء جلوسهما في الغار إذا جُحْرٌ فألقمه أبو بكر الصديق ﷺ رجله وقال: يا رسول الله إن كانت لدغة أو لسعة كانت بي. (٢)

كان ﷺ خائفاً مشفقاً على رسول الله ﷺ أثناء وجودهما في الغار، ففي حديث أنس بن مالك عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، فقال ﷺ: «اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما». (٣)

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٨٤؛ وانظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج١/ ٢٢٧، وانظر: ابن كثير، **تفسيره**، ج ١/ ٧٣٤.

(٢) رواه ابن أبي شيبة، في **المغازي**، ص ١٥١.

(٣) رواه البخاري، **باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة**، ج ٤/ ٢٦٣.

إن هذا الترقب والخشية وثقة رسول الله ﷺ بالله وتوثيقه أبا بكر وطمئنته ذُكِر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]. نعم أنزل الله سكينته على رسوله.

وقد خدم أبو بكر رسول الله ﷺ أثناء الطريق.

وقد كان أبو بكر رضي الله عنه رديف النبي ﷺ، وكان معروفاً للناس لكثرة تردده على الشام، فكان يعميهم عن معرفة الرسول ﷺ وهو مطارد. روى ابن أبي شيبة:

«كانت بنات أبي بكر من المساهمات في رحلة الهجرة، فقد ورد عن أسماء (رضي الله عنها) قالت: جهزت سفرة النبي ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، فلم نجد لسفرته ولا سقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: والله ما أجد شيئاً أربطه به إلا نطاقي قالت: فقال: شُقّيه باثنين فاربطي بواحد السقاء وبالآخر السفرة، فلذلك سميت ذات النّطاقين». (١)

وقد تعرضت أسماء نفسها للأذى من مشركي مكة بعد

---

(١) ابن أبي شيبة، ص ١٤٤؛ ورواه **البخاري في صحيحه، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه**، ج٤/ ٢٥٨.

خروج الرسول ﷺ للهجرة، تقول أسماء: «لما خرج رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي». [1]

كما كان عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه يختلف بالطعام لرسول الله ﷺ ولوالده الصديق وهما في الغار، [2] قبل أخذهما طريق المدينة، كما كان يأتيهما بالأخبار.

كما كان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه يروح عليهم بغنم الصدّيق ليأخذوا من حليبها، وقد صحب الرسول والصديق في رحلة الهجرة. [3]

علي رضي الله عنه وفداؤه للرسول ﷺ وأداء أماناته:

حينما تشاورت قريش ليلة الهجرة في ما يفعلونه برسول الله ﷺ واتفقوا على قتله مجتمعين، أطلع الله نبيه على ذلك، وأمره جبريل أن لا يبيت على فراشه، فدعا ﷺ علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يبيت على فراشه، وتسجى علي رضي الله عنه ببرده الأخضر، وخرج النبي ﷺ على القوم وهم عند الباب فلم يروه.

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٨٧.

(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٥٠. ورواه البخاري في صحيحه، ج ٤/ ٢٥٦.

(٣) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٥٠.

وقد بقي المشركون يرقبون بيت النبي ﷺ، وكان بعضهم يرى الفراش وعلي رضي الله عنه فيه مسجى، فيظنونه النبي ﷺ وينتظرون، مما أعطى النبي ﷺ فرصة للخروج مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى الغار.[1]

وهذا العمل البطولي من علي رضي الله عنه واستعداده لفداء الرسول ﷺ يأتي ضمن أعمال جليلة وعظيمة قام بها ابن عم رسول الله ﷺ وصهره المبشَّر بالجنة للنبي ودعوته، وهو الذي تربى على الإيمان في بيت رسول الله ﷺ. وقد تضافرت جهود علي مع جهود أبي بكر وأهله لخدمة الرسول ﷺ في الهجرة، وأكمل بعضها بعضاً. ولا تناقض في ذلك فهو تكامل وتنافس في عمل الخير، ومحبة الرسول ﷺ وخدمته وحمايته.

وقد تأخر علي رضي الله عنه عن الهجرة قليلاً بأمر من الرسول ﷺ كيما يؤدي الأمانات والودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ لقريش، بمن فيهم المشركون، وكان علي رضي الله عنه أهلاً لأداء الأمانة ومحل ثقة رسول الله ﷺ،[2] والمؤمنين والناس جميعاً.

وقد بقي علي رضي الله عنه ثلاثة أيام بعد رسول الله ﷺ في مكة أدى فيها الأمانات ثم لحق برسول الله ﷺ في المدينة.[3]

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٨٢.
(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٨٢.
(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٩٣.

الطريق إلى المدينة[1]:

مكث رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق ثلاثة أيام في غار حراء في جبل ثور جنوب غرب مكة، عكس اتجاه الطريق إلى المدينة، زيادة في السرية وبعيداً عن الطلب.

وقد جعلت قريشاً جائزة مقدارها مائة من الإبل لمن يأتي برسول الله ﷺ حياً أو ميتاً،[2] مما دفع الكثيرين للبحث عن رسول الله ﷺ بجدية تامة في كل اتجاه وطريق قريباً من مكة.

ومع وصول المشركين إلى الغار أكثر من مرة، فإن الله حمى نبيه ﷺ.

فلما هدأ بحثُ المشركين وطلبهم، خرج رسول الله ﷺ ليلاً من الغار، ومعه أبو بكر الصديق والتقيا بعبد الله بن أُريقط دليلهما ومعه الراحلتين، فسلك بهما الطريق من أسفل مكة ثم عارض بهما الساحل، ثم مر بهما على مجازات وطرق وأودية ما كان الناس يسلكونها إلى المدينة،[3] زيادة في التعمية على المطاردين.

---

(١) انظر: حديث عائشة المطول عند البخاري، وهو أكثر الأحاديث تفصيلاً عن الهجرة برواية عروة بن الزبير، **باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة**، ج ٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري، **باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه**، ج ٤/ ٢٥٦؛ وانظر: أكرم العُمري، **صحيح السيرة**، ج ١/ ٢١١.

(٣) أُلفت أبحاث ودراسات عديدة، وعملت خرائط عدة عن الطريق التي سلكها الرسول ﷺ في هجرته إلى المدينة.

من القصص المشهورة في طريق رحلة الهجرة قصة أم معبد صاحبة الخيمة التي مرّ بها الرسول ﷺ.

ومن أشهر القصص الواردة في طريق الرسول ﷺ إلى المدينة قصة سُراقة بن مالك رضي الله عنه برواية عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: «جاءنا رُسُل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما من قتله، أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سُراقة إني قد رأيت آنفاً أَسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فحططت بِزِجِّه الأرضَ وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمتُ بها أضُرُّهم أم لا فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا

لأثر يديها عُثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكرة، فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال أَخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمان، فأمر عامر ابن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ثم مضى رسول الله ﷺ»[1].

وقد ورد ما يفيد أن الرسول ﷺ أخبره بسقوط ملك كسرى وأنه سيلبس سواريه.[2]

وتؤكد الروايات وفاء سراقة بما طلب منه الرسول ﷺ، وأنه قام بصرف بعض الباحثين عن النبي ﷺ عن المكان الذي يسير فيه.[3]

إن الإنسان ليعجب أن تأتي هذه البشارة بسواري كسرى في وقت كان الرسول ﷺ مطارداً من المشركين مطلوباً منهم حياً أو ميتاً، حيث جعلت أعظم الجوائز لمن يأتي به.

ومع ذلك فهو يحدث سراقة عن فتح فارس بلاد كسرى،

---

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، **باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه**، ج ٤/ ٢٥٦؛ وابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٤٦.

(٢) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج ٢/ ١٩.

(٣) انظر: رواية البخاري في صحيحه، **باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه**، ج ٤/ ٢٥٧؛ وابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٤٦.

وأن هذا الإعرابي سيلبس سوراي كسرى التي ما كان يجرؤ الأعراب على مشاهدتها بأعينهم أو الوصول إلى المدائن عاصمة كسرى التي تحتضنها، فكيف براعي الإبل هذا يلبسها. وقد قابل سراقة رسول الله ﷺ مرجعه من حنين والطائف في الجعرانة فأطلعه على الكتاب، فيقول رسول الله ﷺ: اليوم يوم بر ووفاء أدنُ فدنا من الرسول ﷺ وأسلم.[1]

وقد حدث بالفعل ما أخبر به ﷺ، فكانت معجزة ضمن عدد من المعجزات النبوية. ففي خلافة عمر رضي الله عنه فتحت المدائن وأتي بالغنائم وفيها سوارا كسرى وتاجه وبساطه وجواهره الغالية.

ويتذكر عمر رضي الله عنه الوعد النبوي ويستدعي سراقة بن مالك وفي مسجد رسول الله ﷺ فيلبسه سواري كسرى، ويقول له قل: «الله أكبر الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج».[2]

ورفع بها عمر صوته، ثم أُركب سراقة وطيف به أسواق المدينة والناس حوله، وهو يكبر ويردد قول عمر، حتى شهد أهل المدينة تلك المعجزة تتحقق بعد قرابة خمسة عشر عاماً من وعد رسول الله ﷺ لسراقة.

---

(١) البيهقي، **دلائل النبوة**، ج ٢/ ٤٨٩، ابن حجر، الإصابة، ج ٢/ ١٩.

(٢) انظر: أبن حجر، **الإصابة**، ج ٢/ ١٩، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٧/ ٦٨.

ومن الأحداث الأخرى في الطريق إلى المدينة أن ركباً من المسلمين كانوا في طريقهم من الشام ومعهم الزبير بن العوام رضي الله عنه لقوا رسول الله ﷺ فكسا الزبير رضي الله عنه رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً.[1]

كما ورد أن رسول الله مر ﷺ بإبل لرجل أسلمي بالجحفة وفيها غلام راعٍ فقال لمن هذه؟ قال الغلام: لرجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر وقال: «سلمت إن شاء الله»، ثم قال له: ما اسمك قال: مسعود، فالتفت ﷺ إلى أبي بكر وقال: «سعدت إن شاء الله».[2] وكان ﷺ يحب التفاؤل.[3]

الوصول إلى المدينة:

وصل المهاجرون والأنصار في المدينة خبر خُروج الرسول ﷺ «فكانوا يغدون كل غداة إلى الحَرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما طال انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أطلّ رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأبي بكر مبيضين يزول بهما السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح

---

(١) **صحيح البخاري**، ابن حجر، **فتح الباري**، ج ٧/ ١٩٣٦.
(٢) انظر: محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٩٥.
(٣) انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٥٦.

فتلقوا رسول الله ﷺ فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول[١] الموافق ٢١ سبتمبر سنة ٦٢٢م،[٢] فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ حتى أصابته الشمس، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك».[٣] وقد ذكرت بعض الروايات أن الذين استقبلوا رسول الله ﷺ عند دخول المدينة كانوا خمسمائة من الأنصار،[٤] وبالتالي فإن الذين حضروا إلى قباء بعد وصول الرسول ﷺ للقائه ربما كانوا العدد نفسه أو قريباً من ذلك، مع أعداد أخرى من المهاجرين قد لا يقلون عن المائة، كما تفيد الروايات. وقد بايعه المهاجرون عند ذلك يستشعرون الخطر والتهديد الذي يحيط بالرسول ﷺ من أعدائه، وبالتالي فهم مستعدون لحمايته وطاعته والتضحية لأجله، وقد بايعه الأنصار مرة أخرى بعد وصوله المدينة، كما تفيد رواية البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه.[٥]

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك في البخاري من أفضل ما في هذا الأمر قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في

---

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج ٤/ ٢٥٨.

(٢) انظر: عبد السلام الترمانيني؛ **أزمنة التاريخ الإسلامي**، ص ١٥

(٣) من رواية البخاري، **باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه**، ج ٤/ ٢٥٨؛ واللفظ له. وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٤٣.

(٤) د. أكرم العُمري، **السيرة الصحيحة**، ج ١/ ٢١٨.

(٥) انظر: **حديث البخاري**، رقم: ٣٩١٦.

علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيها أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النجار قال فجاءوا متقلدي سيوفهم، قال: وكأني انظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه ومَلأُ بني النجار حوله». (١)

وقد كان نزول رسول الله ﷺ في قباء على كلثوم بن الهدم من بني عمر بن عوف، وعلى سعد بن خيثمة، وكان يستقبل الناس في منزل سعد، وهو مكان لسكنى عدد من العزاب من المهاجرين رضي الله عنه. (٢)

لقد كان وصول الرسول ﷺ إلى قباء في المدينة يوماً مميزاً اتخذه المسلمون بداية للتاريخ الهجري لما يرون من أهميته. (٣)

وقد ورد ذكر هذا اليوم بذاته في القرآن الكريم مربوطاً بالحديث عن بناء مسجد قباء في قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة: ١٠٨].

إنه إشارة إلى هذا اليوم بذاته. ولعل ذلك من أسباب اتخاذ المسلمين للتاريخ الهجري، حيث ذكروا أن القرآن الكريم أشار إلى هذا اليوم بذاته، ولذلك رأوا اتخاذ التاريخ الهجري،

---

(١) من رواية **البخاري**، حديث رقم: ٣٩٣٢.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٤٣.

(٣) انظر: عمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ٢/ ٧٥٨، وانظر: **باب التاريخ** من **أين أرخوا التاريخ**، عند البخاري في صحيحه، ج ٤/ ٦٧.

ورجحوه على غيره من الآراء، كما قال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فأرّخوا بها،[1] ولذلك رأى الصحابة أنه أول الزمن الذي عز فيه الإسلام.

بقي ﷺ في قباء (أربع عشرة ليلة)،[2] قام فيها ببعض الأعمال، كان أهمها بناء مسجد قباء ــ كما ذكرنا ــ، وهو أول مسجد بني في الإسلام، شارك في ذلك رسول الله ﷺ بنفسه. ولا شك أن رسول الله ﷺ صلى بالمسلمين فيه. وكان ﷺ يحث على الصلاة فيه فقال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة».[3]

ولا يعني ربط مسجد قباء بهذه الآية تفضيله على مسجد النبي ﷺ، فكلاهما أسس على التقوى، ومسجد قباء هو المعني بهذه الآية، وصفات المطهرين وردت في أحاديث كثيرة عن أهل قباء من الأنصار وأنهم كانوا يتبعون الحجارة بالماء في الطهارة.[4]

وقد صلى رسول الله ﷺ أول جمعة في بني سالم بن عوف قبل وصوله إلى المدينة وكانت أول جمعة في الإسلام،[5] ولا

---

(١) صحيح البخاري، باب «**التاريخ من أين أرخوا التاريخ**» في كتاب **مناقب الأنصار**، ج٤/ ٢٦٧؛ انظر: **البداية والنهاية**، ج ٢/ ٢٥٣؛ وعمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ٢/ ٧٥٨.

(٢) من وراية البخاري، في **باب مَقْدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة**، ج٤/ ٤٦٦.

(٣) متفق عليه، انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ١/ ٩٠٨.

(٤) انظر: بحث مطول عن الموضوع عند **ابن كثير في تفسيره**، ج ١/ ٩٠٨.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٩٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٧١.

يزال المسجد حيث صلى ﷺ مشهوراً في المدينة وهو أحد معالمها الرئيسية.[١]

لم يكن بنو النجار وحدهم في الركب والحماية وإظهار القوة مع الرسول ﷺ بل كان بقية الأنصار والمهاجرين في الموكب المهيب، الذي تجاوز عدده الخمسمائة رجل.[٢]

كان الوصول للمدينة بداية استقرار للرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين، وبداية فرح وسرور ونور لأهلها الذين دخل الإسلام معظم بيوتهم، وقد خرج أهل المدينة حتى إن العواتق فوق البيوت يتراءين يقلن أيهم محمد فما رأين منظراً شبيهاً به.

وقد خرجت جواري بني النجار يرحبن برسول الله ﷺ مرددات:

نحن جَوارٍ من بني النجّار يا حبّذا محمدٌ من جار

وروي انه قال أتحبونني؟ فقلن: أي والله قال: «وأنا والله أحبكم».[٣]

إنه الحنو الحقيقي والود الصادق للنبي ﷺ من الأنصار صغاراً وكباراً، ظهر فرحهم حين قدم المدينة في الطرق وعلى

---

(١) انظر: عبدالعزيز كعكي، **المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة**، ج ١/ ١٤٨.

(٢) رواه **أحمد في مسنده**، انظر: محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٥.

(٣) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٥/ ١٢٥.

البيوت والغلمان والخدم: «يقولون الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء رسول الله».[١]

وفي رواية أنه عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: «يا محمد يا رسول الله يا محمد يا رسول الله».[٢] وبعضهم يردد: «جاء نبي الله جاء نبي الله».[٣]

وقد شهد البراء بن عازب ــ وهو من غلمان الأنصار ــ دخول النبي للمدينة فنقل مشاعر أهلها بقوله: «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ[٤]. وحين دخول الرسول ﷺ المدينة تنافس الأنصار رضي الله عنهم في استضافته ونزوله عندهم، كلٌّ يريد شرف نزوله ﷺ عنده، فيستوقفونه ويطلبون أن ينزل بينهم، وكل يبدي رغبته وقدرته على إكرامه والدفاع عنه ﷺ، فيقولون: هَلُمَّ إلى العدد والعدة والسلاح والمِنعة، يريد كل منهم أن يأخذ بخُطام ناقة الرسول ﷺ. فيقول: دعوها فإنها مأمورة، ودارت الناقة مرات عدة حتى بركت في موضع مسجده ﷺ وكان مربداً [فضاءٌ للأنعام وراء البيوت] لغلامين من بني النجار، وكان بعض الصحابة يصلي حوله قبل وصول رسول الله ﷺ.[٥]

---

(١) أبو شهبة **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٥.

(٢) صحيح مسلم، **كتاب الزهد والرقائق، باب حديث الهجرة**، ج ٤/ ٢٣١١.

(٣) صحيح البخاري، **باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه**، ج ٤/ ٢٦٤.

(٤) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٥٤؛ ابن القيم، **زاد المعاد**، ج٣/ ٥٥١.

(٥) من رواية البخاري، **باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه**، ج ٤/ ٢٦٦؛ وانظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٧٢.

ولكثرة الراغبين في استضافة الرسول ﷺ فقد كان محرجاً يرغب في إسعاد الجميع، وفي الوقت نفسه لديه الرغبة في النزول على بني النجار أخوال جده عبد المطلب.

فإذا بأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه يبادر بحمل رحل النبي ﷺ من على ناقته ويدخله داره فيقول الرسول ﷺ «المرء مع رحله»[1].

وذهب أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه بشرف استضافة ﷺ.[2]

المدينة وسكانها:

كانت المدينة في العصر الجاهلي تعرف بين العرب بـ(يثرب).[3] وقد وردت في القرآن الكريم بهذا الاسم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وحينما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة غيّر اسمها ليصبح المدينة وقد ورد اسمها في القرآن الكريم أربع مرات.

وللمدينة المنورة أسماء مختلفة فهي طيبة وطابة والمباركة

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٤٩١؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٧٣.

(٢) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات الكبرى**، ج ١/ ٢٣٧؛ انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٨٠.

(٣) انظر: بحث مطول عن الموضوع عند **ابن كثير في تفسيره**، ج ١/ ٩٠٨.

والمشرفة ودار الهجرة. وقد ألفت كتب خاصة عنها وعن ما ورد فيها وفضائلها.[١]

وقد شرفت بهجرة الرسول إليها ودعائه لها، ومنه قوله ﷺ: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ».[٢]

وقوله ﷺ: «اللهم بارك لنا في ثمرنا وفي مدينتنا وبارك لنا في صاعِنا وبارك لنا في مُدِّنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه».[٣]وقد أحبها الرسول ﷺ وجعل لها ﷺ حرمة وحِمى، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم من كذا إلى كذا لا يُقطع شجرها ولا يُحدث فيها حدث، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».[٤]

اكتسبت المدينة المنورة صفة عاصمة الدولة الإسلامية منذ سكنها رسول الله ﷺ، واستمر ذلك في عصر خلفائه الراشدين، فصارت أعظم المدن تأثيراً على العالم قاطبة خلال تلك الفترة وما بعدها.

---

(١) انظر: الأحاديث الواردة في **فضائل المدينة جمعاً ودراسة**، د. صالح بن حامد الرفاعي، مركز خدمة السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة، ط١، ١٤١٣هـ.

(٢) البخاري، كتاب **فضائل المدينة**. ج ٢/ ٢٢٠

(٣) مسلم، **كتاب الحج، فضائل المدينة**، ج ٢/ ١٠.

(٤) صحيح البخاري، **كتاب فضائل المدينة**، حديث رقم: ١٨٦٧.

ويقيم الأوس والخزرج في تجمعات سكنية تشكل بطون هذه القبائل.[١]

ويسود السلام في الغالب علاقات هاتين القبيلتين، كما توجد مصاهرات بينهما، غير أنه وجدت بينهما الحروب أحياناً كيوم «بُعاث» المشهور بينها.[٢]

كما أن من أهم العناصر السكانية في المدينة المنورة حين قدمها الرسول ﷺ تجمعات وقبائل يهودية، لا تقل قوة ونفوذاً عن الأوس والخزرج.[٣]

كان الرسول ﷺ تعامل مع هذا الواقع بأفضل الصور ليحصل على أفضل النتائج ويؤسس لمجتمع مدني سِلمي يسع الجميع لمن أراد الحياة الكريمة، كما جعلت رابطة العقيدة بين المسلمين هي الأساس في الولاء، وفي الوقت نفسه مدت جسور التعايش والسلام مع بقية السكان بمَن فيهم يهود فيما عرف بعد ذلك بـ (وثيقة المدينة).[٤]

وقد أقام رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب حتى بنى مسجده وحجراته ﷺ.

---

(١) النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج ١/ ٣١١.

(٢) **صحيح البخاري، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة**، ج ٤/ ٢٦٥.

(٣) انظر: الحمد، محمد إبراهيم، **الحوار في السيرة النبوية**، وزارة الأوقاف، الكويت، ١٤٢٩هـ، ص١٨٧.

(٤) الشعيبي، أحمد قائد، **وثيقة المدينة المضمون والدلالة، كتاب الأمة** العدد: ١١٠، وزارة الأوقاف، الدوحة، ١٤٢٦هـ ص ٢٩.

وقد ذهب أبو أيوب بهذا الفخر والمنقبة إلى يوم القيامة، كان الصحابة (رضوان الله عليهم) يغبطونه على ذلك حيث صارت داره مقر رسول الله ﷺ ومهبط الوحي وملتقى المؤمنين برسول الله ﷺ لعدة أشهر.

إن إكرام أبي أيوب رضي الله عنه والأنصار لرسول الله ﷺ والمهاجرين معه كان رحمةً من الله وتعويضاً عمَّا فعله مشركو مكة من طرد المهاجرين من قبل قريش والسيطرة على دورهم وأموالهم في مكة، فهاهم الأنصار يحسنون إستقبال الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين ويقدمون المواساة لهم، وها هي الأمة إلى يوم القيامة تثني على أبي أيوب الأنصاري بإكرامه الرسول ﷺ.[1]

بناء المسجد النبوي:

من أوائل أعمال رسول الله ﷺ حين وصوله المدينة تحديد موضع مسجده، فقد بركت ناقته القصواء عند موضع مسجده ﷺ[2] حيث كان «يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل؛ غلامان يتيمان في حجر أسعد ابن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته هذا ــ إن شاء الله ــ المنزل، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين ففاوضهما

(١) انظر: ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات الكبرى**، ج ١/ ٢٣٧؛ ابن حجر، الإصابة، ج١/ ٤٠٢؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ٤٠٢.

(٢) ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ١/ ٢٣٧.

بالمربد، ليتخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً». [1]

لقد كان همُّ رسول الله ﷺ إيجاد مسجد يعبد فيه الله وحده لا شريك له، [2] وأن لا يأخذ شيئاً من مال هؤلاء الأيتام ولا من مال غيرهم. ورغم أن الرسول ﷺ يأخذ الهبة والهدية، فإنه في هذا الموضع لم يقبلها، بل أمر ﷺ بدفع الثمن من ماله ولذلك قدر قيمتها ودفع الثمن لهما، ويُعد هذا المسجد أول وقف في الإسلام والمُوقِف هو المصطفى ﷺ.

«كان أول عمل قام به الرسول ﷺ اختيار موقع مسجده، وأول بناء عمله الرسول والمهاجرون والأنصار معه هو بناء مسجد قباء في طريق الرسول ﷺ إلى المدينة، ثم بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة، وقد جرى بناء المسجد النبوي زمن الرسول ﷺ مرتين، إحداهما في السنة الأولى من الهجرة، فور وصوله إلى المدينة، والأخرى في السنة السابعة من الهجرة، وكان البناء الأول أقل من الثاني من حيث المساحة، ومن حيث قوة البناء. وقد أمر ﷺ بتسوية الأرض حتى أصبحت صالحة

---

(١) من رواية البخاري في صحيحه واللفظ له، **باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه**، ج ٤/ ٢٥٤.

(٢) سعاد ماهر، «**مساجد في السيرة النبوية**»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

للبناء، وشارك ﷺ بنفسه في بناء المسجد، وكان يرتجز مع الصحابة أثناء البناء والصحابة يشاركونه في البناء. وجعل رسول الله ﷺ قبلته ناحية بيت المقدس في هذا البناء الأول الذي بني قبل تحويل القبلة.

وقد أعيد بناء المسجد مع شيء من التوسعة بعد غزوة خيبر.[1]

ولا تزال حدود المسجد النبوي زمن الرسول ﷺ معروفة ومعلمة بعلامات خضراء مكتوب عليها بشكل واضح يستطيع زائر المسجد النبوي رؤيتها وقراءة ما هو مكتوب عليها.

المؤاخاة:[2]

كان الرسول ﷺ حريصاً على إقامة روابط خاصة بين المسلمين يواسي بعضهم بعضاً، ويتفقد بعضهم بعضاً، ويعوض بعضهم بعضاً ما فقده من المال والأهل والأصحاب نتيجة إسلامه أو هجرته، ولذلك ورد أن المؤاخاة أول ما كانت في مكة قبل الهجرة بين عدد من المسلمين، منهم عمر وأبو بكر وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وأن عليّاً رضي الله عنه قال للنبي ﷺ حينها في مكة:

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٤٥؛ الواقدي، الغازي، ج ٢/ ٦٣٦.

(٢) وضع البخاري في صحيحه، **باب كيف آخى الرسول ﷺ بين أصحابه**، ج ٤/ ٢٦٧.

يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي، قال: أنا أخوك». [1]

ولما استقر المسلمون في المدينة بُعيد الهجرة عقد ﷺ بين المهاجرين والأنصار أخوة، وقد سمى الرواة كل صحابي ومن آخى رسول الله ﷺ معه، وكانت المؤاخاة في الغالب بين أنصاري ومهاجر. [2] ووجدت حالات من المؤاخاة بين بعض المهاجرين ومهاجرين آخرين ولعلها جاءت في مراحل متأخرة أو لظروف خاصة وإلا فالراجح أنها كانت بين مهاجر وأنصاري.

بناء الرسول ﷺ بعائشة (رضي الله عنها):

كان اختيار زوجات النبي ﷺ لرسوله من الله رحمة به وبالأمة، فكانت خديجة (رضي الله عنها) أكبر منه سناً، في وقت كان بحاجة لذلك، حتى إذا نزل الوحي عليه كانت خير معين ومساند، آمنت به وواسته وأعانته، وأشارت عليه بأحكم الآراء وأكثرها عوناً للرسول ﷺ، ولا شك أن هذا من عناية الله برسوله ﷺ.

أما عائشة (رضي الله عنها) فكانت المرأة الوحيدة البكر من نسائه، وكانت أصغرهن سناً وأكثرهن حفظاً، هيأها الله لنبيه

---

(١) انظر: محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٢؛ البلاذري. **أنساب الإشراف**، ج١/ ٢٧٠. ولمزيد من التوسع راجع: د. أكرم العُمري **السيرة النبوية الصحيحة**، ج ١/ ٢٤٠.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٥٠٥.

وأمرها وغيرها من أمهات المؤمنين بأمر عظيم، وهو حفظ الشريعة من نبيه وتبليغها للأمة، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وكانت خطبة عائشة بعد وفاة خديجة بفترة قصيرة.

وكان عقد رسول الله ﷺ في شوال من السنة العاشرة للبعثة، ولم يدخل بها إلا في شوال من السنة الأولى للهجرة،(١) وقيل بعد ذلك.

ولصغر عائشة دور في تكيفها مع طبائع النبي ﷺ وتربيته لها في جوانب كثيرة، حتى أنه في مرضه الذي مات فيه رغب أن تمرضه عائشة، وأن يبقى عندها حتى توفى ﷺ ورأسه في حجرها رضي الله عنه.(٢)

كانت تحفظ وتعي العلم عنه ﷺ أكثر من غيرها (رضوان الله عليها)، وامتد بها العمر حتى علَّمت أجيالاً كثيرة من الأمة، رجالاً ونساءً، سنة رسول الله ﷺ.

وكانت أحبّ نسائه إليه، ولم ترزق بولد، سميت أم عبد الله بابن أختها عبد الله بن الزبير (رضي الله عنها) وكونها بنت الصديق (رضي الله عنها) أعطاها فرصة للأخذ من رسول

---

(١) **الطبري، تاريخه**، ج ١/ ٣٤٠.

(٢) انظر: وفاة الرسول ﷺ من هذا الكتاب.

الله ﷺ ومن أبيها رضي الله عنه في وقت واحد، كما أعطى فرصة لالتقاء أبي بكر برسول الله في بيتها عندها وفي السفر.

ومن المعروف أن عائشة، بل وآل أبي بكر الصديق رضي الله عنه تشرفوا بهذا النسب كما أنها رضي الله عنها «زوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة كما ورد في الحديث الشريف».[1]

(١) انظر: تفصيلات كثيرة عن الحديث وغيره عند الذهبي في **سير أعلام النبلاء**، ج١/ ١٣٥، في ترجمته لعائشة.

تنمية المدينة ومجتمعها

جاء الإسلام إلى المجتمعات البشرية ليحببها بطاعة الله وتوحيده أولاً، وليرفع من مستوى كرامتها، وليعزز النظام، وليرفع الإنتاج، ويحمي البيئة والأرض من الفساد، ويعمرها بما يصلح للإنسانية، فكانت المدينة نموذجاً لهذا الأمر، حيث نظمها ﷺ بمختلف التشريعات، والأعمال التنظيمية والتنفيذية المدنية، ما جعل الجميع يتسابقون للإنتاج والعطاء، بدلاً من السلبية والاعتماد على الآخرين، وبدا ذلك واضحاً على المدينة التي نمت وتغيرت حالها بعد الهجرة النبوية المباركة.

وكانت البداية بأشياء معنوية في الظاهر لها أهمية كبرى، وأولها:

تغيير اسم المدينة:

كانت المدينة تعرف عند العرب قبل الإسلام بـ(يثرب)، ومعناه شيء من التثريب أو اللوم.

وقد كره الرسول ﷺ هذا الاسم وأمر بتغييره إلى المدينة،[1] ومعروف أن الاسم بذاته يعني التمدن والحضارة والاستقرار وما يتبعه من علم وعمل ونظام وعدل وغير ذلك مما يرتبط بالمدنية. وقد سماها الرسول ﷺ بأسماء أخرى مثل طابة وطيبة والمباركة والمشرفة، ودار الإيمان، والحصينة، وكلها أسماء تدعو إلى التفاؤل والنظرة الحسنة وجمال الاسم.[2]

محبة المدينة وتحريمها:

حرص الرسول ﷺ على جعل حرمة للمدينة، وحدد لها حدوداً ودعا لها ﷺ، كما ورد عند البخاري في صحيحه أنه ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها».[3] كما دعا ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد»،[4] ولا شك أن محبة المكان داع للحفاظ عليه ورعايته ودوام الإقامة فيه.

كما كان من التشريعات التي أصدرها النبي ﷺ لحفظ البيئة والحياة الطبيعية في المدينة قوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة وإني أُحرم المدينة حرام ما بين حَرّتيها وحِماها كله لا يختلى

---

(١) انظر: صالح الرفاعي، **الأحاديث الواردة في فضائل المدينة**، ص ٣٠١.

(٢) صالح الرفاعي، **الأحاديث الواردة في فضائل المدينة**، ص ٣٠٥.

(٣) صحيح البخاري، **كتاب المغازي، باب أُحُد جبل يحبنا ونحبه**. ج ٤/ ٤٠.

(٤) من حديث رواه البخاري في صحيحه، رقم: ٣٩٢٦؛ ومسلم في صحيحه رقم: ١٣٧٦.

خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها، ولا تقطع منها شجرة إلا أن يُعلف رجل بعيره ولا يحمل فيها السلاح لقتال». (١)

كما قال ﷺ: «حُرِمٌ ما بين لابَتَيْ المدينة [أي حَرَّيتها] على لساني قال: وأتى النبي ﷺ بني حارثة فقال: أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم ثم التفت فقال بل أنتم فيه». (٢)

وقد أثنى الرسول ﷺ على أهل المدينة والمقيمين فيها والآوين إليها والمهاجرين، كما قال ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها». (٣)

ومن حديث طويل قال ﷺ: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون». (٤)

التنمية السكانية:

كان ﷺ حريصاً على زيادة السكان في المدينة والتوالد بين المؤمنين، ولذلك فقد فرح ﷺ وفرح المسلمون معه بأول مولود

---

(١) من رواية **الإمام أحمد في مسنده**، ج ١/ ١١٩.

(٢) رواه البخاري، **باب حرم المدينة**، ج ٢/ ٢٢١.

(٣) رواه **البخاري ومسلم**، وانظر تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ٣٢.

(٤) من رواية **البخاري**، حديث رقم: ١٨٧٥؛ ومسلم، حديث رقم: ١٣٨٧؛ والإمام مالك، في **الموطأ**، ج ٢/ ٨٨٨

للمهاجرين بعد الهجرة النبوية وهو عبد الله بن الزبير.[1] وقد جاءت الآيات القرآنية تأمر بالمحافظة على الولد والتأكيد على رزق الله لهم مع أبائهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

كما جاءت الأوامر النبوية المختلفة، تؤكد على أهمية تكاثر المسلمين مع حسن تربيتهم وإعدادهم ومن ذلك قوله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».[2]

وأول إحصاء سكاني عرف في الإسلام كان في عهد الرسول ﷺ، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، يقول حذيفة بن اليمان فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل».[3] كان هذا اهتماماً مباشراً لمعرفة الطاقات البشرية وكان ﷺ يوجه كل فرد لما يصلح له.

ومن المعروف حثّ الرسول ﷺ على الهجرة إلى المدينة، ومع ذلك فقد كان حريصاً على ضبط الأمور وأن لا تخرج عن الحدود وتربك المدينة وتنظيمها، وتوقع الخلل في تركيبتها السكانية، ولذلك حينما أسلمت بعض القبائل وأرادت الهجرة

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ٣٩٠٩؛ **كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة**، وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٥٢.

(٢) رواه **الإمام أحمد في مسنده**، ج ٣/ ٢٤٥.

(٣) الخزاعي، **تخريج الدلالات السمعية**، ص ٢٣٠.

بكاملها إلى المدينة أمرهم الرسول ﷺ أن يلزموا ديارهم، ويتعلم بعضهم من بعض، ويكونوا مستعدين لأوامره.[١]

كما أوقفت الهجرة بعد فتح مكة،[٢] مما يعني الإبقاء على توازن سكاني في المدينة وفي غيرها.[٣]

ليس هذا فحسب بل إن التوزيع السكاني داخل المدينة كان مهماً، ولذلك لما بنى الرسول ﷺ مسجده النبوي، وعلم الأنصار بفضله والصلاة فيه أراد بنو سلمة أن يتركوا منازلهم في أطراف المدينة ويقتربوا بمساكنهم من المسجد النبوي فلم يحبِّذ الرسول ﷺ ذلك منهم،كما في رواية أنس: «أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره رسول الله ﷺ أن تُعرّى المدينة، وقال: يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم، فأقاموا».[٤]

التنمية المعنوية:

إن زيادة عدد السكان دون الاهتمام بالنوعية والتميز لا قيمة له، ولذلك فإن رسول الله ﷺ كان حريصاً على كل فرد مسلم

---

(١) انظر: عمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٨.

(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٤٧؛ عمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ٢/ ٤٨٣.

(٣) انظر: **صحيح البخاري**، رقم: ٣٤٠٥، ٣٤٠٦، ٣٤٠٧، باب ٥٤، يلي **باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح**.

(٤) رواه البخاري، **كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة**، حديث رقم: ١٨٨٧.

أن يحس بتميزه ومكانته دون تكبر، مقروناً ذلك بالخشوع لله والخضوع له واللين مع المسلمين والرحمة للعالمين، وذلك يلزم تغذية الروح المعنوية وتقويتها لدى جميع الأفراد، وبناء الثقة في نفس الإنسان منذ أيامه الأولى في الحياة، وتقوية حاله النفسية، ابتداءً باسمه الذي ينادى به، حيث حرص الرسول ﷺ على التسمية بأفضل الأسماء،[1] بل وتغيير الأسماء القبيحة إلى حسنة والكنى السيئة إلى طيبة، فشارك في تسمية عدد من المواليد في أيامه ﷺ من أمثال عبد الله بن الزبير،[2] والحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وغيرهم من المواليد في المدينة بعد الهجرة.

كما غير أسماء بعض الصحابة[3].

كما كان ﷺ يعطي الشباب وعامة الناس دفعات معنوية من خلال مناداتهم بأحبّ الأسماء والألقاب والكُنى إليهم، فينادي الصغير يا بُني ويكنيهم، فينادي أخاً صغيراً لأنس بن مالك فيقول: يا أبا عمير، هذا كله في آحاد الناس وأفرادهم. أما عموم أمّة محمد ﷺ فإن الله سبحانه وتعالى قال عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. كما علم الأمة كلها المحبة بعضهم لبعض وللعالم كله والرحمة بكل كائن حي.

---

(١) انظر: د. عدنان الوزان، موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، ج ٥/ ٣٥.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المغازي، ص ١٥٣؛ وانظر: رواية البخاري في فتح الباري، ج١٥/ ١٠٤.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٤/ ٢٤٥؛ ترجمة جُعال بن سراقة الضمري.

التنمية العلمية:

جاء الإسلام منذ نزول القرآن وأول آياته على الرسول ﷺ الأمي ليذكر بالعلم والقلم وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق][1]، في وقت كان العرب يسودهم الجهل والأمية والخرافات والأساطير، ولا يمكن مقارنتها مع غيرها من البلدان والشعوب المجاورة، بل وحتى مع المجتمعات اليهودية والنصرانية في بلاد العرب.

كان الرسول ﷺ في المدينة يحث على العلم والتعليم.[2] ولا شك إن لذلك الأمر تأثيره على مجتمع المدينة وتنميته علمياً، وكانت مجالسه ﷺ مجالس علم.

كان الصحابة يقرأون قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة].

كان الرسول ﷺ المعلم الأول في المدينة يعلم الناس القرآن وأمور الدين وهو نظام عام وقانون وشريعة للحياة.

---

(١) لمزيد من التوسع راجع كتاب، الحربي، محمد بن أحمد، **إقرأ باسم ربك**، ط ١، نادي جازان الأدبي ١٤٢٢هـ.

(٢) لمزيد من التوسع راجع كتاب، الوكيل؛ محمد السيد، **الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه الراشدين**، ط١، دار المجتمع، جده، ١٤٠٦هـ.

وضع البخاري في صحيحه كتاباً سماه: كتاب العلم[1] أورد فيه ثلاثة وخمسين باباً، في أحاديث عديدة وشرح آيات مختلفة مثل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد قال الرسول ﷺ: «لا حسدَ إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلط على هِلْكته [إنفاقه] في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».[2]

وكان الرسول ﷺ يأمر المتعلم بتعليم الآخرين، فقد حثّ النبي ﷺ وفد عبدالقيس على تعليم قومهم، فقال لهم: «ارجعوا إلى أهلكم فعلموهم».[3]

---

(١) انظر: **صحيح البخاري، الكتاب الثالث، كتاب العلم**، وفيه (٥٣) باباً من الحديث رقم: ٥٩ إلى الحديث رقم: ١٣٤.

(٢) **صحيح البخاري**، حديث رقم: ٧٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٨٧.

كانت الكتابة في المدينة تتركز بالدرجة الأولى لدى اليهود، الذين كانوا يعرفون الكتابة والقراءة ويعلِّمونها أبناءهم فيما يعرف بالمدارس،[١] وكان تركيزهم على الحروف العبرية يكتبون بها اللغة العربية. وقد تعلم على يهود بعض الأوس والخزرج.[٢]

وعرف المسلمون قيمة الكتابة قبل الهجرة، حيث أن فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد في مكة كانا يقرآن سورة طه من صحيفة بين أيديهم مع خباب بن الأرت، وذلك حين دخل عليهم عمر بن الخطاب واكتشف إسلامهم.[٣]

وقد كان عبادة بن الصامت يُعلم أصحاب الصِفّة القراءة والكتابة.[٤]

وبعد نهاية غزوة بدر كان هناك مجموعة من الأسرى من مشركي قريش ممن يحسنون الكتابة والقراءة لا مال لديهم لفداء أنفسهم من الأسر، فقبل الرسول ﷺ أن يعلم الواحد منهم عشرة من غلمان المدينة الكتابة والقراءة، مقابل أن يطلق سراحه،[٥] فتعلم يومئذ الكتابة والقراءة جماعة من غلمان الأنصار.

---

(١) راجع: محمد العيد الخطراوي، **المدينة في العصر الجاهلي**، ص ٩٩.

(٢) انظر: مصطفى الأعظمي، **كُتاب النبي ﷺ**؛ المكتب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٤٠١هـ.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٤٥.

(٤) د. أكرم العُمري، **المجتمع المدني في عهد النبوة**، القسم الأول، ص ٩٦.

(٥) انظر: غزوة بدر من هذا الكتاب.

ولعل الحرص بعد ذلك على كتابة القرآن والسنة التي بدأت في أيام الرسول ﷺ تُعد من أهم أسباب إتقان أهل المدينة للكتابة، وكذلك الحال في كُتَّاب النبي ﷺ، الذين ساهموا في كتابة رسائله إلى أمرائه والى ملوك العالم والذين وصل عددهم بعد ذلك إلى قرابة ستين كاتباً.[1]

ولعل أهمية حقوق الآخرين وضرورة توثيقها تعد دافعاً رئيسياً للكتابة. وهذا ما أشارت إليه أطول آية في القرآن الكريم التي عرفت بآية الدين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِۢبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِۢبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ

---

(١) انظر: مصطفى الأعظمي، **كُتّاب النبي ﷺ**، ص ١٧٩؛ وانظر: محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، وأحمد عبدالرحمن عيسى، **كتاب الوحي**، دار اللواء، ط ١، الرياض، ١٤٠٠هـ، وجمال الدين أبي **عبد الله محمد بن أبي حديده**، **المصباح المُضِي في كُتّاب النبي ﷺ**.

كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وعُرف أن بعض النساء كنّ يُجدن الكتابة ويعلِّمنها بعض النساء في عصر الرسول ﷺ، ولعل ذلك كان بتشجيع من النبي ﷺ، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله وهي من بني عدي بن كعب من قريش أسلمت وهاجرت إلى المدينة «ألا تعلمين حفصة رُقْيَة النملة كما علمتها الكتابة». (١)

وقد وجد غيرها من معلمات النساء القراءة والكتابة في المدينة في العصر النبوي. (٢) ونحن نعلم أن الحث على العلم والتعلم الوارد في السنة النبوية وقبله في القرآن الكريم ليس خاصاً بالرجال دون النساء، بل عامّاً للأمة بأجناسها وأعمارها وفئاتها كافةً.

ولعل تصور عدد الكُتّاب في المدينة قبل هجرة النبي ﷺ وارتفاع عددهم بعد الهجرة بحوالى أربع سنوات، يعطينا انطباعاً عن مدى انتشار الكتابة في المدينة بعد الهجرة، وبتأثير مباشر من الرسول ﷺ، ومن المتوقع أن العدد تضاعف ثلاث أو أربع مرات. ولاشك أن القراءة والقلم الأداة الأولى للعلم هي ما أشير إليه في أول آيات نزلت على المصطفى ﷺ، قال تعالى:

---

(١) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٢٤.

(٢) انظر: عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، القراءة والكتابة**، ص ٣٥.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

مع التأكيد ـ في الوقت نفسه ـ على حال النبي ﷺ وأن أميته معجزة في حقه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

التنمية الاجتماعية:

كان مجتمع المدينة قبل الإسلام وهجرة النبي ﷺ كأي مجتمع عربي جاهلي تسوده أعراف وعادات قبلية، فيها الكثير من الجهل وبعضها كان مستحسناً.

وأينما حل الرسول ﷺ، المبعوث رحمة للعالمين، حلت معه الأخلاق العالية والصفات الحميدة التي جاء بها، وأراد الله نشرها بين الناس، وبالتالي بدأت تمتد يد التغيير الاجتماعي في مجتمع المدينة.

حيث المساهمة في التلاحم الاجتماعي وتحديد المسؤولية،[1] ونشر الصدقة، ومواساة المحتاجين والفقراء، ودعم التكافل الاجتماعي سواء بين المهاجرين والأنصار، أم المحتاجين من عامة المسلمين، بل والصدقة والإحسان على غير المسلمين، إضافة إلى التوجيهات النبوية بالعفة والاستغناء

(١) إبراهيم حركات: **السياسة والمجتمع في العصر النبوي**، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٢٣٧.

عن الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥].

وهناك مصادر للدخل تؤدي لفساد أخلاقي واجتماعي حاربها الرسول ﷺ، كالزنا الذي جاء الإسلام حاسماً في تحريمه وتشديد العقوبة عليه، وهو من أهم أبواب الفساد الاجتماعي، وضياع الأنساب واختلاط النطف وتفشي الأمراض النفسية، وضياع المسؤوليات وقطيعة الأرحام، وجاء التشديد في ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾[المؤمنون: ٦].

كما جعل للأزواج حقوقاً محددة، وأمر بالاحترام وحسن العلاقة بينهما والمودة والرحمة والإحسان المتبادل، وطبق ﷺ ذلك في تعامله مع زوجاته فكان مثالاً حياً في هذا الجانب.[1]

كما كانت الخمور تشكل عبئاً كبيراً على المجتمع، وتعد من مصادر الفخر لدى العرب، مع أنها تجلب مختلف المشاكل، فجاء الإسلام ليحرمهما تدرُّجاً حتى أصبحت من الكبائر،[2] فتغير سلوك كثير من الناس بتحريمها.

---

(١) أديب الكمداني: **فن تعامل النبي في الحياة الزوجية**، ط ١، دار البشائر الإسلامية، دمشق، ١٤٢٥هـ، ص ١٧.

(٢) انظر: **صحيح البخاري، كتاب الأشربة**: (باب إنما الخمر والميسر والإنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)، وانظر: **الأحاديث من رقم: ٥٥٧٥ حتى ٥٦٠٢**.

وقد جاء الإسلام لزيادة الروابط الاجتماعية فجعل صلة الرحم من أعظم القربات إلى الله تعالى، وتفقد ذوي الأرحام والإحسان إليهم والنفقة عليهم من أبواب الثواب العظيمة مقرونة بالتوحيد والعدل، يقول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النحل: ٩٠ ـ ٩١].

كما جعل بر الوالدين واجباً شرعياً مقروناً بطاعة الله تعالى والتقرب إليه، يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وجعل حسن العلاقة بالجار واجباً شرعياً، يقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وجعل التعاون على البر والتقوى سمة اجتماعية عامة، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن

صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

كل هذا عمل على زيادة التلاحم الاجتماعي وإصلاح المجتمع في المدينة بعد الهجرة، والرقي به وتفقد بعضه بعضاً وعفو البعض عن الآخرين.[1] يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩ ـ ٤٠].

ناهيك عن الوصايا العامة في الأخلاق وحسن التعامل والإعراض عن الجاهلين، يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ويقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

كما أمر بالدفع بالحسنى عند الضرورة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وجعل الأخلاق العالية هدفاً سامياً للفرد والمجتمع.

---

(١) كُتبت مؤلفات عدة حول التغير الاجتماعي من خلال السيرة النبوية، من ذلك كتاب حنان اللحام، **هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي**. دار الفكر، بيروت، ودمشق، ط٢، ١٤٢٣هـ.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٢].

وجعل الناس سواسية كأسنان المشط، ولم يفرق بينهم، وأعلن القرآن أن أصل البشرية واحد، ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وحرم التكبر والاستعلاء على الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان: ١٨].

وجعل صلاح المجتمعات والأرض عموماً هدفاً عاماً للمسلم، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وجعل التواصي بالحق والصبر عليه أمراً إنسانياً واجباً، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

كما أن العبادات الإسلامية كلها دافع للسلوك والقيم ناهية عن الفحشاء والمنكر ومنها الصلاة، يقول الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

هذه القيم الاجتماعية حلّت في مدينة الرسول ﷺ مع الرسول بعد الهجرة، وأحدثت تنمية اجتماعية لم يعرف تاريخ الإنسانية لها مثيلاً.

التنمية الصحية:

كانت المدينة قبل وصول الرسول ﷺ تعاني عدداً من المشاكل الصحية لدى السكان، منها ما يرتبط بالبيئة، وخصوصاً الحمى المنتشرة بين أهلها بسبب المزارع وما يرتبط بها من مستنقعات، فدعا لها رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا وَصَحِّحْهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ».[1] ومن الواضح من الدعاء اهتمام الرسول ﷺ بصحة المدينة وأهلها.

كما أن الرسول ﷺ مرض كغيره من البشر،[2] وشجع

(١) رواه البخاري، **كتاب فضائل المدينة**، ج ٢/ ٢٢٥.

(٢) انظر: حسين، مؤنس، التاريخ الصحي للرسول ﷺ سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠م.

الناس على التداوي[1]، والبحث عن العلاج في قوله: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء».[2]

وداوم على التطبب. وكان يؤكد على العلاج الطبيعي كالعسل وغيره فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «الشفاء في ثلاثة: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي».[3]

كما وقف ﷺ موقفاً حازماً من الخرافات التي تسبب الأمراض النفسية والجسدية من الطِّيَرة والتشاؤم، وأثبت للناس الفأل الحسن، وكان يأمر باستعمال بعض النباتات كالحبة السوداء وغيرها.[4]

أما في مجال الطب الوقائي فقد وضع ﷺ أساسه في قوله: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».[5]

كما أنه وضع قواعد مهمَّة في الصحة والطب الوقائي والعلاجي، من خلال الحمية وعدم الإسراف في الأكل وصيام

---

(١) انظر: **الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب**، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح وعمر حمزة، من هدي النبي المسمى «سفر السعادة»، مركز الكتاب، ط ١، ١٤١٧هـ. ص ٢٢٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، **فتح الباري**، ج ٢١/ ٢٥٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون**، ج ٧/ ٢٠، وانظر شرحه عند ابن حجر، **فتح الباري**، ج ٢١/ ٣٤٢.

(٤) انظر: ابن القيم، **الطب النبوي**، ص ٢٢٩.

(٥) صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ٢١/ ٣٠٣.

الفريضة والتطوع، ومن ذلك قوله: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، بِحَسْبِ ابن آدم لقيمات يُقِمنَ صُلبه، فإن كان لا بدّ فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه». [١]

وكان ﷺ يُقرُ دعوة الأطباء للمرضى، كما حصل لسعد بن أبي وقاص حين مرض في حجة الوداع. [٢]

وأقر ﷺ الرُّقية الصحيحة من القرآن والدعاء.

وفي أيامه ﷺ أقيم أول مستشفى في الإسلام، حيث أقامت رُفيدة الأسلمية (رضي الله عنها) في غزوة الخندق خيمة في مسجد رسول الله ﷺ تداوي فيها الجرحى، [٣] وقد وضع فيها رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بعد جرحه في غزوة الخندق، فقال: «اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب». [٤] كما ساهمت أوامر الرسول ﷺ بالنظافة والحرص على الاغتسال في الحد من الأمراض وانتشارها.

وكان لوصاياه ﷺ في نظافة الأكل وطرق حفظه وتغطيته دور في المحافظة على الصحة العامة للإنسان.

---

(١) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٨.

(٢) انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٣/ ١٤٧؛ **والبخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع**، حديث رقم: ٤٤٠٩.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٣٨؛ وابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٣٠٣؛ **الطبري، تاريخه**، ج ٣/ ٦٧٣.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٣٨.

وحث الرسول ﷺ على الختان وبعض الأعمال الجسدية التي تساهم في الحد من الأمراض والجراثيم في قوله: «خمس من الفطرة، الختان، والاستحداد [حَلْق العانة]، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب».[1]

وقد ألفت كتب متعددة في الطب النبوي كلها مبنية على ما ورد عن الرسول ﷺ في سنته.[2]

وقد أثرت تلك التعليمات عموماً في المدينة المنورة، وتأثر بها أهلها وطبقوها في حياتهم العامة والخاصة، وإن كانت موجهة لعامة الأمة، إلا أن مجتمع المدينة في أيام الرسول ﷺ تأثر بها وأحدثت فيه نقلة قبل غيره وساهمت في تطويره صحياً ذلك التطور الذي بدأ لحظة وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، ولا يزال أثره إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

التنمية الاقتصادية:

كان رسول الله ﷺ منتجاً منذ صباه، فقد رعى الغنم على قراريط لأهل مكة، لكي يكسب ويساعد عمه أبا طالب في إعاشة أولاده، وقد قال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كنت أرعاها على

---

(١) **صحيح مسلم**، ج ١/ ١٥٢.

(٢) انظر: ابن القيم، **الطب النبوي**؛ **الذهبي**، **الطب النبوي**؛ ابن جلجل، **طبقات الأطباء**؛ ابن أبي أصيبعة؛ **طبقات الأطباء**..

قراريط[1] لأهل مكة». [2] وحين بلغ ﷺ مبلغ الرجال استأجرته خديجة ليتاجر لها في مالها، [3] فكانت له رحلات متعددة لأجل التجارة.

ومن أقواله ﷺ في الحث على العمل والإنتاج «ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». [4]

وكان ﷺ يضرب الأمثلة للصحابة بالأنبياء العاملين الحرفيين المنتجين فقال: «كان زكريا نجاراً». [5]

وقد وردت عند المحدثين أبواب مختلفة مليئة بالأحاديث النبوية التي تحث على الكسب والإنتاج والعمل، منها عند البخاري (باب كسب الرجل من عمل يده). [6]

وعند ابن ماجه (باب في الحث على المكاسب)[7] وعند الدارمي (باب في الكسب وعمل الرجل بيده). [8]

---

(١) جمع قيراط، وهو الجزء من الدينار. ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٠/ ٥.

(٢) رواه **البخاري في صحيحه**، ج ٣/ ٤٨، **باب رعي الغنم على قيراط**، حديث رقم: ٢٢٦٢.

(٣) انظر: زواج الرسول ﷺ من خديجة وترجمتها من هذا الكتاب.

(٤) رواه **البخاري في صحيحه**، **باب كسب الرجل من عمل يده**، حديث رقم: ٢٠٧٢.

(٥) **سنن ابن ماجه**، ج ٢/ ٧٧٣.

(٦) صحيح البخاري، **كتاب البيوع**، الأحاديث من رقم: ٢٠٧٠إلى ٢٠٧٥.

(٧) **سنن ابن ماجه**، ج ٢/ ٧٧١.

(٨) **الدارمي، سننه**، ج ٢/ ٢٤٧.

وكان سلوك الرسول ﷺ مع أصحاب المهن والعاملين في المدينة مشجعاً لهم، فهو يستجيب لدعوة خياط إلى طعام،[١] ويودع ابنه إبراهيم للرضاعة عند امرأة حداد.[٢]

وكانت لهذه التصرفات وغيرها دور في تغيير نظرة أهل المدينة وغيرهم ممن يحتقرون بعض المهن كالحدادة، وغيرها.[٣]

وقد ساهمت مختلف تشريعات الإسلام التي طبقها ﷺ في زيادة الإنتاج في المدينة، ونموها الاقتصادي في المجالات كافة ومنها:

تنمية التجارة:

حينما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة كانت التجارة تتركز في يد يهود، يسيطرون على أسواقها، وخصوصاً سوق بني قينقاع[٤] المعروف باسمهم، وهو أشهر أسواق المدينة، حين هاجر ﷺ، وكان حريصاً على أن لا يُغلب المسلمون على الأسواق واقتصاديات المدينة.

ومن المعروف أن المدينة المنّورة زراعية بالدرجة الأولى

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، ج ٣/ ١٣.

(٢) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٩٨.

(٣) انظر: عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي**، (موقف الإسلام من الحرف والصناعات)، ص ٤٣.

(٤) عمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ١/ ٣٠٤.

قبل الهجرة النبوية وبعد الهجرة، ولم يمنع ذلك من وجود من يشتغل في التجارة.

وسوق بني قينقاع تزدهر بالناس للتجارة، لبعض الأوس والخزرج نشاط تجاري فيها، مع وجود أسواق صغيرة خاصة بهم، مثل سوق (مزاحم)،[1] إلا أن أسواق المدينة وتجارتها بصفة عامة كانت أقلّ من مكة بكثير.

وتمتاز المدينة بمنتجاتها الزراعية من التمور، وغيرها من المنتجات الزراعية، والمصنوعات البسيطة، مما أوجد نشاطاً تجارياً ملموساً، وكان يهود المدينة يسيطرون على رؤوس الأموال ويقرضون الناس بالربا مما ساعدهم في السيطرة والنفوذ داخل المدينة.

وحينما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنّورة كان معظم المهاجرين معه من قريش وفيهم نزعة التجارة، فكان الكثير منهم ما إن يصل إلى المدينة حتى يسأل عن السوق، فيشتري ويبيع بحثاً عن الرزق، فعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لما قدم المدينة آخى الرسول بينه وبين (سعد بن الربيع) فقال سعد ابن الربيع: إني من أكثر الأنصار مالاً، وسوف أقسم مالي بيني وبينك، وانظر أي زوجتيَّ هويت نزلت لك عنها، فإذا حلّت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن بن عوف: لا حاجة لي بذلك،

(١) السمهودي، **وفاء الوفاء**، ج ٤/ ١٣٠٦.

ولكن هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق بني قينقاع، ثم إن عبد الرحمن بن عوف أخذ يتردد على السوق حتى جمع مالاً كبيراً ثم تزوج.[1]

وكان عمر رضي الله عنه ممن يتاجر في الأسواق بعد الهجرة، حتى أنه حين فاته حديث رسول الله قال لمحدثيه: «ألهاني الصَّفْق بالأسواق».[2]

وحينما يأمر الرسول أصحابه بالصدقة كانوا ينطلقون إلى الأسواق للعمل ولو أُجراء، يقول أحد الصحابة «كان رسول الله ﷺ إذا أمر بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل فيصيب المد وإن لبعضهم لمائة ألف».[3]

وقد أحسّ الرسول ﷺ بسيطرة اليهود على التجارة في المدينة عن طريق سيطرتهم على سوق بني قينقاع، فأراد ﷺ أن يجعل للمدينة سوقاً آخر بعيداً عن سيطرة اليهود، فضرب رسول الله قباء في موضع (بقيع ابن الزبير) فقال: هذا سوقكم، فأغاظ هذا العمل يهود وأحسوا بخطر هذا السوق ومنافسته لهم، فجاء كعب بن الأشرف فدخل القبة وقطع أطنابها، فقال رسول الله

---

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب (كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه)، حديث رقم: ٣٩٣٧.

(٢) **صحيح البخاري**، ج ٣/ ١٩.

(٣) **صحيح البخاري**، ج ٣/ ٥٢، ويفهم من الحديث أنهم اغتنوا بعد ذلك حتى وصل بعضهم إلى مائة ألف درهم أو دينار.

ﷺ: لا جرم لأنقلها إلى موضع هو أغيظ من هذا، فنقلها إلى موضع سوق المدينة، ثم قال: «هذا سوقكم، فلا ينقص منه أو لا يضيق، ولا يؤخذ فيه خراج». (١)

منع الرسول ﷺ أن يؤخذ على أحد كراء في سوق المدينة الجديد مما سبب ازدهاره وكثرة الوافدين إليه. كان اختيار الرسول لهذا السوق موفقاً، حيث كان هو المدخل، مما جعل سوق المسلمين يتلقى الوفود والتجار حال وصولهم إلى المدينة، وقبل وصولهم سوق بني قينقاع، الأمر الذي أغضب اليهود، ولهذا دوره في ازدهار التجارة والبيع والشراء بين المسلمين وغيرهم وتحريك الجانب الاقتصادي لديهم.

وزادت التجارة في سوق المسلمين بالمدينة تدرّجاً، نتيجة نشاط المهاجرين الذين كان أغلبهم من قريش والتجارة تجري في عروقهم، فكان أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ممن يعملون في البيع والشراء، وكان عثمان رضي الله عنه وطلحة بن عبيد الله ممن يبيعون (البـز) في سوق المدينة.

وكان الرسول يمر على البائعين في سوق المدينة ويشتري منهم ويحذرهم من الغش، وكان الصحابة يشاركون في رحلات تجارية إلى الشام أيام الرسول ﷺ، فقد لقي الزبير رسول الله

---

(١) السمهودي، **وفاء الوفاء**، ج ٢/ ٧٤٩؛ عمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ١/ ٣٠٤؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٨.

ﷺ أثناء رحلة الهجرة في ركب من المسلمين كان الزبير معهم وهم تجار قافلون من الشام.[1]

وحدث أن قدمت إلى المدينة تجارة من الشام والرسول ﷺ قائم يخطب على المنبر يوم الجمعة، فانصرف الناس عن الرسول وذهبوا إلى العير حتى لم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].[2]

وقد كانت أسواق المدينة كغيرها من أسواق الحجاز تعرض فيها مختلف أنواع السلع سواء منها المنتجة محلياً أوالمستوردة من بلاد أخرى كالشام وغيرها.

ورغم انشغاله ﷺ بالجهاد في سبيل الله فإنه كان يراقب أسواق المدينة بنفسه ويصدر توجيهاته لمن يرتاد السوق، فقد زار السوق مرة «ووجد عند أحد البائعين طعاماً فأعجبه حُسْنُه فأدخل رسول الله ﷺ يده في جوفه فأخرج شيئاً ليس بالظاهر فأفف لصاحب الطعام [قال له أُفٍّ] ثم قال: لا غشَّ بين المسلمين، من غشّنا فليس منا).[3]

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٤٩. (وانظر: موضوع الهجرة النبوية).

(٢) انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب البيوع باب** (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)، ج ٢/ ٣.

(٣) رواه الترمذي في سننه، ج ٣/ ٦٠٦؛ ورواه الدارمي في سننه، ج ٢/ ٢٤٨.

وكانت للرسول ﷺ توجيهات كثيرة سارت عليها الأمة، وكانت أساساً للبيوع في الإسلام كما هو وارد في كتب الحديث والفقه.[1]

التنمية الزراعية:

الزراعة من أهم الحرف التي عرفها الإنسان وأقدمها، وذلك لأنها تسدّ حاجة طبيعية لدى الإنسان، فهي أهم المصادر الأساسية، يتم عن طريقها تأمين الغذاء للإنسان، كما أنه عن طريقها يتم تأمين بعض الحاجات اللازمة، ومن المعروف أن الزراعة في أي مكان أو زمان تتأثر بعوامل بشرية وأخرى طبيعية، إضافة إلى الأنظمة والتشريعات المرعية.

ولعل هناك بعض الظروف والمفاهيم كثير منها خاطئ. وحينما جاء الإسلام أخذ يشجّع على الزراعة والعمل فيها وفي غيرها من الحرف، وجعلها عبادةً شريطة أن لا تصرف المسلم عن العبادات الأخرى.

كما يدعو الإسلام المزارعين إلى دفع زكاة ما يخرج لديهم من زرع.

وكان أصحاب الرسول ﷺ يعملون بالزراعة في المدينة،

---

(١) راجع: ابن قدامة، **المغني**، (ج ٤، ٥، ٦)؛ **فتاوى ابن تيمية**، المجلد التاسع والعشرون، الفقه (البيع).

حيث كان الأنصار أصحاب مزارع فلما قدم عليهم المهاجرون قال الأنصار للنبي ﷺ: «يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا النخل، قالوا: (لا). فقالوا: تكفونا المئونة ونشرككم في الثمرة قالوا: سمعنا».[١]

وكان الرسول ﷺ يمنح إقطاعات لبعض الصحابة وغيرهم كي يستغلوها في الزراعة،[٢] فقد أقطع الزبير بن العوام أرضاً بالمدينة استثمرها في الزراعة في حياة الرسول.[٣]

كما أقطع علياً بن أبي طالب عيوناً نواحي ينبع اشتهرت فيما بعد بكثرة إنتاجها وعمل فيها علي رضي الله عنه بنفسه.[٤]

كذلك فإن الرسول ﷺ أمر الصحابة رضي الله عنهم باستغلال الأراضي الزراعية وشجّع على ذلك فقال ﷺ: «من أحيا أرضاً

---

(١) انظر: هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة من هذا الكتاب؛ وصحيح البخاري، ج ٣/ ٦٧.

(٢) انظر: مسعود يحيى الآغا، **الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي**، دراسة مقارنة مع كل من الإقطاعين الجاهلي والأوروبي في العصور الوسطى، سلسلة الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، الإصدار الثاني، ١٤٢٧هـ. العمري، أكرم ضياء، **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة**، دار اشبيليا، الرياض، ١٤١٧هـ. ص ١٧.

(٣) انظر: نص الإقطاع وتخريجه عند محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ٣١٩.

(٤) عمر بن شيبة، **تاريخ المدينة**، ج ٢/ ٢٢٢.

ميتةً فله فيها عبادة، وما أكلت العانية منها فله منها صدقة».[1] وهذا يعني أن ذلك نوع من العبادة.

وقد شجعّ الرسول ﷺ على استغلال الأراضي ووضع قاعدة شرعية سارت عليها الأمة من بعده في تملّك الأراضي حيث قال ﷺ «من أحيا أرضاً مَواتاً فهي له».[2]

وقد ورد كثير من الأحاديث مما يرغّب المسلمين في الزرع، حتى أن البخاري (رحمه الله) جعل باباً في كتاب المزارعة سمّاه (باب فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه).

وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة»،[3] كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل».[4]

تنمية التعدين:

التعدين هو التنقيب واستخراج المعادن الخام من مناجمها والاستفادة منها، و بلاد الحجاز لا تخلو من المعادن، وقد

---

(١) **سنن الدارمي**، ج ٢/ ٢٦٧؛ والعانية الطير وغيره مما له روح.

(٢) **صحيح البخاري**، ج ١٠/ ٨٤.

(٣) **صحيح البخاري**، ج ١٠/ ٦٧.

(٤) رواه **الإمام أحمد في مسنده**، ج ٣/ ١٩١؛ وانظر: د. عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز**، ص ٨٥ ـ ٨٧.

عرف التعدين في العصر الجاهلي ثم النبوي. ويتبين لنا ذلك من النصوص، حيث ذُكر أن (أبا الحصين السُلمي) قَدِم بذهبٍ من معدن، فأتى به النبي ﷺ.[1] وهم يطلقون لفظة (معدن) ويريدون به المنجم أو ما يؤخذ منه المعدن.

كما أن الرسول ﷺ أقطع (بلال بن الحارث المُزني) معادن القبيلة،[2] وهي من أعمال الفرع بالمدينة وهي جبال بين المدينة وينبع، وقد تعددت المناجم في منطقة الحجاز.

ومن المعروف أن استغلال تلك المعادن كان بدائياً نظراً لضآلة إمكانات أهل المنطقة، وصعوبة الحفر والتنقيب في تلك الأيام، لأن الأعمال كلها يدوية والخبرات قليلة،[3] ومما لا شك فيها أن تعامل الرسول ﷺ مع بعض أصحاب تلك المناجم (المعادن) فيه شيء من التشجيع، فالإقطاع يهدف لاستثمارها والعمل فيها وتنميتها واستخراج معادنها. كما كان للتشريعات المرتبطة بأنصبة الزكاة في الرِكاز [ما ركزه الله في المعادن] وتدخل فيها المناجم (المعادن)، دور في تقوية دورها الاقتصادي في حياة الأمة وتهيئة المسلمين لاستغلالها وإدراجها في منظومة الزكاة والأنشطة الاقتصادية.

---

(١) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٤٤.

(٢) ابن سلام، **الأموال**، ص ٣٤٨.

(٣) د. عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز**، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

تنمية الصناعات

الحدادة:

كانت المدينة كغيرها من مدن الحجاز تحتوي على صناعات بسيطة وخصوصاً التحويلية منها، وكان العرب يحتقرون بعضاً منها، فيمتهنها الموالي واليهود بالدرجة الأولى، ومن ذلك الحدادة.

وحين جاء الإسلام غير ﷺ من تلك النظرة، فيصف زكريا بأنه نجار، ويوصف داود في القرآن الكريم بعمل الدروع وصناعة الحديد، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ثم يقول الرسول ﷺ قارناً بحديثه عن داود عليه السلام «ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».[١]

وقد كان خباب بن الأرت حداداً في مكة قبل الهجرة، ولم

---

(١) رواه **البخاري، في صحيحه**، ج ٣/ ٩.

يَعِبْ عليه الرسول ﷺ، ولعله بعد هجرته إلى المدينة استمر في المهنة نفسها.

وقد استرضع الرسول ﷺ لابنه إبراهيم من امرأة أبي سيف وكان حداداً في المدينة وحدث أنه ﷺ «أتى إلى أبي سيف وكان ينفخ في كيره وقد امتلأ البيت دخاناً».[1]

ومما يلفت النظر تسمية سورة من سور القرآن الكريم بسورة الحديد، مما يدل على أهميته قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ولكن تغيرت نظرة الناس لهذه المهنة.[2]

الدباغة والخرازة:

تقوم الدباغة على إصلاح جلود الحيوانات ومعالجتها والاستفادة منها.[3]

وعُرِف عددٌ من النساء في المدينة كُنّ يمارسن الدباغة والخِرازةَ [حِرفة الخرّاز الذي يثقب الخُفّ بالمخرز]، فهذه

---

(١) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٩٨.

(٢) انظر: عبدالعزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول** ﷺ، ص٢٧٣.

(٣) الزبيري، **تاج العروس**، ج ٤/ ٣١٣.

أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب يدخل عليها رسول الله ﷺ يبلغها باستشهاد جعفر وقد «رتقت أربعين مَنْأً».[١]

وقد ذكر عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة: إنها كانت تعمل الأديم الطائفي، كما أن أم المؤمنين زينب بنت جحش كانت تدبغ الجلود وتخرزها وتتصدق بثمنها على الفقراء.[٢] وكانت (رضي الله عنها) ممن يجيد الخرازة فتنتج وتتصدق من ذلك،[٣] وبعد هجرة النبي ﷺ ازدهرت صناعة الدباغة والخرازة، إضافة إلى أن عمل عدد من نساء أهل البيت في هذه الصناعة، ما شجع الكثيرين على مزاولتها وتعلمها.

النسيج والخياطة:

النسيج والخياطة حرفتان متكاملتان تدعم إحداهما الأخرى، فالخياطة لابد لها من نسيج مسبق والنسيج لا تتم الفائدة منه إلا بالخياطة في الغالب، يقول ابن خلدون: «هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرّفَه»،[٤] ثم يقول: «وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل».[٥]

---

(١) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٤٨٦، ج٤/ ٣١٤؛ الكتاني، **التراتيب الإدارية**، ج ٢/ ٥٧ وَمَنْأً؛ ج منيئة، الجلد أول ما يُدبغ؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط.

(٢) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٣١٤.

(٣) انظر: عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز**، ص ١٢٦ ـ ١٣١.

(٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٤١١.

(٥) **مصدر سابق**، ص ٤١٢.

وعند دراستنا للغزل والنسيج في أيام الرسول ﷺ فلا بد من معرفة لإمكانات تلك البلاد من توفر المواد الخام للنسيج في بيئتها، وتوافر الأيدي العاملة، التي تقوم بعمل النّسْج، مع الخبرة الفنية والمهارة اللازمة لهذه المهنة، وإن كانت محدودة مقارنة بغيرها.

كان (الصوف) متوفراً بكثرة نظراً لوفرة الثروة الحيوانية، وتتم الإستفادة من هذا الصوف والقيام بغزله،وكانت النساء يقمن بالنسيج في المدينة زمن الرسول ﷺ.[1].

وقد وضع البخاري باباً لهذا الحديث سمّاه (باب ذكر النُسّاج).[2] ويدل هذا الحديث على إجادة بعض النساء للنَسْج في المدينة، وأنهن كن يقمن بذلك وينتجن بعض الملبوسات المنسوجة، وقبول الرسول ﷺ هدية المرأة النساجة فخر وتشجيع لها، ولمن يزاول مثل مهنتها في مجتمع المدينة.

وقد كان (المِغْزَل) وهو: ما يفتل به الصوف بحيث يحول إلى خيوط صوفية ثم تنسج فيما بعد.

وقد وجد رجال يجيدون الحياكة والنسيج، بدليل ما ورد عن سنان بن سعد رضي الله عنه قال: «حكْتُ للنبي ﷺ جُبة من صوف وجعلت حاشيتها سوداء فلمّا لبسها قال: انظروا ما أحسنها وما

(١) رواه **البخاري في صحيحه**، ج ٣/ ١٤.
(٢) **صحيح البخاري**، ج ٣/ ١٣.

أبهجها فقام إليه إعرابي فقال: يا رسول الله هَبْها لي قال: فكان إذا سُئل شيئاً لم يبخل به فدفعها إليه وأمر أن تحاك له جبة أُخرى فمات وهي في المَحَاكة». [1]

وقد وردت بعض الآثار تدل على أن بعض الصحابة كان يعمل الخز وهو نسيج يعمل من (إبريسم) [فارسية تعني الحرير] وصوف، وذكر من هؤلاء الزبير بن العوّام وعمرو بن العاص.

وكانت أعمال النسيج في المدينة تسد الحاجة لبعض الملبوسات البسيطة، وكان الصوف غير المُصنّع يستفاد منه في أشياء أخرى كالفرش والوسائد، فقد بعثت إمرأة من الأنصار إلى النبي ﷺ بفراش محشو بالصوف، فقال النبي ﷺ لعائشة: رُدّيه (مخافةَ أن ينام عن صلاة الليل)، [2] نتيجة لليونة الفراش.

كما أن الحبال ضرورية في الحلِّ والسفر، وكانت تصنع من الصوف والجلود.

وكان بعض الصحابة يصنعون الحبال من ليف النخل، واشتهر عن بعضهم التبرع بها في الغزوات، كما أنهم كانوا يصنعون بعض الأثاث من الصوف كالبُسُط والسجاجيد، وكانت بدائية بسيطة تنسج مما يتوفر من أصواف الماعز وغيرها من الأصواف الخشنة.

---

(١) الكتاني، **التراتيب الإدارية**، ج ٢/ ٥٩.

(٢) الذهبي، **السيرة النبوية**، ص ٣٣١.

والخياطة هي تفصيل المنسوجات وتقطيعها قطعاً مناسبة للبدن، ثم وصل تلك القطع بعضها ببعض بوساطة الخياطة بالإبرة أو غيرها.

وقد كانت الخياطة معروفة ومشتهرة في المدينة زمن النبي ﷺ، ووجد أناس يتخذون من الخياطة صنعة لهم يكتسبون من ورائها، وقد وضع البخاري رضي الله عنه في صحيحه باباً سمّاه باب (ذكر الخياطة)، وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس بن مالك رضي الله عنه فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى الطعام». (١) الحديث، واستجاب الرسول ﷺ لدعوته، ليذهب ما في نفوس الناس من احتقار لأهل الصنايع عموماً، وتشجيع لهم على الأعمال المنتجة التي تسد جزءً من حاجة المجتمع.

وكان الرسول ﷺ كثيراً ما يقوم برقع ثوبه بنفسه فقد سُئلت عائشة (رضي الله عنها) عن رسول الله ﷺ فقالت: «كان رسول الله ﷺ إذا كان في بيته يخصف نعله [يلصقه بواحد مثله ويخرزه بالمِخْصَف] ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته». (٢)

وهذا تشجيع على العمل والاكتفاء وقيام الإنسان بحاجاته تربية للذات على الإنتاج وعدم الكسل.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، **فتح الباري**، ج ٢/ ٦٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب البيوع**، باب ذكر الخياط، ج ٣/ ١٣؛ وانظر: الذهبي، **السيرة النبوية**، ص ٣٢٤.

الـخَواصَـة:

حرفة اشتهرت في المدينة في زمن الرسول ﷺ، وهي نسج بعض الأدوات والأثاث من خوص [ورق] النخيل، واشتهرت المدينة بالنخيل، وقد استفيد من جريدها في عمل الخوص، فكان ينسج منه بعض الأشياء كالحُصُر التي كان الرسول ﷺ يستعملها في بيته وينام عليها، حتى أثّرت في جلده،[1] وكان الأنصار في المدينة يعملون الخوص، وسلمان الفارسي رضي الله عنه اتخّذها حرفة يأكل منها، وقد استمر سلمان الفارسي رضي الله عنه في الخواصة بعد أن أصبح أميراً على المدائن، فكان يقول: إني أحب أن آكل من عمل يدي، وذلك امتثالاً لما أخبر به الرسول ﷺ.[2]

وكان بعض النساء في عهد الرسول ربما تغزلن الخوص وتنسجنه في المسجد، مما يدل على تشجيع هذا النوع من الإنتاج، وخصوصاً حين نعرف نظافة الخوص وطيب رائحته.

واستُفيدَ من الليف في حشو الوسائد والفرش، يقول عدي ابن حاتم: إني مضيت مع رسول الله ﷺ حتى دخلت بيته فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إليَّ فقال اجلس على

---

(١) انظر: الذهبي، **السيرة النبوية**، ص ٣٢٩.

(٢) انظر: عبدالعزيز العُمري، **الولاية على البلدان في عصر الراشدين**، ص١٧٧؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج ١٨/٤.

هذه.[1] ويذكر أنس أنه دخل على الرسول ﷺ وتحت رأسه مرفقة حشوها ليف.[2]

كل هذه الأنواع من إنتاج المنسوجات من خامات متنوعة وردت فيها شواهد من سنة الرسول ﷺ، ما يدلّ على أنها أنتجت في وقت حظيت بتشجيع من الرسول ﷺ كدعم مادي للأفراد، وحاجات واقعية ضروريّة، وتنمية اقتصادية لمجتمع المدينة المسلم.

تنمية الحيوانات وتربيتها.

يقول الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

هذه الآيات الكريمة تدل على فوائد الإنسان من تربية الحيوانات أو (الأنعام)، والإسلام اعتنى بكل ما يفيد الإنسان من الأنشطة الاقتصادية.

ومن المؤكد أن من ذلك الاعتناء بتربية الأنعام ورعيها

---

(١) انظر: وفادة عدي بن حاتم ضمن الوفود من هذا الكتاب.
(٢) الذهبي، **السيرة النبوية**، ص ٣٢٨.

وتنميتها، وهي من الحرف التي عرفتها المدينة في عصر الرسول ﷺ.

رعـي الغنـم:

يعتبر رعي الغنم من الحرف الرئيسة في حياة الناس منذ القدم. وقد ارتبط رعي الغنم في أذهان الناس بالنبوة والأنبياء، حيث كان الأنبياء رعاة أغنام قبل أن يرسلهم الله للناس، ومرّوا بتجربة رعي الغنم واستفادوا منها.

فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلاّ ورعى الغنم، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». (١)

وقد اعتنى الإسلام بتنظيم زكاة بهيمة الأنعام وتقويمها وتحديد أنصبتها، مما يعني أنها أحد أهم موارد الاقتصاد.

كانت هناك مجموعات من الأغنام تخرج من المدينة للرعي، ثم تعود إليها في آخر النهار، حيث يستفيد أهلها من ألبانها في المساء، ثم تعود للرعي مرة أخرى في الصباح، وكانت هذه المجموعات تسمي (السِّراح)، وكان للمدينة في عصر الرسول ﷺ وأثناء وجوده فيها سَرْحٌ يخرج للرعي خارج المدينة ثم يعود في آخر النهار إليها، وكانت هذه الأغنام تساهم

(١) البخاري في صحيحه، ج ٣/ ٤٨.

في تأمين الألبان التي وردت أحاديث كثيرة في فضلها، والتشجيع عليها، وبالتالي زاد الاهتمام به وإنتاجه واستهلاكه.

وقد أغار أعرابي على سَرْح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له (سَفْوان)،[1] من ناحية بدر، وفاته الأعرابي ولم يدركه، وقد سميت بغزوة (بدر الأولى).

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، وكان للرسول ﷺ سبع منائح [مفردها مِنْحة ومِنحة؛ كل ذات لبن] من الغنم والماعز يرعاهنّ أيمن ابن أم أيمن يستفيد من ألبانها.[2]

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يحلب أحد ماشية غيره إلاّ بإذنه محافظة على هذه الثروة لأصحابها، فقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحلبّن أحدٌ ماشية أمرىءٍ بغير إذنه، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته، فتكسر خزانته فينقل طعامه، فإنما تخزن لهم ضروعُ مواشيهم أطعمتَهم، فلا يحلبنّ أحد ماشية أحد إلاّ بإذنه».[3]

والاهتمام بالثروة الحيوانية وتنميتها وحث الرسول ﷺ على

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٠٠؛ السهلي، **الروض الأنف**، ج ٣/ ٢٢؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٣٦٤.

(٢) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ١٨٤.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، ج ٣/ ٩٥.

الاستفادة منها ومن إنتاجها من أهم الدوافع للمجتمع المدني بعد الهجرة لمزيد من الاهتمام بهذه الثروة الاقتصادية التي تساهم في سد حاجة المجتمع من الطعام بلحومها وألبانها، ومن اللباس والمتاع بجلودها وأصوافها وأوبارها، تبعاً للإشارات الواردة في آيات القرآن الكريم، كما أن تسمية إحدى سور القرآن بسورة (الأنعام) يبين أهميتها في الحياة الإنسانية.

الجمع والاحتطاب:

كان على رأس الأشياء التي تجمع ويستفاد منها (الحطب)، وكان وسيلة رزق لبعض الناس، حتى أن الرسول ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم أحبُلاً فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكفّ الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أُعطيَ أم مُنع».[1] وهذا النوع من الاحتراف لا يتطلب وجود رأس مال، ولا يحتاج الرجل فيه إلى أكثر من فأس وحبل، وقد لا يحتاج إلى هذه في بعض الأنواع من الجمع، وهذه الحرفة من أبسط الحرف لإيجاد مورد رزق يُعز الإنسان ويغنيه عن الناس وهو هدف شرعي.

كما أن جمع العشب وبيعه للصاغة وغيرهم كان سائداً في المدينة زمن الرسول ﷺ، وكان هناك من الصحابة من يجمع (الإِذخر) [نبات طيب الرائحة] ويبيعه.

---

(١) رواه البخاري، **فتح الباري**، ج ١٠/ ١١٩؛ ومالك في **الموطَّأ**، ص ٤٧.

وقد وضع البخاري باباً في صحيحه سمّاه (باب بيع الحطب والكلأ)،[1] وكان جماعة من الأنصار يحتطبون الحطب ويبيعونه ويشترون بثمنه طعاماً يتصدقون به على أهل الصفّة،[2] وكان ﷺ يأمر المحتاجين بالاحتطاب والبيع فهو خير من المسألة [سؤال الناس]، فقد جاءه أحد الأنصار فشكى إليه الحاجة فقال له الرسول ﷺ: «انطلق وأحضر ما تجده في بيتك»، فجاء الأنصاري ببساط وقدح فباعهما الرسول ﷺ بدرهمين وأعطاه إياهما وقال له اشترِ بدرهم طعاماً لأهلك وبدرهم فأساً ثم ائتني، ففعل ذلك ثم جاء للنبي ﷺ فقال له: «انطلق إلى الوادي واحتطب ثم ائتني بعد عشرة أيام»، ثم أتى هذا الأنصاري بعد العشرة أيام، وقد استغنى، فقال له النبي ﷺ: هذا خير لك من أن تأتي يوم القيامة في وجهك نُكتة [نقطة سوداء] من المسألة.[3]

وهذه التوجيهات النبوية لهذا المحتاج، هي توجيه لعامة الناس في الأمة إلى يوم القيامة، بعزة النفس والغنى عن الناس والعفاف عن المسألة، والسعي للإنتاج، بما يسد حاجته ويغنيه عن الخلق، وهذا يعني دفع الإنسان للإنتاج، بما يستطيع، وأن لا يكون عالة على الآخرين، ولا يوجد في أي أمة من أمم

(١) انظر: **فتح الباري**، ج ١٠/ ١١٨.
(٢) د. أكرم العُمري، **المجتمع المدني في عهد النبوة**، القسم الأول، ص ١٠١
(٣) انظر: الخزاعي، **تخريج الدلالات السمعية**، ص ٧١٦.

الأرض غير المسلمين مثل هذه التعليمات النبوية الشرعية الإلهية لدفع الإنسان للإنتاج والعمل.

الأُجراء:

من المعروف أن الأجير هو الشخص المستأجر للخدمة، والعمل، وتختلف نوعية العمل الذي يتفق الأجير مع صاحبه عليه من خدمة أو حمالة أو سقاية، أو غير ذلك من الأعمال الشائعة التي يطلب أصحابها الأجراء ليقوموا عنهم بالعمل.

وقد كانت الإجارة معروفة في المدينة أيام الرسول ﷺ. وقد وضعت كتب الحديث أبواباً للإجارة، وذكرت ما ورد فيها من أحاديث عن الأجير في العصر النبوي.(١)

وكان بعض الصحابة رضي الله عنه يحملون للناس الأشياء على ظهورهم مقابل أجر محدد، فمنهم من يأكل من الأجر ومنهم من يتصّدق به.

وكان بعض الصحابة يحب أن يؤدي صدقة حينما يدعوهم الرسول ﷺ لذلك، فلا يجد مالاً فيذهب إلى السوق يحمل للناس مقابل أجر، فيأتون به إلى النبي ﷺ ويتصدقون به، فقد ورد في حديث رواه أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل،

---

(١) انظر: صحيح البخاري، **كتاب الإجارة** وما تضمنه من أبواب، **فتح الباري**، ج ١/ ٣.

فيصيب المدّ وإن لبعضهم لمائة ألف»،[1] ويقصد أنهم كانوا فقراء ثم أصبحوا من أصحاب مئات الألوف بعد ذلك.

وقد كان من الصحابة رجل فقير يدعى (أبا عقيل) واسمه حُشْمَان، وقيل غير ذلك، ويلّقب بصاحب الصاع، إذ كان ينقل الماء على ظهره ويتصدق بنصف الأجرة. وقد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الصدقة فجاءه أبو عقيل بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة وقال للرسول: لقد حملت الماء على ظهري بصاعين أحدهما لي ولعيالي، والآخر جئت به صدقة، فتضاحك المنافقون وقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]،[2] وقد حثّ رسول الله ﷺ على إعطاء الأجير أجره فقال النبي ﷺ: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره».

وهذا تهديد من الله ورسوله ووعيد للناس الذين لا يعطون الأجراء أجورهم ويبخسون منها شيئاً.

---

(١) صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ١٠/ ١٦.

(٢) الشوكاني، **فتح القدير**، ج ٢/ ٣٨٦؛ ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ٤/ ١٣٠؛ ابن حجر، **الأصابة**، ج ٤/ ١٣٦؛ ابن كثير، **تفسير القرآن**، ج ١/ ٢٩٧.

وباب الرزق من خلال العمل في الإجارة باب شريف، أقره الرسول ﷺ وطبقه الصحابة في حياتهم بتشجيع من النبي ﷺ، وفي ذلك تنمية للذات وعز وكرامة للإنسان.[1]

معاهدة المدينة:

جاء الرسول ﷺ ليقيم مجتمعاً إنسانياً عادلاً، يحفظ حقوق الإنسان وكرامته وأمنه، وجاء بالدين الصحيح، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومع هذا فقد كان الناس بالخيار في أن يدخلوا الإسلام، لا يُكره أحد من الناس على ذلك، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فالناس في ذلك أحرار، بعد أن يبلغهم الأمر.

إلا أنَّ ضمان النظام وحياة الناس وأمنهم والعدل في ما بينهم وحفظ حقوق الجميع لا خيار فيه، فهي ملزمة للجميع، وحين الهجرة للمدينة كان المسلمون فيها أقلية مقارنة مع غيرهم من يهود المدينة ومشركيها، ومع ذلك حرص ﷺ على التفاهم مع الجميع، وكتابة عقد بينهم لضمان الحقوق وحمايتها، وقيام حياة آمنة مشتركة في المدينة.

---

(١) د. عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز**، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥.

ومع أن الرسول ﷺ جعل أساس العلاقة الولاء والبراء، إلا أن التعايش مع الآخرين والاهتمام بالمصالح المشتركة أمر مهم، ولذلك سعى ﷺ لتنظيم العلاقة بين السكان مسلمين وغير مسلمين، وكتب في مرحلة مبكرة معاهدة على ذلك،[1] «وكان رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة وادع يهود وكتب بينه وبينهم كتاباً، واشترط عليهم أن لا يمالئوا عدوه، وأن ينصروه على من دهمه»،[2] وهي ما عرفت بوثيقة المدينة، أو موادعة المدينة.

إن هذه الوثيقة ثابت كتابتها في بداية هجرة الرسول ﷺ، وورود روايات أخرى لوثائق وكتب حدثت بين الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين وبين يهود وغيرهم من سكان المدينة لا ينفي الوثيقة الأولى أو يناقضها.[3]

فهذه الكتب والوثائق الأخرى بعضها تأكيد للوثيقة الأولى بمناسبة خاصة، وبعضها وثائق جديدة تؤكد الأصل الأول.

ولعل وجود بوادر نقض لبعض بنود الوثيقة، من قبل جماعات من يهود، ما دعا لتجديدها أحياناً من بعضهم أو إنشاء عهد جديد.

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٥٠١؛ لدراسة موسعة عن تخريج الروايات الواردة عن الوثيقة انظر: أكرم العُمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ج ١/ ٢٧٦.

(٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ١/ ٨٦.

(٣) الجميل، محمد بن فارس، **النبي ﷺ ويهود المدينة**، ط ١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ١٤٢٢هـ، ص ٨٤.

لقد كانت الوثيقة «كتاب مصالحة وحسن جوار على أن يسالموه، ولا يعينوا عليه عدوه، وأن يقفوا بجانبه في وجه من يعاديه ويهدد أمن المدينة المنورة». [1]

إن هذه المعاهدة تعني إقامة نظام على رأسه النبي ﷺ وتحديد مسؤوليات أمنية ودفاع مشترك على جميع السكان، مع عدم إكراه أحد على دينه.

إن هذه المعاهدة المدنية، مثال لتنظيم عادل ومسؤولية اجتماعية ومرجعية نظامية مكتوبة للتحاكم يُرجع إليها، وهي تشبه بعض الأنظمة في الدول الحديثة التي تتيح حرية الدين وعدم الإكراه عليه، مع الالتزام بالأمن والنظام المشترك والمسؤولية الجماعية، وهذه المعاهدة اعتبرت أساساً في قيام دولة المدينة النبوية وتركيز المسؤولية فيها بيد الرسول ﷺ، تمهيداً لتطبيق الشريعة حسب نزولها، وتأكيداً للمسؤولية بيد أعدل الناس ﷺ.

الإذن بالقتال:

من المعروف أن رسول الله ﷺ كان يتلقى الأمر والإذن من الله سبحانه وتعالى في كل شؤونه وأعماله المرتبطة بالدين والتشريع. والقتال باسم الدين من أخطر الأمور، وقد تعرض الرسول ﷺ وأصحابه منذ انطلاق دعوته في مكة لأشد أنواع

(١) عبد الحميد طهماز، **سيرة النبي**، ص ٢٧٣.

الأذى، فقد أُوذوا في الله، وسلبت أموالهم وأريق دم بعضهم، وحُبس الكثير منهم وشُرّد آخرون واضطروا لترك بيوتهم وأموالهم في مكة والهجرة إلى الحبشة أو المدينة في آخر الأمر.[1]

ومع كل هذه الأحوال فإن الرسول ﷺ كان في مكة يدعو أصحابه للصبر والتحمّل، واحتساب الأجر عند الله، ويذكرهم بالمؤمنين من الأمم السابقة، ما فعل بهم من أذى وقتل، وفي الوقت نفسه يفتح قلوبهم على الأمل ومبشرات انتشار الإسلام وإتمام الأمر له في كل آفاق الدنيا ودخوله «في كل بيت حَجَرٍ ومَدَر»[2] قادم. وأن الأمن للمؤمنين قادم «ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله».[3]

والله سبحانه وتعالى ناصِرٌ دينه، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة كان المشركون يهددونه ويطاردون أصحابه، ناهيك عن استمرار الاعتداء على من في مكة من المسلمين ومن يزورها منهم سواء من القرشيين أو من غيرهم.

---

(١) انظر: **الهجرة إلى المدينة** من هذا الكتاب.

(٢) انظر: **أذى المشركين للرسول ﷺ ولأصحابه** من هذا الكتاب.

(٣) رواه البخاري، **فتح الباري**، ج ٧/ ١٩٥؛ ورواه أحمد في **المسند**، ج ٥/ ١١٠.

وكانت الهجرة إلى المدينة مرحلة جديدة في إيجاد قوة للمسلمين وتجنيدهم للدفاع عن الإسلام وأهله.

ولذلك فإن من شروط بيعة العقبة الثانية «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، إنها بيعة الدفاع ولو أدى الأمر إلى قتال، ولذلك أدرك أسعد بن زرارة هذا الأمر فحدّث الأنصار قائلاً لهم: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس».[1]

كان الأمر واضحاً في تمييز المرحلة الجديدة بعد الهجرة، ولذلك كان المهاجرون والأنصار على استعداد تام للتضحية والفداء والجهاد قبل فرضه، يدركون التبعات على عواتقهم وأموالهم، كما كانت قريش تدرك تبعات المرحلة، حيث انزعج مشركوها كثيراً عندما علموا ببيعة العقبة، وحاولوا منع الرسول ﷺ من الهجرة، لأنها في النهاية تعني الحرب على المؤمنين المظلومين بعد تكوين قوتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

كان المشركون يعلمون أن الرسول ﷺ لم يقاتل في مكة ولم يأمر أصحابه بذلك.

الإذن بقتال المشركين أو (الجهاد) كما هو مصطلح شرعي

---

(١) انظر: **بيعة العقبة الثانية**، من هذا الكتاب.

هو تشريع رباني بنص القرآن، من أهدافه الدفاع عن المظلومين، وإسماع الناس كلمة الحق والدين، بجهاد من يعتدي على دعاة الرسول ﷺ، ويمنع عامة الناس من سماع كلمة لا إله إلا الله، أو يعتدي على أوطان المسلمين وحرماتهم، والجهاد ارتبط بكونه في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله وفي سبيله يقدم المال والنفس وكل شيء.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وبعد مدَّة من الاستقرار في المدينة، وعناية الله بعباده المؤمنين، وصبرٍ منهم والتزام بأمر الله والكفّ عن القتال، نزلت على رسول الله ﷺ آيات قرآنية يأذن الله فيها بالقتال، يقول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].(١)

ومن خلالها يتضح أن الإذن جاء بعد منع، وأن الإذن لايعني الفرض والإجبار، إنما هو سماح من الله سبحانه وتعالى، وتتحدث الآية بوضوح بأنهم ظُلموا، كما تتضمن وعداً صريحاً من الله سبحانه وتعالى بنصرهم وهو القادر على ذلك، أما أنواع الظلم الذي تعرضوا له فمنه كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ

(١) وضع ابن هشام في السيرة عنواناً خاصاً سماه: **بدء قتال المشركين**، ج ٢/ ٥٩٠.

ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

إنها حقيقة قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

كان ﷺ يعلم أن التمكين والجهاد يحتاجان إلى قوة، وإعداد الرجال بالدرجة الأولى ثم العتاد وما يرتبط به.

لقد كان القتال لمنع الظلم وليس الاعتداء، ومن هنا نزل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

كانت حياة رسول الله ﷺ مقاومة للشرك، مليئة بالجهاد بمفهومه الشامل وعلى رأسه قتال المشركين بعد مرحلة الإذن بالقتال، حتى إن كثيراً ممن ألف في حياة الرسول ﷺ وفي سيرته عنون لذلك بما يوحي بغلبة الجهاد والمغازي على السيرة النبوية.

لقد كان المشركون يقاتلون النبي ﷺ، فلماذا لا يقاتلهم؟، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقد بلغت غزوات الرسول ﷺ وسراياه ما يزيد على (٦٠) ستين غزوة وسَرِية، منها ثماني عشرة غزوة قادها بنفسه، قاتل في ثمان منها.[١] [٢]

وهناك اختلاف بين العلماء في العدد يأتي في التفريق بين الغزوة والسرية،[٣] أحياناً، أو احتساب الحادثة سريه أو غزوة، وليس في وقوع الحدث أصلاً.

إن الجهاد والمغازي في حياته ﷺ من أعظم أسباب التمكين لله ولرسوله ﷺ والبداية للانطلاقة الكبرى للفتوح الإسلامية التي كان أهم أهدافها منع الظلم عن الناس وإتاحة الفرصة لهم لسماع كلمة الحق مع التأكيد على أنه «لا إكراه في الدين»[٤] والوعد بأنه كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٣٥٣.

(٢) انظر: مناقشة العدد من خلال المصادر المختلفة عند: بريك أبو مايلة العُمري، **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة.. دراسة نقدية**، ص ٥٨.

(٣) بريك أبو مايلة العمري، **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة**، ص ٥٤؛ وانظر: روايات ابن أبي شيبة في كتابه **المغازي**، تحت عنوان: «**في غزوات النبي ﷺ كم غزا**»، ص ١٦٩.

(٤) انظر: **ابن كثير، تفسيره**، ج ١/ ٣٢١.

أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

وهو تشريع كفى به أنه أُقرّ من رب العالمين، وذُكر في القرآن الكريم بما يجاوز العشرين مرة، ونزلت فيه أحكام محددة درسها الفقهاء وسارت عليها الأمة، وقد تميز الرسول ﷺ عن معظم الأنبياء السابقين بالجهاد، وخوضه بنفسه معارك مختلفة وتنظيمه وقيادته لها،(١) وتطبيقه للجهاد بما فيه من قوة ورحمة وعدل وحرية في وقت واحد.(٢)

ولئن أساء بعض المخطئين ممن يعتدون على المسلمين وغيرهم واستخدموا هذا المصطلح لأعمال إجرامية، فإن هذا الخطأ منهم والمغالطة لا يعني تجاهل الجهاد الإسلامي الحقيقي الشرعي عبر العصور دونما استثناء، وأن تكون الأمة جاهزة للدفاع عن نفسها مستعدة لذلك،وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى، وإلا هوجمت واستضعفت الأمة من قبل أعدائها، الذين رأينا في عصرنا الحاضر كيف فعلوا بالمسلمين في كل

---

(١) انظر: خطاب، محمود شيت، **الرسول القائد**، ط ٢، مكتبة الحياة، بغداد، ١٩٦٠، ص٦.

(٢) كولن: فتح الله؛ **الرسول ﷺ قائداً (التنظير والتطبيق)**، ترجمة أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ص ١١.

مكان، وإن الدفاع عن الدين وحماية الوطن وربوعه أمام الأعداء جزء مما شرع الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فينبغي أن لا ننسى هذا المفهوم وأنه لا يُردع الأعداء إلا بالقوة والجهاد، فمجرد ذكره يرعب أعداء الإسلام.

وكثير من الناس ــ مع الأسف ــ يحاولون تشويه المفهوم الإسلامي للجهاد، وإلصاقه بأعمال خارجة عنه ليسلخوا هذا المفهوم عن الأمة، بل ربما كَرَّهوا فيه أبناء المسلمين بما يسمعون من وسائل الإعلام من ربط بينه وبين الاعتداء أو (الإرهاب).

صيام رمضان:

عرف الصيام عند أهل الكتاب قبل الإسلام، ولا يزال كذلك عند بعضهم مع تحريفهم في كيفيته ومدته عن ما جاءهم من شريعة أصلاً.

وفي شعبان من السنة الثانية لهجرة المصطفى ﷺ نزل فرض الصيام على المسلمين في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥]، فأصبح الركن الرابع من أركان الإسلام.

وارتبطت أحكام كثيرة بالصوم وتشريعاته، وأصبح الصغار والكبار يهتمون بهذا الشهر الكريم ويقيمون له شعائره الخاصة، من الصيام والقيام ويكثرون فيه أعمال البر والطاعات والصدقة، وأُلّف فيه الكثير من الكتب والدروس، والأعمال العلمية والدراسات على اختلافها إلى اليوم الحاضر.

كما اقترن بوجود ليلة القدر فيه،[1] قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، فكانت الأمة تتحرى هذه الليلة بالأعمال الصالحة من القيام والصدقة والصلة والاعتكاف.

ومن هنا كان الصيام قريناً للقيام وتلاوة القرآن، وصار رمضان شهر الطاعات والقُرُبات والصدقات وسائر أعمال البر

(١) ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ٢٠١٣.

والخيرات، وهكذا هو عند أمة الإسلام إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

ومن يراقب حال المسلمين في رمضان، وما يطرأ عليهم فيه من تغيير وصلاح فردي وجماعي وعطاء وبذل يدرك أهمية هذه الشَّعِيرة في حياة الأمة.

تحويل القبلة:

كانت قبلة المسلمين قبل الهجرة وبعدها مباشرة تجاه بيت المقدس. وفي شعبان من السنة الثانية للهجرة صرف الله قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام،[1] في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقد حاول يهودُ ومَن على شاكلتهم فتنة المسلمين عند تحويل القبلة، فسماهم الله سبحانه وتعالى السفهاء: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وأمر القبلة ليس هيناً عند المسلمين، فعبر العصور والأماكن

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عنوان «**صرف القبلة إلى الكعبة**»، ج ٢/ ٦٠٦؛ **وابن كثير**، عنوان «**تحويل القبلة**»، ج ٢/ ٣٧٢.

يجتهدون في متابعتها ومعرفة وجهتها قبل أي صلاة، والمسافر في مختلف البلدان يجد محاريب الصلاة في المساجد موجهة إلى القبلة التي أمر الله بها، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

ولذلك ففي العصر الحاضر نجد الإشارة لها في غرف بعض الفنادق وبعض المطارات وغيرها،في العالم الإسلامي وخارجه، وصارت القبلة شعاراً للمسلمين ومطلباً لهم في كل مكان.

بداية السرايا والغزوات :

لم تتوقف قريش عن أذى المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة، فكانت تحبس بعضهم في مكة، وتهدد الأنصار وتمنعهم من الوصول إلى مكة، وتؤذي من يقع في أيديهم، ووصلت تهديداتهم للمهاجرين في المدينة، حيث تم اختطاف بعض مهاجري مكة من المدينة،(١) وكانوا يعلنون وباستمرار تهديدهم للرسول ﷺ، وكل من يتبعه.

وفي هذه الظروف نزل الإذن بالقتال، وتطلب الأمر الإعداد بما في ذلك من تجهيز للنفس والسلاح والدواب، والتدريب

(١) انظر: **قصة اختطاف عياش بن أبي ربيعة**، في موضوع الهجرة من هذا الكتاب.

والمعلومة. ثم بدأت الانطلاقة لما يعرف بالسرايا والغزوات النبوية.[1]

وكان العداء واضحاً من قريش للمسلمين، إلا أنّ المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي، كما أضرّت قريش بالمسلمين ومصالحهم، فقد سعى المسلمون بعد الإذن بقتالهم إلى ضرب مصالح قريش، حيث تمر تجارتها بالقرب من المدينة، فاختار المسلمون تهديد طرقها والتضييق عليها، وإشعار قريش بقدرة المسلمين على التصدي والمناورة والإضرار بأعدائهم.

كانت السرايا إعداداً عسكرياً ومناورات تدريبية لجند الرسول ﷺ إضافة إلى أهدافها المحددة في حينها.

كما كانت في الوقت نفسه إشغالاً عملياً للشباب والرجال وطاقتهم، وخصوصاً المهاجرين الذين وصلوا المدينة وليس لبعضهم عمل محدّد يشغلهم، إضافة إلى تدريب القادة منهم والعامة على الأعمال العسكرية، والصبر والسفر والتحمل والقتال والاستعداد له.

---

(١) وضع البخاري في صحيحه باباً سماه «**باب كم غزا النبي ﷺ**»، وذلك في آخر **كتاب المغازي**، ج ٥/ ١٤٥.

السرايا الأولى[1]

تعدّ السرايا والغزوات السابقة لغزوة بدر الكبرى سرايا أولية أعقبت الإذن بالقتال، ولم يتضح فيها تفوق المسلمين وكانت مناورات تدريبية وتحركات محدودة سبقت غزوة بدر، ومن أهمها:

سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه إلى (سيف البحر):

حدثت في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة النبوية بعد سبعة أشهر من هجرة النبي ﷺ، وعقد رسول الله ﷺ أول لواء لجيش إسلامي بقيادة حمزة بن عبد المطلب وكان قوامه المهاجرين رضي الله عنهم،[2] وقد شيع رسول الله ﷺ الجيش بنفسه، وكان هدف الجيش اعتراض عِيْرٍ لقريش آتية من الشام إلى مكة،

---

(١) انظر: بريك أبو مايلة العمري، **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة.. دراسة نقدية تحليلية**، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٧هـ؛ عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص ١٤٣.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٩٥.

فيها ثلاثمائة رجل من قريش، منهم أبو جهل (عمرو بن هشام)، وقيل كانوا أقل من ذلك، وقد توجه حمزة بجيشه إلى ناحية العيص، مناطق جهينة، ولم تقع أي معركة بين الطرفين، لتدخل زعماء القبائل في المنطقة، ولعل في ذلك مصلحة للمسلمين.[١]

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه:

ابن عمِّ رسول الله ﷺ أحد شهداء بدر بعد ذلك.[٢] كانت في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة النبوية.

جيشه قوامه ثمانون رجلاً كلهم من المهاجرين رضي الله عنهم،[٣] وعقد له ﷺ لواءً أبيض، وكانت وجهته نواحي رابغ،[٤] لاعتراض عَيْرٍ لقريش كان يقودها أبوسفيان بن حرب، وعكرمة ابن أبي جهل، وتناوش الطرفان وتراموا بالنبال، ولم يقع قتال مباشر بين الطرفين، وقد كان سعد بن أبي وقاص يرمي أسهمه ببراعة مما جعله يصيب عدداً من المشركين بجراح، فكان أول من رمى سهماً وأراق دماً في سبيل الله.[٥]

---

(١) انظر: الطبري، **السيرة النبوية**، ص١٠٥، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٧٢. وانظر: أحمد بن محمد الأمين الشنقيطي، **البعوث والغزوات النبوية**، ص ٢٨.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٧٠٦.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٩١.

(٤) ذكر ابن هاشم أن وجهتهم ثنية المرة ماء بالحجاز، ج ٢/ ٥٩١.

(٥) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٩١.

وكان في قافلة المشركين رجلان مسلمان، ففرا من قريش والتحقا بأصحاب رسول الله ﷺ. [١]

سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى (نخلة): [٢]

بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلى نخلة ومعه ثمانون من المهاجرين. [٣]

وحدد له وجهة، وأعطاه كتاباً، وأمره أن لا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين في الوجهة التي حددها له. وبعد مسيرة يومين نظر عبد الله بن جحش في كتاب النبي ﷺ فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارها». [٤]

فلما قرأ الكتاب قال: سمعاً وطاعة يا رسول الله، ثم أخبر أصحابه بما أمر به رسول الله ﷺ في كتابه، وذكر لهم أن رسول الله ﷺ نهاه أن يستكره أحداً من أصحابه في المسير معه وقال لهم: «من كان منكم يريد الشهادة ويرغب بها فينطلق، ومن كره

---

(١) انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ٧.

(٢) نخلة: اليمانية موضع على بعد ليلة من مكة. انظر: بريك أبو مايلة، **السرايا والبعوث النبوية**، وقد وضع صورة للوادي، حيث وقعت أحداث السرية، ص ٩٥.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٠١.

(٤) **المصدر السابق**.

ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد». [١]

وواصل عبد الله بن جحش ومن معه من المهاجرين الطريق إلى نخلة. [٢]

ووصل عبد الله بن جحش نخلة المكان المستهدف بأمر الرسول ﷺ، فمرت بهم عيرٌ لقريش تحمل أُدماً وزبيباً، وتجارة لقريش من الطائف، فيها عمرو بن الحضرمي وكانوا في آخر يوم من رجب، وهو أحد الأشهر الحرم عند العرب. وتشاورت السرية في قتالهم من عدمه خشية القتال في الأشهر الحرم، وفي الوقت نفسه خشوا أن تدخل العير في حدود الحرم وهم بالقرب من مكة، أو أن تقابلهم قريش بهجوم معاكس، فاستقر أمرهم على مقاتلة قافلة قريش، وأجمعوا القتال، فتمكنوا من قتل عبد الله بن الحضرمي، [٣] وأسْر رجلين، فاستاقوا العير والأسيرين إلى المدينة المنورة، فلما وصلوا المدينة تكلم الناس عن قتالهم في الشهر الحرام فقال ﷺ: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» فأُسقِط في يد عبد الله بن جحش ومن معه من السرية وظنوا أنهم هلكوا، واشتد تعنيف إخوانهم من الصحابة

---

(١) **المصدر السابق**.

(٢) **ابن هشام**، ج ٢/ ٦٠٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٣/ ٢٧٤.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٠٣. محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج٢/ ١١٩.

لهم، وأخذ المنافقون والمشركون يروجون لذلك، وشنوا حملة على المسلمين، وأنهم استحلوا الأشهر الحرم. وفي هذه الظروف الصعبة على أصحاب السرية نزل على الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقد سُرَّ رسول الله ﷺ وسُرَّ الصحابة بهذه الآيات وانكشف عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا يشعرون به من غَمّ،(١) فقبض الرسول ﷺ الغنيمة وصرفها في مصرفها، ثم قبل فداء الأسيرين من قريش.(٢)

من الملاحظ أن تلك السرايا الأولى كان عماد جندها المهاجرون ومعظمهم من قريش وقادتها رجال من قريش من أقرب الناس إلى النبي ﷺ، وتوجهت للإضرار بقوافل قريش التجارية والتضييق على تجارها ورجالها، وهم الذين آذوا المهاجرين وأخرجوهم من ديارهم بغير حق وسطوا على

(١) ابن كثير، **تفسيره**، ج ١/ ٢٧١.
(٢) ابن حجر، **الإصابة**، ص ٢/ ٢٨٦.

أموالهم ودورهم، فبادر المهاجرون بالمشاركة، وكانوا عماد تلك السرايا.[1]

إن الذين شاركوا من المسلمين فيها كان ذلك باختيارهم، ولم يُجبر أحد منهم على المشاركة، بالإضافة إلى أن الأنصار لم يشتركوا فيها في هذه المرحلة، ولعل الرسول ﷺ أراد إشغال المهاجرين الذين تزايدت أعدادهم، وفي الوقت نفسه تدريبهم وتعريفهم بالطرق والمناطق المحيطة بالمدينة المنورة، والتي ربما كانت جديدة على بعضهم.

كما أن الأنصار مشغولون بمزارعهم وأهليهم، وفي الوقت نفسه يتولون الدفاع عن المدينة وعن رسول الله ﷺ فيها، تنفيذاً لعهده معهم في بيعة العقبة الثانية.

ولا شك في أن هذه السرايا قد أكسبت المشاركين فيها قوة وتدريباً وتحملاً، ومعرفة بالطرق والقبائل واستعداداً نفسياً وعسكرياً لمشاركة الرسول ﷺ في غزواته.

وقد حققت نجاحاً في استهداف قوافل قريش، وإشعارها بالخطر الذي تواجهه وبقدرة المسلمين على التعرض لهم كما تتعرض قريش للمسلمين والمقيمين بمكة والذين يمرون بها، وتحاول افتتانهم عن دينهم.

---

(١) انظر: عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص ١٤٣؛ بريك أبو مايلة، **السرايا والبعوث النبوية حول مكة والمدينة**، ص ٦١.

وقد حصل بعضها قرب مكة في ما بينها وبين الطائف، وبعضها إلى الساحل غرب وشمال مكة، وفي كل ذلك تهديد مباشر لمكة وأَخْذ للطرق التجارية التي تسلكها، واحاطة بمكة من كل مكان، وخصوصاً شمالاً وشرقاً وغرباً.

الغزوات الأولى:

قبل غزوة بدر التي تعد فرقاناً وفاصلاً بين كثير من الأحداث في السيرة النبوية، بل وفي التاريخ العالمي كله، قام ﷺ، بغزوات متعددة قادها بنفسه، إضافة إلى السرايا التي بعث على رأسها من قادها من الصحابة رضي الله عنهم، وكانت أهدافها في هذه المرحلة متقاربة، مع تركيزها على قطع تجارة قريش إلى الخارج والتعرض لقوافلها التجارية ورجالها، وإشعار قريش بقوة المسلمين وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم بل واستعادة ما أخذ من أموالهم في مكة.

غزوة الأبواء:[1]

وتسمى (بواط)،[2] في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة

---

(١) الأبواء: قرية من أعمال الفرع بالمدينة، تبعد عنها ثلاثة وعشرين ميلاً؛ انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ص ٥٩١، هامش رقم: ٢.

(٢) جبل لجهينة قرب ينبع (البكري، معجم ما استعجم، ج ١/ ٢٨٣). ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ١/ ٥٠٣.

بعد قرابة اثني عشر شهراً من هجرة الرسول ﷺ. وقد حمل لواءه ﷺ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.[1]

وخرج بالمهاجرين، وكانت وجهته ﷺ اعتراض عير لقريش، وهي تمر ناحية جبل رضوى[2] من ديار جهينة.

وكان قائد عير قريش أمية بن خلف، من أكثر قريش عداءً له ﷺ.

ولم يلق الرسول ﷺ كيداً ولا قتالاً، وأثناء الغزو لقي ﷺ بني ضمرة من بني عبد مناة وعقد معهم عهداً.[3]

وقد رجع الرسول ﷺ لم يلق كيداً.[4]

غزوة العشيرة:[5]

وهو موضع في ناحية ينبع غرب المدينة، موطن لبني مدلج، وخرج إليها رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، وحمل رايته عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان خروجه في

---

(١) انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٣٥٦.

(٢) رضوى: جبل في تهامة الحجاز نواحي ينبع على ليلة منها وليلتين من البحر وسبع ليال من المدينة (البكري، معجم ما استعجم، ج ١/ ٦٥٥).

(٣) محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ٢٦٢ وثيقة رقم: ١٥٩؛ وانظر: أحمد الشنقيطي، **البعوث والغزوات**، ص ٣١.

(٤) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٩١، ٥٩٨.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٩٨.

جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة،[1] ولم يُكرِه أحداً للخروج معه.

وكان هدف الغزوة عِيْرُ ضخمة لقريش، جمعت فيها الكثير من أموالها وكانت متوجهة إلى الشام، وقد فاتته ﷺ القافلة، ووصل مناطق بني مدلج وهم حلفاء بني ضمرة فوادعهم ﷺ[2]

غزوة سفوان: (بدر الأولى):[3]

عند قدوم الرسول ﷺ من غزوة العشيرة بأيام أغار كرز بن جابر الفهري على المواشي التي تخرج من المدينة للرعي خارجها، وتسمى (سَرْحاً)،[4] ونهبها، فخرج رسول الله سريعاً في أثره ومعه جماعة من المسلمين، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، ولحق ﷺ بكرز بن جابر الفهري لكنه فاته، ووصل ﷺ إلى سفوان ناحية بدر ثم رجع إلى المدينة، وقد أسلم كرز بعد ذلك وحسن إسلامه وجاهد مع الرسول ﷺ، واستشهد في فتح مكة.[5]

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٧٤.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٩١. انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٣٦٢

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٠١. ابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ٩، وسفوان واد معروف نواحي بدر.

(٤) السَرح الماشية التي تخرج للمرعى، الزبيدي، تاج العروس، ج ٢/ ١٦٣.

(٥) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج ٣/ ٢٩٠.

غزوة بدر (١٧ رمضان سنة ٢هـ):[١]

تعد هذه المعركة أشهر المعارك في التاريخ الإسلامي على الإطلاق، حيث سماها الله سبحانه وتعالى يوم الفرقان، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وورد أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

ومن أسبابها أن رسول الله ﷺ كان يتتبع أخبار قريش ويتربص بهم، وقد آذوه وأخرجوه وأصحابه من ديارهم، وسطوا على أموالهم وسجنوا بعضهم وعذبوهم، فعلم ﷺ أن عيراً لقريش قد قدمت من الشام في طريقها إلى مكة، وهي بالقرب من المدينة، فندب الرسول ﷺ من كان حاضراً من الصحابة للخروج معه،[٢] «وخرج معهم على عجل دون استعداد مسبق، وكان يصحبه ﷺ «بضعة عشر وثلاثمائة[٣] رجل» أكثرهم

---

(١) لمزيد من التوسع حول أحداث هذه الغزوة ومروياتها وتخريج تلك الروايات انظر: أحمد محمد العليمي باوزير: **مرويات غزوة بدر**، الطبعة الأولى، مكتبة طيبة، الرياض ١٤٠٠هـ، ابن أبي شيبة، **المغازي**، غزوة بدر الكبرى متى كانت، ص ١٧٤.

(٢) انظر حديث البخاري: (**فتح الباري**)، ج ١٥/١٤٧، وانظر شرح ابن حجر، للحديث، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢ / ٦٠٦.

(٣) من حديث البخاري (**فتح الباري**)، ج ١٥/١٥٦.

راجلة، ليس معهم سوى فرسين وسبعين بعيراً،[1] كانوا يظنون أنهم سيلقون العير (القافلة) وأنهم لن يلقوا قتالاً، ولذلك فإنهم لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكامل للمعركة.

كان قائد قافلة قريش هو أبو سفيان بن حرب، حذراً خائفاً على أموال القافلة التي معه، ولذلك كان يتحسس الأخبار على وجلٍ من المسلمين، فعلم أن الرسول ﷺ قد خرج في طلبه والعير التي معه، فغير الطريق التي كان يسلكها وسار بالعير بالقرب من الساحل في طريق لم يكن المسلمون يتوقعونها، وفي الوقت نفسه أرسل إلى قريش في مكة يستنفرها لتنقذ قافلتها من المسلمين، وخرجت قوات قريش مسرعة لتنقذ العير ــ بزعمها ــ، يترأسها [أبو جهل عمرو بن هشام]، وخرج معه كبار رجالات قريش وشجعانها ورؤوس الكفر من أهلها،[2] ونجح أبو سفيان في إنقاذ العير من المسلمين، واقترب من مكة وأمّن على قافلته، وأرسل مندوباً إلى أهل مكة، يبلغهم بنجاة العير، ويطلب منهم العودة إلى مكة.

وأصرّ أبا جهل زعيم كفار قريش على التحدي والكِبْر والخيلاء، وأعلن أنه لن يرجع حتى يَرِد ماء بدر، وينحر الإبل ويطعم الطعام ويشرب الخمر، وتعزف القيان، وتسمع العرب

---

(١) الواقدي: **المغازي**، ج ١/ ٢٧، ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ١٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ١٥/ ١٤٧، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٠٩؛ ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ١٣.

بمسيرهم، فتكون هيبة لهم طول الدهر، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وواصلوا مسيرهم إلى بدر هدفهم المنشود». (١)

كان أبو جهل يعلم صدق رسول الله ﷺ فقد قال له أصحابه وهو يسير إلى رسول الله ﷺ يوم بدر: «أرأيت مسيرك إلى محمد أتعلم أنه نبي. قال: نعم. ولكن متى كنا تبعاً لعبد مناف. (٢)

علم ﷺ بتحرك قريش فجمع الصحابة يستشيرهم، وكان ﷺ وهو المعصوم المسدد يستشير أصحابه دائماً لأمور مهمة، منها أمران رئيسيان: الأول توحيد صفوف المسلمين وتطييب خواطرهم، وهو أمر مهم جداً، خصوصاً مع الأنصار في هذه المرحلة، وهم أهل الدار، والثاني الوصول إلى القرار الأصوب والأحكم.

طرح ﷺ الأمر على جموع صحابته المرافقين له قائلاً لهم: «أشيروا عليّ أيها الناس»، وتكلم جمع من المهاجرين فيهم أبوبكر وعمر (رضوان الله عليهما)، وكان من المتكلمين المقداد ابن عمرو الذي قال: «يا رسول الله والله لا نقول لك كما قالت

---

(١) انظر: ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦١٨، ابن سعد، **الطبقات الكبرى** ج ٢/ ١٣، الواقدي: **المغازي**، ج ١/ ٤٢؛ مهدي رزق، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، ص٣٤٠.

(٢) ابن بي شيبة، **المغازي**، ص ١٩٩.

بنو إسرائيل لموسى، قال تعالى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».[١] فدعا له ﷺ ثم قال مرة أخرى «أشيروا علي أيها الناس»، وكان ﷺ يريد رأي الأنصار فهم أهل الدار، والأكثرية ويريد ﷺ كسب قلوبهم وقناعتهم محافظة على الصف المسلم، وهذا أول لقاء بين الرسول ﷺ وجنده مهاجرين وأنصار،وبين قريش ورؤوس الكفر،يلوح فيها القتال والموت، فبادر سعد بن معاذ رضي الله عنه بقوله: «لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فأجاب ﷺ: أجل، فردّ سعد بالثناء على رسول الله ﷺ، وذكر لهم أنهم على عهده وقال: «يا رسول الله امض لما أردت فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً وإنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ على بركة الله».[٢]

---

(١) انظر: حول هذه المشاورة: ابن هشام، **السيرة النبوية** ج ٢/ ٢١٥، وقارن بحديث البخاري، **فتح الباري**، ج ١٥/ ١٥١.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦١٥، وابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ١٧٧؛ وانظر: تخريج هذه الحادثة بالتفصيل عند د. أكرم العمري: **السيرة الصحيحة** ج ٢/ ٣٥٩، د. مهدي رزق الله: **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، ص ٣٤١.

فسُرّ رسول ﷺ بقول سعد ودعا له وللمهاجرين والأنصار، واطمأن إلى موقف جنده من اللقاء.

فسار ومعه الصحابة، وهو يقول لهم سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، وسار الرسول ﷺ ومن معه باتجاه بدر، وهم موقنون أنهم سينالون عير قريش أو جيشها.

ونزل المسلمون قرب بدر وهم يتحسّسون الأخبار عن الأعداء، وعلم ﷺ أن القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، وعرف من في الجيش من صناديد قريش فقال ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها»، وتيقن الرسول ﷺ ومن معه أن المواجهة ستكون مع ذات الشوكة شجعان مكة وفرسانها، وأن العير قد فاتتهم.

وجاء الحُباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ، وكان نزول المسلمين أدنى ماء بدر فقال متأدباً مع الرسول يعرض عليه رأياً صائباً «يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أَأَنزلَكَهُ الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟» فقال ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال: «يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نُغوِّر ما وراءه من

القُلُب ونبني عليه حوضاً ونملؤه ماء فنشرب ولا يشربون»، فدعا له الرسول ﷺ، وقال: «لقد أشرت بالرأي».[1] وكان هذا الموقف من الرسول القائد ﷺ درساً عظيماً في استماع القائد إلى رأي جنده، للوصول إلى الموقف الأسلم، واتخاذ الأسباب الدنيوية والمادية مع التوكل على الله، وهو الأساس في كل تحركاته ﷺ.

وكان الرسول ﷺ يُخبرَ بمصرع عدد من زعماء مشركي قريش، ويُري الصحابة الأماكن التي سيُصرَعون بها،[2] مما زاد من يقينهم بنصر الله لهم.

وبنى الصحابة عريشاً لرسول الله ﷺ، يخلو فيه بعض الوقت للدعاء والصلاة،[3] مع بقائه في مقدمة الصفوف في القتال فقد كان أشجع الشجعان ﷺ.

وصلت قريش قبل المعركة، فلما أقبلت قال ﷺ: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادُّك وتكذِّب رسولك فنصرك الذي وعدتني، اللهم إِحْنِهُمُ الغداة.[4]

---

(١) من رواية ابن إسحاق، (ابن هشام): **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٢٠.

(٢) انظر: الواقدي: **المغازي**، ج ١/ ٤٩، ابن هشام **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦١٥، ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٠٦.

(٣) من حديث للبخاري: (**فتح الباري**)، ج ١٨/ ٢٥٤، الواقدي: **المغازي**، ج ١/ ٤٩، وقد بني مسجد جامع في مكانه معروف لدى زوار بدر.

(٤) الواقدي: **المغازي**، ج ١/ ٥٩، انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٨.

حاول بعض حُكماء قريش أن يثنوا قومهم عن الحرب ويقنعوهم بالرجوع إلى مكة، لكن أبا جهل وأمثاله من رؤوس الكفر، أفسدوا عليهم وأقنعوا قريشاً بالعناد والمجابهة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.[1]

بات المسلمون ليلة بدر يدعون الله ويتضرّعون إليه بالنصر والفوز على الأعداء، وأنزل الله سكينته عليهم فكانوا هادئين وأصابهم النعاس، وأنزل مطر خفيفاً وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وكان الرسول ﷺ تلك الليلة يصلي ويبكي متضرعاً إلى الله بالدعاء أن ينصر المؤمنين. وكان مما قال في دعائه ﷺ في العريش في تلك الليلة أو من صبيحتها: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر بيده وقال: «حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج وهو في الدرع يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٤ ـ ٤٥].[2]

أما مشركو قريش فقد باتوا يأكلون ويشربون الخمر وتعزف

---

(١) ابن هشام: **السيرة**، ج ٢/ ٦٢٢؛ الواقدي: **المغازي**، ج ١/ ٦٣.

(٢) رواه البخاري: **فتح الباري**، ج ١٨/ ٢٥٤.

لهم القيان، ويفاخرون بقوتهم وما أوتوا من الماديات، ويصرون على كفرهم وشركهم ومعاندتهم لله ورسوله، وكان أبو جهل يدعو على نفسه فيقول: اللهم أقطعُنا للرحم وأتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحاً منه فنزل قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]. (١)

وفي صبيحة يوم المعركة صلى المسلمون خلف رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة خطبهم وحضهم على القتال والصبر. (٢)

ثم أشرف الرسول ﷺ بنفسه على تنظيم صفوف المسلمين وتوجيههم، وكان مما قال لهم ﷺ: «إذا كثبوكم ــ يعني أكثروكم ــ فارموهم واستبقوا نبلكم»، (٣) وكان ﷺ يعجبه الرمي ويحث عليه. وبينما رسول الله ﷺ يسوي الصفوف إذ بـ (سواد بن غُزية) رضي الله عنه (٤) قد نَّد من الصف فيسوسه الرسول ﷺ بسهم كان في يده ويقول له اسْتوِ يا سواد، فيقول أوجعتني يا رسول الله فدعني أقتد منك، فيكشف له ﷺ عن بطنه الشريف ليقتاد لنفسه، فيُقبل بطن رسول الله ﷺ. . فيقول له الرسول ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ فيقول: يا رسول الله قد حضر ما

---

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٨٤.

(٢) من رواية لعلي بن أبي طالب، عند ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٨٧.

(٣) من حديث البخاري **فتح الباري**، ج ١٥/ ١٧٣.

(٤) ابن حجر، **الإصابة**، ج٢/ ٩٥؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج ٢/ ٣٧٤.

ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له ﷺ.[1]

وانتظر القوم أمر الرسول ﷺ ببدء القتال، ورجع الرسول ﷺ إلى العريش وأخذ يدعو ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد، اللهم أنجز لي ما وعدتني»،[2] ولم يزل يدعو وبجواره أبو بكر رضي الله عنه حتى أشفق عليه فقال له: يا نبي الله بعضَ مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك، ثم أغفى إغفاءة ثم قال: أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده،[3] فاستبشر المسلمون بعد أن خرج إليهم ﷺ، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر].[4] وأخذ ﷺ يدعوه ويشجع الناس على القتال ويذكرهم بالجنة ويبشرهم بنزول الملائكة معهم. وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال]، وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ

---

(١) الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٥٦ ـ ٥٧)؛ ابن حجر، **الإصابة**، ج ٢/ ٩٥.

(٢) انظر: ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٨/ ٢٥٤.

(٣) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٨٠.

(٤) انظر: حديث البخاري، في صحيحه، كتاب التفسير، سورة القمر، باب قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر، ج ٥/ ٥٤؛ ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٤؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٨٠.

وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

وفي الوقت نفسه أعدت قريش صفوفها واستعدت للقتال، ونظر إليهم رسول الله ﷺ عسى أن يكون فيهم أحد ذو عقل، وكان فيهم رجل على جمل أحمر يناقش قومه فقال ﷺ: إن يكن في القوم أحد فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر فقال حمزة: هو عتبة بن ربيعة، كان نهاهم عن القتال ففشل في ذلك.[١]

وقد حاول أحد القرشيين الشرب من الماء مخترقاً صفوف المسلمين، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب فقتله.[٢]

ثم بدأت أول مبارزة في المعركة بين عتبة بين ربيعة وابن أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة من المشركين، وبين حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث من المسلمين رضي الله عنهم وكلهم من آل النبي ﷺ، وانتهت المبارزة بمقتل المشركين الثلاثة وجرح عبيدة بن الحارث رضي الله عنه ثم استشهاده.[٣] لقد كان آل البيت أول المقاتلين ومنهم أول الشهداء.

ثم التحم الجمعان وبدأت المعركة وأخذ الرسول ﷺ حفنة

---

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٨٧.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٢٤؛ الواقدي: **المغازي**، ج ١/ ٦٨.

(٣) انظر: حديث البخاري عن علي بن أبي طالب: **فتح الباري**، ج ١٥/ ١٦١.

من الحصى ورماها على القوم وقال: «شاهت الوجوه».[1] وفي هذا أنزل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]، واشتد القتال بين الطرفين، وكان الرسول ﷺ في مقدمة الصفوف حتى أن الصحابة كانوا يحتمون به ﷺ، وكان لكثير من الصحابة مواقف بطولية في هذه المعركة.

ولاحت بشائر النصر للمسلمين، وانهزم المشركون وقتل صناديد قريش أمثال «أبي جهل»[2] و«عتبة بن ربيعة» و «أمية بن خلف» وغيرهم من كفار قريش الذين بلغ عددهم سبعين رجلاً، وولّى الأحياء منهم الأدبار منهزمين لا يلوون على شيء.[3]

وأقام المسلمون مع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في بدر بعد المعركة، دفنوا فيها شهداءهم، الذين بلغوا أربعة عشر شهيداً،[4]

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٧٠٦.

(٢) انظر إلى مقتل أبي جهل من حديث عبد الله بن مسعود عند البخاري، **فتح الباري** باب قتل أبي جهل، ج ١٥/ ١٥٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٨، ١٩٩.

(٣) انظر حديث أنس بن مالك عند البخاري، **فتح الباري** ج ١٥/ ١٦٧، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٤٢، ٦٣١، ٦٣٨، ٦٣٤، (وانظر العنوان الذي وضعه لذلك ص٧٠٨)، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٨٨، ٨٥، ٨٢، ٩٢، ١٠٠.

(٤) انظر أسماء شهداء المسلمين في بدر عند: ابن هشام، **السيرة النبوية**،=

وقد بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثه على ناقة رسول الله ﷺ مبشراً لأهل المدينة، فسر المسلمون بالخبر واغتاظ اليهود والمنافقون ولم يصدقوه.[١]

وبعد ذلك عاد الرسول ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى المدينة سالماً غانماً فاستقبله المسلمون في المدينة بالسرور العظيم لسلامته ﷺ، ولانتصار المسلمين هذا النصر المبين.[٢]

وكان معهم سبعون من أسرى قريش، وقد استشار ﷺ أصحابه في ما يصنع بهم، فقالوا يا رسول الله نأخذ الفداء نتقوى به في سبيل الله،[٣] فقال ﷺ أنتم عالة فلا يفلتنّ أحد منهم إلا بفداءٍ أو ضربةِ عنق.[٤]

وقد أحسن المسلمون إلى أسراهم في المعاملة، فكانوا يطعمونهم من أكلهم ويلبسونهم من ملابسهم، وقد قَدِم أقاربهم من مكة بعد ذلك يدفعون الأموال مقابل إطلاق

= ج ٢/٧٠٦، ٧٠٧، وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٠٤، ٢٠٦. وانظر: الصبحي، محمدبن عبدالله غبان، **شهداء غزوة بدر الكبرى**، الجمعية التاريخية السعودي، الرياض، سلسلة بحوث تاريخية الاصدار الخامس عشر، ربيع الأول ١٤٢٤هـ.

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٩٢.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٤٣، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ١٤٤.

(٣) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٩٣.

(٤) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٩٦.

سراحهم،[1] وقد تأثر هؤلاء الأسرى ببقائهم في المدينة وشهادتهم صدق المسلمين وحسن الإسلام، فأسلم معظمهم في فترات لاحقة.

وقد نزلت بعض الآيات في أحداث غزوة بدر ومنها قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢١٦.

وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ١٩].

ويقول الله سبحانه وتعالى عن أحداث هذه الغزوة في موضع آخر من السورة نفسها: ﴿۞وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤١ ـ ٤٤].

كانت غزوة بدر هي أول انتصار للمسلمين على مشركي مكة، وقد تناقل العرب أخبارها، وعلم الناس بعدها أن المسلمين أصبحت لهم قوة يحسب لها حسابها.

بين بدر وأُحُد:

غيرت نتائج غزوة بدر كثيراً من الأوضاع في الصراع بين قريش وحلفائها وبين الرسول ﷺ، الذي كان حريصاً على أمن المدينة وأهلها وأن تكون الأوضاع في صالح المسلمين، كما كان حريصاً على استيعاب رد فعل قريش وغيرها من الأعداء على انتصار المسلمين في بدر، وأن لا يكون هناك ضعف، وقد كان واضحاً أن قريشاً لن تسكت على الهزيمة وقَتْل رجالها وأَسْرهم، وتطلب هذا الأمر متابعة دائمة من الرسول ﷺ واستمرار الأعمال العسكرية وما يرتبط بها من سرايا وغزوات، لحفظ المدينة وأهلها، وأشهر تلك الأعمال بعد غزوة بدر وقبل أُحُد هي:

غزوة بني قينقاع:

كان يهود بني قينقاع ضمن قبائل وجماعات يهودية تقيم بالمدينة قبل وصول رسول الله ﷺ إليها. وعند هجرته وادَعَهُمْ مع غيرهم من يهود في صحيفة المدينة،[1] وكان ضمن الموادعة المشاركة في الدفاع عن المدينة المنورة وتأمين أهلها.

وكان يهود يعلمون صدق رسول الله ﷺ، وتنزلت الكثير من الآيات والسور على رسول الله ﷺ في المدينة تناقش يهوداً وتتحدث عن أنبيائهم وتاريخهم وانحرافهم.

---

(١) انظر: موضوع (وثيقة المدينة) من هذا الكتاب.

وكان ﷺ كثيراً ما يناقش علماءهم ويزورهم في مدارسهم ويحاول إقناعهم بدين الله، ولم يُسلم إلا عدد قليل منهم أشهرهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه.[1]

وبعد غزوة بدر أصبح الأمر واضحاً بتفوق المسلمين على قريش. وهذا يعني قوة المسلمين في المدينة، مصداقاً لوعد الله بنصر عباده المؤمنين، وكان ﷺ رحيماً باليهود حريصاً على هدايتهم، وهم أهل كتاب يعرفون الحق.

وكذلك بعد عودته من غزوة بدر «فإن رسول الله ﷺ جمعهم في سوق بني قينقاع، ثم قال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم إني نبي مرسل، تجدون ذلك وعهد الله إليكم قالوا: «يا محمد إنك ترى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس».[2]

وفي الوقت الذي كان ﷺ يحمل لبني قينقاع الرحمة والهداية ويذكرهم بما وقع لقريش كانوا يردون عليه بتهديد واضح وصريح واستعداد لقتاله وتلقينه درساً فهم أهل الحرب والرجال ــ كما زعموا ــ وقد ورد عن ابن عباس (رضي الله

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ٣٥٢؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج ٣/ ٢٦٤؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ٤١٣.

(٢) إبراهيم العلي، **صحيح السيرة**، ص ١٩٧.

عنهما) أن الله أنزل فيهم وفي تهديدهم لرسول اللهﷺ: قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]. (١)

هذا التهديد الواضح منهم يعد نقضاً صريحاً لعهدهم مع رسول الله ﷺ «فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ». (٢)

وحدثت واقعة أشعلت العداء بين الطرفين، ذلك أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سَوْءتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. (٣)

وقيل إنها نزلت فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. (٤)

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، **كتاب الخراج**، حديث رقم: ٣٠٠١. **انظر: سيرة ابن هشام**، ج٣/ ٤٧.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٤٧. صالح الشامي، من **معين السيرة**، ص ٢٤٤.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٤٨.

(٤) ابن سعد، **السيرة من الطبقات**، ج ٢/ ٢٩.

وقد بادر الرسول ﷺ بجمع جند المسلمين وحصار بني قينقاع في حصونهم خمس عشرة ليلة،[1] أنزل الله فيها الرعب في قلوبهم، فاستسلموا لأمر رسول الله ﷺ ونزلوا على حكمه، وكانوا حلفاء لبعض الأنصار، فتبرأ المسلمون منهم، وعلى رأسهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي تبرأ إلى الله والى رسوله منهم، وخشي المنافقون على يهود وهم مساعدوهم في أذى رسول الله ﷺ، ولذلك قام عبد الله بن أُبي بن سلول، حين أمكن الله منهم رسول الله ﷺ، «فقال: يا محمد، أحْسَن في مواليَّ، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحْسَن في مواليّ، قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ». قال ابن هشام: وكان يقال لها: ذات الفضول.

قال ابن إسحاق: فقال له رسول الله ﷺ: أرسِلْني [تمهَّل]، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُللاً، ثم قال: ويحك! أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تُحسِن في مواليّ، أربع مئة حاسر وثلاث مئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ، هُم لك».[2]

وكانت النتيجة العفو عن قتلهم، وإجلائهم عن المدينة،

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٤٩.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٤٨.

حيث غنم المسلمون أموالهم وديارهم، وتم خروجهم خلال ثلاثة أيام وتوجهوا الى بلاد الشام.

وفي موقف عبد الله بن أُبي نزل قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٧].

كان إجلاء بني قينقاع ضربة قوية ليهود المدينة، الذين وقفوا عاجزين في هذه المرحلة عن نصرة إخوانهم من يهود حيث ضربهم الله بالذلة والخوف.[1]

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٦٢٨.

كما أن ما غنمه المسلمون من بني قينقاع فيه سلاح كثير وأدوات صياغة وأموال مختلفة، انتفع بها المسلمون، وقد قسمه الرسول ﷺ بين المسلمين واصطفى الخُمُس[1] واستفاد من سلاحهم في الغزوات التي تلت.

زواج علي وفاطمة (رضي الله عنهما):[2]

فاطمة بنت رسول الله، قال عنها ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»،[3] وقال: «فاطمة بِضْعةٌ مني فمن أغضبها أغضبني».[4]

أصغر بنات النبي ﷺ وأحبهنّ إليه مع حبه ﷺ لجميعهن (رضوان الله عليهن)، فهي الوحيدة الباقية من بنات النبي آخر حياته، بقيت من بعده أشهراً عدة، وروت عنه أحاديث، ولذلك تعلقت أذهان الأمة بها أكثر من غيرها من بنات الرسول ﷺ، كما أن انقطاع نسل الرسول ﷺ إلا من فاطمة جعلها أكثر ذِكْراً من غيرها.

---

(١) ابن سعد، **السيرة من الطبقات**، ج ٢/ ٢٩؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٧.

(٢) وضع البخاري في **صحيحه**، باب منقبة فاطمة (عليها السلام)، ج ٥/ ٢٠٩؛ ووضع ابن إسحاق، في **السيرة** عنوان زواج فاطمة (رضي الله عنها)، ص٢٣٠.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، ج ٤/ ٢٠٩.

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**، ج ٤/ ٢١٠.

ولدت (رضي الله عنها) قبل البعثة بحوالى سنتين،[1] كانت ممن يدافع عن الرسول ﷺ في مكة عند أذى قومه له، حملت سلى الجزور الذي طرحه القوم على رأسه وسبّتهم وأبعدتهم عن رسول الله ﷺ.[2]

وردت مناقبها عن أم المؤمنين عائشة في أحاديث متفرقة وكانت عائشة تقول: «ما رأيت أحداً قط أفضل من فاطمة غير أبيها».[3]

وروت عائشة (رضي الله عنها): «أن فاطمة أقبلت تمشي كأنّ مشيها مشي رسول الله ﷺ، فقال مرحباً يا بنتي، ثم أجلسها عن يمينه، ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكت، ثم أسرّ إليها حديثاً فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم أقربَ فرحاً من حُزنٍ، فسألتها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره، فلما مات سألتها؟ فأخبرتني أنه قال: إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، وما أراه إلا قد حضر أجلي، وإنكِ أول أهلي لحوقاً بي ونِعْمَ السلَف أنا لك، فبكت فقال: إلا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين فضحكت.[4]

---

(١) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ١١٨؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٨/ ١٩؛ ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٣٧٧.

(٢) انظر: تخريج الحديث بطوله في وفاة النبي ﷺ من هذا الكتاب.

(٣) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٣٧٨.

(٤) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين =

وقد لحقت فاطمة برسول الله ﷺ مهاجرة إلى المدينة وكانت شابة.[1]

وكان علي رضي الله عنه شاباً هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهو أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ نسباً وروحاً وإيماناً، وقد تربى في بيت رسول الله ﷺ، وكان أول المؤمنين به من الشباب، وأعرف الناس بصدقه، فداه بنفسه يوم الهجرة، له من المكانة عند رسول الله ﷺ وعند المسلمين ما ليس لأحد غيره.

وفي محرّم من السنة الثانية للهجرة، رغب علي رضي الله عنه في خطبة فاطمة من رسول الله ﷺ، إلا أنه كان حَيِيّاً ويهاب الرسول ﷺ، فضلاً عن إلى كونه شاباً لا تجربة له في مثل هذا الأمر.

وقد حاول بعض الصحابة خطبة فاطمة (رضي الله عنها)، إلا أن الرسول ﷺ ردهم بلطف، وكأنه ينتظر أن يتقدم علي رضي الله عنه لخطبتها، وقد شجعت علياً رضي الله عنه بعضُ جواري الأنصار على ذلك.[2]

= يدي الناس، ولم يخبر بسرّ صاحبه، ج ٧/ ١٤؛ **كتاب المغازي**، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ج ٥/ ١٣٨؛ وانظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٣٧٨.

(١) انظر: ترجمتها، عند ابن سعد، **الطبقات الكبرى**،ج ١/ ١٩؛ ابن حجر، **الإصابة**،ج١/ ٣٧٨؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**،ج ٢/ ١١٨.

(٢) انظر: ابن سعد، **الطبقات** رضي الله عنه، ج ٨/ ١٩؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٤٤.

قال علي ﷺ: «فلما قعدت بين يديه أُفحِمتُ فوالله ما أستطيع أن أتكلم فقال: ما جاء بك؟ فسكتُّ، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ قلت: نعم، قال: وهل عندك من شيء تستحِلّها به؟ فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: ما فعلت بالدرع التي سَلّحْتُكَها، فقلت: هي عندي قال: فأعطها إياه». (١)

وقيل إن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة وأخبرها بطلب علي فسكتت، فعلم ﷺ أن ذلك إقرارٌ منها.

وقد كان زواجاً بسيطاً متواضعاً أنفق فيه علي ﷺ مما يجد.

وقد ورد أنه حامَلَ وجلب حطباً لأحد صوّاغي المدينة يقول علي ﷺ: «لما أردت أن أَبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ واعدتُ رجلاً صوَّاغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بأذخر أردت أن أبيعه من الصوَّاغين واستعين به في وليمة عرسي». (٢) وقد ساهم بعض الأنصار والمهاجرين في هذه الوليمة المتواضعة المباركة.

وقد جهزها رسول الله ﷺ بجهاز بسيط وجرتين للماء، (٣) وقد ورد أنه ﷺ قال لعلي ليلة دخلته بفاطمة: لا تُحدِث شيئاً

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٨/ ٢١؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٤٣.
(٢) **صحيح البخاري**، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصواغ، ج ٣/ ١٣.
(٣) ابن سعد، **الطبقات**، ج٨ / ٢٣.

حتى تلقاني، فدعا بماء فتوضأ منه ثم أفرغه عليهما، وقال اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما.[1]

وقد حرص الرسول ﷺ أن يسكن فاطمة وعلي رضي الله عنه بجواره، وقد علم حارثة بن النعمان الأنصاري بذلك، فتحول عن حجرة له مجاورة لمسجد الرسول ﷺ تقع شمال حجرة عائشة، وطلب من الرسول ﷺ أن يأخذها لعلي وفاطمة وقال: والله الذي يأخذ أحبُّ إلي من الذي يدع، قال ﷺ صدقت، فتحول وسكن علي وفاطمة مكانه. فكانا مجاورين لرسول الله يمر عليهما ويستأنس بهما ويدعو لهما ويوجههما.[2]

وقد رويت أحاديث كثيرة عن هذه الزيارات المباركة للبيت المبارك الذي خرج منه سيّدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين (رضي الله عنهما) وأم كلثوم وزينب بنات علي من فاطمة رضي الله عنه.[3]

وقد كانت (رضي الله عنها) تعيش مع علي رضي الله عنه في شظف من العيش وشدة منه، ولم تكن الدنيا همهما، ومع ذلك كانا يتألمان من كثرة العمل. وقد ورد عند أحمد في مُسنَده «قال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سَنَوْتُ [كبرتُ] حتى لقد

---

(١) انظر: ابن سعد، **الطبقات**، ج ٨/ ٢٤.

(٢) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٣/ ٤٨٨؛ والذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ٣٨٠.

(٣) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ١٣٤، ١٢٢.
ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٤٤.

اشتكيت صدري، قال: وجاء الله أباك يَسبْي فاذهبي فاستخدميه. فقالت: أنا والله قد طحنت حتى مَحُلَت يدي: فأتيت النبي ﷺ فقال: «ما جاء بك أي بنية؟» قالت: جئت لأسلّم عليك، واستحييت أن أسأله. فأتينا جميعاً. فقال علي: يا رسول الله. والله لقد سَنَوْتُ حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى محلت يداي وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنا، فقال رسول الله ﷺ: «والله لا أعطيكما وأدعُ أهل الصُّفة تطوي بطونُهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»،[1] فرجعا. فأتاهما النبي ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطّت رأسيهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشّفت رأساهما، فثارا، فقال: «مكانَكُما». ثم قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا: بلى فقال: «كلمات علمنيهنّ جبريل، عليه السلام فقال: تُسبِّحان في دُبُر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسّبحا ثلاثاً وثلاثين واحمَدَا ثلاثاً وثلاثين وكبِّرا أربعة وثلاثين». [2]

وكغيرهما من البشر يحدث بينهما أحياناً ما يحدث بين الأزواج، فكان الرسول ﷺ يصلح بينهما، حتى أن علياً قال لها: والله لا آتي شيئاً تكرهينه. روى ابن حجر قال: كان بين

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٨/ ٢٥.

(٢) **المصدر السابق**.

علي وفاطمة كلام، فدخل رسول الله ﷺ وآله فلم يزل حتى أصلح بينهما، ثم خرج فقيل له: دخلت وأنت على حالٍ وخرجت ونحن نرى البِشْر في وجهك، فقال: وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إليَّ.[1]

وقد ورد عن أمّ سَلَمة أنها قالت: «في بيتي نزلت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال: هؤلاء أهل بيتي».[2] ومع هذا فالآية في عامة أهل البيت ومنهن أمهات المؤمنين، اللاتي بدأت الآية بالحديث عنهن، ولا يعقل أن يُجزِّئ الكارهون لأمهات المؤمنين والمؤمنات الآية ويرونها خاصة في علي وفاطمة وأبنائهما (رضي الله عنهم أجمعين)، فإثباتهم لا ينفي غيرهم، فزوجات النبي من أهل البيت كغيره من الناس فلا تخرج الزوجات من الآية، فالآية نصّت في أولها عليهن، بل هي موجهه لهن.

ولعل عمل رسول الله ﷺ مع علي وفاطمة وابنيهما ليقطع

---

(١) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٣٧٩؛ وابن سعد، **الطبقات**، ج ٨/ ٢٦.

(٢) انظر: ابن كثير، **تفسيره**، ج ٢/ ١٤٩٧.

الطريق على المشككين في دخولهم ضمن أهل البيت وإلا فالآية أثبتت أن نساءه ﷺ منهم.

غزوة أُحد (شوال سنة ٣ هـ):[١]

لم تسكت قريش بعد هزيمتها في بدر، فأخذت تعد العدة لغزو المسلمين في المدينة، وقام كل منهم بدوره، فالذين قُتل آباؤهم أو أبناؤهم أو أحد من أهليهم كانوا يسيرون في الناس يحرضونهم على رسول الله ﷺ ومن معه،[٢] وكان اليهود يدورون في مكة ويشتركون في تحريض زعمائها، والمنافقون في المدينة يَعِدون قريشاً ويمنّونهم بالمساعدة إن قَدِموا لاستئصال محمد ومن معه من المسلمين ويتحملون الإعداد المعنوي والمادي لذلك، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].[٣]

وتم استعداد قريش ومن حالفها من قبائل تهامة وغيرهم،

---

(١) ابن إسحق، **السيرة**، ص ٣٠١، **ابن هشام**، ج ٣/ ٦٠.
وانظر: بامدحج، **غزوة أحد «دراسة دعوية»**، ط١، دار إشبيليا، الرياض١٤٢٠هـ

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٤٧٣.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣ / ٦٠، الواقدي: **المغازي**، ج ١/ ١٩٩، الصالحي الشامي: **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٢٧١.

وتوجه جيشها بحديده ورجاله وعبيده، وبعض نسائه يقصدون المدينة، وقد بلغ عددهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل.[1]

في هذه الأثناء كانت الأخبار تأتي لرسول الله ﷺ من عيونه في مكة عن تحركات القوم بالتفصيل.[2]

جمع الرسول ﷺ المسلمين واستشارهم في الأمر كعادته، واختلفت آراؤهم، فمنهم من رأى الخروج للقاء الأعداء خارج المدينة وكانوا الأكثرية، ومنهم من رأى البقاء في المدينة، وقتال المشركين من داخلها إن هم قدموها، وكان الرسول ﷺ يميل إلى الرأي الثاني وهو البقاء داخل المدينة.[3] وكان أصحاب الرأي القائل بالخروج للقاء القوم من شجعان المسلمين وشبابهم وأكثروا على الرسول ﷺ، فدخل داره ثم خرج إليهم وقد لبس درعه وسلاحه واستعد للقتال، فندم الذين أكثروا على الرسول ﷺ بالخروج، وقالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد. فقال ﷺ: «ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل».[4]

---

(١) ابن إسحق: **السيرة**، ص ٣٠٢، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٠٢، ٢٠٣؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤ ٢٧٣.

(٢) الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٠٧، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ٣٧، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٢٧٣.

(٣) ابن إسحق، **السيرة**، ص ٣٠٢، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٣١٠ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٢٧٥.

(٤) الإمام أحمد بن حنبل، **المسند**، ج ٣/ ٣٥١.

كان ﷺ قد رأى رؤيا قَصّها على أصحابه، ومنها كما روى البخاري قوله: «رأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أُحُدُ. ثم هززته بآخر فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرًا والله !! خير فإذا هم المؤمنون يوم أحد». (١)

وكانت قريش قد نزلت أَحَدَ الأودية بالقرب من المدينة فخرج الرسول ﷺ ومعه ألف من أهل المدينة، وفي الطريق إلى أُحُد رجع زعيم المنافقين عبد الله ابن أُبي سلول، ومعه ثلث الجيش خاذلين لرسول الله ﷺ، وزعم ابن أُبي أنه ما فعل ذلك إلا لأنه كان يرى البقاء في المدينة ومضى المؤمنون مع رسول الله ﷺ. (٢)

كانت أُحُد منزل رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، واختار الرسول الموقع بنفسه، ونظم صفوف المسلمين فيه، حيث جعل مركز الجيش الشِعْبَ، وجعل جبل أُحد من خلفهم، واختار جبلاً صغيرًا أمام القوم وعين فيه الرماة وأمّر عليهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه وأوصاهم أن يثبتوا في مكانهم، حتى يأتيهم أمر الرسول ﷺ. وأن ينضحوا المشركين عن المسلمين

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب **المغازي**، باب من قتل من المسلمين يوم أحد، ج٥/ ٣٩؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٤٢.

(٢) الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢١٩، ابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ٣٩، وانظر: البخاري، **فتح الباري**، ج ١٥/ ٢٣٢.

بالنبل، حتى لا يأتوهم من الخلف. وأوصاهم بالثبات مهما كانت نتيجة المعركة وانتظار ما يصدر لهم من أوامر الرسول ﷺ. روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبيُّ ﷺ جيشًا من الرماة، وأمّر عليهم عبد الله، وقال: لا تبرحوا، وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا». الحديث.[1]

واختار الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه لحمل لواء المسلمين، وتولى ﷺ ترتيب صفوف أصحابه المجاهدين معه، وذكّرهم بموعود الله من الجنة، وبالصبر والثبات عند اللقاء، ثم ردّ بعض الصغار إلى المدينة.[2]

ومن جهة المشركين قام زعيمهم أبو سفيان بن حرب بتعبئة المقاتلين، وكانوا قرابة ثلاثة آلاف مقاتل أكثر من أربعة أضعاف المسلمين، وقسمهم، وجعل على الميمنة خالد بن الوليد، وأخذ ذوو الصيت والصوت منهم يحرِّضون الناس على القتال واستئصال محمد ﷺ ومن معه من المسلمين، وقامت نساء

---

(١) انظر: رواية **البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزو أحد**، ج ٥/ ٣١؛ ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، ص ٣٠٥؛ الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢١٩؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٢٨٢.

(٢) ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، ص ٢٠٣، ٣٠٨؛ الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٢١، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٢٨٣، ٢٨٢.

قريش بتحريض الرجال على القتال، وذكَّرنهم بمن قتل من أهلهم في بدر العام الماضي.[1]

بدأت المعركة وقد أخذ كل موقعه، وأخرج الرسول ﷺ سيفًا كان معه فقال من يأخذ هذا بحقه، فقام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه وقال: يا رسول الله وما حقه؟ فقال ﷺ: أن تضرب به هام المشركين حتى ينحني، فأخذه أبو دجانة، وأخرج من جيبه عصابة حمراء فربطها على رأسه وأخذ يختال بالسيف، فقال ﷺ: «إن هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا في مثل هذا الموطن».[2] وبدأ القتال، وقاتل أبو دجانة بسيف رسول الله ﷺ قتال الأبطال،[3] كما قاتل حمزة رضي الله عنه بشجاعة لا نظير لها، وقاتل غيرهم من شجعان المسلمين، حتى لاحت الهزيمة في صفوف المشركين، وبدا النصر واضحًا للمؤمنين، وولى المشركون من الميدان، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك من على الجبال تحركوا من أماكنهم،وحاول عبد الله بن جبير رضي الله عنه أن يمنعهم من المغادرة مذكرًا إياهم بأمر

---

(١) ابن إسحاق، **السيرة**، ص ٣٠٦؛ الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٢٠، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ٤١، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٢٨٣.

(٢) انظر ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٣٦.

(٣) ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، ص ٣٠٥، **الواقدي**، ج ١/ ٢٤١، وانظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٥٨.

الرسول ﷺ، ولكنهم عصوه وانصرفوا ولم يثبت معه إلا نفر يسير دون العشرة.[1]

كان خالد بن الوليد ومعه جماعة من فرسان قريش يرقبون الموقف عن كثب، فلما رأى خالد أن الرماة قلة لا يستطيعون منع الخيل، حَمَل عليهم فقتلهم وقائدهم، ثم نزل بالفرسان إلى المسلمين، وهم مكشوفون فأتوهم من الخلف، ورجع جند قريش إلى ساحة المعركة بمساعدة الفرسان، وتغير مسير القتال وأصبح في صالح مشركي قريش.[2]

وحاولوا أن يصلوا إلى رسول الله ﷺ شخصيًا ليقتلوه، وتبارى في ذلك شجعانهم.

وصمد رسول الله ﷺ وقاتل قتال الأبطال، وقتل بيده (أُبي ابن خلف) الذي كان معاندًا وحريصًا على قتل الرسول ﷺ ويردد: محمد... !! لا نجوتُ إنْ نَجَا، فرفض الرسول ﷺ أن يبادر إليه أحد من الصحابة غيره، حيث واجهه ﷺ بنفسه بحربةٍ أصابته في عنقه فمات منها فيما بعد.[3]

---

(١) انظر: البخاري، **فتح الباري**، ج ١٥/ ٢٢٥؛ ابن إسحاق، **السيرة**، ص ٣٠٦، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٢٩.

(٢) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٥/ ٢٢٥، ابن إسحاق، **السيرة**، ص ٣٠٧، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٣٥، ابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ٤١.

(٣) ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، ص ٣١٠، الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٢٥٢، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٣٠٧، ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٣٩.

ثم إنه ﷺ وقع في إحدى الحفر فشُجّ رأسه وكسرت رباعيته وشُقت شفته.[1] وصمد نفر من الصحابة مع رسول الله ﷺ واستماتوا في الدفاع عنه، منهم أبوطلحة الأنصاري رضي الله عنه، وسهل بن حنيف، و مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين ــ الذي استشهد بين يدي النبي ﷺ ــ، و علي بن أبي طالب وأبو دجانة وسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنهم أجمعين)، وقال رسول الله ﷺ لسعد وهو يرمي دفاعًا عنه: «ارْمِ فداك أبي وأمي».[2] كما كان معهم في الدفاع عن الرسول ﷺ أم عمارة ـ رضي الله عنها ـ.[3]

أشاع المشركون أنهم قتلوا رسول الله ﷺ، فَفَتَّ ذلك في عضد المسلمين فقام الصحابي أنس بن النضر رضي الله عنه فقال: ما يُجلِسُكُم؟ قالوا: قتل محمد رسول الله قال: فما تِصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه، فوُجِد به يومئذ سبعون طعنة فما عرفه إلا أخته بحسن بنانه.[4]

---

(١) انظر: **صحيح البخاري (فتح الباري)**، ج ١٥/ ٢٤٣، ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، ص ٣١١، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٤٧؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٣١٠؛ انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٤٥.

(٢) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٥/ ٢٢٥؛ انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٣٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري (**فتح الباري**)، ج ١٥/ ٢٣٥، ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، ص٣٠٧، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٧٨.

(٤) ابن إسحق، **السيرة النبوية**، ص ٣٠٩؛ **الطبري، تاريخه**، ج ٣/ ١٨.

واستشهد جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وصل عددهم إلى سبعين رجلاً، منهم عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، قتله وحشيٌّ وهو غلام حبشي،[١] وسعد بن الربيع،[٢] ومصعب بن عمير،[٣] وعبد الله بن جحش،[٤] وحنظلة الغسيل وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين. والتجأ الرسول ﷺ ومن معه، من الصحابة إلى الشِعْب، وعلا أبو سفيان الجبل على الرسول ﷺ ومن معه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطاب وبعض الصحابة ورموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ لا تجيبوه، ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثم قال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟.... ثم قال أبو سفيان إن هؤلاء قد قتلوا ولو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يتمالك عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يخزيك، ثم قال أبو سفيان: أُعّلُ هُبَلْ، فقال ﷺ أجيبوه، قالوا: ما نقول. قال: قولوا الله أعلى وأجلّ، فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزّى

---

(١) انظر: باب مقتل حمزة عند البخاري (**فتح الباري**)، ج ١٥/ ٢٤٥؛ ابن إسحق، **السيرة النبوية**، ص ٣٠٨؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٣١٨، ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٤١.

(٢) الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٩٣؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٣٢٦.

(٣) انظر: **البخاري (فتح الباري)**، ج ١٥/ ٢٢٩.

(٤) الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٣٢٢.

لكم، فقال ﷺ أجيبوه قالوا، ما نقول؟ قال: قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. ثم قال أبو سفيان: يومٌ بيومِ بَدْرٍ فأجابوه، وقالوا: لا سواءَ؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم بدر العام القادم.(١)

وقد شاركت نساء المسلمين في المعركة: «كُنّ النساء يوم أُحد يُجْهِزْن على الجرحى [من المشركين]، ويسقين الماء ويداوين الجرحى».(٢)

وغادرت قريش أرض المعركة، بعد أن هلك منهم أربعة وعشرون قتيلاً، وداوى المسلمون جرحاهم، وفيهم رسول الله ﷺ، وصلى الرسول ﷺ على الشهداء الذين بلغوا سبعين شهيدًا ودفنوهم.(٣)

ثم رجع الرسول ﷺ ومن معه إلى المدينة ودخلوها والنساء تبكي القتلى، فتأثر رسول الله ﷺ وذرفت عيناه.(٤)

---

(١) انظر: **صحيح البخاري (فتح الباري)**، ج ١٥/ ٢٢٧؛ ابن إسحاق، **السيرة**، ص ٣١٣؛ **الواقدي المغازي**، ج ١/ ٢٩٧، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٣٢٥.

(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٣٢.

(٣) انظر البخاري (**فتح الباري**)، ج١٥/ ٢٢٥؛ ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، ص٣١٣؛ الواقدي، **المغازي**، ج ١ / ٣٠١، ٣١٠؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٣٣٠؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٣٩.

(٤) انظر: الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٣١١، ٣١٥، ٣١٦، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٩٨، ابن حجر: (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٥٥، ٢٥٦، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٣٣٤.

وكان ﷺ حذرًا فخشي من عودة قريش إلى المدينة، فخرج عليهم في اليوم التالي لطلب العدو وإرهابه حتى لا يعود إلى المدينة، وقال ﷺ: «لا يخرج معنا إلا من حضر معنا بالأمس». [١]

ووصل المسلمون إلى حمراء الأسد، [٢] على مسيرة عشرة أميال من المدينة، وبقوا فيها ما يزيد على ثلاثة أيام، ووصلت أخبارهم إلى قريش، وكانوا قد فكروا بالعودة للهجوم على المدينة مرة أخرى وثناهم عن ذلك تتبع الرسول ﷺ لهم، مما جعلهم يسرعون بالعودة إلى مكة. [٣]

وقد نزلت آيات من القرآن الكريم تتحدث عما جرى على المسلمين في أُحد ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ إِذْ

---

(١) انظر: **البخاري (فتح الباري)**، ج ١٥/ ٢٥٣، (وانظر **شرح ابن حجر على الحديث)**، الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٣٣٤. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ٤٨. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ١٠١.

(٢) منطقة جنوب غرب المدينة أصبحت حياً من أحياء المدينة حالياً.

(٣) انظر: **البخاري (فتح الباري)**، ج ١٥/ ٢٥٣، (وانظر **شرح ابن حجر على الحديث)** الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٣٣٤. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٣/ ١٠٤. الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٤٣٨ ـ ٤٤٢. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٥٢.

تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٢ ـ ١٥٥].

ثم يقول الله سبحانه وتعالى في موضع آخر من السورة نفسها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ

ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٦٥ ـ ١٧٤].

وهكذا كانت هذه الغزوة ابتلاءً لصفّ المؤمنين وتمحيصًا اختار الله فيها بعض الشهداء وفضح فيها المنافقين، وتاب على المؤمنين، فكانت من أهم غزوات الرسول ﷺ، شهدها بنفسه وأصابه وأصاب المؤمنين كثير من الجراح والبلاء، واختار الله فيها أكبر عدد من الشهداء في حياة المصطفى ﷺ.

أصحاب الرجيع: [1]

الرجيع اسم موضع من بلاد هُذيل بين مكة وعُسفان.[2] في صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم رهط

---

(١) انظر: عنوان غزوة بني لحيان، عند ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٩٥؛ وصحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، ج ٥/ ٤٠. (والرجيع ماء لهذيل بناحية الوطية اليوم على نحو سبعين كيلو متراً شمال شرق مكة المكرمة) انظر: بريك العُمري، **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة دراسة نقدية تحليلية، ص٢٢٥**.

(٢) البكري، **معجم ما استعجم**، ج ١/ ٦٤١

من عضل والقارة من الهون من مضر على رسول الله ﷺ في المدينة، وقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين ويعلموننا شرائع الإسلام «فبعث النبي ﷺ سرية عيناً وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب[1]، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذُكروا لحيّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى (فدفد).[2] وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا لهم: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر،[3] فأعطوهم العهد والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قِسِيِّهم [أقواسهم] فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما:

---

(١) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج ٢/ ٢٤٤.

(٢) فدفد: أو فدافد؛ ماء معروف بالقرب من ديار هذيل. انظر: البكري، **معجم ما استعجم**، ج ٢/ ١٠١٥.

(٣) هو: عبد الله بن طارق رضي الله عنه، انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٤٤؛ الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٣٥٧.

هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فعالجوه فجرروه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيبَ هو قاتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا على قتله استعار موساً [سِكِّيناً] من بعض بنات الحارث استحدّ بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبيّ لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك منى وفي يده موسى، فقال: أتخشين أن اقتله ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، وكانت تقول: ما رأيتُ أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وأنه لموثَق في الحديد، وما كان إلا رزقٌ رزقه الله فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلى ركعتين، ثم أنصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جَزَعٌ من الموت لزدتُ، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً ثم قال:

ولستُ أبالى حين أُقتل مسلماً
على أيّ شِقٍّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يَشَأْ
يبارك على أوصال شِلوٍ مُمزّع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتي بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً

من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظُّلّة من الدبر [المِظلّة من الريح القوية] فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء).[1]

لقد مات هؤلاء الصحابة على حُب رسول الله ﷺ وفداء الإسلام بأرواحهم، والحفاظ عليه مهما كان الثمن، فقد ورد أن زيداً لما جاءوا به ليقتلوه، قال له أبو سفيان بن حرب وكان على الشرك: يا زيد أتحب محمداً الآن؟ عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك، فرد عليه زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي!! فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً!![2] كما أن موقف خبيب بن عدي عندما تسَّرب إليه الطفل وكان في حجره ومعه الموس واضحاً في حقن دماء الأبرياء، حيث خشيت الأم على طفلها وارتبكت وارتعبت فما كان من خبيب إلا أن بادر بسؤالها: أتخشين أن أقتله وأجاب في الوقت نفسه، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله!

---

(١) من رواية البخاري من حديث أبي هريرة، **كتاب المغازي** باب (غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب بن عدي، ج٥/ ٤١،٤٠؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ١٠٨؛ وابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٢٩٥.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٤٨؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٨/ ٧٦؛ ابن حجر، **الإصابة**، ج ١/ ٤١٨؛ والذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١/ ٢٤٨؛ وانظر: محمد أبوشبهة، **السيرة**، ج ٢/ ٢٣٧.

كان صاحب مبدأ ودعوة وما كان صاحب انتقام ولذلك فإن موقفه هذا أثر على هذه الأم، وبقي في نفسها تحدث الناس به.

كان هذا المصاب الجلل صعباً على رسول الله ﷺ وأصحابه ولكنها الدعوة وهؤلاء قافلة من شهدائها رضي الله عنهم أجمعين.

بئر معونة:

في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم وفد من بني عامر يترأسه أبو براء عامر بن مالك (ملاعب الأسنّة)، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام (فلم يُسْلِم ولم يَبعُدْ) وطلب براء أن يرسل الرسول الله ﷺ معه بعض القراء من الصحابة لدعوة أهل نجد إلى الإسلام، فخشي ﷺ عليهم ولكن أبا براء قال أنا جارٌ لهم، فأمن ﷺ وكتب كتاباً إلى عامر بن الطفيل، وبعث حرام بن ملحان خال أنس بن مالك رضي الله عنه في سبعين من الأنصار والمهاجرين فيهم عامر بن فهيرة.[1]

وقد ساروا حتى نزلوا بئر معونة ناحية نجد وقابل حرام بن ملحان عامر بن الطفيل وسلمه كتاب رسول الله ﷺ، وقبل أن يقرأه عامر، أوعز إلى أحد رجاله فأنفذ الرمح في ظهر حرام،

(١) انظر: صحيح البخاري **كتاب المغازي**، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان، ج٥/ ٤٠؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ١٢٠.

فأصابه في مقتل فقال حرام: فزت ورب الكعبة! ثم إن عامر بن الطفيل استصرخ بني عامر فرفضوا أن يخفروا جوار أبي براء الذي أجارهم، وهو من قومهم، فاستصرخ عليهم مجاوريهم بني سليم (رُعل وذكوان وعُصية)، فخرجوا معه مسرعين حتى أحاط عامر بن الطفيل ومن معه من فلول القبائل بأصحاب رسول الله ﷺ، فحاصروهم وقتلوهم ولم يسلم منهم إلا رجلان كانا في سَرْح القوم، هما عمرو بن أمية الضمري والمنذر ابن محمد بن عقبة، ثم قُتل المنذر بن محمد وأُخذ عمر بن أمية أسيراً. فلما علم القوم أنه مُضريّ أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جَزّ ناصيته، فتوجه إلى رسول الله ﷺ في المدينة وفي الطريق لقي رجلين من بني عامر معهما عهد من رسول الله ﷺ فقتلهما، وهو لا يعلم عهدهما ثأراً لأصحاب بئر معونة. فلما قدم على النبي ﷺ أخبره بما جرى للصحابة القراء وأخبره بقتل الرجلين فقال ﷺ (لقد قتلت قتيلين لأدينهما).[1] وأما أبو براء الذي أجار أصحاب رسول الله ﷺ،فقد شق عليه فعل ابن أخيه عامر بمن أجارهم من أصحاب رسول الله ﷺ فتوجه ابنه ربيعة للانتقام من عامر بن الطفيل الذي خفر ذِمّة وإجارةَ أبيه، فطعنه بالرمح ولم يتمكن منه فقتله. وقد دعا الرسول ﷺ على هؤلاء الغادرين شهراً كاملاً؛ «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دعا النبي

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ١٢١؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ١٤٣.

ﷺ على الذين قَتَلوا، يعني أصحاب بئر معونة، ثلاثين صباحاً حين يدعو على رعل ولحيان وعصية عصت الله ورسوله ﷺ»[1] كما دعا على عامر بن الطفيل مباشرة فأصابه الله في غدة فمرض في بيت امرأة من بني سلول، فكره ذلك، وكان يقول: «فيَّ غدةٌ كغدّة البعير في بيت امرأة سلولية». فركب فرسه وخرج فمات على ظهرها فأكلته السباع والطيور،[2] وقد روى البخاري أن النبي ﷺ كما نعى القراء قال: (إن أصحابكم قد أصيبوا، وأنهم قد سألوا ربهم فقالوا ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك، ورضيت عنا فأخبرهم عنهم فأنزل الله فيهم قرآناً كان يتلى «بلغوا عنا قومنا إنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا».[3] وقد حزن الرسول ﷺ حزناً شديداً على الشهداء في بئر معونة كما حزن على شهداء الرجيع، حيث وصلت أخبارهم في يوم واحد. وكان ما حدث مصاباً جللاً، حيث لم يقتل مثل هذا العدد من الصحابة في المعارك، وقد قتل هؤلاء بالغدر وهم من حملة القرآن والدعاة إلى الله في مرحلة مبكرة، وهذه التضحية فداءً للدين على يد هؤلاء الغادرين تعطينا درساً في مقدار ما بذل أصحاب رسول الله ﷺ في حمل رسالته والدعوة إلى الإسلام.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان. ج٤/ ٤٤.

(٢) انظر: وفد بني عامر من هذا الكتاب.

(٣) من رواية البخاري، **كتاب المغازي**، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة، ج٥/ ٦٤؛ وانظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ١٤٠.

كما أن موقف حرام بن ملحان حينما طعن كان واضحاً أنه وإن كان هو القتيل فهو المنتصر وصدق الله ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]. قد كان رضي الله عنه يدرك معنى الشهادة، وكان لقوله فزت وربّ الكعبة أثر عظيم في نفوس من حضره، كيف يكون قتيلاً مغدوراً مصاباً وفي الوقت نفسه فائزاً، إنها المعاني العظيمة التي يدركها حرام بن ملحان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ.

غزوة بني النضير (ربيع الأول ٤هـ):

كان بنو النضير من قبائل يهود يقيمون في المدينة المنورة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، وهم ضمن من وادع الرسول ﷺ من يهود المدينة وكتب معهم عهداً في صحيفة المدينة يتضمن الموادعة والدفاع عن المدينة والتعاون في حمايتها وديات القتلى ضمن بنود أخرى.(١)

وقد خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير في منازلهم أطراف المدينة يطلب مساعدتهم في دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري بعد أن نجا من حادثة بئر معونة، ـ كما مرَّ ذكره ـ وكان ﷺ جالساً تحت أحد جدرانهم، فتآمر يهود بني النضير على قتله بمحاولة إلقاء الصخور عليه من فوق الجدار، مستغلين

(١) انظر: وثيقة المدينة من هذا الكتاب.

الفرصة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بنيتهم، فلما صعدوا ليلقوا الصخر على رسول الله ﷺ قام ﷺ وكأن له حاجة ولم يخبر من معه من الصحابة، فظنوا أنه سيعود لمجلسه، فلما طال الانتظار قام الصحابة في طلب النبي ﷺ فلما لحقوا به في المدينة، أخبرهم ﷺ بغدر يهود واعتزامهم قتله، فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمه إليهم يخبرهم باطلاع الرسول ﷺ على غدرهم، ويطلب منهم الجلاء من المدينة خلال عشرة أيام وإلا حاق بهم الهلاك وقاتلهم الرسول ﷺ، فأصابهم الذهول وتحيروا وعلموا أن غدرهم قد كشفه الله تعالى،[1] فبدأوا الاتصال بالمنافقين في المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي علهم يجدون عندهم حلاً ومساعدة، فطمأنهم المنافقون وطلبوا منهم الصبر وعدم الخروج ووعدوهم بالقتال معهم إن احتاجوا إلى ذلك.[2] وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٢].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٢/ ٦٨٢.

(٢) صحيح البخاري، **كتاب التفسير**، باب «ما قطعتم من لينة»، حديث رقم: ٤٨٨٤.

فلما أحس رسول الله ﷺ بعنادهم واستعدادهم للقتال وما أظهره المنافقون من مناصرتهم، أمر ﷺ جنده من أصحابه بالاستعداد، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وحمل رأيته علي بن أبي طالب رضي الله عنه.[1] وحاصر بني النضير بضع عشرة ليلة جرى فيها قتال معهم، وبدأ رسول الله ﷺ بإذن من ربه في قطع نخيلهم، ليئيسهم وينزل الحسرة والرعب في قلوبهم، ويدفعهم إلى الاستسلام سريعاً، فقال بنو النضير: محمد ينهى عن الفساد وها هو يحرق ويقطع نخلنا فجاء قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].[2] وشدد ﷺ الحصار عليهم وكَذّبَهم المنافقون ولم ينصروهم، فعلم اليهود نتيجة غدرهم، وحزم رسول الله ﷺ معهم وقذف الله في قلوبهم الرعب رغم تحصنهم واستعدادهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن يسمح لهم بما تحمله الإبل من أموالهم عدا السلاح،[3] فاستسلموا على هذا الشرط، وأُعطوا أياماً محددة للرحيل.

وفيهم يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ٥٨
(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٨٣.
(٣) ابن هشام، **السيرة**، ج٣/ ١٩٠.

مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]،[١] ثم خرجوا في تظاهرة كبيرة متجلدين متصابرين متظاهرين بعدم المبالاة فخرجوا «بالنساء والأبناء والأموال، معهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن من خلفهم بزهاء وفخر ما رُئي قبله من حي من الناس في زمانهم».[٢] وبجلائهم أراح الله المسلمين من شرهم وكف أذاهم وأسلم منهم رجلان فترك لهما رسول الله ﷺ أموالهما،[٣] وقد نزلت في بني النضير سورة الحشر بأكملها[٤] خص أولها بالحديث عن يهود في قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ

---

(١) كان ابن عباس يسميها سورة بني النضير: صحيح البخاري، **كتاب التفسير**، باب تفسير سورة الحشر، حديث رقم: ٤٨٨٢؛ وابن كثير، **تفسيره**، ج ٢/ ١٨٤٤.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ١٩٢

(٣) **المصدر السابق**.

(٤) **المصدر السابق**.

ٱلْعِقَابِ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ١ ـ ٦]،(١) كما تضمنت بقية السورة ما يرتبط بالفيء وأحكامه، وأصبحت نظاماً مالياً وحكماً شرعياً للتعامل فيه مع ما يُكسب من الأعداء بلا قتال، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٧ ـ ١٠].

وقد تضمنت الآيات الثناء على المهاجرين والأنصار، والتحدث عن فقر المهاجرين وإيثارهم إياهم. وقد قال الرسول

(١) انظر: تفسير سورة الحشر، عند ابن كثير، في **تفسيره**، ج٢/ ١٨٤٤.

ﷺ: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم». فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ــ زعماء الأنصار ــ يا رسول الله ﷺ بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار»،[1] وقسم رسول الله ﷺ الأموال والدور بين المهاجرين وأعطى رجلين من فقراء الأنصار، وكان مُخيريق أحد أثرياء بني النضير قد أسلم قبل أحد وقاتل مع المسلمين، وقال: فإن أصبت فمالي لمحمد يصنع به ما يشاء، فقتل فكان له سبع مزارع أنفقها الرسول ﷺ على المحتاجين من المسلمين.[2] وأثبت الأنصار أنهم أهل لما وصفهم الله به ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وحينما أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه[3] وضع الخراج على الأرض وتدوين الدواوين أثناء خلافته جمع الصحابة رضي الله عنهم من

---

(١) **شرح الزرقاني**، ج ٢ / ٨٢؛ وانظر: صالح الشامي، من **مَعين السيرة**، ص٢٨٧؛ ومهدي رزق الله، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، ص٤١٧.

(٢) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٣/ ٣٩٤؛ والواقدي، **المغازي**، ج ٣/ ٣٧٨.

(٣) انظر: جزء من الرواية، عند **البخاري** في **صحيحه**، عن عمر بن الخطاب، كتاب التفسير، باب قوله: ما أفاء الله على رسوله، ج ٦/ ٥٨

أهل الرأي في المدينة وناقشهم حول قسمة الأراضي بين الفاتحين أو تركها ووضع الخراج عليها، واستفادة عامة المسلمين من وارداتها عن طريق الديوان، وقد استشعر عمر ﷺ أحداث غزوة بني النضير واستشهد بالآيات الواردة فيها وأن لمن يأتي من أجيال المسلمين حق في هذا المال منطلقاً من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر].

وقد أورد أبو يوسف في كتاب «الخراج»: (أن عمر بن الخطاب ﷺ استشار الناس في السواد حين افتتح، فرأى عامتهم أن يقسمه، وكان بلال بن رباح من أشدهم في ذلك، ورأى عمر بن الخطاب ﷺ أن يتركه ولا يقسمه، فقال: اللهم اكفني بلالاً وأصحابه. ومكثوا في ذلك يومين أو ثلاثة أو دون ذلك ثم قال عمر: إني قد وجدت حجة، قال تعالى في كتابه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الحشر:٦]، حتى فرغ من شأن بني النضير، فهذه عامة في الفيء كلها ثم قال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر:٦ ـ ٧]. ثم قال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ثم لم يرض وخلط بهم غيرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. فهذا فيما بلغنا والله أعلم للأنصار خاصة، ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم، فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعاً فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قَسْم، فأجمع على تركه وجمع خراجه، قال أبو يوسف: والذي رأى عمر رضي الله عنه من الامتناع من قسمة الأراضين بين من افتتحها عند ما عرّفه الله ما كان في كتابه من أن ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد.[1]

---

(١) انظر: أبو يوسف، **الخراج**، ص ٢٣؛ وأبو يعلي، **الأحكام السلطانية**، ص١٦٦.

وقد ختمت آيات سورة الحشر بالمنافقين وربطتهم بيهود في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٢].

كما أنها كشفت عن طبائع يهود وجبنهم وأسلوبهم في القتال في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وما الُجدر التي يبنيها يهود في فلسطين إلا تصديقاً لما ورد في هذه الآيات عن بني النضير خاصة ويهود عامة في كل زمان ومكان.

غزوة الأحزاب (الخندق) (شوال سنة ٥هـ):[1]

سبب الغزوة أن جماعة من زعماء اليهود في المدينة ذهبوا إلى مكة، وأخذوا يحرضون قريشًا على غزو الرسول ﷺ في المدينة، ووعدوا أنهم سوف يساعدون قريشًا حتى يستأصلوا

(١) وضع **البخاري في صحيحه** بابًا سماه: (غزوة الخندق وهي الأحزاب) **فتح الباري**، ج١٥/ ٢٧٤، وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، غزوة الخندق، ص٢٤٦.

محمدًا ﷺ ومن معه، وأفتوهم بأن دين قريش خير من دين محمد ﷺ، وفيهم وفي قولهم نزل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. (١) فأجابت قريش بزعامة أبي سفيان إلى ذلك.

ثم إن أولئك النفر من اليهود توجهوا إلى غطفان وغيرها من قبائل نجد فدعوهم إلى حرب المسلمين في المدينة وواعدوهم ومنّوهم كما فعلوا مع قريش، وتمكن اليهود من تحزيب الأحزاب لحرب الرسول ﷺ ومن معه. (٢)

كان النبي ﷺ كعادته يتتبع أخبار أعدائه من قريش وغيرها، وقد جاءته عيونه بالخبر قبل تحرك القوم، فكأن أن جمع الصحابة يستشيرهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الاعتداء القادم، خصوصًا أن الأعداء كثر والمدينة قد لا تتحمل الدفاع ضد تلك القوات.

وكان أحد الآراء المطروحة بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه حفر خندق حول المدينة، يمنع الفرسان والراجلة من

---

(١) الواقدي: **المغازي**، ج ٢/ ٤٤٢، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢١٥، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٥١٣

(٢) انظر: ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٥/ ٢٧٥؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢١٥، الواقدي، **المغازي**، ج ٢ / ٤٤٣؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٥١٣.

اقتحامها، وفي الوقت نفسه يمكّن المسلمين من الدفاع، خصوصًا أن الوضع الجغرافي للمدينة كان مناسبًا لذلك. وقد استحسن الرسول ﷺ الفكرة،[1] وخطط مكان الخندق المقترح، وقسم العمل فيه على أصحابه، فكان نصيب كل عشرة منهم أربعين ذراعًا، وعمل الرسول ﷺ مع الصحابة في الحفر، حيث كان يضرب بالفأس ويحمل التراب بيديه الكريمتين.

كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبر بطنه ويردد قول الصحابة:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزِلَنْ سكينةً علينا وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا[2]

وتسلل جماعة من المنافقين فارين من تأدية الواجب الملقى عليهم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وكان المؤمنون إذا احتاج الرجل منهم إلى حاجة لم ينصرف إليها حتى يأذن له رسول الله

(١) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٥/ ٢٧٥، الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٤٤٥، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٥١٤،

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٥٧.

ﷺ، فامتدحهم الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢]. (١)

وفي أثناء حفر الخندق اعترضت للمسلمين صخرة فقام الرسول ليحطمها، وحين ضربها برقت منها بارقة فكبّر وكبّر المسلمون معه، ثم ضربها ثانية فبرقت فكبّر وكبّر المسلمون معه، ثم ضربها ثالثة فبرقت فكبّر وكبّر المسلمون معه، وقد قال ﷺ إثر الضربة الأولى: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمراءَ الساعةَ، ثم ضربها الثانية فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضربها الثالثة وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة». (٢) فاستبشر المسلمون، وبهذا تيقن ﷺ والمؤمنون معه أنهم سيغلبون أولئك الملوك وسيفتحون ديارهم وصدقوا ما وعد الله ورسوله.

أما المنافقون فقد أخذوا يتهكمون بما ذكره الرسول ﷺ من

---

(١) انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٢/٢٤٨؛ وله رأي عام في الآية ومخالفة المنافقين لأمر الرسول ﷺ عموماً.

(٢) رواه ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٦١؛ رواه احمد في مسنده ج ٤/ ٣٠٣.

موعود الله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ووصلت قريش ومعها الأحزاب، وعددهم عشرة الآف مقاتل، وعسكروا حول المدينة، واستغربوا من وجود الخندق، حيث لم يكن للعرب عهد به، وعسكر الرسول ﷺ ومعه قرابة ثلاثة آلاف من المجاهدين، بعد أن جمعوا النساء والذرية في حصون الأنصار.(١)

وكان الوقت عصيبًا جدًا، إذ لم يكن المسلمون يأمنون على أنفسهم ليلاً ولا نهارًا، خصوصًا أن يهود بني قريظة كانوا في ناحية من المدينة،(٢) والمسلمون قد عاهدوهم في الدفاع المشترك عن المدينة، ومع ذلك لا يأمنون أن يستمر يهود على عهدهم، فكان أن أحس المسلمون بالخطر يحدق بهم من كل جانب كما وصف الله ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].(٣)

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢١٩، الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٤٤٣، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٥٢٤.

(٢) انظر: شوقي أبو خليل، **الخندق غزوة الأحزاب**، دار الفكر، عن ط ١، دمشق، ١٤٠٦هـ، ص ١٠٩.

(٣) انظر: صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج١٥/ ٢٨٣؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٥٥.

وبدأت قوات الاستطلاع للأحزاب بتحسس الخندق لعلهم يجدون فرجة ينفذون منها، وتمكنت مجموعة من فرسانهم من اختراق الخندق في أحد المواضع، لكن جند الإسلام وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه تمكنوا من صدهم وقتل بعضهم، فأمر الرسول ﷺ بتسليم قتلى قريش، ولم يرض أن يأخذ مقابلاً لذلك.(١)

وقد استمر المسلمون ليلاً ونهاراً في حراسة الخندق ومنع القوم من اختراقه، وكان الرسول ﷺ يهتم بنفسه في حراسة المناطق الضعيفة منه. ولذلك حاول الأحزاب أن يجدوا وسيلة أخرى يفسدون بها تحصن المسلمين. وكان مع الأحزاب رجال من يهود وعلى رأسهم حُيَيّ بن أخطب، الذي توجه إلى يهود بني قريظة في حصونهم، وبذل جهودًا شتّى من المكر والحيلة حتى تمكن من إقناع زعيم بني قريظة بنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين. وقد جاءت عيون النبي ﷺ بخبر زيارة حُيي بن أخطب لبني قريظة ونقضهم للعهد مع المسلمين، ووعْدِهِم لقريش بالتعاون معهم ضد النبي ﷺ والمؤمنين معه، وحزن الرسول ﷺ لهذا الخبر، وأراد أن يتأكد منه بنفسه، وفي الوقت ذاته حرص على أن لا يعلم به أحد من المسلمين حتى لا يَفُتَّ في عَضُدِهم ويؤثر على قواهم المعنوية، ولذلك بعث الرسول

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٦٣. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣ / ٢٢٥، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٢/ ٦٨، **الواقدي**، ج ٢/ ٤٦٤، ٤٧٤.

ﷺ أربعة من الأنصار ممن لهم علاقة وتحالف مع بني قريظة، منهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيّدا الأوس والخزرج، وأمرهم بزيارة بني قريظة في حصونهم والتأكد من الخبر، وأن يكتموا الأمر عن الناس إن كان القوم قد غدروا، وأن يلحِّنوا للرسول ﷺ لحنًا يعرف منه الموقف، فخرج القوم إلى بني قريظة، والتقوا بهم، وبحثوا الأمر معهم، فأغلظ اليهود في سبّ النبي ﷺ وسبّ أصحابه وقالوا: من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فنصحهم سعد بن معاذ وخوّفهم من نتائج الخيانة ــ وكان حليفًا لهم ـ، فردوا عليه بفحش وبذاءة، وعاد الوفد إلى الرسول ﷺ فقالوا له: عضل والقارة، يعني أن اليهود قد غدروا كغدر عضل والقارة،[1] وهما القبيلتان اللتان غدرتا بأصحاب الرجيع،[2] واشتد البلاء على المسلمين، وتعاون اليهود والمشركون والمنافقون في إيصال خبر غدر اليهود، وبرز النفاق وأهله على أشده ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، واشتد البلاء على المسلمين، حيث قويت شوكة الأحزاب بانضمام بني قريظة

(١) انظر: ابن حجر، (فتح الباري)، ج ١٥/ ٥٨٤، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٢١؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/ ٤٥٨، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٥٢٨.

(٢) انظر: حادثة الرجيع من هذا الكتاب.

إليهم، وحاول بعض اليهود الاعتداء على نساء المسلمين في الحصون، فدافعن عن أنفسهن دفاع الشجاعات وعلى رأسهن صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ.[1]

وفي هذه الظروف العصيبة جاء إلى النبي ﷺ نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه ــ من غطفان ــ، وكان قد قدم مع الأحزاب فالتقى برسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي فَمُرْني بما شئت، فأراد الرسول ﷺ أن يستفيد من هذا المجاهد المجهول إلى أقصى حد ممكن، فقال له: إنما أنت رجل واحد فخذِّلْ عنّا ما استطعت فإن «الحرب خدعه»،[2] فخرج نعيم بن مسعود رضي الله عنه وقد تلقى توجيهات النبي ﷺ حتى أتى بني قريظة، وكان على معرفة بهم منذ أيام الجاهلية فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم، فقالوا لست عندنا بمتهم، قال: لقد ظاهرتم قريشًا وغطفان على حرب محمد، وليسوا مثلكم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، ولا تقدرون على أن تتحولوا منه، وإن قريشًا وغطفان إن رأوا نَهزةً وغنيمة أصابوها، وإن رأوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به. ثم واصل حديثه معهم:

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٢٨، الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٤٦٢، ٤٦٠، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤ / ٥٢٨ ـ ٥٢٩.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٢٨، الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٤٦٢، ٤٦٠، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩.

وأرى أن لا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمدًا ولا يتركوكم وحدكم.

ثم إن نعيمًا نفسه أتى قريشًا فقال لزعيمها أبي سفيان بن حرب ومن معه: قد عرفتم ودّي إياكم وفراقي محمدًا، وقد بلغني أن قريظة ندموا على فعلهم مع محمد، وقد أرسلوا إلى محمد وقالوا له: هل يرضيك عنا أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم: نعم.

ثم واصل نعيم حديثه متظاهرًا بتحذير قريش قائلاً لهم: فإن طلبت منكم قريظة رهنًا فلا تعطوهم رجلاً واحدًا، ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم من بني قريظة.[1] وكانت غطفان وقريظة وقريش قد اتَّعدوا من الغد أن يبدأوا القتال، وكان ذلك يوم سبت، فأرسلت قريش إلى بني قريظة ليشاركوهم القتال في ذلك اليوم فقالوا: إن اليوم يوم سبت ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجلَ، يقصدون النبي ﷺ، فقالت قريش وغطفان: والله لقد صدقكم نعيم بن مسعود، والله لا ندفع لكم رجلاً واحدًا. وقالت قريظة لقد صدقكم نعيم بن مسعود، وفشل اتفاق القوم وساء ظنّ بعضهم ببعض.[2]

---

(١) عند ابن أبي شيبة في **المغازي**، ص ٢٥٦؛

(٢) انظر: تفاصيل القصة في: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٢٩، =

فجاءهم المساء ولم يعملوا شيئًا مع المسلمين. وفي الليل أرسل الله على الأحزاب ريحًا شديدة وبردًا، فجعلت تطرح خيامهم وتكفأ قدورهم، وهى التي قال الله عنها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. فاضطرب معسكر المشركين وسمع فيهم ضجيج.(١)

فبعث النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ليستطلع له أخبار القوم، وقد أمره أن لا يحدث شيئًا وأن لا يقوم بأي عمل غير الاستطلاع حتى لو أتته الفرص، فذهب حذيفة ودخل معسكر قريش، وجلس مع جمع منهم ملتفين بعُبِيِّهم حول النار، واندس بينهم دون أن يعرفه أحد، والبرد شديد والريح تعبث بهم، وكان أبو سفيان في القوم وهو حريص على عدم وجود عيون النبي ﷺ بينهم، فقال للقوم قبل أن يبدأ الحديث ليتعرف كل منكم على جليسه، فما كان من حذيفة إلا أن بادر بسؤال جليسه الذي عن يمينه: من أنت؟ ثم التفت إلى الرجل الذي يجلس عن يساره وسأله من أنت؟. وبذلك تجاوزه السؤال ولم يتنبّه له القوم، وقد تحدث أبو سفيان في القوم وقال: يا معشر

= ٢٣١، الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٤٨٠، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ٦٩، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٥٤١ ـ ٥٤٤.

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٣١؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٢/ ٦٩؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٥٤٥.

قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع [البقر والغنم] والخف [الإبل] وأخلفتنا قريظة ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما يقرّ لنا قِدْرٌ ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا إني مرتحل، ثم ركب أبو سفيان جمله يريد الرحيل، فاستوقفه القوم ليرحلوا معه، فانسحبت قريش وأبقت بعض الفرسان لتحمي انسحابها، ثم تبعها بقية قبائل الأحزاب.

وجاء حذيفة رضي الله عنه ليبشر رسول الله ﷺ بانسحاب القوم، بعد أن حاصروا المدينة قرابة خمس وعشرين ليلة.(١)

وحين خلت المدينة من الأحزاب قال ﷺ لأصحابه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم».(٢) فكان المستقبل كما قال ﷺ، بعد ذلك سمح ﷺ بعودة المجاهدين المرابطين حول الخندق إلى بيوتهم وصدق الله القائل: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وقد فقد المسلمون ستة شهداء،(٣)

---

(١) انظر: قصة حذيفة في: **فتح الباري**، ج ١٥/ ٢٨٤، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٣؛ الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج٢/ ٦٩، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٥٤٦ ـ ٥٤٩.

(٢) البخاري، فتح الباري، ج ١٥/ ٢٩٠.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٥٢؛ الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٤٩٥، وانظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٢/ ٧٠؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ٥٥٠.

كما قتل من المشركين ثلاثة نفر.[1] وقد نزلت حول أحداث هذه الغزوة سورة الأحزاب التي سميت بها وكان مما ورد فيها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٥٣، الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٤٩٦، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٤/ ٥٥١.

أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ٢٥][1].

رغم رحيل الأحزاب فإن جولة المعركة لم تنته بعد، فما إن رجع الرسول ﷺ إلى بيته ووضع سلاحه حتى أتاه جبريل عليه السلام فقال له: «قد وضعت سلاحك! والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال ﷺ: فإلى أين؟ قال هاهنا وأشار إلى بني قريظة فخرج النبي ﷺ إليهم».[2] فعلم رسول الله ﷺ أن قتال الخونة من يهود بني

(١) لمزيد من التفاصيل حول الآيات المرتبطة بغزوة الأحزاب انظر: الفنيسان سعود بن عبدالله، **غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم**، ط١، دار اشبيليا، الرياض ١٤١٨هـ.

(٢) صحيح البخاري **فتح الباري**، ج ١٥/٢٩٣؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٢٦٤.

قريظة هو أمر من الله سبحانه وتعالى، فدفع لواءه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه،[1] وأمر بالنداء في المسلمين أن «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»،[2] ثم خرج ﷺ بنفسه للحاق بأصحابه، وعسكر الرسول ﷺ ومعه أصحابه حول حصون بني قريظة، وبدأ حصارهم الذي استمر بضع عشرة ليلة، أنزل الله فيها الرعب في قلوب اليهود، وزلزلهم الله، واشتد عليهم الخوف، حتى أصبحوا يطلبون بعض حلفائهم من الأوس، ولكنهم كانوا أعلم الناس بغدرهم ومكرهم برسول الله ﷺ، وما يستحقونه من العقوبة، حتى أنهم في أثناء الحصار كانوا ينالون منه ﷺ.[3]

ولما اشتد الحصار على يهود بني قريظة وأيقنوا أنه لا مفر من وقوعهم في يد الرسول ومن معه من المؤمنين، وزلزل الله قلوبهم، أعلنوا استسلامهم على حكم رسول الله ﷺ، فجاء الأوس إلى رسول ﷺ يشفعون فيهم، (فرد الحكم إلى سعد بن معاذ فقال: إني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة وأن تُسبى

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٣٤؛ الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٤٩٩، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ١٠.

(٢) البخاري **فتح الباري**، ج ١٥/ ٢٩٤.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٣٤؛ الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٤٩٩، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ١٢.

الذرية)،[1] فقال ﷺ: «قضيت بحكم الله»،[2] وكان سعد قد اتصل بهم أثناء حصار الخندق، ومن الذين اطلعوا على غدر اليهود، حيث بعثه الرسول ﷺ مع الوفد الذي ناقشهم، فأخذ سعد العهد على الجميع بأن يقبلوا حكمه فقبلوه، ثم أعلن الحكم الصارم في حق يهود بني قريظة ناقضي العهد وخائني الرسول ﷺ والمؤمنين وخائني موطنهم، وهو أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى نساؤهم وذراريهم وأن تقسم أموالهم، ونفذ الحكم فيهم، وهم أعلم الناس باستحقاقهم لتلك العقوبة، وسلم من هذا الحكم أحد زعماء بني قريظة، وكان قد عاب على قومه نقضهم للعهد مع الرسول ﷺ وقال: إني لم أشرككم في غدركم، وشاركه في البراءة من خيانة بني قريظة رجال آخرون، وكان ما يزال على يهوديته، لكن أن رفضه لنقض العهد نجاه وأمثاله من العقوبة.[3]

وكانت غزوة الأحزاب وبني قريظة نصرًا للمؤمنين هزم الله فيها الأحزاب لم ينالوا من المسلمون، وأظهر الله اليهود على حقيقتهم، وطهرّ المدينة من بني قريظة وغنم المسلمون أموالهم

---

(١) البخاري، **فتح الباري**، ج١٥/ ٣٠٠؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٦٦.

(٢) البخاري، **فتح الباري** ج١٥/ ٢٩٨.

(٣) انظر ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٣٨؛ الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٥٠٣.

ومزارعهم. وقد نزلت في بني قريظة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦ ـ ٢٧].

غزوة بني المصطلق (المريسيع): (شعبان سنة ٦هـ):

سميت الغزوة باسم قبيلة بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة القحطانية، كما سميت بالمريسيع[1] نسبة إلى المكان والماء الذي قصدته الغزوة وهو مواطن بني المصطلق بين مكة والمدينة، بالقرب من عُسفان وقديد وما حولها.

كانت القبيلة في المنطقة الفاصلة بين قريش في مكة، وكانت تهاب قريشاً ولها صلة قوية بهم، ولم يتضح موقفهم من الإسلام في البداية، مع تحالف بقية خزاعة مع الرسول ﷺ إلا أن بني المصطلق خالفوا قومهم، حيث اتضح تقديمهم الدعم

---

(١) وضع البخاري في صحيحه في كتاب **المغازي**، باباً سماه «باب غزوة بني المصطلق من خزاعة وهي غزوة المريسيع».
للمزيد من التفاصيل انظر: إبراهيم بن إبراهيم قريبي، **مرويات غزوة بني المصطلق**، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بدون تاريخ؛ وعبدالحليم ابن إبراهيم العبد اللطيف، **حديث الإفك**، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤١٠هـ.

لقريش قبيل غزوة أحد،[١] كما أنهم أخذوا يعدون جموعاً لغزو المدينة، وكان ﷺ يراقبهم ويتابع تحركاتهم،[٢] وعندما تأكد من نيتهم غزو المدينة أعد ﷺ جيشاً قوامه سبعمائة مقاتل، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، وخرج إلى بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة للهجرة،[٣] وكان قوام الجيش المهاجرون الذين يحمل رايتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكذلك الأنصار الذين يحمل رايتهم سعد بن عبادة رضي الله عنه.

وقد وصل الرسول ﷺ إلى مكان تجمعهم «وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنادى في الناس أن قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فترامواا بالنُّبل، ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد»،[٤] «فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم»، وأصاب المسلمون منهم سَبْياً كثيراً، فيهم جويرية بنت الحارث (رضي الله عنها).[٥]

وقد ظهرت بسالة عدد من الصحابة رضي الله عنهم في هذه المعركة،

---

(١) البلادي، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة الذاتية**، ص ٢٩٠.
(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٩٠؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٩٧.
(٣) **المصدر السابق**، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ٦٣.
(٤) الواقدي، **المغازي**، ج ١/ ٢٠٠؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٩٨.
(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٩١.

منهم علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنهما) وغيرهم.[1]

وقد أدَّب الرسول ﷺ بهذا الهجوم هذا البطن من خزاعة، وهم الذين ساعدوا قريشاً وأرادوا الهجوم على المدينة.

كان موطن خزاعة بين مكة والمدينة، وكونها جزءاً مخالفاً ومعادياً من خزاعة في وقت كانت بقية بطونها محالفةً للرسول ﷺ، جعل الجميع يدرك حزم الرسول ﷺ في ضرب أعدائه، فكانت هذه الغزوة تأكيداً لهذا الأمر.

حديث الإفك:

كانت حادثة الإفك من أهم أحداث غزوة بني المصطلق.[2] هذه الحادثة التي مسّت عِرْض رسول الله ﷺ أطهر عرض وأحبّ نسائه إليه وللأمة جمعاء، ولعل الرواية عن الحادثة من صاحبتها وهي عائشة (رضي الله عنها) أصحّ الروايات في تفاصيلَ دقيقة. وهو حديث يُعدّ من أطول الأحاديث، في صحيح البخاري، وأكثرها تفصيلاً ودقة برواية ابن أختها عروة بن الزبير رضي الله عنه. وقد حرَصتُ على نقله

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٩٤.

(٢) وضع **البخاري في صحيحه** في كتاب المغازي، **باب حديث الإفك**، ج ٥/ ٥٥؛ وانظر: تفصيل الروايات عند ابن كثير، في **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٠٤؛ تحت عنوان «قصد الإفك».

بكامله: (حديث الإفك والإفكُ بمنزلة النجس والنجس يقال إِفكهم وَأَفكُهُم، فمن قال أَفكهُم يقول صرفهم عن الإيمان وكذبهم، كما قال يؤفَكُ عنه مَنْ أُفِك يُصرف عنه مَنْ صُرِف، عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المُسّيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلُّهم حدثني طائفةً من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأَثبت له اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، قالوا قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرعَ بين أزواجه، فأيهنّ خرج سهُمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أُنزل الحجاب، فكنت أُحمَلُ في هودجي وأُنزَلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفلَ، دنونا من المدينة قافلين، أَذِن ليلة بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري، فإذا عِقْدٌ لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحِّلوني فاحتملوا هودجي، فرحّلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون إني

فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهنّ اللحم، إنما يأكلن العَلْقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خِفّة الهودج حين رفعوه وحملوه. وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عِقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب، فتيمّمت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمتُ، وكان صفوان بن المعطّل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخَمَرتُ وجهي بجلبابي، والله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزول. قالت: فهلك فيّ من هلك، وكان الذي تولّى كبر الإفك عبد الله بن أُبّى بن سلول. قال عروة: أخبرت أنه كان يُشاع ويُتحَدَث به عنده، فيقره ويستمعه ويستوشيه. وقال عروة أيضاً: لم يُسمّ من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت، ومِسطَح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش في ناسٍ آخرين، لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة ـ كما قال الله تعالى ـ وإن كِبّر ذلك يقال عبد الله بن أُبيّ بن سلول.

قال عروة كانت عائشة تكره أن يُسَبّ عندها حسان، وتقول إنه الذي قال:

فـانّ أبـي ووالِـدَه وعِـرضـي لـعِـرض مـحـمّـد مـنـكـم وقـاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلّم ثم يقول: «كيف تيكُمْ» ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشرّ، حتى خرجت حين نقهتُ، فخرجت مع أم مسطح قِبَلَ المناصِع،[1] وكان مُتبَرَّزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنف قريباً من بيوتنا. قالت وأمرُنا أمرُ العرب الأُوَل في البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكُنف أن نتخذها عند بيوتنا، قالت: فانطلقت أنا وأمّ مِسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر ابن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد ابن المطلب، فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَلَ بيتي، حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أم مسطح في مِرطها فقالت: تعسِ مِسْطَحْ. فقلت لها بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فاخبرتني بقول أهل

(١) المناصع: هي مواضع يُبرز إليها للبول والغائط، وعرفت كمتبرز للنساء في المدينة. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٥/ ٥٣٥.

الإفك ــ قالت ــ فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلّم ثم قال: «كيف تيكم». فقلت له أتأذن لي أن آتي أبويَّ، قالت: وأريد أن استيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي يا أمتاه ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئةً عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرنَ عليها. قالت: فقلت: سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا إكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي ابن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبثَ الوحيَ يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: اهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلِ الجارية تصدُقكَ. قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة هل رأيت من شيء يُريبك». قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتاتي الداجن فتأكله قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أُبي وهو على المنبر فقال «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا

معي». قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وهو سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميّة، فقال لسعد: كذبتَ لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل فقام أسيد بن حُضير ــ وهو ابن عم سعد ــ فقام لسعد بن عبادة فقال: كذبت لعمر الله لنقتلنّه، فانك منافق تجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحَيّان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت: فبكيت يومي ذلك كلّه، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالِقٌ كبدي، فبَيْنا أبواي جالسان عندي وأنا ابكي، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا، فسلّم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد، يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فان كنتِ بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألَمَمْتِ بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا

اعترف ثم تاب تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلصَ دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال. فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت وأنا جاريةٌ حديثة السّن لا أقرأ من القران كثيراً: إني والله قد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: «فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون». ثم تحولتُ واضطجعتُ على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مُبرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنزِلٌ في شأني وحياً يُتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، حتى أنه ليتحدّر منه من العرق مثل الجُمان وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت: فسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشة أما الله فقد برّأك». قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عزّ وجلّ قالت: وأنزل الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [سورة النور، من الآية: ١١]، العشر الآيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي. قال أبو بكر الصديق: وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [سورة النور، من الآية: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: بلى والله إني لأحبُّ أن يغفر الله لي.

فأرْجعَ إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب ماذا علمتِ أو رأيت. فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة وهى التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ. فعصمها الله بالورع قالت: وطفقت أختُها حَمْنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال عروة: قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فو الذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط. قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله). (١)

ولعل هذه الرواية من صاحبة الشأن أبلغ ما يقال عن هذه الحادثة.

---

(١) صحيح البخاري، **باب حديث الإفك**، ج٥/ ٥٥ ـ٥٦٠؛ وقارن بابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٩٧ ـ ٣٠٧.

وقد نزلت في الحادثة آيات تتلى إلى يوم القيامة فيها دروس عظيمة للأمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١ ـ ٢٣].

لقد كان واضحاً أن الأمة كلها مستهدفة في أخلاقها، فإذا اتهم رسول الله ﷺ، وأهله في أخلاقهم وأعراضهم فإن بيوت الأمة كلها لا تسلم، ولذلك صرح القرآن الكريم بأن هذا العمل كان من أهدافهم قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وحذر من الذين يجرون الناس إلى خطوات الشيطان وقد نهاهم الله عن ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور/ ٢١].

ولا شك أن رسول الله ﷺ سيد الطيبين وأمهات المؤمنين أطيب الطيبات: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]. وهو أطيب الطيبين صلوات الله وسلامه عليه، واختار الله له أطيب النساء ومنهن عائشة التي امتدحها حسان بن ثابت رضي الله عنه بقوله:

حَصَانٌ رزانٌ ما تزنّ بريبةٍ
وتُصبح غرثى من لحوم الغوافلِ[1]

(١) من رواية للبخاري في **صحيحه**، ج٥/ ٦١؛ وابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٠٦.

عـقـيـلـةُ حـيٍ مـن لـؤي بـن غـالـبٍ
كـرام الـمـسـاعـي مـجـدُهـم غـيـر زائـل

مـهـذبـةٌ قـد طـيّـب الـلـه خـيـمـهـا
وطـهّـرهـا مـن كـل سـوءٍ وبـاطـل

ومن قوله:

فـإنّ أبـي ووالـدتـي وعـرضـي
لـعـرض مـحـمـد مـنـكـم وقـاء[1]

وبكل أسف يأتي بعض الأدعياء ليقولوا كلاماً خبيثاً عن الطيبة عائشة (رضي الله عنها) زوجة أطيب الطيبين أبي الطيب ﷺ، وصاحبه والداعي إليه.

وسبحان الله يَرِدُ التأكيد في السورة نفسها على غض البصر من قبل الرجال والنساء لمتابعة الدروس في العفة لأمة الطهارة أمة محمد ﷺ اقتداء به وبأزواجه أمهات المؤمنين ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

(١) انظر: شعر حسان بن ثابت في تبرئه عائشة والدفاع عنها؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٠٦.

أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

ومن الواضح أن الصديق رضي الله عنه كان مستهدفاً مع رسول الله ﷺ في الإفك الذي جرى على أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، كما أنه تضرر من أناس تحدثوا في الموضوع في وقت كان رضي الله عنه يحسن إليهم ويتصدق وينفق عليهم من ماله الخاص، ولذلك حزن لفعلهم ذلك ونكرانهم للجميل فأراد أن يوقف نفقته على مِسْطح بن أثاثه وهو ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال الصديق رضي الله عنه: بلى والله إنا نحب أن يغفر الله لنا، وأرجعَ ما كان ينفق على مسطح وقال والله لا أنزعها منه أبداً. (١)

وكان من أبرز أحداث غزوة بني المصطلق ما جرى من المنافقين خصوصاً عبد الله بن أُبي بن سلول، ومن على شاكلته

(١) انظر: **تفسير ابن كثير** رضي الله عنه، ج ٢/ ١٣٢٢.

في زمن النبي ﷺ. ولا شك أن لهم أتباعاً في كل زمان، ينطبق عليهم مانزل من آيات قرآنية في أولئك المنافقين.

فقد أقتتل عند الماء رجلان، أحدهما من غِفار أجيرٌ لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه، والآخر حليف لأحد الأنصار، فصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين: وصرخ حليف الأنصاري: يا للأنصار، وكاد الشر أن يقع بين المسلمين. فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك قال: «أَبدعوى الجاهليةِ وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة». (١)

وكان عبد الله بن أُبي بين أناس من الأنصار ومعهم زيد ابن أرقم رضي الله عنه صحابي صغير في السن، يستمع لما يجرى فقال أبن أُبي مستثيراً القوم: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول (سَمِّنْ كلبَكَ يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ، ثم أقبل يلوم من حوله من الأنصار قائلاً: أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم.

ثم ذهب زيد بن أرقم رضي الله عنه وهو غلام حدث، فأخبر رسول الله ﷺ بما قال عبد الله بن أُبي وكان عمر بن الخطاب حاضراً

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب التفسير** رضي الله عنه، باب يقولون لئن رجعنا إلى المدينة، حديث رقم: ٤٩٠٧.

فقال: يا رسول الله ﷺ مُرْ به فأقتله، فقال ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟!». [1]

وجاء عبد الله بن أُبي يحلف أنه ما قال ذلك وينفي ما نقله زيد بن أرقم، حتى شكّ بعض من لم يحضر أن عبد الله بن أُبي صادق، ولاموا زيد بن أرقم وهو غلام حدث. وأمر رسول الله ﷺ بالرحيل في ساعةٍ ما كان يرحل فيها، فجاء أسيد بن حُضير رضي الله عنه مستفسراً من رسول الله ﷺ عن سبب رحيله في هذه الساعة التي ما كان يرحل فيها فقال ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبك؟ قال: وأي صاحب: قال عبد الله بن أُبي؟ قال: وما قال؟ قال ﷺ: زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» قال رضي الله عنه: فأنت والله العزيز وهو الذليل، لنخرجنه منها إن شئت، وسار رسول الله ﷺ يومه وواصل ليله وصَدْرَ اليوم التالي حتى أرهق الناس فلما وضعوا رحالهم ناموا من شدة التعب، ولم يكن هناك مجال للمناقشة والحديث حول ما دار إذ شُغل الناس حتى تعبوا وأرهقوا. [2]

وفي هذه الأثناء نزلت سورة المنافقين على رسول الله ﷺ، وكان فيها تصديق لما قاله زيد بن أرقم، [3] وهو غلام حدث

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب التفسير**، باب يقولون لئن رجعنا إلى المدينة، حديث رقم: ٤٩٠٧؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٩١.

(٢) أنظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٦٩

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن**، ج ٢/ ١٨٧٦.

فأخذ رسول الله ﷺ بأُذنه مداعباً فقال: «هذا الذي أوفى الله بأذُنه»[1] وكان من الآيات التي تنزلت في عبد الله بن أُبي وفي قوله والمنافقين معه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٦ ـ ٧].

وكان لعبد الله بن أُبي ولد صالح يسمي عبد الله، من أصحاب النبي ﷺ، فلما علم بما حدث من والده جاء إلى النبي ﷺ قائلاً: إنه بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرْني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها من رجل أَبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال ﷺ: «بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».[2]

وهذا الحدث يبيّن خطر المنافقين واستغلالهم للأسباب، لإيجاد الفتنة والشقاق بين المسلمين، وتقويض حقوقهم وإضعاف وحدتهم، واستغلال العصبية لذلك، كما أن في تهديد ابن أُبي للرسول ﷺ ومن معه بالإخراج من المدينة أمر واضح

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٩٢؛ ابن حجر، **الإصابة**، ج ١/ ٥٦٠؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٣/ ١٦٥.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٩٢.

بتحيُّن الفرصة للإضرار بالمسلمين وبنبي الله ﷺ، كما أن في تراجعه عما قال وإنكاره له بيان ضعف المنافقين، وقد فضحه الله في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.

وفي موقف ابنه عبد الله صدق ووفاء واستعداد للتضحية بكل شيء من أجل النبي ﷺ، حتى ولو كان والده، وهو من أبرّ الناس به، وفي جواب الرسول ﷺ وتطييبه لخاطر الابن المؤمن حكمة وعطف وحسن تعامل في مثل هذا الموقف الصعب، كما أن الرسول ﷺ أشغل الجيش بالتحرك وأتعبهم في الاستمرار في ذلك، مما أرهقهم، ليمنع عنهم الجدال والانقسام، فما أعظم القائد ﷺ وأحكمه في مثل هذه المواقف التي تحتاج إلى تبصُّر وحكمة.

ومن نتائج غزوة بني المصطلق زواج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث، فقد كانت ابنة الحارث بن أبي ضرار سيد قومها، وقد قتل والدها وزوجها في صفوف بني المصطلق أثناء قتالهم للنبي ﷺ، كما سُبيت النساء والذرية من قومها، وقد وقعت هي نفسها في سهم ثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري رضي الله عنه، فكاتبته على عتق نفسها، وكانت تعلم رحمة النبي ﷺ وإحسانه على الناس، فجاءت إليه وقالت: «يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، فرقّ رسول الله ﷺ لحالها وعرض عليها أن يؤدّى عنها ويتزوجها ليرفع

شأنها ويعوّضها خيراً مما فقدته من العز والشرف»،[1] ففعل رسول الله ﷺ ذلك وتزوجها، فكان بالفعل شرفاً لقومها وإنهاءً لمعاناتهم، فما أن تزوجها حتى أطلق المسلمون مَنْ بأيديهم من سَبْي بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فكانت امرأة مباركة على قومها، تقول عائشة (رضي الله عنها): «أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأةً أعظم منها بركة على قومها».[2] وقد تعلمت من رسول الله ﷺ فكانت صاحبة عبادة كثيرة الصيام، وقد روي عنها أحاديث عدة، وكانت وفاتها سنة خمسين من الهجرة.[3]

ومن المؤكد أن زواج النبي ﷺ منها كان فيه حُسْن صلة مع بني المصطلق، ذلك البطن من خزاعة الذي حارب رسول الله ﷺ في وقت كانت فيه بقية خزاعة من حلفاء الرسول ﷺ، فساهم هذا الزواج في تقريبهم للمسلمين وتعاونهم معهم ضد قريش في حربها مع الرسول ﷺ.

غزوة الحديبية (شوال ٦ هـ):[4]

أعلن الرسول ﷺ عزمه على العُمرة والتوجه إلى مكة

---

(١) إبراهيم قريبي، **مرويات غزوة بني المصطلق**، ص ٣٥١؛ وانظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج٤/ ٢٦٥.

(٢) ابن حجر، **الإصابة** ج٤/ ٢٦٥.

(٣) ابن حجر، **الإصابة** ج٤/ ٢٦٦.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٠٨؛ والحديبية: قرية على بعد ٢٢ كلم غرب مكة على طريق جدة القديم؛ البلادي، **معجم المعالم الجغرافية للسيرة النبوية**، ص ٩٤.

لأدائها بشكل سلمي، ودعا الناس لذلك وخرج بالمهاجرين والأنصار وبعضُ من انضم إليهم ممن لبوا دعوة النبي ﷺ حتى تجاوز عددهم ألف وأربعمائة رجل.[1] وفي ذي الحليفة أحرم الرسول ﷺ بالعمرة وقلّد الهَدْيَ،[2] لتعلم قريش أنه خرج زائراً معتمراً معظماً للحرم غير محارب لأهله.

ورواية ابن أبي شيبة في المغازي عن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام من أكثر الروايات تفصيلاً حول أحداث هذه الغزوة،وقد ورد فيها: (خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية، وكانت الحديبية في شوال، قال: فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعُسفان لقيه رجل من بني كعب، فقال: يا رسول الله إنا تركنا قريشاً وقد جمعت أحابيشها تطعمها الخزير،[3] يريدون أن يصدوك عن البيت، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا تبرز من عُسفان لقيهم خالد بن الوليد طليعة لقريش، فاستقبلهم على الطريق فقال رسول الله ﷺ: هلم هاهنا، فأخذ بين سروعتين ــ يعني شجرتين ــ فمال عن سنن الطريق حتى نزل الغميم،[4] فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما

---

(١) صحيح البخاري، **حديث البراء بن عازب**، ج٥/ ٦٤.

(٢) صحيح البخاري، **باب غزوة الحديبية**، وقوله تعالي: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، الآية: ١٨، الفتح، ج ٥/ ٦١.

(٣) الخزير: حساء الدقيق باللحم والدسم، المعجم الوسيط، ص ٢٣١.

(٤) موضع يقع شمال مكة إلى الجنوب من عُسفان، بقرابة (١٦) أنظر: عاتق بن غيث البلادي، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، ص٢٦٣.

بعد، فإن قريشاً قد جمعت لكم أحابيشها تطعمها الخزير، يريدون أن يصدونا عن البيت فأشيروا عليّ بما ترون، أتعمدوا إلى الرأس ــ يعني أهل مكة ــ أم ترون أن تعمدوا إلى الذين أعانوهم، فتخالفوهم إلى نسائهم وصبيانهم، فإن جلسوا جلسوا موتورين مهزومين، وإن طلبونا طلبونا طلباً متدارياً ضعيفاً، فأخزاهم الله، فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ أن تعمد إلى الرأس فإن الله معينك وإن الله ناصرك وإن الله مُظهِرك، قال المقداد بن الأسود وهو في رحله: إنا والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم مقاتلون، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا غشى الحرم ودخل أنصابه بركت ناقته الجدعاء، فقالوا: خلأت، فقال: والله ما خلأت وما الخلأ بعادتها، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش إلى تعظيم المحارم فيسبقوني إليه هلم ههنا ــ لأصحابه ـ فأخذوا ذات اليمين في ثنية تدعى ذات الحنظل، حتى هبط على الحديبية، فلما نزل استقى الناس من البئر، فنزفت ولم تقم بهم فشكوا ذلك إليه فأعطاهم سهماً من كنانته، فقال: أغرزوه في البئر فغرزوه في البئر فجاشت ماؤها حتى ضرب الناس بعطن، فلما سمعت به قريش، أرسلوا إليه أخا بني حليس وهو من قوم يعظمون الهَدْي، فقال: ابعثوا

الهدي، فلما رأى الهدي لم يكلمهم كلمة، وانصرف من مكانه إلى قريش فقال: يا قوم القلائدُ والبُدْن والهديُ! فحذرهم وعظم عليهم، فسبّوه وتهجموه، وقالوا: إنما أنت أعرابي جلف لا نعجب منك، ولكنا نعجب من أنفسنا إذ أرسلناك، اجلس ثم قالوا لعروة بن مسعود: انطلق إلى محمد ولا نؤتين من ورائك، فخرج عروة حتى أتاه، فقال: يا محمد! ما رأيت رجلاً من العرب سار إلى مثل ما سرت إليه، سرت بأوباش الناس إلى عِتْرَتِكَ وبَيْضَتك التي تفلّقت عنك لتبيد خضراءها، تعلم أني جئتك من كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد لبسوا جلود النمور عند العوذ المطافيل،[1] يقسمون بالله لا تعرض لهم خطة إلا عرضوا لك أَمرَّ منها، فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نأت لقتال، ولكنا أردنا أن نقضي عمرتنا وننحر هَدْينا، فهل لك أن تأتي قومك فإنهم أهل قتب، وإن الحرب قد أخافتهم، وإنه لا خير لهم أن تأكل الحرب منهم إلا ما قد أكلت، فيخلون بيني وبين البيت، فنقضي عمرتنا وننحر هدينا، ويجعلون بيني وبينهم مدة، تديل فيها نساءهم ويأمن فيها سربهم، ويخلون بيني وبين الناس، فإني والله لأقاتلن على هذا الأمر الأحمر والأسود حتى يظهرني الله أو تنفرد سالفتي، فإن أصابني الناس فذاك الذي

---

(١) العوذ المطافيل: الأمهات اللاتي معهن أطفالهن، والمراد خروجهم مع أطفالهم وأمهات أولادهم ونسائهم ليكون أدعى للثبات وشدة القتال. الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ١٣١.

يريدون، وإن أظهرني الله عليهم اختاروا، إما قاتلوا مُعدين، وإما دخلوا في السلم وافرين، قال: فرجع عروة إلى قريش فقال: تعلمُنّ والله ما على الأرض قوم أحب إليّ منكم، إنكم لإخواني وأحب الناس إليّ، ولقد استنصرت لكم الناس في المجامع، فلما لم ينصروكم أتيتكم بأهلي حتى نزلت معكم إرادة أن أواسيكم، والله ما أحب من الحياة بعدكم، فلتعلمن أن الرجل قد عرض نُصفاً فاقبلوه، تعلمنّ أني قد قدمت على الملوك ورأيت العظماء فأقسم بالله إن رأيت ملكاً ولا عظيماً أعظم في أصحابه منه، لا يتكلم منهم رجل حتى يستأذنه، فإن هو أذن له تكلم، وإن لم يأذن له سكت، ثم إنه ليتوضأ فيبتدرون وضوءه ويصبونه على رؤوسهم، يتخذونه حَنّاناً، فلما سمعوا مقالته أرسلوا إليه سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص، فقالوا: انطلقوا إلى محمد، فإن أعطاكم ما ذكر عروة، فقاضياه على أن يرجع عامَة هذا عنا، ولا يخلُص إلى البيت، حتى يسمع من يسمع بمسيره من العرب أنا قد صددناه، فخرج سهيل ومكرز حتى أتياه وذكرا ذلك له، فأعطاهما الذي سألا فقال: اكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا: والله لا نكتب هذا أبداً، قال: فكيف؟ قالوا: نكتب «باسمك اللهم»، قال: هذه فاكتبوها فكتبوها، ثم قال: اكتب «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله له فقالوا: والله ما نختلف إلا في هذا، فقال: ما أكتب؟ فقالوا: انتسب، فاكتب محمد بن عبد الله قال: وهذه حسنة اكتبوها،

فكتبوها، وكان شرطهم أن بيننا العيبة المكفوفة، وأنه لا أغلال ولا أسلال، قال أبو أسامة الأغلال: الدروع، والأسلال السيوف، ويعني بالعيبة المكفوفة أصحابه يكفهم عنهم، وأنه من أتاكم منا رددتموه علينا، ومن أتانا منكم لن نردده عليكم، فقال رسول الله ﷺ: ومن دخل معي فله مثل شرطي، فقالت قريش من دخل معنا فهو منا، له مثل شرطنا، فقالت بنو كعب: نحن معك يا رسول الله ﷺ وقالت بنو بكر: نحن مع قريش، فبينما هم في الكتاب إذ جاء أبو جندل[1] يرسف في القيود، فقال المسلمون: هذا أبو جندل، فقال رسول الله ﷺ هو لي، وقال سهيل: هو لي، وقال سهيل: إقرأ الكتاب فإذا هو لسهيل فقال أبو جندل: يا رسول الله! يا معشر المسلمين! أُرد إلى المشركين؟ فقال عمر: يا أبا جندل! هذا السيف فإنما هو رجل واحد فقال سهيل: أعنْتَ عليّ يا عمر! فقال رسول الله ﷺ لسهيل: هَبْهُ لي، قال: لا. قال: فأجره لي: قال: لا، قال مكرز: قد أجرته لك يا محمد، فلم ينجُ». [2]

إن وقائع صلح الحديبية مليئة بالأحداث العظيمة التي أشير إلى بعضها في القرآن الكريم، ومنها بيعة الرضوان، ذلك أن

---

(١) أبو جندل: هو ابن المفاوض القرشي، سهيل بن عمرو، أسلم في مكة، ومنعه أبوه من الهجرة وآذاه وعذبه حتى هاجر، استشهد في معركة اليمامة سنة ١١ هـ. ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٣٤.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤؛ وانظر إلى أجزاء مختلفة من الرواية عند **البخاري في صحيحه**، ج ٥/ ٦٩.

الرسول ﷺ بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل مكة ليخبرهم أن رسول الله ﷺ جاء زائراً للبيت الحرام معظماً له ومعتمراً ولم يأت لقتال، فدخل عثمان مكة في جوار سعيد بن العاص، فبلغ زعماء قريش ما أمره به رسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يطوف بالبيت فرفض رضي الله عنه إلاّ أن يؤذن لرسول الله ﷺ في ذلك، فحاولوا احتباس عثمان رضي الله عنه عندهم،(١) وبلغ الرسول ﷺ أن عثمان قد قتل من قبل قريش فجمع رسول الله ﷺ الناس تحت شجرة للبيعة،(٢) وقد تنافس المسلمون في بيعة رسول الله ﷺ حتى أن سلمة بن الأكوع بايع رسول الله ﷺ أكثر من مرة، طمعاً في تكرار أن تلامس يده يد رسول الله ﷺ، ولم يتخلف عن البيعة إلا أحد المنافقين وهو (الجد بن قيس)، وكان مختبئاً تحت ناقته، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المؤمنين المبايعين لرسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. وقد أثنى الرسول ﷺ على أهل بيعة الرضوان فقال: «أنتم اليوم خير أهل الأرض»،(٣)

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣١٥.

(٢) وضع **البخاري في صحيحه**، في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، الآية ج ٥/ ٦١؛ ووضع ابن هشام في **السيرة** عنوان: «بيعة الرضوان»، ج ٣/ ٣١٦.

(٣) متفق عليه، انظر: رواية البخاري، **كتاب المغازي**، باب غزوة الحديبية، ج ٥/ ٦٣؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٨٣.

وكان رسول الله بايع لعثمان ضرب إحدى يديه على الأخرى.[1]

وقد كان رسول الله ﷺ مرناً مع قريش في مفاوضته وفي صلحه لدرجة أن عمر بن الخطاب اغتمّ غماً شديداً لهذا الأمر واستغرب وقال يا رسول الله: ألست نبيّ الله حقاً؟ قال: بلى، قال ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال عمر: فلم نعطى الدنية في ديننا؟ قال ﷺ: إني رسول الله ﷺ ولست أعصيه، قال عمر: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به، قال: بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال عمر: لا، قال ﷺ: فإنك آتيه ومطوّف به، ثم توجه عمر إلى أبي بكر الصديق ووجه له مثل الكلام الأول قائلاً: لم نعطى الدنية في ديننا؟ فرد عليه أبو بكر رد الفقيه العالم العاقل: يا عمر إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق.[2]

وحينما انتهى الأمر بالاتفاق على أن لا يعتمر الرسول ﷺ في هذه الرحلة، وإنما يأتي من عام قابل، قال ﷺ لأصحابه:

---

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٨٤؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣١٦.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣١٧؛ وانظر: **صحيح البخاري**، ج٤/ ٦٩؛ وابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٧٩.

«قوموا فانحروا ثم احلقوا»، وكررها على الصحابة، فلم يبادروا في ذلك، حيث كان بعضهم لا يزال يطمع في العمرة، فحز ذلك في نفس الرسول الله ﷺ، فذكره لأم سلمة، فقالت (رضي الله عنها): أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بُدْنك وتحلق رأسك، ففعل ﷺ، فلما رأى الصحابة ذلك قاموا سُراعاً، فنحروا هَدْيهم وأسرعوا في الحلق.[1]

وتوجه الرسول ﷺ عائداً إلى المدينة المنورة، وفي الطريق نزلت عليه سورة الفتح ففرح بها أيّما فرح. روى البخاري في صحيحه عن زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب ثكلتك أمك يا عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي قال فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. وجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ (إن فتحنالك فتحاً مبيناً)[2].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/٣١٩؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٩٠.

(٢) رواه البخاري، **كتاب المغازي**، باب غزوة الحديبية، ج٥/٦٢؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٧٨.

وقد أكدت الآية والروايات للحديث أن صلح الحديبية فتحٌ مُبين، فتح الله به مجال الدعوة في بلاد العرب وفي العالم كافة، حيث أعقبه انضمام بعض القبائل في عقد الرسول ﷺ، كما أعقبه مباشرة كتابة الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض،[1] فكانت من ثمَّ كما سماها الله تعالى فتحاً مبيناً فتح فيه رب العباد لعباده سماع دعوة الله، وقد ورد أن الصديق رضي الله عنه قال: «ما كان فتحٌ في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصّر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد».[2] لقد كانت أرباح المسلمين ومكاسبهم من هذا الصلح أعظم من أن تحصى، فهي بينة لا تخفى علمها الله فسماها (فتحاً مبيناً)، كان الصلح اعترافاً بالمسلمين ودولتهم وقائدهم ﷺ، كما كانت هدنة أتاحت للمسلمين فرصة التفرغ للدعوة، والعودة في العام الثاني لأداء العمرة.

وأما ما جاء من شرط إعادة من أتى من قريش إلى المسلمين بدون إذن وليّه فقد كان في الظاهر صعباً على المسلمين أما في التطبيق فظهر خلاف ذلك عند أول تطبيق له.

فقد جاءت مجموعة من المسلمين إلى المدينة من مكة

---

(١) انظر: كتب الرسول ﷺ لملوك وزعماء العالم من هذا الكتاب.
(٢) محمد أبو شهبة ج ٢ / ٣٣٨.

دونما إذن أهلهم وكان فيهم أبو بصير عروة بن أسد الثقفي رضي الله عنه، فأرسلت قريش تطلبهم من الرسول ﷺ فسلمه النبي إلى رجلين من قريش، وكان ثابت الإيمان وقال له ﷺ: «يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً، ولا يصحّ في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»،[1] فخرج أسيراً مع الرجلين، وفي الطريق تمكن من أخذ سيف أحدهما وقتله، ففر الآخر خائفاً ودخل المدينة مذعوراً فأخبر النبي ﷺ بما حدث فأمّنه ﷺ، ثم جاء أبو بصير وقال: يا رسول الله ﷺ قد أوفى الله بذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال ﷺ: «ويْلُ أمِّه مُسعِرُ حربٍ لو كان معه أحد»،[2] ثم خرج أبو بصير إلى نواحي (العيص)[3] على طريق تجارة قريش ناحية الساحل، ولحق به من خرج من المسلمين من قريش، وكوَّن منهم فريقاً يقارب السبعين مقاتلاً قطعوا الطريق على قريش وتجارتها، فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تناشده أن

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/٣٢٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٢٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٢٩٠.

(٣) مكان يجتمع فيه شجر السِدْر والعوسج ويسمى عيصاً، وهو مكان ناحية البحر بطريق تجارة مكة إلى الشام كونه ملجأ للفارين لكثافة أشجاره وسهولة تخفيهم فيه، انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤/ ١٧٣

يؤويهم إليه،[1] وأعلنت تنازلها عن شرط إرجاعهم، فكان هذا الشرط نصراً للمسلمين، وجعل الله لأبي بصير وأمثاله مخرجاً كما أخبر الرسول ﷺ مع وفائه ﷺ بعهده.

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٢٤؛ وانظر: **صحيح البخاري**، باب عمرة القضاء، ج٥/ ٨٥.

رسائل النبي إلى زعماء العالم(١)

بُعِث رسول الله ﷺ للعالم كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، يدعو الخلق لعبادة الخالق ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وهذا الأمر من ثَمّ لا يحتاج إلى معرفة، فالعالم ومكوناته وأحوال البشر فيه واحدة في نظر الخالق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]،

---

(١) أُلِّف العديد من الأبحاث والكتب التي عالجت الموضوع منها، جمال الدين بن أبي حديدة الأنصاري، **المصباح المغني في كتاب النبي الأمي إلى ملوك الأرض**، ومحمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**؛ وخالد سيد علي، **رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء**.

فالإسلام ونبيه، يدعو الناس إلى الله ويوحّدهم تحت عبودية الله ويُذهب الفرقة والتميز ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾، لا فضل لأحمرَ على أبيضَ، «الناس سواسية كأسنان المشط»، ومن هنا فقد كانت معرفته ﷺ بالعالم من حوله وممالكه وأنظمته، وبالقبائل وزعمائها، وبالدول وأحوالها واضحةً، وما كان اختياره للحبشة لهجرة أصحابه رغم وجودها خلف البحر في قارة أخرى، إلا عن علم بحالها ونظامها ونسبة العدالة في النظام، ومدى تطبيقه لدى ملكها «فإن فيها ملك لا يُظلمُ عنده أحد». (١)

بعد صلح الحديبية كتب الرسول ﷺ كتاباً إلى عدد من ملوك العالم، واهتم لذلك، فاختار من أصحابه لكلٍّ وجهةً يصلح لها ممّن هو خبير بها ويعرفها، وأوصاهم وأشعرهم بالمسؤولية، قال ابن هشام: بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صُدَّ عنها يوم الحديبية، فقال: (أيها الناس إن الله قد بعثني رحمةً وكافةً، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم، فقال أصحابه وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلّم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بُعث إليها،

(١) انظر: **الهجرة إلى الحبشة**، من هذا الكتاب.

فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام).[1]

كتابه إلى ملك الروم:

الروم تعد أقوى الدول المعاصرة للرسول ﷺ، وقد تحدث القرآن الكريم عن الروم في سورة أنزلت في مكة وسميت بسورة الروم، وجاء فيها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

كانت تدور الحروب في تلك الفترة بين الروم والفرس في نواحي فلسطين والأردن، وكان حديث العالم عن تلك الحرب.

ومن المعروف أن مصر والشام وشمال إفريقيا كانت ولايات تابعة لإمبراطورية الروم البيزنطية، وقد كان المسيطر الفعلي على الحكم في هذه الإمبراطورية هو الملك نفسه (الإمبراطور) الذي اتخذ القسطنطينية عاصمة له.[2] والحكام والمحكومون كانوا من النصارى.[3]

وقد ظهر خلال تلك الفترة نظام الملتزمين، الذين يقومون

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤ / ٦٠٦، ٦٠٧.
(٢) ستيفن رنسيمان، **الحضارة البيزنطية**، ص ٨٩.
(٣) نورمان بينز، **الإمبراطورية البيزنطية**، ص ١٧٣.

بجباية الضرائب لأنفسهم مقابل التزامهم بمبالغ معينة يدفعونها إلى الدولة، وبالتالي زادوا في الضرائب على الناس، وزادوا في الظلم حتى يفوا بالتزاماتهم التي ضمنوها للدولة.[١]

وقد وجدت مذاهب نصرانية مختلفة في مملكة الروم، وكثرت في ما بينها بينها الخلافات العقائدية، التي أدت إلى منازعات وصلت إلى مراحل قوية من العداء بين الكنائس، فكان تركزت مذاهب نصرانية معينة في بعض المناطق وبالتالي وجد نوع من العداء بين بعض الولايات وبعض الشعوب مع دولة الروم.

وقد حاول إمبراطور الروم فرض المذهب اللاهوتي السائد في القسطنطينية على بعض الولايات، وخصوصًا في مصر، مما أوجد عداءً مع الأقباط.[٢]

كان ملك الروم وزعيمهم وإمبراطورهم في العصر النبوي هرقل (٦١٠م ــ ٦٤١)م، وهو من أسرة يونانية، ولد في قرطاجنة ــ تونس حالياً ــ وكان والده حاكماً يونانياً عليها، وقد استدعي هرقل إلى العاصمة القسطنطينية، ومُلِّك على الروم في فترة صراع مع الفرس، وقد نجح في هزيمة الفرس واستعادة قوة

---

(١) رنسيمان، **الحضارة البيزنطية**، ص ١١٢؛ صبحي الصالح، **النظم الإسلامية**، ص ٢٤.

(٢) العُمري، **الفتوح الإسلامية عبر العصور**، ص ٩٧، ٩٨،٩٩؛ أسد رستم، **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وأخلاقهم**، ج ١/ ١٣٨.

الروم مرة أخرى وهيبتها ﴿أَلَمْ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤].

كان ذلك سنة ٦١٦م، وكان هرقل قائداً نصرانياً، تمكن من استعادة الصليب المقدس لديهم،الذي يزعمون أن المسيح صُلِب عليه، فسُرَّ عامة النصارى بذلك وأقاموا الاحتفالات في كل مكان،[١] وخصوصاً في القدس، حيث وصله في الفترة نفسها كتاب الرسول ﷺ، وكان مما جاء فيه، كما ثبت في «الصحيحين» أنه كتب إلى هرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلامٌ على من اتبع الهدى،أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تسلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»[٢] والأريسيون هم الأجراء والعمال والفلاحون وعوام الناس والمستضعفون بوجه عام، الذين يحول هرقل بينهم وبين سماع الإسلام.

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٢٩٦؛ ود. علي العتوم، **تجربة مؤتة**، ص٩٢.

(٢) البخاري، **صحيحه**، **كتاب بدء الوحي**، من الحديث رقم (٧)؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٨١.

وقد وجه رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي بالرسالة إلى هرقل، وكان دحية من قوم محتكّين بالروم في الشام، حيث تقع قبيلته كلب في الأطراف الجنوبية لبلاد الشام،[1] ومن ثمّ يعرف كيفية الوصول إلى الإمبراطور هرقل والحديث معه.

ولما وصل كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل فزع فزعاً شديداً، وهو من علماء النصارى المعدودين فيهم، مع كونه ملكهم واهتم للرسالة وحاول الحصول على أكبر قدر من المعلومات، فطلب أن يؤتى بأحد من قوم النبي ﷺ وممن يعرفونه، وكان أبو سفيان بن حرب ــ ولم يُسلم بعد ــ في نواحي بيت المقدس في تجارة لقريش بعد صلح الحديبية، فجيء به مع من معه من تجار قريش إلى هرقل لكي يسأله عن النبي ﷺ، فلما كانوا بحضرة هرقل سأل وناقش عن طريق الترجمان، وقد أورد البخاري ذلك فقال: «إن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام ـ في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء[2] فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم إنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: إدنوه مني، وقرّبوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال

(١) السمعاني، **الأنساب**، ج ١٠/ ٤٥٢.
(٢) بيت المقدس.

لترجمانه: قل لهم: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذبا لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قَبله لقلت رجل يتأسّى بقولٍ قيل قبله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت: أنْ لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب مُلْك أبيه،

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن لِيذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم اتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتدّ أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أنْ لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإنْ كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدَميَّ هاتين، وقد كنت أعلم انه خارجٌ، لم أكن أظن انه منكم، فلو أني أعلم أني أخلصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه، فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فاني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟

ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات وأُخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمرَ أمرُ ابن أبي كبشة، أنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام». (١)

وتدل الروايات المختلفة على وجود نقاش خاص بين هرقل وبين دحية الكلبي على إنفراد، جرى فيها الحديث عن الإسلام ونظرته للمسيح ومن يُصلّي له المسيح، وخوفه بالله وسوء العاقبة عليه وعلى مُلْكِه وعلى آخرته.

وأن هرقل ناور وكتب كتاباً إلى النبي ﷺ وأرسل له بهدية مع دحية، فقسمها على المسلمين، وقال عنه: كذب عدو الله هو على نصرانيته. (٢)

ورغم شك المؤرخين بمثل هذه الرواية التي لم ترد بسند واضح عند المحدثين وتفصيلاتها إلا أنه من الطبيعي جلوس هرقل مع دحية حامل الرسالة ومناقشته خصوصاً، أنه ظهر في رواية البخاري وغيره اهتمام هرقل بالأمر مما يدل على قناعته بصدق الرسول ﷺ وإن لم يُظهر الإسلام.

---

(١) البخاري، **كتاب الإيمان**، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ١/ ٤.

(٢) انظر: جمال الدين بن أبي حديدة الأنصاري، **المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي إلى ملوك الأرض**، ص ١٩٨.

لقد كان واضحاً معرفة هرقل بصدق النبي ﷺ وأنه ما دعا إلا إلى حق، وأنه نبي المُختَنين، نبي آخر الزمان. وكان على يقين بنصر الله له وبأن الله سيحقق له ما وعد من انتشار دينه وغلبة دعوته، ولذلك سمع منه أبو سفيان ما سمع في وقت كان فيه على الشِّرك وزعيماً لقريش المحاربة لرسول الله ﷺ، وبالتالي وقع في نفس أبي سفيان خشية النبي ﷺ، وشيء من معرفة الحق لما رأى خوف هرقل وحديثه فقال: (هذا ملك بني الأصفر يخافه) وكان أبو سفيان حتى تلك اللحظة من أعداء الرسول ﷺ، فأدرك أنه عدو لمن يخشاه أعظم ملوك الأرض في زمانه.

وقد كان هرقل مهموماً متردداً بين الإيمان بالرسول ﷺ والانقياد لأوامر المسيح بالإيمان بآخر الأنبياء، وبالتالي كسْب الإسلام مع النصرانية السابقة، أو عدم الإيمان ومعصية الله ورسوله وتقديم الحياة الدنيا على الآخرة، ومجاملة سياسيي الروم، والإذعان لهم من أجل البقاء على دفة السلطة، ولذلك أراد أن يجري إمتحاناً لقواد الروم وهل ينقادون معه للإيمان بالرسول ﷺ، فقد حدّث أحد أساقفة نصارى الشام ويسمى ابن الناطور، وكان من أصحاب هرقل قال: (ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص فلم يَرُمْ حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على

خروج النبي وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة[1] له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع، فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأَيِسَ من الإيمان قال: ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه).[2]

وهكذا صدق في هرقل قوله تعالى في سورة الروم ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٢٩ ـ ٣٠] وقوله تعالى في سورة الروم أيضاً ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٢ ـ ٥٣]، وكذلك قوله تعالى في السورة نفسها ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

---

(١) الدسكرة: بناء خاص يقيمه الملوك في بلاد الروم للمناسبات والاحتفالات، المعجم الوسيط ص ٢٨٣

(٢) انظر: صحيح البخاري، **باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ**، ج ١/ ٤؛ وانظر: **شروحات وروايات ابن حجر على الحديث في فتح الباري**، وانظر: رواية الإمام مسلم في **صحيحه**، **باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام**، ج ٥/ ١٦٤.

ولعلّ الإنسان يتوقف قليلاً مع هذه الشواهد القرآنية في سورة الروم، ويرى أن ورودها في سورة الروم كأنما يشير لموقف ملكهم وزعمائهم، وفي ذلك أيةٌ عظيمة لمن اعتبر.

وقد تحدث هرقل بوضوح عن انتصار للمسلمين قادمٍ في مستقبل الأيام القريبة، وامتدادٍ لهم في ما تحت قدميه، ويعني بذلك فلسطين وبقية بلاد الشام.

فكان أول احتكاك عسكري بين الروم والمسلمين في معركة مؤتة، التي قادها زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وصاحبه ومن أَحبِّ الناس إليه ﷺ، وكانت نتيجة تلك المواجهة الأولى استشهاد عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، وكان من الواضح خشيةُ هرقل من متابعة المسلمين وقتالهم، فرغم قوته ومتابعته للفرس في معاركه حتى اقتحم عليهم بلادهم، إلا أنه لم يحرص على الاحتكاك بالرسول وجنده ﷺ ومواجهتهم، ولعل القرآن الكريم في سورة الروم أشار وحذر أصحاب القوى الظالمة عامة، ومنهم الروم في سورة سُميّت باسمهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ٩ ـ ١٠].

إنني لأُحسّ أن هذه الآيات كأنما هي موجهة للروم، أولهم وآخرهم، الذين عمّروا الأرض، فلما كذبوا بآيات الله كانت عاقبتهم سيئة، حيث ظلموا أنفسهم فأورث الله المسلمين أرضهم، بعد أن كذبوا بآيات الله، وعاد جيش رسول الله ﷺ من مؤتة ليقابله شباب المدينة بقولهم: أيها الفرّارون، فيدافع عنهم ﷺ بقوله: ولكنهم كرّارون إن شاء الله،[1] فيرجع خالد بعد سنوات ليقود المسلمين في أكبر معاركهم مع الروم في موقعة اليرموك، فكان سيفاً من سيوف الله كما أخبر الرسول ﷺ،[2] وكان ذلك الحديث من الرسول عن كرتهم المقبلة في اليرموك وغيرها وحدوث ذلك معجزة من معجزات المصطفى ﷺ، وما أكثرها لمن تمعّن.

ثم جاء الاحتكاك الثاني عسكرياً في أيام الرسول ﷺ في غزوة تبوك، التي قادها الرسول ﷺ بنفسه، وكان معه أكبر جيش عرفه المسلمون في زمانه، وكان هدفه الروم وأطراف دولتهم الجنوبية، إذ إن تبوك على حدود بلاد الشام، حيث عسكر الرسول ﷺ ومن معه قرابة خمسة عشر يوماً، بثّ خلالها العديد من السرايا في المناطق المجاورة واتصل بعدد من زعماء المدن والقبائل المحيطة والداخلة في حدود الروم، وعقد معهم معاهدات واتفاقيات خاصة على مسمع من هرقل ومرأى منه،

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣ / ٣٨٢، الواقدي، **المغازي**، ٢/ ٧٦٥.
(٢) صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٠٠.

حيث ذكرت الروايات عدم احتكاك الروم بجيش الرسول ﷺ، حيث أصيب بهزيمة معنوية، رغم قوته العسكرية وقدرته على المواجهة.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كتب لهرقل وهو في تبوك يخيِّره بين إحدى ثلاث؛ إما أن يسلم وله ما في يديه من ملكه، وإما أن يؤدي الخراج، وإما أن يأذن بحرب، فجمع هرقل بطارقته وقِسّيسيه في قصره وأغلق عليهم الباب وقال لهم: إن محمداً بعث إليّ يخيرني إلى إحدى ثلاث، إما أن أسلم ولي ما تحت قدميّ من ملكي، وإما أن أرسل إليه الخراج، وإما أن آذن بحرب، وقد تجدون في كتبكم بأنه سيملك ما تحت قدمي من ملكي، فنخروا نخرة حتى أن بعضهم خرجوا من برانسهم، وقالوا: نحن نرسل إلى رجل من العرب جاء في برديه ونعله بالخراج؟! فقال هرقل: اسكتوا إنما أردت أن أعلم تمسُّككم بدينكم ورغبتكم فيه.(١)

ولعل هذا هو الاختبار الثاني من هرقل في محاولة منه لالتماس استجابة من زعماء الروم للنبي ﷺ، فلما رأى رفضهم آثر المُلْك والدنيا على أمر الله ودينه.

---

(١) ابن زنجويه، **الأموال**، ص ١٢٣ ـ ١٢٥؛ وانظر تخريج الرواية عند: محمد عبد الله عنان الصبحي، **مرويات الوثائق المكتوبة من النبي** ﷺ، (رسالة دكتوراه الجامعة الإسلامية بالمدينة)، ص ٦٤٥؛ وقد أورد الطبراني في معجمه نص رسالة لهرقل يحتمل أنها هذه الرسالة (انظر: **المعجم الكبير**، ج ٨ / ١٤ـ١٦).

وتذكر الروايات أنه نتيجة لذلك وصل مبعوث من هرقل إلى رسول الله ﷺ أثناء إقامته في معسكره بتبوك، وقد أورد الإمام أحمد في مسنده حديثاً طويلاً عن رجل من نصارى العرب بعثه هرقل إلى النبي ﷺ في تبوك عنونه بـ «حديث التنوخي عن النبي ﷺ قال الراوي فيه: « بحمص، وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفند[1] أو قَرُب، فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي ورسالة رسول الله إلى هرقل؟ فقال: بلى؛ قدم رسول الله تبوك، فبعث دحية الكلبي إلى هرقل، فلما أن جاءه كتاب رسول الله دعا قسّيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم باباً، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إليّ يدعوني إلى ثلاث خصال: يدعوني إلى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب ليأخذنّ ما تحت قدميّ، فهلمّ نتبعه على دينه، أو نعطيه مالنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز، فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم، رَفأَهم،[2] ولم يكد! وقال إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى

(١) الفَنَد: بعني طاعن في السن.
(٢) نرفق بهم، وهدّأهم وأرضاهم.

العرب، فقال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربيّ اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بي فدفع إلى هرقل كتاباً، فقال: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل، فما ضيّعت من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال؛ انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إلي بشيء؟ وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل؟ وانظر في ظهره هل به شيء يريبك؟ فانطلقت بكتابه حتى جئت **تبوك** فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً على الماء، فقلت: أين صاحبكم، قيل: ها هوذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره، ثم قال: ممن أنت؟ فقلت أنا أحدُ تنوخَ، قال هل لك في الإسلام الحنيفية مِلّة أبيك إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: يا أخا تنوخ، إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله مُمَزِقُه وممزقُ مُلْكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها والله مُخْرِقه[1]، ومخرق مُلْكِه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير، قلت: هذه إحدى الثلاثة التي أوصاني بها صاحبي، وأخذت سهماً من جعبتي فكتبتها في جلد سيفي، ثم

(١) من المعروف وجود أكثر من ملك للحبشة زمن النبي ﷺ أحدهم الذي أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، والذي يشير له الحديث ملك آخر غيره إذ أنه من الثابت وفاة الأول، وصلاتُه ﷺ عليه صلاةَ الغائب، انظر: **الهجرة إلى الحبشة** من هذا الكتاب.

إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قلت: مَنْ صاحِبُ كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار؟ قال: فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جلد سيفي، فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً وإنك رسولٌ، فلو وجدت عندنا جائزةً جوّزناك بها إنا سَفْرٌ مُرمِلون قال: فناداه رجل من طائفة الناس قال: أنا أجوزه، ففتح رحلَه فإذا هو يأتي بحلة صفورية فوضعها في حجري. . . . .)[1].

ومن الواضح تعدد المراسلات بين النبي ﷺ وهرقل، وبروز اسم دحيه الكلبي كحامل للرسائل ومحاور لهرقل،[2] وقد ذكر أن دحيه الكلبي حمل كتاباً إلى هرقل في آخر حياة الرسول ﷺ، وكان هرقل متردداً في الرد على الرسول حتى أتاه خبر وفاة رسول الله ﷺ .[3]

وقد عاش هرقل بعد ذلك حتى رأى بنفسه وقوع أجزاء كبيرة من مملكته في الشام وفي فلسطين، وبيت المقدس خصوصاً، بيد المسلمين، وصدق قوله ليملكنّ ما تحت قدمي

---

(١) الإمام أحمد، مسنده، ص ٤١١، ٤٤٢

(٢) انظر: فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص٤٥.

(٣) السهيل، الروض الأنف، ج ٤/ ٢٤٩.

هاتين، فكانت البداية في خلافة أبي بكر، والتمام في عهد عمر من بعده (رضي الله عنهم أجمعين)، حيث أطلق هرقل حسرة وهو يخرج من أرض الشام تاركاً إياها للمسلمين الذين أخذوها بالقوة مودعاً وداعاً أبدياً: «سلامٌ عليك يا أرض سوريا تسليم الوداع، لا لقاء بعد اليوم». (١)

وقد ذُكر أن هرقل احتفظ بكتاب النبي ﷺ وأوصى بحفظه من بعده، فما زالت ملوك الروم تتناقله قروناً عديدة، وكانوا يعرضونه على بعض المسلمين من وفود الخلفاء والسلاطين، (٢) و قد ظهرت النسخة الأصلية من هذا الخطاب النبوي وأجريت عليه أبحاث ودراسات رجحت صحة النسخة. (٣)

كتابه إلى كسرى فارس: (٤)

فارس دولة قوية، ملاصقة لبلاد العرب، فرضت حكمها على بعض المناطق داخل الجزيرة العربية، في فترات زمنية متعددة، وخصوصاً في اليمن والبحرين.

---

(١) الأزدي، **فتوح الشام**، ص ٢٣١، الطبري، **تاريخه**، ج٤ /٣٨؛ ابن حجر، **فتح الباري**، ص ٤٣؛ الطبري، **تاريخه**، ج ٤/ ١٥٦.

(٢) السهيلي، **الروض الأنف**، ج ٢/ ١٩٧؛ ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١/ ٤٤؛ وانظر: فاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، ص ٤٦، ٤٧؛ والكتاني، **التراتيب الإدارية**، (١/ ١٦٠).

(٣) محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ١٠٨.

(٤) وضع البخاري في صحيحه في كتاب **المغازي**، باب **كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر**، ج٥/ ١٣٦.

وقد مرت بمراحل حضارية مختلفة، يهمنا منها السنوات التي سبقت احتكاك هذه الدولة بالإسلام عن طريق الدعوة والفتوح والجهاد. وكانت الديانة السائدة في دولة فارس والمناطق الخاضعة لها هي المجوسية، وهي ديانة قائمة على عبادة النار وتقديسها، كما وجدت فيها ديانات أخرى كاليهودية، والنصرانية، انتشرت بين العرب الخاضعين لها في العراق والبحرين وغيرهما.

وكانت هذه الدولة تسيطر على فارس، وخراسان والعراق وبعض الأجزاء من أطراف الجزيرة العربية شرقيها وجنوبها.

وقد قام نظام الحكم الفارسي على تنظيم ملكي استبدادي، يقوم على التمييز بين الناس وتقسيمهم إلى طبقات مختلفة لكل منها حدود معينة من الحقوق والامتيازات والواجبات.[1]

وكسرى الذي عاصر الرسول ﷺ وكتب له كتباً، هو كسرى (أبرويز) وتعني المظفر، وهو ابن هرمز الرابع حفيد كسرى الأول المعروف بـ (أنو شروان)، وصل ما لم يصل إليه سلفه من تدويخ الدولة المنافسة، الروم (البيزنطيين)، بلغ انتصاره ومجده أوجهما في سنة ٦١٥م.

بعد صلح الحديبية كان ضمن الرسائل التي بعثها رسول الله

---

(١) صبحي الصالح، **النظم الإسلامية**، ص ٣٠؛ ول ديورانت، **قصة الحضارة**، الجزء الثاني، ج ١/ ٤١٥.

ﷺ إلى الزعماء والملوك، الكتابة إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي،[1] فأمره أن يدفعوا إلى عظيم البحرين فدفعها عظيم البحرين إلى كسرى، وجاء في كتابه ﷺ إلى كسرى «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ليُنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس».[2] فلما وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز وقرئ عليه أخذه الكِبرْ والجبروت، وغضب على الرسول ﷺ ومزق كتابه، فكانت دعوة رسول الله ﷺ عليه (أن يُمزَّقوا كُلّ ممَزّق).[3] ولم يقف عند هذا الحد في تكبره وتجبره، فكتب إلى **باذان**، عامله على اليمن ـ وكانت للفرس سيطرة عليها منذ سنة ٥٧٥ م ـ[4]: (ابعث من عندك رجلين إلى هذا الرجل بالحجاز)،[5] بهدف أسْر الرسول ﷺ والإتيان به

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/٦٠٧؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٥٧.

(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٥٦؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٢٦٠؛ ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٨٨.

(٣) من رواية البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، ج ٥/ ١٣٦.

(٤) عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، **اليمن في صدر الإسلام**، ص ٢٨.

(٥) ابن حجر، **فتح البارئ**، ج ١٦/ ٢٥٧.

ليعاقبه بما يريد، فبعث باذانُ من اليمن رجلين شديدين إلى رسول الله ﷺ فلما قابلاه قال لهما: "ارجعا حتى تأتياني غدًا. قال: وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء: أن الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله.[1]

قال فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدرى ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، فنكتب بها عنك بهذا ونخبر الملك **باذان**؟ قال: «نعم أخبراه ذلك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى الخُفّ والحافر «وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملّكتك على قومك من الأبناء ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك. فخرجا من عنده، حتى قدما على **باذان**، فأخبراه الخبر فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيًا كما يقول وليكوننّ ما قد قال، فلئن كان هذا حقًا فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا. فلم ينشب **باذان** أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد فإني قد قتلت كسرى ولم اقتله إلا غضبًا لفارس، لما كان استحلَّ من قتل أشرافهم ونحرِهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

---

(١) من رواية ابن أبي شيبة، في **المغازي**، ص ١٥٥؛ وانظر: ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٢٦٠.

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول الله، فأسلم الأبناء من فارس من كان منهم باليمن، قال: وقد قال باذويه لباذان: ما كلّمت أحداً أهيب عندي منه، فقال له باذان: هل معه شرط؟ قال لا.[١]

سنة تسع للهجرة[٢]:

وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله».[٣] كما يشير الرسول ﷺ إلى سقوط المدائن عاصمة الفرس في يد المسلمين في قوله: (لتفتحن عصابةٌ من المسلمين كنوز كسرى في القصر الأبيض).[٤]

جاءت الأخبار إلى باذان ومن معه من الفرس في اليمن بقتل أبرويز في الليلة التي أخبر بها رسول الله ﷺ، وورد أن باذان أسلم وقال: (إن هذا لرسول)،[٥] (وإن كان حقاً فلا يسبقني أحد من الملوك في الإيمان به)، فأسلم وأسلمت (الأبناء) معه من فارس اليمن.[٦]

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٠٩، ٥١٠.
(٢) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣ / ٥١٢.
(٣) انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣ / ٥١٣
(٤) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٤٢.
(٥) انظر: ترجمته عند ابن حجر في **الإصابة**، ج ١/ ١٧٠.
(٦) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٥١٠.

وتذكر الروايات أنه وفد بعضهم على رسول الله ﷺ في المدينة في أواخر حياته،[1] كما كان للأبناء، **باذان** وغيره من أمراء الفرس في اليمن دور كبير في الوقوف مع أمراء الرسول ﷺ معاذ بن جبل وغيره رضي الله عنه أثناء ولايتهم اليمن للرسول ﷺ.

كما شاركوا في القضاء على رِدّة الأسود العنسي الكذاب مدعي النبوة، في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقاموا مع نسائهم بقتل الأسود العنسي الكذاب، وكان **باذان** على رأس هؤلاء من أبناء الفرس.[2]

وقد بدأ المسلمون فتوحهم في بلاد فارس أثناء خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت أشد المعارك معهم معركة القادسية.

وفي زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقبل معركة القادسية طلب رستم وفودًا من المسلمين ليستمع إليهم ويحاورهم، ويسمع منهم بنفسه مباشرة، وكان من هؤلاء ربعي ابن عامر الذي اشتهر كمبعوث للمسلمين في أحد اللقاءات، حيث استعد رستم للقائه، وأعدّ مجلسه الفخم لهذا الأمر وزينه بالنمارق المذهبّة والحرير، وأظهر اللآلئ والمجوهرات، ووضع الزينات المختلفة وفرشت البسط المزركشة بالذهب والفضة. وجلس رستم للمقابلة في وسطها على سرير من الذهب، وأقبل ربعي بن عامر على مجلس رستم عليه ثياب بالية مرقعة، يحمل

---

(١) الطبري، **تاريخه**، ج ٢/ ٦٥٦.

(٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١١٤.

سلاحًا متواضعًا ويركب فرسًا صغيرة، فلما وصل إلى مجلس رستم، دخل بفرسه إلى المجلس وداس بها على الديباج والحرير، ثم انتزع شيئًا من الحرير الذي في البسط وربط به فرسه وأقبل على رستم ومعه سلاحه، فقال له الفُرْسُ: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما أنتم دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فأمرهم رستم أن يتركوه، فأقبل على رستم وهو يتوكأ على رمحه فوق البُسُط والنمارق حتى خرق بعضها، فقال له رستم محاورًا: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: إن الله ابتعثنا لِنُخرِج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قَبِلَ ذلك قَبِلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله. قال رستم: وما موعود الله؟ قال ربعي: الجنّة لمن مات على قتال من أبى، والظفَر لمن بقي. فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال ربعي: نعم ننظركم ثلاثة أيام، فطلب رستم الزيادة فقال ربعي: ما سن لنا رسول الله أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث. فقال له رستم أسيدهم أنت؟ فقال ربعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. واجتمع رستم بقواده بعد ذلك وتدارس الأمر معهم وقرروا قتال المسلمين، وعدم قبول عرضهم الإسلام أو الجزية، واستعد الفريقان للقاء وقد اشتبك المسلمون

والفرس في قتال مرير انتهى بانتصار المسلمين[1]، تلى ذلك سقوط عاصمتهم.[2]

وحدث ما أخبر به ﷺ عن سقوط كسرى ودولته وكنوزه بعد عناده ورفضه لرسالة الرسول وتمزيقها بقرابة تسع سنوات كما أن سلمان الفارسي رضي الله عنه كان أول أمراء المسلمين على المدائن بعد فتحها زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان يمثل الإسلام أمام الفرس بتواضعه وزهده وحسن تعامله مع الناس، فكان له ولغيره من الصحابة أثر كبير في انتشار الإسلام بين الفرس.

كتابه إلى المقوقس (عظيم القبط في مصر):

مصر بلد مشهور بالحضارة منذ القدم، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم أكثر من مرة، من ذلك في قصة يوسف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]. كما جاء الحديث عنها مطولاً في حياة موسى وقصته مع فرعون وذكر بلفظه في القرآن الكريم على لسان

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص: ١٢٦ ـ ١٢٨؛ الطبري، تاريخه، ج٤/ ١٠٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٢/ ٤٦٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان،: ١٣٠ ـ ١٣١؛ وانظر: عبد العزيز العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٢٤ ـ ١٣٣.

فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]، كما ورد الحديث عنه في آيات متعددة من دون تسميته.[١]

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أخبر في أكثر من مرة بأن مصر ستُفتح للمسلمين، ومن ذلك قوله ﷺ (ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً).[٢]

وكان يتزعم مصر المقوقس سايروس CYRUS عند الروم، وهو رجل دين على مذهب القسطنطينية، يوناني الأصل كان أميراً على مصر من قبل هرقل وأسقفاً على الإسكندرية في الوقت نفسه.[٣]

كان سكان مصر عند بعثة النبي ﷺ من الأقباط، وهم أهل البلاد الأصليين، يخالطهم مجموعة كبيرة من الروم،[٤] ومنهم المقوقس وهم على مذهب الطبيعة الواحدة في المسيح، وكان

---

(١) انظر: السيوطي، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، ص ٧ ـ ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في **فضائل الصحابة**، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، حديث رقم: ٢٥٤٣

(٣) ابن الكندي، **تاريخ ولادة مصر**، ص ١٥.

(٤) المقريزي، **القول الإبريز**، ص ٤٣.

مذهب القبط هو المذهب ***MONOTHELEMA*** النصراني ويختلف عن المذهب السائد في القسطنطينية بين الروم وهو المذهب ***MONOPHUSITAI***.[١]

وهناك شيء من التنافر بين المذهبين مما دفع الروم إلى مضايقة عدد من رجال الدين الأقباط وإبعادهم،[٢] وحينما عاد الرسول ﷺ من صلح الحديبية كتب كتاباً إلى المقوقس عظيم القبط، وهو حاكم مصر وأسقفها من قبل الروم، وجاء في الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أَسلمْ تسَلمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فعليك إثم القبط ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].[٣] وقد اختار رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة لحمل الرسالة،[٤] وقد تمكن من الوصول إلى المقوقس فسلمه كتاب رسول الله ﷺ

---

(١) هـ. ايدرس بل، **مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي**، ص ١٩٢.

(٢) المقريزي، **القول الإبريز**، ص ٤٣.

(٣) انظر: تخريجه عند: محمد عبد الله غبان، **مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه**، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٥.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٧٠٦؛ ابن سعد، **السيرة النبوية** من **الطبقات**، ج١٠/ ٢٦؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١/ ٣٠٠.

فأكرمه، وكان أسقفاً فجمع البطارقة وحاول مناقشة ومُحاجّة حاطب بن أبي بلتعة، فكان من ذلك قوله: إذا كان نبياً فما باله لم يَدْعُ على قومه حين أخرجوه من بلده إلى غيرها، فرد عليه حاطب فقال له: فما بال عيسى حين أخذه قومه وأرادوا أن يصلبوه لم يدعُ عليهم بأن يهلكهم الله قبل أن يرفعه إلى السماء الدنيا، فقال له: أنت حكيم، قد جاء من عند حكيم، ثم ردّ على رسول الله ﷺ بكتاب لم يذكر فيه إسلامه، مع أنه فهم ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وجاء في كتابه: (لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظنه بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثيابٍ وأهديت لك بغلةً تركبها والسلام).[1] ومن الواضح محاورة المقوقس لحاطب أكثر من مرة وقناعته بنبوة الرسول ﷺ وأن أصحابه سينزلون مصر ويظهرون عليها.[2]

ومما بعث مع حاطب بن أبي بلتعة من هدايا إلى رسول الله ﷺ مارية القبطية التي أصبحت أم إبراهيم ابن

---

(١) انظر: ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٢٦٠؛ محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج٢/ ٣٦٢.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٣/ ٥٣١؛ ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، ص ٤٥ ـ ٤٧؛ وانظر: فاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية**، ص٥٤.

النبي ﷺ مع جارية أخرى،[1] وكذلك غلاماً أسود وخُفّين ونعلاً.

ومن الواضح من كتاب المقوقس احترامه لرسول الله ﷺ ومعرفته لآخر الأنبياء وخاتمهم، ولم يَبدُ فيه ما يظهر إسلامه مع معرفته بالحق، ولعله آثر الدنيا والمناصب والملك على الدين والآخرة، وسار على طريق هرقل في معرفة الحق والإعراض عنه، وكان على يقين بأخذ المسلمين لمصر وفتحها، كما كان المسلمون على يقين بذلك، وهو ما حدث في حياة المقوقس نفسه.

ففي سنة ٢٠ هـ انطلق عمرو بن العاص،[2] فاتحاً مصرَ، وحين سأل المقوقس عن أخلاق المسلمين قال: لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها.[3]

وأحسّ بقوة المسلمين ونصر الله لهم، فصالحهم ودفع الجزية لهم.[4]

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٥١٥.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٤؛ المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج١/ ٢٨٨؛ انظر: عبد العزيز العُمري، **الفتوح الإسلامية عبر العصور**، ص ١٠٣.

(٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١/ ٢٤؛ المقريزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، ج١/ ٢٩٩.

(٤) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج١٢٩١؛ العُمري، **الفتوح الإسلامية عبر العصور**، ص١٤٣، ١٤٤.

كتبه إلى ملوك الحبشة:

الحبشة منطقة تقع شرق أفريقيا مقابل السواحل اليمنية، وقد اختلفت حدوها من عصر لآخر، والأرجح أنها كانت في العصر النبوي تشتمل أجزاء من الصومال والسودان وغيرها وتسمى قديماً (apyssinia) وحالياً أثيوبيا (Ethiopia)، ودولتها قديمة عرفت منذ زمن سليمان عليه السلام. وقد انتشرت فيها المسيحية في القرن الرابع الميلادي، وتمكنت من السيطرة على اليمن سنة ٥٢٥م. لما يقارب الخمسين سنة، وكانت عاصمتها أكسوم axum.[١]

وصلة أهل مكة بها قبل مبعث النبي ﷺ قديمة، حيث كانت موضعاً لتجارة قريش يجلبون منها ولها السّلع، وقد احتل الأحباش اليمن وسيطروا عليها وحكموها قبيل مولد النبي ﷺ وكانوا يتنازعون حكمها مع الفرس، وكان أبرهة الحبشي أشهر الحكام الأحباش لليمن، وهو صاحب حملة الفيل على الكعبة، التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].[٢]

وحينما أوذي النبي وأصحابه في مكة، وجههم ﷺ للهجرة

---

(١) أبو الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٣٠٠؛ انظر: **ابن كثير**، ج٢/ ٢٠٣١.

(٢) انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٢/ ٢٠٣١.

إلى الحبشة،[1] وأخبرهم بعدل ملكها، الذي كان يسمى عند العرب بالنجاشي، وهو اسم لكل من مَلَكَ الحبشة، وكان في تلك الفترة **أصحمة** وكان مع المهاجرين الأولين للحبشة جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه وقد بعث ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة برسالة جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي **الأصحم** ملك الحبشة سلام عليك، فإني أحمد إليك الملكَ القدوسَ السلام المؤمنَ المهيمنَ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته، كما خلق آدم بيده ونفخته، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقْرِهِمْ ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلّغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى».[2]

من الواضح من الرسالة اختلاف أسلوبها عن رسائل الرسول ﷺ لبقية الزعماء، حيث يبدو منها خطاب خاص لرجل لديه شيء من الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، ومن المؤكد أن النجاشي **أصحمة** ناقش جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مرات عدة،

---

(١) انظر: **الهجرة إلى الحبشة**، من هذا الكتاب.

(٢) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ٢/ ١٥؛ ابن القيم، **زاد المعاد**، ج٣/ ٦٨٩.

منها حينما حضر وفد من قريش مطالباً بإعادة جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين، فعقد لهم **أصحمة** مجلساً للمناقشة وسمع منهم ومن وفد قريش، وأظهرت نتيجة المناقشة مَيْلَ النجاشي إلى الحق والإسلام،[1] واستعداده للدفاع عن المهاجرين من الصحابة، وقد رد النجاشي على رسالة النبي ﷺ وأعلن إسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب ومما جاء في رسالة شيء:

(بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الله الذي لا الله إلا هو، أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربِّ السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً[2] إنه كما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين). [3]

وكان الصحابة عند ملك الحبشة مكرمين معززين عنده

---

(١) انظر: **الهجرة إلى الحبشة**، من هذا الكتاب.

(٢) الثفروق: هو قمع التمرة وقيل ما يلتصق بالقمع من التمر، الجوهري: **الصحاح**، ج ٤/ ١٤٥٤.

(٣) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٤/ ٦٩٠؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٣/ ٨٤؛ ابن الجوزي، **وفاء الوفاء في أحوال المصطفى**، ج٢/ ٧٥.

ودلت روايات مختلفة على أنه دخل في الإسلام، وكان بينه وبين الصحابة لقاءات عديدة، رأوا منه كل خير.

وقد ثبت أن الرسول ﷺ قد بعث برسالة إلى ملك الحبشة أصحمة، ولعله الثاني ويختلف عن الأول وحمل الرسالة عمرو ابن أمية الضمري في السنة السادسة من الهجرة وجاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا الله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلّغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى». (١)

وبعد قراءة النجاشي للرسالة جرت بينه وبين عمرو بن أمية الضمري مناقشات حول المسيح عليه السلام ودعوة النبي ﷺ وكان من هذا الحوار (إن عمروا قال له: يا أصحمة إن علي القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرِّقة علينا وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نَخَفْكَ على شيء

(١) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٤/ ، ص ٦٨٩.

قط إلا أمِنّاه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يُرد، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك موقع الحزّ وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرّق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجاكَ لما لم يَرْجُهُم له وأمّنك على ما خافهم عليه بخيرٍ سالف وأجر ينتظر، فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل[1] وأن العيان ليس بأشفى من الخبر، ثم كتب النجاشي جواباً على كتاب النبي ﷺ.[2]

ونصَّ الرسالةَ وبقية الروايات تؤكد إسلام هذا النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري، والمرجح عندي وعند الكثيرين أنه غير النجاشي الأول الذي هاجر إليه جعفر بن أبي طالب ومن معه، وتدل الروايات على أن النجاشي هذا واسمه **أصحمة بن أبحة**، وقد كتب له الرسول ﷺ يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، حيث خطبها النبي ﷺ وهي في الحبشة بعد ردة زوجها ووفاته، فناب **أصحمة** عن النبي ﷺ في العقد وأصدقها نيابة عنه.[3] ودلّت روايات مختلفة أن ملك الحبشة بعث إلى

---

(١) فيه إشارة إلى أن عيسى بشر بمحمد ﷺ كما بشر موسى بعيسى.

(٢) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٤/ ٦٨٩، ٦٩٠.

(٣) ابن سعد، **سنن النبي ﷺ وأيامه**، ج ١/ ٦٠٨؛ وانظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٢٧٣.

الرسول ﷺ في سنة (٨هـ) أناساً من الحبشة، وأنهم غرقوا في البحر قبل وصولهم المدينة.[١]

وقد حمل عمرو بن أمية الضمري أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين إلى الحبشة على سفينتين وعاد بهم إلى المدينة أثناء غزوة خيبر في السنة السادسة للهجرة ومعهم جعفر بن أبي طالب فكان النبي ﷺ، يقول: (ما أدري بأيهم أُسَرُّ بفتح خيبرَ أم بقدوم جعفر؟)، ولا شك أن الترتيب لسفرهم وعودتهم للنبي ﷺ وتأمين السفر كان من النجاشي، وقد عَدّ ابن هشام هؤلاء المهاجرين وأسماءهم وعقد لذلك موضوعاً خاصاً سماه (ذكر قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة وحديث المهاجرين إلى الحبشة).[٢]

ودلت روايات صحيحة ومتعددة عند البخاري ومسلم وغيرهما أن رسول الله ﷺ قد صلى صلاة الغائب على النجاشي عند وفاته،[٣] مع اختلاف في وقتها، وهذا يدل على إسلامه، ومن المرجح عند كثير من العلماء أنه كان يكتم إسلامه، ولعل هذا هو النجاشي الأول الذي استقبل جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين.

---

(١) ابن إسحاق، **السيرة، المغازي**، ص ٢١٩؛ ابن حجر، **الإصابة**، ج ١/ ١٠٢.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٥٩

(٣) انظر: صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب موت النجاشي، ج ٤/ ٢٤٦.

ويذكر بعض المؤرخين أن هرقل علم بإسلام النجاشي، وكان يدفع له مساعدة مالية سنوية، نظراً لارتباطه الديني والإداري بالروم، فقطع هرقل تلك المساعدة.[١]

كتابه إلى هوذة بن علي الحنفي في(اليمامة):

اليمامة إقليم معروف في نجد، وتسمى العروض أو العارض، وقاعدتها حَجَر إلى الغرب من البحرين. وتشتهر بالعديد من القرى في وادي حنيفة وما حولها،ــ وهي الرياض وما يحيط بها حالياً ــ وهي ذات إنتاج زراعي، وفي العهد النبوي كانت تُصدر القمح إلى مكة وغيرها.[٢]

كانت في اليمامة حواضر مختلفة وزعامات متفرقة، وقبائل ذات شأن واشتهرت بعيونها ونخيلها.[٣]

وكانت أشهر قبائلها بنو حنيفة في قاعدتها حجر، وفي عقرباء (بالقرب من العيينة)،[٤] ومن أشهر من أسلم من زعمائها (ثمامة بن أثال) في قصة معروفة،[٥] حيث منع تصدير القمح

---

(١) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٩٤.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٥/ ٤٤٢؛ وانظر: عبد الله بن خميس، **معجم اليمامة**، ج ١/ ١٥.

(٣) **المرجع السابق**، ج ١/ ٣٥.

(٤) انظر: عبد الله بن خميس، **معجم اليمامة**، ج ٥/ ٤٤٢.

(٥) انظر: صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، حديث رقم: ٤٣٧٢.

إلى قريش بعد إسلامه، فطلب أهل مكة شفاعة النبي ﷺ لكي يعيد إليهم تجارة القمح، وكان من أشهر زعمائها هوذة بن علي الحنفي الذي كتب له الرسول ﷺ كتاباً، وكان في نواحي جو الخضارم (الخَرْج)، وكان حاكماً في بني حنيفة، فكتب له ﷺ في السنة السادسة للهجرة ضمن من كتب إليهم من الملوك والأمراء. وجاء في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافر، فأسلم تسلم وأجعلُ لك ما تحت يديك، فلما قدم عليه سليط ابن عمرو العامري بكتاب النبي ﷺ مختوماً أنزله وحيّاه وقرأ عليه الكتاب، فردّ رداً دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل إليَّ بعض الأمر اتبعك، وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نَسْج هَجَر، فقدم بذلك على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه وقال لو سألني سيابةً من الأرض ما فعلت بادَ وبادَ ما في يديه».[1] وقد حمل الرسالة (سُليط بن عمرو العامري)، وهو صحابي جليل من مهاجري الحبشة من المسلمين الأوائل، حمل أهله في هجرة الحبشة وولد له هناك.[2]

---

(١) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٩٦.

(٢) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج٢/ ٧١.

ولما وصلت الرسالة إلى هوذة بن علي كان عنده رجل من عظماء نصارى دمشق الشام، فسأله عن النبي ﷺ وحدثه بكتابه الذي جاءه من النبي ﷺ، ورد هوذة عليه، وأنه خاف على ملكه فقال له: (لئن اتبعته ليملِّكنك، فإن الخيرة لك في اتباعه، وإنه للنبي العربي الذي يبشر به عيسى، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله). [1]

ومن الواضح إصرار هوذة على عدم الإسلام رغم كتابة الرسول ﷺ له، حيث إن اشتراطه وعدم إسلامه دعا النبي ﷺ إلى الدعاء عليه: «بادَ وبادَ مُلْكه»، وهذا ما حصل، فبعد انصراف الرسول ﷺ من غزوة فتح مكة «جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة قد مات، فقال النبي ﷺ أما أنّ اليمامة سيخرج فيها كذاب يُقتل بعدي»، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال له رسول الله ﷺ أنت وأصحابك». [2]

وحينما قدم وفد بني حنيفة في السنة التاسعة للهجرة[3] كان معهم مسيلمة الكذاب، الذي قال: (إنْ جعلَ لي محمّد الأمرَ من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ

---

(١) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٩٧.

(٢) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٩٦.

(٣) وضع البخاري في صحيحه في **كتاب المغازي**، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن آثال، ج ٥/ ١١٧.

جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه. فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتُكَها، ولن تعدو أمر الله فيك ولئن أدبرت ليعقرنّك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيت. وهذا ثابت ابن قيس يجيبك عني، وانصرف». [1]

وقد ارتد مسيلمة ومن معه من بني حنيفة أواخر عهد النبي ﷺ وادعى النبوة، وأصبح يسجع للناس كلاماً هراءاً لا فائدة فيه، يزعم أنه قرآن وفتن الناس به، واتبعوه عصبية له، حتى كان بعضهم يقول: (كذابُ ربيعة خيرٌ من صادقِ مُضَر)، [2] حيث زعم أنه أُشرك في الأمر معه، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً جاء فيه: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك، أما بعد فإني قد أُشرِكْتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون). [3] فرد عليه الرسول ﷺ ومما جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». [4]

---

(١) من حديث رواه البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، ج ٥/ ١١٨.

(٢) انظر: الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ٢٤٦.

(٣) انظر تخريجه عند: محمد حميد الله، **الوثائق السياسية**؛ وانظر: ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٢٧٣.

(٤) انظر تخريجه تحت رقم: ٢٠٦ عند: محمد حميد الله، **الوثائق السياسية**.

اشتدت الرِدّة، وأعدّ مسيلمة جيوشاً لقتال المسلمين والهجوم على المدينة، فكان من أوائل الجيوش المرسلة إليه من أبي بكر جيش يقوده [عكرمة بن أبي جهل] رضي الله عنه، فلم يلق نجاحًا في مواجهته الأولى مع [مسيلمة]، ولذلك صرفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوجه [شرحبيل بن حسنة] رضي الله عنه ثم [خالد بن الوليد] رضي الله عنه، وأمر [شرحبيل] بالانضمام إلى [خالد بن الوليد]،[1] وعماده المهاجرون وعليهم [أبو حذيفة] وزيد بن الخطاب] (رضي الله عنهما) ويحمل رايتهم سالم مولى أبي حذيفة (رضي الله عنهما)، والأنصار وعليهم ثابت بن قيس بن الشماس رضي الله عنه، ولما قرب جند المسلمين علم بهم مسيلمة فخرج بجنده إلى (عقرباء) وعسكر بهم، وتمكن المسلمون من الوقيعة بإحدى سرايا مسيلمة وتقدر ما بين الأربعين إلى الستين رجلاً، ثم وقع اللقاء مع مسيلمة وقواته.[2]

وكادت أن تقع الهزيمة، فتداعى المسلمون للثبات، واشتد القتال وكان في أوله في صالح بني حنيفة، ثم أصبح سجالاً، ولاحت بشائر النصر للمسلمين، فقال أصحاب مسيلمة له أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم، وتمكن المسلمون من قتل مسيلمة الكذاب، وقد اشترك في قتله أحد الأنصار مع وحشيّ قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

---

(١) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ٢٤٣.

(٢) انظر: خليفة بن خياط، **تاريخه**، ص ١٠٦؛ **تاريخ الإسلام وعصر الراشدين**، ص ٤٠.

كتابه إلى المنذر بن ساوي العبدي في البحرين:

البحرين اسم جامع لمناطق بين عمان والبصرة على ساحل البحر، ومن مدنها الرئيسية هَجَر وجواثا والقطيف وإقليم الإحساء كاملاً، ومن عمالها الفرس **سيبخت** ومن العرب المنذر ابن ساوي العبدي،[1] الذي كان تحت سلطة الفرس.

وقد ورد أن الرسول ﷺ كتب إلى المنذر بن ساوي كتاباً قرأه على أهل البحرين فأسلم بعضهم وكره بعضهم الإسلام، فكتب إلى الرسول ﷺ في ذلك فرد عليه ﷺ بكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر ابن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فإني أذكِّركَ الله عزّ وجلّ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رُسُلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية».[2]

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج١/ ٣٤٦؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص٩٠؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج١/ ٢٦٣.

(٢) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٩٢.

وكان حامل الرسالة هو العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، وذلك في السنة الثامنة للهجرة، وقد انتشر الإسلام في البحرين، فكان بعض أهلها يدفعون الزكاة والبعض الآخر من النصارى والمجوس يدفعون الجزية.[1]

وقد أصبحت البحرين جزءاً من الدولة الإسلامية في أواخر العصر النبوي، وقد بعث الرسول ﷺ إليها مجموعة من الولاة، نظراً لوجود العديد من القرى فيها، وكان من أشهر ولاة البحرين خلال العصر النبوي، الصحابي الجليل (العلاء بن الحضرمي)،[2] وقد بعث معه الرسول ﷺ بعض الصحابة منهم أبو هريرة رضي الله عنه.[3]

كتابه إلى فروة بن عمرو الجذامي:

كان أميراً على أطراف الشام مما يلي بلاد العرب، وكان مرتبطاً بالروم ومقره معان من نواحي الأردن.[4]

أسلم وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، وبعث بهدايا لرسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً جاء فيه: «من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو، أما بعد فقد قدم علينا

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ١/ ٣٤٨.
(٢) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١/ ٢٦٢.
(٣) خليفة بن خياط، **تاريخه**، ص ١٢٣.
(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩١.

رسولك وبلّغ ما أرسلت به وخبّر عمّا قبلكم وأتانا بإسلامك، وإن الله هداك بهداه إن أصلحت وأطعت الله ورسوله وأقمت الصلاة وآتيت الزكاة. وأمر بلالاً فأعطى رسوله مسعود بن سعد اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، قال: وبلغ ملك الروم إسلام فروة فدعاه فقال له: أرجع نملِّكك، قال: لا أفارق دين محمد وإنك تعلم أن عيسى قد بشرّ به ولكنك تضنّ بملكك، فحبسه ثم أخرجه فقتله وصلبه».[1] ومع محاولة رده عن إسلامه فإنه ثبت عليه وقتل شهيداً، وقد قال أبياتاً تدل على ثباته على الإسلام قبل قتله ومنها قوله:

بلّغ سراةَ المسلمين بأنني سَلْمٌ لربي أعظُمي وبَناني[2]

ولعل لمقتله دوراً في تحريك غزوة مؤتة مع أسباب أخرى،[3] وقد عرف بعد ذلك وجود عدد من جُذام ثابتين على الإسلام دافعوا عن دحية بن خليفة الكلبي حين تعرضت قافلته للإغارة من بعض القبائل،[4] وجاء أنه أهدى لرسول الله ﷺ فرساً قبل قتله من قبل الروم.[5]

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٢٨١؛ ابن الجوزي، **وفاء الوفاء**، ج٢ / ٧٤٠.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٢.

(٣) انظر: علي العتوم، **غزو مؤتة**، ص ١٠٤.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦١٢؛ وانظر: د. علي العتوم، **تجربة مؤتة**، ص١٠.

(٥) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٤٩٠؛ وابن سيد الناس، **عيون الأثر**، ج٢/ ٤٢٢؛ وفاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية**، ص ١٣١.

كتبه إلى ملكي عُمان:

تقع عُمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، على ساحل الخليج العربي وبحر العرب (خليج عُمان)، وحدودها في العصر النبوي قريبة من الحدود الحالية المعروفة لعمان المعاصرة،[١] وتتصل بحضرموت من الغرب، وبمنطقة البحرين من الشمال، تشتهر بزراعة النخيل وإنتاجها الحيواني الوفير، وعلاقاتها التجارية البحرية مع الهند وغيرها. كانت بها دولة توارثها آل الجلندي وعاصمتها صُحار، وأشهر قبائلها الأزد، ومنهم الملوك.

وكانت الوثنية تسود في عُمان كغيرها من بلاد العرب، مع وجود أفراد من المجوس، وأفراد من النصارى لا تأثير يذكر لهم، وقد وصلت أخبار الإسلام مبكرة إلى عمان [٢] بحكم احتكاكها بقبائل العرب، سواء في البحرين أم في اليمن وحضرموت، وبعد عودة الرسول ﷺ من عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، كتب كتاباً إلى جيفر وعبّاد ابني الجلندي يدعوهما فيه إلى الإسلام وبعثه مع عمرو بن العاص،[٣]وجاء

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٤/ ١٥٠؛ وانظر: عبد المنعم عبد الحميد سلطان، **تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام**، ص ١٣.

(٢) عبد المنعم عبد الحميد سلطان، **تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام**، ص ٢٦.

(٣) هنالك آراء مختلفة حول بعث عمرو يرجح بعضها السنة الثامنة أو غيرها، انظر: عبد المنعم عبد الحميد سلطان، **تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام**، ص ٢٨.

في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبَّاد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام ولّيتُكُما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحلّ بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما». (١)

ويقص عمرو بن العاص وصوله إلى عُمان وكيفية مقابلته الملكين وما دار بينه وبينهما فيقول: (قال عمرو فلما قدمت عُمان عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خُلقاً فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، فمكثت أيامًا ببابه ثم إنه دعاني فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب مختومًا ففض خاتمه، وقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه إلا أني رأيتُ أخاه أرق منه فقال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غداً، فلما كان الغد رجعت إليه فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي، قلت: فإني خارج غدًا، فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إليّ فدخلت عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه

(١) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج٣/ ٦٩٣؛ وانظر: تخريجه عند: محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ١٤٦.

جميعًا، وصدقا بالنبي ﷺ وخليا بينيِ وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم،وكانا لي عونًا على من خالفني فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم).[١]

ويظهر أن هناك حواراً طويلاً دار بين عمرو بن العاص وبين الملكين، تركز حول موقف الملوك الآخرين من رسائل الرسول ﷺ ومن دعوته، وعن قومه قريش وما حصل منهم، حيث أخبرهم عمرو بإسلام النجاشي وقبوله الدعوة، وعن موقف هرقل من إسلام النجاشي، كما دارت بينهم مناقشة حول الصدقة وفرائض الزكاة ومن يستحقها، وجوهر دعوة الرسول ﷺ.

وبالطبع اقتنع الملكان بالإسلام وتركا عمرو بن العاص يؤدي مهمته في الزكاة، بأخذها من الأغنياء وردها على الفقراء، بقية حياة الرسول ﷺ. ويظهر أنه كان يشاركه في المهمة أبو زيد الأنصاري،[٢] حيث ساهم في تعليم الناس القرآن وسنة رسول الله ﷺ، كما كان للعلاء بن الحضرمي أمير البحرين نوع من العلاقة ببعض الأعمال في عمان،[٣] وقد استمرّ عبَّاد وجيفر على مُلك عمان، بقية حياة الرسول ﷺ.

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٢٦٢، ٢٦٣.

(٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٩٣؛ وانظر: عبد المنعم عبد الحميد سلطان، **تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام**، ص ٣٠؛ وأبو زيد هو ثابت الأنصاري والد زيد بن ثابت الأنصاري؛ ابن حجر، **الإصابة**، ج١/ ١٩٣.

(٣) العُمري، **الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين**، ص ٤٦.

وحدثت ردّة في عُمان بعد وفاة الرسول ﷺ تمكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمساعدة جيفر وعبَّاد ملكي عُمان من التصدي لها، بعد معارك متعددة قادها حذيفة بن محصن وعكرمة بن أبي جهل في نواحي دُبا،[1] وقابل عدد من أهل عُمان أبا بكر الصديق رضي الله عنه في بداية خلافته مؤيدين ثابتين على الإسلام فأثني عليهم وعلى ثباتهم رغم اضطراب الأحوال بعد وفاة الرسول ﷺ.[2] وكان لقبائلها دور مهم في الفتوح الإسلامية في عصر الراشدين وخصوصاً في العراق وفارس.

كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني:

كان الحارث أميراً على نواحي البلقاء من أرض الشام وبعض نواحي دمشق.[3] وكان تابعاً للروم متعصباً للنصرانية.

وقد كتب له رسول الله ﷺ رسالة جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك».[4] وقد غضب

---

(١) خليفة بن خياط، **تاريخه**، ص ٩٧؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٨٧، ودُبا: مدينة عمانية بها سوق من أسواق العرب المشهورة في العصر الجاهلي، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٢/ ٤٣٤.

(٢) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) فاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، ص ٨٣.

(٤) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٥٦١؛ ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٤/ ٦٩٧؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٤/ ٤٦٨.

الحارث، ورمى الرسالة. وكان حامل الرسالة شجاع بن وهب الأسدي،[1] وهدد وتوعد وكتب إلى قيصر يستأذن في الهجوم على الرسول ﷺ في المدينة، فنهاه عن ذلك وقال لا تَسِرْ إليه والْهُ عنه.[2]

كتابه إلى جَبَلة بن الأيهم الغسّاني:

كان جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة المشهورين في الشام قبل الإسلام.[3] وكانوا مقصد العرب وشعرائهم في الجاهلية وتربطهم بالأوس والخزرج وشائج قُربى، يزورهم حسان بن ثابت وغيره من شعراء يثرب قبل الإسلام فيمدحونهم وينالون من عطاياهم.

وكانوا تبعاً للروم، إلا أنهم يديرون نصارى العرب في الشام، وقد كتب الرسول ﷺ كتاباً إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلي الإسلام.[4]

وقد حمل الرسالة شجاع بن وهب الأسدي، وكان يعرف صلة النسب بين الأنصار والغساسنة، ودار حوار بين شجاع

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٠٧؛ وابن حجر، **الإصابة**، ج٢/ ١٣٨.

(٢) الحلبي، **السيرة الحلبية**، ج ٣/ ٣٠٦.

(٣) ابن حبيب، **المحبّر**، ص ٣٧٢.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٦٠٧؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٨/ ٢٦٥؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج١١/ ٣٥٩.

وجبلة جاء فيه: أن شجاعاً قال له: (يا جبلة إن قومك نقلوا هذا النبي من داره إلى دارهم ــ يعني الأنصار ــ فآووه ومنعوه ونصروه، وإن هذا الدين الذي أنت عليه ليس بدين آبائك ولكنك ملكت الشام وجاورت الروم، ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس، فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا وكانت لك الآخرة، وقد كنت استبدلت المساجد بالبِيَع، والأذان بالناقوس، والجُمَع بالشعانين،[1] وكان ما عند الله خير وأبقى. قال جبلة: إني والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي اجتماعهم على من خلق السموات والأرض، وقد سرّني اجتماع قومي له، وقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه، ولكني لست أرى حقاً ولا باطلاً وسأنظر).[2]

وليس واضحاً إسلامه زمن النبي ﷺ، ولكن من الواضح وجود فَهْم لديه بالإسلام وقناعة منه لما جاء به النبي ﷺ، وإن لم يعلن إسلامه، وقد شارك قومه في معركة اليرموك مع الروم وقيل أنه كان معهم[3] في القتال.

---

(١) يقال للرجل أشعث الرأس: أي ثائر الرأس سيئ المنظر قليل النظافة والترتيب ولعله أراد النظافة والغسل ليوم الجمعة، وانظر: الزبيدي، **تاج العروس**، ج ٩/ ٢٥٤؛ والجوهري، **الصحاح**، ج ٥/ ٢١٤٥.

(٢) الحلبي، **السيرة الحلبية**، ج ٣/ ٣٠٦.

(٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٨٤؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٨/ ٦٣.

وقد أظهر الإسلامَ وقدم المدينة زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه عدد من فرسان قومه، ودخلوها في هيئة وزينة لافتة للنظر،[1] وقد سُرّ عمر بقدوم جبلة ومن معه مسلمين، وقد وقعت حادثة أدت إلى ردته وفراره إلى الروم.

كتابه إلى يُحَنّة بن رؤبة وزعماء أيلة:

أيلة ميناء يقع غربي خليج العقبة من ناحية فلسطين،[2] وهو مكان ميناء إيلات في فلسطين المحتلة، وكانت بلدة حضرية يقطنها خليط من السكان اليهود والنصارى، ويتزعمهم يحنّة بن رؤبة وهو من زعماء النصارى في المنطقة.

وحينما وصل الرسول ﷺ إلى تبوك أثناء غزوتها اختار وفداً بعثهم إلى أيلة، برسالة إلى زعيمها يحنّة بن رؤبة وجاء في الرسالة الموجهة إليه وإلى زعماء أيلة «إلى يحنّة بن رؤبة وسروات أهل أيلة سِلمٌ أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو فإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم، فأسلِمْ أو أعطِ الجزية، وأطع الله ورسوله ورُسُلِ رسوله، وأكرمهم وأكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغَزاء، واكسِ زيداً كسوة حسنة، فمهما رضيت رُسُلي فإني قد رضيت وقد علم الجزية، فإن أردتم أن

---

(١) انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٨/ ٦٣.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ١/ ٢٩٢؛ الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص ٧٠.

يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله وحق رسوله، وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئاً حتى أقاتلكم، فأسبي الصغير وأقتل الكبير فإني رسول الله بالحق أؤمن بالله وكتبه ورسله وبالمسيح بن مريم أنه كلمة الله، واني أؤمن به أنه رسول الله وآت قبل أن يمسكم الشر، فإني قد أوصيت رسلي بكم، وأعط حرملة ثلاثة أوسق شعيراً، وإن حرملة شفع لكم وإني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش، وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه وإن رسلي شرحبيل وأبي وحرملة وحريث بن زيد الطائي فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته، وإن لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، والسلام عليكم إن أطعتم وجهزوا أهل مقنا[1] إلى أرضهم». [2]

وقد كان هذا الخطاب فيه أمان واضح لأيلة و أهلها حال رغبوا ذلك، وفيه تهديد صريح لهم ولتجارتهم البرية والبحرية حال عصيانهم، حيث كانت مدينتهم ملتقى السفن من اليمن وغيرها ومحطة الوصول إلى الشام، فخشي يحنّة من العواقب،

---

(١) مَقنا: قرية بالقرب من أيله كان يقطنها يهود، البكري، **معجم ما استعجم**، ج١/ ٢١٧ و ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج١/ ٢٩٢ (وتوجد حالياً قرية قرب حقل شمال غرب المملكة، تسمى بهذا الاسم).

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج١/ ٢٧٧، ٢ ٧٨.

وقدم إلى رسول الله ﷺ في تبوك ومعه جماعة من أهل الشام ومن اليمن ومن سيارة البحر وتجاره، وكان يحنّة يلبس ملابس النصارى وفيها صلبان من ذهب وغيرها.[1]

وقد استقبله الرسول ﷺ ومن معه، وعقد معه معاهدة كان فيها نصّ على أمان السفن. وهذا يعني وعي الرسول ﷺ بالحركة والتجارة البحرية وأهمية تأمينها.

كانت هذه الرسائل أكبر دليل على حرص الرسول ﷺ على أداء الرسالة، وأن السلام والدعوة بالحسنى هي الأساس الأول للدعوة، وأن دعاوى انتشار الإسلام بالسيف لا صحة لها على الاطلاق.

كما أوضحت هذه الرسائل وما تبعها من أحداث اهتمام زعماء النصرانية وقوادها، وعلى رأسهم هرقل، بدعوة الرسول ﷺ، ومعرفتهم بنبوته وصدقه، وتنبّؤهم بانتشار دين الإسلام على حساب أراضيهم ومناطقهم ودياناتهم، وهذا ما حدث في زمانهم ورأوه بأعينهم سواء هرقل أم المقوقس أم كسرى وغيره.

كما تدل الرسائل على إيمان الرسول ﷺ بنصر الله لدينه رغم الإمكانات البسيطة عنده وضعف أمته بالمقاييس المادية، وتحقق وعد الله لرسوله ﷺ.

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ١/ ٢٩٠؛ الواقدي، **المغازي**، ج ٣/ ١٠٣١.

كما أنه ﷺ أختار لحمل الرسائل أقدر الناس على تحقيق أهدافها والوصول لمن أرسلت إليه، والقدرة على التخاطب معه، ومعرفة طبيعة وعقائد المجتمعات التي وجهوا إلى زعمائها، كما تحلّوا بالشجاعة والصبر والحكمة، وقد كان في أسلوب رسائله ﷺ اختصار ووضوح وتحقيق للهدف منها، واستشهاد بالآيات القرآنية الموجهة إليه ﷺ وإلى عامة الناس، خصوصاً في حديثه مع زعماء النصرانية، كما كان يُصدّرها بالبسملة، ويؤكد فيها على عبادة الله وحده لا شريك له.

وقد عرف ﷺ أن الملوك لا يقبلون كتاباً إلا بختم، فصاغ خاتماً يؤدي المهمة وفيه أدب مع الله حيث جعل لفظ الجلالة في السطر الأول وكلمة رسول في السطر الثاني ومحمد في السطر الثالث بهذا الشكل:

روى أنس بن مالك قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب كتاباً إلى الروم قيل له إنهم لا يقرأون كتاباً إلا أن يكون مختوماً فاتخذ بيضة في يده ونقش فيه (محمد رسول الله).[1]

(١) صحيح البخاري، **كتاب الجهاد والسير**، باب دعوة اليهود والنصارى، ج٣/ ٢٣٥؛ البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٤٧

وقد خرجت هذه الرسائل بالإسلام خارج بلاد العرب إلى مختلف الشعوب الأعجمية.

تعد هذه الرسائل وما حملته من مبادئ أسلوباً في التعامل الدولي وتأكيداً لعالمية الرسالة، ونقطة تحول في دولة الإسلام في زمن النبي ﷺ وعلاقاتها بالعالم.

وتدل بعض الدراسات على وجود الأصول الجلدية لبعض هذه الرسائل، التي ذكر منها رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، ورسالته ﷺ إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، ورسالته ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، ورسالته ﷺ إلى كسرى، ورسالته ﷺ إلى قيصر الروم.[1]

ورغم كتابات المستشرقين عن هذه الأصول وإجراء دراسات معينة عليها في بعض المتاحف العالمية، إلا أنه ينبغي التحفظ على ما ذكر حتى تجرى مزيد من الأبحاث والتحقيقات والمقارنات من الخبراء المختصين بها.

وهناك العديد من الكتب والرسائل من الرسول ﷺ لزعماء

---

(١) انظر: التفصيلات الخاصة بهذه الأبحاث عند أبي الحسن الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٢٩٢؛ومحمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ١١؛ وخالد سيد علي، **رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء**، ص ١٨، ٣٠، ٤٤، ٥٥، ٦٢، ويشكك د. محمد غبان في صحة الأصول المحفوظة لهذه الكتب. انظر: **الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه جمعاً ودارسة**، ص ٦٧٥.

وملوك ربما يكونون أقل أهمية ممن ذكرناهم، كما وجه عدداً منها لقبائل معينة يصعب الحديث عنها جميعاً وقد صدرت دراسات خاصة عنها ذات منهج علمي واضح.[1]

ولاشك أن ربط أحداث السيرة، بعصر الراشدين، وما جرى خلاله من فتوح بكتب الرسول ﷺ لملوك وأمراء هذه المناطق له أهمية خاصة، كما أن ربط رسائل الرسول ﷺ لأهل تلك المناطق ودخولها وأهلها في الإسلام وبقاء شعوبهم إلى اليوم الحاضر ضمن أمة الإسلام وأتباع محمد ﷺ له أهمية لكل دارس للتاريخ ولانتشار الإسلام بين أهل تلك المناطق، ولتاريخ هذه المناطق المعاصر.

فتح خيبر (ربيع الأول سنة ٧هـ):[2]

كان وفد اليهود الذين حرضوا الأحزاب على غزو المدينة قد تحرك من خيبر، كما أن يهود خيبر كانوا يخططون لغزو المدينة، وقد اتصلوا ببعض القبائل لهذا الغرض، حيث عقدوا

---

(١) انظر: ما كتبه محمد بن عبد الله غبان، **مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ، جمعاً ودراسة**، وهي رسالة علمية أعدت لدرجة الدكتوراه بقسم التاريخ بكلية الدعوة وأصول الدين بالمدينة المنورة؛ وانظر محمد حميد الله، **مصدر سابق**، وخالد سيد علي، **رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء**.

(٢) منطقة زراعية تقع شمال الحجاز، وبها مدينة حديثة حالياً، كان بها سبعة حصون لليهود زمن النبي ﷺ، انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٢/ ٤٠٩. (انظر: http://ar.wikipedia.org بتاريخ: ٣٠/ ٣/ ١٤٣٢هـ.

حلفًا مع غطفان، وأخذوا يجمعون يهود خيبر ووادي القرى وتيماء وما جاورها لضرب المدينة.[1]

وقد تأكدت هذه المعلومات للمسلمين بعد عودتهم من غزوة صلح الحديبية، حيث كان من عادة الرسول ﷺ تَسقُّط أخبار أعدائه ومتابعتها، فكانت خيبر تجمعاً لأعداء جدد، فاستعد المسلمون لهذا الأمر. وفي الوقت نفسه كان يهود خيبر، يبثون الدعاية عن قوتهم، ويشيعون أن لديهم قرابة عشرة آلاف مقاتل يعدونهم لقتال الرسول ﷺ، وأن لديهم حصونًا منيعة، كما أنهم أخذوا يهددون المسلمين ويتوعدونهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة بوساطة بقايا اليهود في المدينة وبعض المنافقين فيها.[2]

وقد كانت ظروف المواجهة مع قريش مناسبة، نتيجة لصلح الحديبية الذي اتفق فيه المسلمون مع قريش على أن تتوقف الحرب بينهم عشر سنوات، فما كان من رسول الله ﷺ والمؤمنين معه إلا أن بادروا القوات اليهودية في خيبر قبل أن تبادرهم، حيث أخذ المسلمون استعدادهم وتوجهوا إليهم مع رسول ﷺ، وكانوا ألفًا وأربعمائة مقاتل.[3]

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٣٠، ٢٧٣، ١٩١، الواقدي، المغازي، ج٢/ ٥٣١، ٦٣٤؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٤/ ١٨٠، ٤٦١.

(٢) الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٦٣٤، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ١٨١.

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ١٠٧.

وأثناء توجه المسلمين إلى خيبر، تحركت غطفان من نجد لمساعدة يهود خيبر، فعمل المسلمون على خديعتهم، حيث سربوا إليهم أخبارًا بأن بعض المسلمين قد توجهوا للإغارة على ديارهم الأصلية، فصدقت غطفان الخبر، ورجعت إلى ديارها تاركة يهود خيبر لمصيرهم،[١] وفي الوقت نفسه فإن الرسول ﷺ تعمد أن ينزل على خيبر من ناحية الشام،[٢] أي في موقع بينها وبين ديار غطفان ليقف في وجه أي احتمال لغطفان أو ليهود شمال الحجاز في الوصول إلى ساحة المعركة أو مساعدة يهود خيبر.

وصل المسلمون ليلاً قرب خيبر فعسكروا ولم يتعرضوا لهم بأذى في الليل،[٣] وعندما توجه اليهود في الصباح إلى مزارعهم فوجئوا بالمسلمين فرجعوا إلى حصونهم وهم يرددون «محمد والخميس»، يقصدون الجيش، وكان مما قال ﷺ: «خربت خيبر إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».[٤]

كانت حصون اليهود بخيبر عديدة، وقد توزع المسلمون

---

(١) ابن هشام **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٣٠، الواقدي: **المغازي**، ج ٢/ ٦٥٠، وانظر: رزق الله: **السيرة الصحيحة**، ص ٥٠١.

(٢) الصالحي الشامي: **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥ / ١٨٤.

(٣) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٥ /٤٥، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٣٠، الواقدي المغازي، ج ٢/ ٦٤٣.

(٤) البخاري، **الصحيح**، **كتاب المغازي**، باب غزوة خيبر، حديث رقم: ٤١٩٧، ٤٢٠٠.

عليها لمحاصرتها، وكانوا يترامون بالنبل مع يهود خيبر حتى أصيب عدد من المسلمين جراء ذلك.[١]

كان الرسول ﷺ حريصًا على معرفة أحوال الحصون المحاصرة.[٢] وكان حصن النظاة وهو أحد حصون خيبر لا يوجد به سوى عدد قليل من المدافعين، وعلم الرسول ﷺ أنه مليء بالأسلحة والمؤن، وأن بداخله منجنيقًا ودبابة، فإن فتحه المسلمون فستساعدهم تلك الآلات على فتح بقية الحصون، فركز المسلمون حصارهم وهجومهم على هذا الحصن حتى تمكنوا من فتحه، فوجدوا فيه الأطعمة والمؤن ما أعانهم على أعدائهم، كما أنهم استفادوا مما فيه من أسلحة مختلفة في هجومهم على بقية الحصون الأخرى.[٣]

وقد فتح المسلمون الحصون الواحد تلو الآخر، ومن ضمنها حَصْنا ناعم والصعب.[٤]

وقد استعصى حصن (القموص) على المسلمين، فبشر الرسول ﷺ بفتحه في ما روي عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٣٤، الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٦٤٣، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ١٨٦.

(٢) الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٦٤٧، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٥/ ١٩١.

(٣) الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٦٤٧.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ / ٣٣١، ٣٣٢، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/ ١٨٧.

الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها.

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال أين علي بن أبي طالب؟ فقيل يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال ﷺ: فأرسلوا إليه، فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال عليه الصلاة والسلام: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعم». (١)

وقد فتح الله على عليٍ رضي الله عنه كما أخبر رسول الله ﷺ، وتساقطت بقية حصون خيبر واحدًا تلو الآخر، مما اضطر اليهود آخر الأمر أن يفاوضوا رسول الله ﷺ، واستسلموا للمسلمين على أن تحقن دماؤهم ويسمح لهم بالخروج من خيبر. (٢) وبعد أن وقع الصلح بينهم والمسلمين على رحيلهم اتفق المسلمون معهم على أن يعمل يهود خيبر بالنخيل والمزارع، على أن لهم

---

(١) صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٥٧ ـ ٥٨؛ انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٣١٥.

(٢) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٥٧.

نصف الثمرة، وأن من حق المسلمين الاستغناء عنهم وإجلاؤهم متى شاؤوا.[1] وكانت نتيجة هذه الغزوة استشهاد عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ومقتل ثلاثة وتسعين من يهود خيبر وقد استمر حصار وقتال أهل خيبر بضعة عشر يومًا.[2]

وبعد أن سالم يهود خيبر رسول الله ﷺ حاولت امرأة منهم أن تسم رسول الله ﷺ عن طريق لحم شاة مطبوخة أهدتها إليه، ولكن الله سلمه منها.[3]

وقد ذكر أن وفاته ﷺ بعد ذلك بسنوات كانت من أثر ذلك السُم، فقد روى ابن هشام: «وقد قال في مرضه الذي توفي فيه ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده: يا أم بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلتُ مع أخيك بخيبر، قال: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة».[4]

وبعد أن فتح المسلمون خيبر ورتبوا أمورها توجه رسول

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣ / ٣٣٧؛ الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٦٩٠، ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٥٧.

(٢) انظر أسماء الشهداء عند ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٣٤٣.

(٣) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٢/ ٢٦١؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣ / ٣٣٧؛ الواقدي، **المغازي**، ج ٢ / ٦٧٧؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى** والرشاد، ج ٥/ ٢٠٨.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٣٨، وانظر: **وفاة النبي** ﷺ من هذا الكتاب.

الله ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى وادي القرى فاستقبلوا المسلمين بالرمي، فأصيب خادم لرسول ﷺ من جراء رميهم، فقاتلهم المسلمون، وفتحوا بلدهم عنوة وأبقاهم الرسول ﷺ على العمل في النخل بالنصف كفعله مع أهل خيبر.[1] فلما بلغت أخبار خيبر ووادي القرى بقية مناطق شمال الحجاز بادرت إلى مصالحة النبي ﷺ، وخصوصًا فَدَك وتيماء وأيلة وغيرها.[2]

عمرة القضاء:[3]

وتسمى عمرة الصلح، كان من بنود صلح الحديبية رجوع الرسول ﷺ عامَه ذاك (وإذا كان عامك قابلاً خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٣٨؛ الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٧٠٩؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٢٢٩.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٥٣، الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٧٠٦؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٢١٤.

تيماء: بُليدةٌ صغيرة بين الشام ووادي القرى على طريق الحج الشامي وهي (بلد حاضرة إلى اليوم). انظر: البكري، **معجم ما استعجم**، ج١/ ٣٢٩، وياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٢/ ٦٧.

أيلة: تقع شمال بلاد الشام وهي ميناء على خليج العقبة وتسمى حالياً إيلات (انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج١/ ٢٩٢).

فَدَك: من أعمال المدينة بينها وبين خيبر مسيرة يومين، تسمى (الحويط)، حالياً من أعمال حائل (انظر: البكري، **معجم ما استعجم**، ج ٣/ ١٠، ١٥).

(٣) وضع البخاري في **صحيحه** باباً بعنوان: «عمرة»، **كتاب المغازي**، ج ٤/ ٨٤.

في القُرَب لا تدخلها بغيره).[1] وكان ﷺ قد وعد أصحابه دخول مكة حين ذهب معهم في غزوة الحديبية بناءاً على رؤيا رآها الرسول ﷺ. وقد أشارت الآيات إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ٢٧]. كان بعلم الله وأمره تقديم فتح قريب وهو فتح خيبر[2] على دخوله ﷺ مكة معتمراً.

وفي شعبان من السنة السابعة للهجرة بعد استكمال سنة من صلح الحديبية أمر ﷺ بأن يخرج معه معتمراً من شهد الحديبية، فخرج من عاش منهم وخرج آخرون حتى وصل عددهم ألفي معتمر، سوى من معهم من النساء والصبيان وحمل ﷺ السلاح الخفيف المذكور في الصلح، وساق الهَدْي وأحرم مع أصحابه، وقاد معه مائة فرس احتياطاً، ولم يظهر أي شكل للقتال، بل كان خروجاً سلمياً، فيه تلبية وتكبير وإحرام.[3]

وقدّم الرسول ﷺ محمد بن مسلمة بالخيل إلى مر الظهران، فلما رأته قريش علمت أن رسول الله ﷺ قادم، وحين وصوله ﷺ ترك السلاح في وادٍ قرب التنعيم[4] وأخلت قريش له

---

(١) انظر: صلح الحديبية.

(٢) انظر: فتح خيبر.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٧٠.

(٤) التنعيم، مكان معروف على طريق المدينة حالياً، وبه مسجد عائشة، =

مكة، وصعدوا في الجبال يتفرجون على الرسول ﷺ. وكان عبدالله بن رواحه أخذ بناقة رسول الله ﷺ وهو يدخل مكة في مظهر يدل على احترام المسلمين وتقديرهم وحمايتهم لرسول الله ﷺ ويردد أبياتاً منها:

خلُّوا بني الكُفّار عن سبيله
خلُّوا فكل الخير في رسوله

يا رب إني مؤمن بقِيلِه
أعرف حق الله في قبوله

نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله

ضرباً يزيلُ الهامَ عن مُقيله
ويذهِلُ الخليلَ عن خليله[1]

وقد أشاعت قريش أن رسول الله ﷺ به ضعف، فعمد إلى ما يريهم صحته وصحة أصحابه وقوة أجسادهم بما يغيظ أعداءهم.

روى البخاري عن ابن عباس قال: صفّوا له عند دار الندوة

= حيث يحرم منه المعتمرون من داخل مكة اليوم. البلادي، **معجم الأماكن الواردة في السيرة، ص 65**.

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٧١.

لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: رحم الله امرأءاً أراهم اليوم من نفسه قوة، ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا جاء واراه البيت منهم، واستلم الركن اليماني، مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرها، فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش للذي بلغه عنهم، حتى إذا حجّ حجة الوادع فلزمها فمضت السنّة بها). (١)

وبعد أن أدى العمرة تزوج الرسول ﷺ ميمونة بنت الحارث ولم يبنِ بها، وبقي بمكة ثلاثة أيام، وفي نهايتها جاءه حويطب ابن عبد العزى في نفر من زعماء مكة وطلبوا منه الخروج فقال ﷺ: «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا، فخرج رسول الله ﷺ وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسِرْفٍ، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة». (٢)

وعند خروج الرسول ﷺ من مكة لحقت به ابنة عمه

---

(١) ابن هشام، **السيرة**، ج ٣/ ٣٧١، انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب المغازي**، باب عمرة القضاء، ج ٥/ ٨٦.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٧٢.

حمزة، وكانت يتيمة فأخذ بيدها علي ﷺ وأعطاها فاطمة وقال لها دونك ابنة عمك احمليها، فحرص كلٌّ من جعفر وزيد بن حارثة أن يضموها إليهم، حتى تنازعوا مع علي بن أبي طالب ﷺ كل منهم يريد ضمها والنفقة عليها، واختصموا عند رسول الله ﷺ كل يريد أجر برها والإحسان إليها وتربيتها، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر لوجود خالتها عنده، وقال «الخالة بمنزلة الأم» (١)

ولعل في هذا إشارة إلى أن حنان الخالة قريب من حنان الأم، وستكون الصغيرة عند خالتها أكثر راحة وأماناً.

غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨هـ): (٢)

مع فتح خيبر كتب رسول ﷺ كتبًا إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوة الله. وكانت إحدى هذه الرسائل موجهة إلى حاكم [بصرى] بالشام، وقد أعطى الرسول ﷺ هذه الرسالة إلى الحارث بن عمير الأزدي ليحملها إلى ملك بصرى من قبل [هرقل] (الحارث بن أبي شمر الغساني)، لكن أحد أمراء غسان في الشام ويدعى (شرحبيل بن عمرو الغساني) قبض على

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، باب عمرة القضاء، ج٥/ ٨٥.

(٢) وضح ابن أبي شيبه في **المغازي عنواناً** «ما حفظت في بعث مؤته»، ص ٣٦٦.
وانظر: أبو مايلة العُمري، بريك بن محمد بن بريك، **غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية**، ط١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدبنة المنورة، ١٤٢٤هـ.

مبعوث النبي ﷺ، فلما علم أنه يحمل رسالة من النبي ﷺ قتله، مع أن الرسل لا تقتل عادة. [١]

ولما علم النبي ﷺ بمقتله غضب، وجمع جيشًا قوامه ثلاثة آلاف من المسلمين، وأمرَّ عليهم مولاه زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن قتل فعبد الله بن رواحه رضي الله عنه، [٢] فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم. [٣]

وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه مع الجيش حديثَ عهدٍ بالإسلام جنديًا في صفوف المجاهدين، وأمر الرسول ﷺ الجيش بالتوجه إلى أطراف الشام ولتأديب وتهييب القبائل النصرانية العربية، وإظهار قوة المسلمين والعودة مرة أخرى إلى المدينة، وقبل أن يتحرك الجيش التقى بهم رسول الله ﷺ وأمرهم بتقوى الله، وذكّرهم بتعاليم دينهم في الحرب، ثم سلّم الراية إلى زيد ابن حارثة رضي الله عنه وشيّعهم وودّعهم. [٤]

---

(١) انظر: الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٥٧٥، ٥٧٦؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٢/ ١٢٨،

(٢) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٩٨؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٧٣؛ وابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٣٦٧.

(٣) الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٧٥٦؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٢/ ١٢٨.

(٤) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٧٣؛ الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٧٥٦، وانظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ١٦/ ١٢٨.

وسلك الجيش طريقه إلى أطراف بلاد الشام.[1] هذا يعني تحرشاً مباشرًا لأول مرة بمملكة الروم وحدودها. وقد علم الروم والغساسنة بتحرك الجيش فأعدوا له جيشًا آخر لمقابلته، اشترك فيه مُتنصِّرةُ العرب من لخم وبهراء وجُذام وبلي، وكان ذلك الجيش يزيد على مائة ألف مقاتل، وقد عسكرت جيوش الروم في أرض البلقاء في الأردن حاليًا، وقد علم جيش المسلمين بذلك التجمع، فأرادوا أن يكتبوا للرسول ﷺ لعله يمدهم بمزيد من المجاهدين،[2] لكن الوقت قصير والعدو قريب ولن يمهلهم، وأبطال المسلمين يشجع بعضهم بعضًا على القتال، فالتقوا مع الروم في مكان يسمى مؤتة،[3] فقاتلوا قتال الأبطال، وكان حامل الراية زيد ين حارثة رضي الله عنه «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ عبد الله بن رواحة فأصيب»،[4] فأخذ الراية أحد الأنصار ودعا الناس إلى الاجتماع، ثم دفع الراية إلى خالد بن الوليد،[5] الذي تمكن بعون الله ثم بخبرته العسكرية من إعادة تنظيم صفوف

---

(١) وضع البخاري في صحيحه بابًا سماه: (باب غزوة مؤتة من أرض الشام)، انظر: **فتح الباري**، ج ١٦/ ٩٧.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣ / ٣٧٥؛ الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٧٦٠.

(٣) تقع مؤتة في بلاد الأردن حاليًا، ولمزيد من التفصيلات راجع علي الغيوم، **تجربة مؤتة**، مكتبة الرسالة، عمان الأردن، ١٤٠٦هـ.

(٤) من رواية البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦ / ١٠٠.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٣٧٩.

المسلمين، وقيادتهم في القتال، ومن ثم الانسحاب بهم في خطة محكمة (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم،[1] وقد جنّب المسلمين المزيد من الخسائر، فرغم الفارق الكبير بين جيش الأعداء وجيش المسلمين فإن خسائر المسلمين كانت خمسة عشر شهيدًا،[2] وهذا في تصوري يعد نصرًا للمسلمين، مقارنة بموازين القوى في المعركة، وقد كان الرسول ﷺ يثني خيرًا على أولئك الشهداء ويقول عنهم: «ما يسرني أو يسرهم أنهم عندنا».[3]

وقد عاد الجيش بعد ذلك إلى المدينة، يقوده سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث كانت هذه أول معركة جهادية له في صفوف المسلمين بعد إسلامه، وقد أخبر الرسول ﷺ أهل المدينة بما جرى قبل وصول الجيش، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس، قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان ـ ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم».[4] وهي فتح كما سماها رسول الله ﷺ.

---

(١) من رواية البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦ / ١٠١.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٨٨، الواقدي، **المغازي**، ج٢/ ٧٦٩.

(٣) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٢/ ١٥٢.

(٤) من رواية البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٠٠.

وقد حزن ﷺ على وفاة جعفر وغيره ودعا لهم: «اللهم اخلف جعفراً في أهله بأفضل ما خلفت عبداً من عبادك الصالحين». [١] فتزوج بعد ذلك أبو بكر الصديق من أسماء بنت عميس زوجة جعفر واحتضن أولاده من بعده ثم تزوجها بعد ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه واحتضن أولادها من جعفر وأبي بكر. [٢]

وعند قدوم الجيش إلى المدينة استقبلهم أهلها، وقد سمع الرسول ﷺ بعضهم يقول لهم: يا فرارون أفررتم وأنتم في سبيل الله؟ فقال ﷺ: ليسوا بفُرّار ولكنهم كُرّار إن شاء الله. [٣] وكانت لهم كَرّة وأي كَرّة، وذلك في فتوح الشام في اليرموك على يد خالد بن الوليد وأمثاله رضي الله عنه، ممن شارك في معركة اليرموك وتحطيم قوى الروم، وفتح دمشق وبيت المقدس وغيرها من بلدان الشام المباركة.

أخبر الرسول ﷺ بفضل شهداء مؤتة، وكان يرى أسامة بن زيد بعد وفاة أبيه زيد فيرق له وتدمع عيناه، وكذلك حينما يرى أبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد أخبر ﷺ أنهم من الشهداء، من أهل الجنة، وأخبر أن لجعفر جناحين في الجنة فعرف في الأمة بهذه الصفة. [٤]

---

(١) ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ٣٧٠.

(٢) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج٤/ ٢٣١.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٨٢، الواقدي، **المغازي**، ج ٢/ ٧٦٥.

(٤) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٧٤، ٣٧٥؛ وابن سعد، **الطبقات**، ج٤/ ٤١.

فتح مكة (٢٠ رمضان سنة ٨هـ):

كان ضمن شروط صلح الحديبية «أن من شاء أن يدخل في عقد محمد دخل فيه، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل فيه»، فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ، ودخلت بَكر في عقد قريش،[١] فاعتدت بكر على خزاعة وساعدتهم في ذلك قريش، فعُد هذا نقضاً للعهد من قبل قريش، وقد جاء أحد زعماء خزاعة وهو عمرو بن سالم الخزاعي فأنشد الرسول ﷺ أبياتًا يستحثه فيها على العهد ومساعدتهم بناءً على العهد، وخصوصاً أن قريشاً ساعدت حلفاءها. وهذا اعتداء على حلفهم مع المسلمين.

وكان مما قال:

يا ربّ إني ناشدٌ محمـــــدا حِلفَ أبينا وأبيه الأتلـــدا[٢]

فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادعُ عباد الله يأتوا مددا

إلى آخر القصيدة، فقال ﷺ: نُصِرت يا عمرو بن سالم،[٣]

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣١٨؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٢٦.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٤؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٢٧، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٣٠٨؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٢٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٣٩٥، ابن كثير: السيرة النبوية ج٣/ ٥٢٧، (وانظر إلى تخريج د. أكرم العُمري لها في السيرة النبوية الصحيحة ج ٢/ ٤٧٣).

ثم جاء وفد آخر من خزاعة يطلب مناصرة النبي ﷺ فوعدهم، ثم إن قريشًا أحست بالخطر، وجاء زعيمها (أبو سفيان بن حرب) إلى المدينة ليجدد العهد مع النبي ﷺ، فدخل بيت ابنته أم المؤمنين (حبيبة بنت أبي سفيان)، حيث كان صهرًا للنبي ﷺ، فلما دخل حجرة ابنته أم المؤمنين، أم حبيبة، وأراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ رفعته أم حبيبة عنه، فقال أبو سفيان: يا بنيه ما أدري أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر. ثم إن أبا سفيان أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه،[1] ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه ليتوسط له عند النبي ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم كلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أنا اشفع لكم عند رسول الله ﷺ؟ والله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به، ثم أتى عليًا وعنده فاطمة (رضي الله عنهما) والحسن بن علي بينهما غلام صغير، فقال له علي: والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه، فقال لفاطمة (رضي الله عنها): يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت ما بلغ ابني هذا أن يجير الناس، فلما اشتد عليه قال لعلي رضي الله عنه: انصحني فقال

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٧.

له علي: أنت سيد كنانة فقم فأَجِرْ بين الناس، ثم ألحق بأرض قومك: قال أو ترى ذلك يغني عني شيئًا؟ قال علي ﷺ: لا ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد وقال إني قد أجَرْتُ بين الناس، فلما قدم مكة قال له أهلها ما زاد عليٌّ على أن سَخِر بك.[1]

ثم إن رسول الله ﷺ جهز الناس للغزو، وكان حريصًا على أن لا تعلم قريش بخبر تحركه، وأرسل إحدى سراياه الطلائعية إلى جهة غير مكة حتى يظن الناس أنه يجهز لتلك الجهة، وفي الوقت نفسه أخبر خاصّةَ أصحابه أنه متوجه إلى مكة وطلب منهم أن يكتموا الخبر، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها.

وخرج الرسول ﷺ إلى مكة في رمضان وخرج معه خمسة آلاف من المهاجرين والأنصار، ولحقت به جموع مسلمة من قبائل مزينة وسُليم وغِفار وجُهينة وتميم وأسد، حتى كان مجموع جيشه حين وصل قرب مكة عشرة آلاف مقاتل،[2] نزل بهم رسول الله ﷺ مر الظهران.

وقابل العباس بن عبد المطلب ﷺ الرسول ﷺ وهو في

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٦، ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٣١؛ ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ٣٢٦.

(٢) من رواية البخاري، ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١١١، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٤٠٠، ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ١٣٥.

الطريق إلى مكة مظهرًا إسلامه،[1] وقيل إنه كان يكتم إسلامه قبل ذلك بوقت طويل، وله ومواقفه مع النبي ﷺ منذ بيعة العقبة الثانية تدل على ذلك،[2] وكان العباس حريصًا على إسلام قومه، فركب بعد ذلك بغلة النبي ﷺ وأخذ يبحث عن من يبعثه إلى قريش في مكة لعلهم يأتون النبي ﷺ يأمنونه أو يسلمون، وكان ﷺ قد أمر المسلمين أن يكثروا نيرانهم ــ وكانوا في الليل ــ ليرعبوا أهل مكة حتى لا يقاتلوا، فأشعلت قرابة عشرة آلاف نار في وقت واحد،[3] فلما رأتها قريش خرج أبو سفيان ليستطلع الخبر وكان زعيمها، فلقيه العباس رضي الله عنه عم النبي ﷺ فأمّنه، ثم أتى به النبي ﷺ فأمضى تأمين العباس إياه، فلم يعرض له المسلمون بشر، وفي الصباح جاء به العباس رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فأعلن إسلامه، ثم إن العباس قال للنبي ﷺ: إن أبا سفيان يحب الفخر عند قومه فلو أمّنت من دخل داره.[4]

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠٢، ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٤٣؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٢٩.

(٢) انظر: ابن عبد البر: **الاستيعاب** (بهامش الإصابة ج ٣/ ٩٥)، ابن حجر، **فتح الباري**، ج١٤/ ٢٢٣؛ **الإصابة**، ج ٢/ ٢، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ٧٨.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٤٧، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٥ /٣٢٥، ٣٢٤؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٣٢١.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠٣؛ ابن كثير؛ **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٤٨، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٣٣٠.

وكان النبي ﷺ حريصًا أشد الحرص على أن يكون دخوله إلى مكة سلميًا، وأن لا يراق دم، ولذا فعند دخوله مكة قسم جيشه إلى أربعة أقسام تدخل من جهات مكة الأربع، مظهرة قوتها، وكافّةً عن الناس، حتى يستسلم أهل مكة للأمر الواقع ويسلموا بسلام، وفي الوقت نفسه أعلن الرسول ﷺ: «أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»،[1] وبذلك أتاح كل فرص الأمان لمن رغب فيه، ودخل رسول الله ﷺ مكة بسلام ورُكّزت رايته في الحُجون.[2]

ولقد لقيت كتيبة خالد بن الوليد رضي الله عنه المسلمة بعض المقاومة من مقاتلي قريش المشركين التي سرعان ما سقطت،[3] وفر المشاركون فيها إلى بيوتهم أو إلى خارج مكة. وكان دخول رسول الله ﷺ دخول المتواضعين لله حيث كان مطأطئ الرأس خاشعًا لله تعالى،[4] وكان يقرأ

---

(١) البخاري، **فتح الباري**، ج١٦/ ١٢٢؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٤٩؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٣٣٠؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٤٤.

(٢) البخاري، **فتح الباري**، ج ٦ /١١٨.

(٣) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١١٩؛ ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠٧، ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٥٦٠؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٢٩.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠٥؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٥٥؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٣٤٢.

سورة الفتح،[1] ثم توجه إلى الكعبة وطاف بالبيت سبعة أشواط ثم قال ﷺ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مأثرة فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سَدَانة البيت وسِقاية الحاج، ثم قال: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرًا أخٌ كريم وأبن أخ كريم. فقال ﷺ قولته المشهورة: اذهبوا فأنتم الطُلَقاء.[2] ثم دعا بسادن الكعبة فأخذ منه المفتاح ففتحت له الكعبة،[3]فوجد بها صورًا فأمر بها فطُمست، ثم دار على الأصنام في الحرم، وكانت ثلاثمائة وستين صنمًا ــ بما يقارب عدد أيام السنة ــ وكان يشير إليها ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فأسقطها جميعًا وأمر بها فحطمت.[4]ولم يدع رسول الله ﷺ شيئاً من الأصنام إلا حطمة ولا صوراً إلا مسحها.[5]

---

(١) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/١٢٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٥٥٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، ج ١٦/١٢٩؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٤١٢، ٤١١؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٣/ ٥٧٠؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٣٦٤.

(٣) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/١٢٨؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٢٣.

(٤) رواه البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/١٢٧؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٣٣.

(٥) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤١.

وقد ورد عن ابن أبي شيبة بسند صحيح أن النبي ﷺ دخل مكة حين دخلها وهو معتمر بشقة بُردٍ أسود، فطاف على راحلته القصواء وفي يده محجن يستلم به الأركان، فما وجَدْت لها مناخاً في المسجد حتى نزل على أيدي الرجال، ثم خُرج بها حتى أنيخت بالوادي، ثم خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: (أيها الناس إن الله قد وضع عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها)، الناس رجلان فَبَرٌّ تقيّ كريم على الله، وكافر شقي هيِّن على الله، أيها الناس إن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٣ ـ ١٤]، أقول هذا واستغفر الله لي ولكم، ثم عدل إلى جانب المسجد، فأتى بدلو من ماء زمزم فغسل بها وجهه ما تقع قطرةٌ إلا في يد إنسان، إن كانت قِدرِ ماءٍ يَحسُوها، وإلا مسح بها، والمشركون ينظرون فقالوا: ما رأينا ملكاً قطُّ أعظم من اليوم، ولا قوماً أحمق من القوم. ثم أمر بلالاً فرقى على ظهر الكعبة، فأذَّن بالصلاة، وقام المسلمون فتجردوا في الأُزُر وأَخْذِ الدِّلاء وارتجزوا على زمزم يغسلون الكعبة ظهرها وبطنها، فلم يدعوا أثراً من المشركين إلا محوه أو غسلوه.[1]

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٤١.

وفي هذه الرواية وصف دقيق لأفعال الرسول ﷺ وخطبته بعد الفتح.

ثم بايع الرسول ﷺ من بايع من الرجال على الإسلام، ثم بُويعت النساء على الإسلام وعلى شروط أخرى خاصة بهن،[١] وحين حضرت صلاة الظهر رفع بلال صوت الحق من على ظهر الكعبة معلنًا الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. وقد كره بعض حديثي الإسلام من قريش رؤيتهم وسماعهم لذلك، ثم ندموا على ما قالوا بعد أن حسن إسلامهم.[٢] وهكذا تطهّرت مكة من الشِّرْك وانتهت قوتها المعاندة للإسلام، وأصبحت إحدى مدن المسلمين، بل أهمها، حيث نظّمها رسول الله ﷺ وعين عليها عتاباً ابن أسيد أميرًا.[٣]

وقد اهتم رسول الله ﷺ بتعليم أهل مكة الإسلام، حيث بقي عندهم تسعة عشر يومًا،[٤] غادر بعدها لملاقاة قبيلتي ثقيف وهوازن اللتين استعدتا لقتال رسول الله ﷺ بعد أن فتح مكة، وقد كان فتح مكة سببًا عظيماً في خفة حدّة العرب في حرب الإسلام، حيث دخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا،[٥]

---

(١) الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٣٧١.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤١٣، ابن كثير: **السيرة النبوية**، ج٤/ ٥٧٥، الصالحي الشامي: **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٣٧٢.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٥/ ٤٤٦؛ و ابن حجر، **الإصابة**، ج٢/ ٤٥٢ والطبري، **تاريخه**، ج٣/ ١٦٢

(٤) صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٣٢.

(٥) انظر البخاري: **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٣٤.

بعد دخول قريش فيه وسقوط أقوى قوى الشرك المعادية للإسلام. وصدق الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

غزوة حنين والطائف (شوال سنة ٨هـ):[١]

تأهبت هوازن، وعلى رأسها ثقيف، لملاقاة المسلمين بعد أن فتحوا مكة، وخرجت معهم غطفان وغيرها، وأخذوا معهم بنيهم وذراريهم ليصمدوا في القتال ومواجهة النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين،[٢] وتأكد الرسول ﷺ من صحة الخبر، فخرج بجيش الفتح وهم عشرة آلاف مقاتل «كما خرج معه ﷺ عشرة آلاف من الطلقاء»[٣] مُسلِمَةُ الفتح ـ حتى أن بعضهم أغتروا بكثرتهم وقالوا: لن نُغلَب اليوم من قلة، واستعار الرسول ﷺ أسلحة من يعلى بن أمية عارية مضمونة، وكان من المؤلّفة قلوبهم، ثم أعادها إليه بعد الغزوة وشكره على ذلك.[٤]

---

(١) عقد البخاري بابًا سماه باب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ انظر: **فتح الباري**، ج ٥/ ٩٨؛ كما وضع باباً سماه «باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان»، ج ٥/ ١٠٢؛ ووضع ابن أبي شيبة عنوان «ما ذُكروا في الطائف، ص ٣٥٩، وعنواناً آخر «غزوة حنين وما جاء فيها»، ص ٣٧٨.

(٢) انظر: البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٧٢؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٤٣٨.

(٣) صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٧٢.

(٤) انظر: تخريج ذلك عند: رزق الله، **السيرة النبوية**، ص ٥٨٣.

كانت هوازن قد اجتمعت في حُنَيْن يتزعمها مالك بن عوف، وقد أمر قومه أن يحملوا نساءهم وأموالهم حتى يكون ذلك دافعًا لهم على الثبات عند اللقاء، وقد عاب عليه دريد بن الصُمّة وكان مع هوازن شيخًا لا يغني شيئًا،لكنه صاحب حكمة، وكان مما قال له: إنها إن كانت لك لم تنفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك.[1]

ودخل المسلمون وادي حنين، ولم يكونوا يعلمون أن القوم قد كمنوا لهم، وذلك في مطلع الصبح، وكان جيش المسلمين كثيفاً، وفيه من القبائل والطُلقاء وغيرهم أكثر مما فيه من المهاجرين والأنصار، وقد فوجئت جموع المسلمين بهجوم مباغت من هوازن، فتفرقت طلائعهم وخصوصًا تميم والطلقاء من أهل مكة واضطربت صفوف الجيش، فثبت رسول الله ﷺ ومعه بعض المهاجرين والأنصار، منهم عمه العباس وأبو بكر وعمر وعلي (رضي الله عنهم)، وانحاز ﷺ يمين الجيش وجعل ينادي «فنادى نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال يا معشر الأنصار، قالوا لبيك يا رسول الله، أبشرْ نحن معك. ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر الأنصار، قالوا لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: أنا عبدالله ورسوله،[2] أيها الناس هلموا إليّ أنا رسول الله أنا

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٤٣٨؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٥/ ٤٦٠.

(٢) رواه البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٧٢.

محمد بن عبد الله، ثم أمر الرسول ﷺ عمه العباس وكان جهور الصوت أن ينادي يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، وكان ﷺ ينادي «أنا النبي لا كَذِبْ أنا ابن عبد المطلب»،[١] فلما سمع المهاجرون والأنصار النداء أجابوا لبيك لبيك، فاجتمعوا على رسول الله ﷺ فاستقبل بهم الأعداء. واشتد القتال بين المسلمين وهوازن حتى قال ﷺ «الآن حمي الوطيس»،[٢] فهو أول من قالها.[٣] وقاتل المسلمون مع رسول الله ﷺ قتال الأبطال، وأخذ الرسول حفنة من التراب فرمى بها وجوه القوم وهو يقول: «شاهَتِ الوجوه»،[٤] فانهزموا. وبعد وقت قصير تأكدت الهزيمة في صفوف الأعداء ورجع المسلمون بالأسرى والغنائم،[٥] وقتل من الأعداء ما يزيد على سبعين رجلاً، واستشهد جماعة من المسلمين.[٦]

وأرسل الرسول السرايا لملاحقة المهزومين، والقضاء عليهم أو تفريق قوتهم، ونجحت بعوث الرسول ﷺ وأمر ﷺ

---

(١) من رواية البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٤٣؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٤٤٥، ٤٤٤؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٥/ ٤٧١؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٧٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ج ٤/ ٤٤٥، وانظر: تخريجها في رزق الله، **السيرة النبوية**، ص ٥٨.

(٣) انظر: السهيلي، **الروض الأنف**، ج ٤/ ١٣٨.

(٤) رواه مسلم، انظر: رزق الله، **السيرة النبوية**، ص ٥٨٩.

(٥) انظر: البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٧٢.

(٦) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٤٩.

بالغنائم والسبايا والأسرى فجمعوا بالجُعرانة.[1] وبعد أن هدأت الأمور واصل الرسول ﷺ مسيرته إلى الطائف، وهي المقر الرئيسي لثقيف التي جمعت بقية هوازن على حرب رسول الله ﷺ.

وكانت الطائف محصّنة بالأسوار التي تطيف بها وهي سبب تسميتها،[2] ولذلك لم يتمكن الرسول ﷺ من اقتحامها، فحاصرها نيفًا وعشرين ليلة،[3] ونصب عليها المنجنيق الذي أشار به سلمان الفارسي، ورماها به لكنه لم يؤثر في أهلها،[4] واستشهد مجموعة من الصحابة من رَمي أهل الطائف للمسلمين بالنبال وغيرها.

وقد حاول نفر من المسلمين اقتحام الأسوار عن طريق دبابة

---

(١) انظر: ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٦٢؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٤٨٨؛ (والجِعْرَانه: شرقي مكة، ترتبط بطريق الطائف ـ السيل السريع، بطريق فرعي يظهر لمن ينظر على الطريق)؛ البلادي، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، ص ٨٣.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤/ ٩؛ وانظر: د. عبد الجبار منسي العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، ص ١٦.

(٣) وقد رأى قوم غير ذلك في مدة الحصار، انظر: الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٥/ ٥٦٥؛ د. أكرم العُمري، **السيرة الصحيحة**، ج٢/ ٥٠٧، رزق الله، **السيرة النبوية**، ص ٥٩٦.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٤/ ٤٨٣، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٥/ ٥٦٠، وانظر: د. أكرم الضياء العُمري، **السيرة الصحيحة**، ج ٢/ ٥٠٩؛ رزق الله، **السيرة النبوية**، ص ٥٩٥.

صنعوها من الخشب والجلود، احتموا داخلها واقتربوا بها من الأسوار فرمى عليها أهل الطائف قطع حديد محماة فأحرقت الجلود وأثرت في الخشب فخرج من بداخلها من المجاهدين، فرموهم من على الأسوار بالنبال فقتلوا منهم رجالاً.[1] ونزل بعض رقيق أهل الطائف إلى المسلمين فأعلنوا إسلامهم فأعتقهم الرسول ﷺ.[2] ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن طال الحصار أُخبر أنه لم يُؤذن له في فتح الطائف، ورحل وتركها لا يأسًا منها ولكن طمعًا في أن يأتي أهلها مسلمين طوعًا من تلقاء أنفسهم، حيث دعا لهم قائلاً «اللهم اهدِ ثقيف»،[3] وتوجه الرسول ﷺ إلى مكة وتوقف في الطريق بالجعرانة، حيث مقر الغنائم والأسرى والسبايا من هوازن وأحلافهم، وفي الجعرانة انتظر رسول الله ﷺ اتصالاً من هوازن أو توبة عما جرى منهم مع المسلمين، وبعد عدة أيام من الانتظار قسم رسول الله ﷺ الغنائم والسبي على المسلمين. ثم جاءت وفود هوازن معلنة إسلامها وتوبتها عما بدر منهم في حق رسول الله ومن معه من المسلمين وطلبوا من الرسول ﷺ أن يردّ عليهم أموالهم

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٨٣؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج٥/ ٥٦١؛.

(٢) انظر: صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٦١؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٤٨٥؛ الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٥٦٢.

(٣) انظر تخريجها عند رزق الله، **السيرة النبوية**، ص ٥٩٦.

وأولادهم، وقال أحد شعرائهم قصيدة طويلة يستشفع فيها برسول الله ﷺ مطلعها:

أمنُنْ علينا رسولَ الله في كرمٍ فإنك المرءُ نرجوه وندخر[1]

فخيّرهم الرسول ﷺ بين أن يأخذوا أموالهم، أو أولادهم ونساءهم، فاختاروا الأولاد والنساء «فقال ﷺ: معي من ترون، وأحَبُّ الحديث إليّ أصْدَقُه، وقد كنت استأنَيْت بكم». وكان أنْظَرَهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍّ لهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام رسول ﷺ فأثنى على الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يُطيّب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيَّبنا لك ذلك يا رسول الله».[2]

وقد بادر المسلمون بالتنازل عن نصيبهم من السبي تقليدًا لرسول الله ﷺ، ثم أوصى الرسول ﷺ هوازن، وقال لهم: أخبروا مالك بن عوف ــ زعيم هوازن ــ إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله ومائة بعير، فخرج من الطائف سرًا وأتى رسول

---

(١) انظر القصيدة: عند الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٥٧١.

(٢) من حديث البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٤٥ ـ١٤٧.

الله ﷺ فأسلم وحَسُن إسلامه وعينه الرسول على من أسلم من القبائل التي حول الطائف، وأصبح يغير بهم على سَرْح مُشرِكي ثقيف حتى ضيق عليهم.[1]

وحينما قسم الرسول ﷺ الغنائم أعطى منها القبائل والمؤلَّفة قلوبهم من مُسلِمةِ الفتح وغيرهم، ولم يعط الأنصار منها شيئًا، فوجد بعضهم في نفسه فجمعهم الرسول ﷺ منفردين، وخطبهم وكان مما قال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي؟ وكنتم عالةً فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله آمن. قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله؟ قال: لو شئتم لقلتم كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وسلكوا شِعبًا لسلكتُ وادي الأنصار وشِعبها، الأنصار شعار والناس دِثار».[2] فبكى القوم حتى أَخَضلوا لحاهم وقالوا: «بلي رضينا برسول الله قسمًا وحظاً وتفرقوا».[3] ثم أحرم الرسول ﷺ معتمرًا من الجعرانة، ودخل مكة، وبقي بها عدة أيام، غادر

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٩١؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٦٨٣.

(٢) من رواية البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٦٣ ـ ١٩٦؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٨٧.

(٣) انظر: البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٧١، وشرح ابن حجر لما في الحديث؛ وابن الأثير، **الكامل**، ج ٤/ ٢٧٢.

بعدها إلى المدينة، وبعد عدة أشهر كثر الإسلام حول الطائف وبين أهله. ثم قَدِم وفد منهم على رسول الله ﷺ وفاوض الرسول ﷺ عن قومهم، وانتهت تلك المفاوضة بإسلامهم، ودخول مدينتهم في الإسلام وقبولهم تحطيم الأصنام.[1]

وبإسلام الطائف أصبحت جميع مدن الحجاز خاضعة للحكومة النبوية، يديرها أمراء عينهم رسول الله ﷺ.

وقد نزلت بعض الآيات تتحدث عن غزوة حنين، من ذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

غزوة تبوك: (رجب سنة ٩هـ):[2]

كانت أحداث غزوة مؤتة التي وقعت بين المسلمين والروم وأعوانهم من نصارى العرب سنة (٨) هـ هي أول احتكاك بين المسلمين والروم، لا تزال ماثلة في ذهن الرسول ﷺ، حيث

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٥٣٧، ٥٤١؛ وانظر: د. أكرم العُمري، **السيرة الصحيحة**، ج ٢/ ٥١٢؛ د. رزق الله، **السيرة النبوية**، ص ٦٥٩؛ وانظر: وفد الطائف من هذا الكتاب.

(٢) لمزيد من التوسع حول أحداث هذه الغزوة ورواياتها انظر: عبد القادر حبيب الله السندي: **الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك**، مكتبة المعلا، الكويت، ١٤٠٦هـ؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، عنوان «ما حفظ أبو بكر في غزو تبوك»، ص ٣٩٦.

استشهد مجموعة من الصحابة. وعزم الرسول ﷺ على قتال الروم انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. ولذا فقد كانت هذه الغزوة موجهة أصلاً وبوضوح ضد الروم، ولذلك فإن الرسول ﷺ حينما ندب المسلمين لهذه الغزوة أخبرهم أنها متوجهة إلى نواحي بلاد الروم.[١] وكان يدرك أن للروم عيوناً من منافقي المدينة، كما أنه أراد من جنده الاستعداد، حيث أن السفر بعيد، وكان الجو شديد الحرارة، والبلاد مجدبة، والناس في عسرة، وثمار المدينة من تمر وعنب وغيرها قد طابت،[٢] والناس ينتظرونها طوال العام، ولذلك فالخروج إلى تبوك كان صعباً.

ومن ثمّ فإن المنافقين سقطوا في مستنقع الكذب، حيث صاروا يعتذرون عن الخروج مع النبي ﷺ زورًا وبهتانًا ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]،[٣] وقد تداعى المنافقون إلى التخلف عن رسول الله ﷺ وعدم

---

(١) انظر: الحديث الذي رواه البخاري عن كعب بن مالك: البخاري، **فتح الباري**، ج١٦/ ٢٤٢.

(٢) عنوان البخاري لهذه الغزوة (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة)، **فتح الباري**، ج١٦/ ٢٣٧؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٩٨.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥١٦.

الخروج معه في زمن الحرّ، قال الله عنهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٢]. (١)

ودعا النبي ﷺ أصحابه للنفقة في هذه الغزوة، فبادر أغنياء الصحابة في ذلك وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وغيرهم (رضي الله عنهم)، وأنفق عثمان رضي الله عنه نفقة كبيرة كان فيها ثلاثمائة بعير وألف دينار حتى قال الرسول ﷺ «ما ضَرّ عثمانَ ما فعل بعد ذلك». وقال عنه: «من جهز جيش العُسْرة فله الجنة»، (٢) كما قال ﷺ: (اللهم أرْضَ عن عثمان فإني راضٍ عنه). (٣) وقد جاء رجال من المسلمين إلى النبي ﷺ وهم أهل حاجة ويرغبون في الخروج مع الرسول ﷺ ولكن منعتهم الحاجة وعدم وجود الراحلة. فذكروا حاجتهم للنبي ﷺ فقال لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع، (٤) وجاء مُعذَرون من الأعراب ليعتذروا.

وتخلّف ثلاثة من الصحابة تكاسلاً، وهم يريدون اللحاق

---

(١) **تفسير ابن كثير**، ج ٢/ ٨٩٨.
(٢) من حديث البخاري، **فتح الباري**، ج ١٤/ ١٩٥.
(٣) ابن هاشم، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٥١٨.
(٤) ابن كثير، **تفسيره**، ج ١/ ٩٠٢.

بالرسول ﷺ، لكنهم كانوا صادقين في ذكر حالهم فعفى الله عنهم ونزلت فيهم آيات قرآنيه.[1]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٨].

كانت هذه الغزوة امتحانًا للمجتمع المسلم غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وضعاف الإيمان منهم، كما كان للمنافقين وبقايا اليهود دور في التثبيط، ولكل صف موقف وحادث وحديث، وكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ وقد تقدمت به السن، حيث تجاوز الستين من عمره ﷺ، ورغم ذلك حرص على أن يقودها بنفسه، إذ تعد مقدمة غزوات المسلمين في بلاد الروم، وفي الانطلاقة العالمية للإسلام.

تجمع من المسلمين ثلاثون ألف مقاتل خرج بهم رسول الله ﷺ كان منهم عشرة آلاف فارس،[2] وهذا الجيش يعد أكبر

---

(١) انظر: حديث كعب بن مالك عند البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٤١؛ وعند ابن أبي شيبة في **المغازي**، ص ٣٩٨.

(٢) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٤٢، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٢٠.

جيش للمسلمين تجمع في حياة الرسول ﷺ وأخذ المسلمون طريق تبوك، ومروا في طريقهم على مدائن صالح،[1] فأمرهم النبي ﷺ بالعجلة وأن لا يدخلوا بيوت القوم إلا باكين أو متباكين.

وقد واصل الرسول ﷺ مسيره حتى وصل إلى تبوك فأقام بها بضع عشرة ليلة، كان خلالها يبعث سراياه وطلائعه لمعرفة أخبار الروم، كما كان يبعثها إلى المواقع المجاورة. وكان زعماء القبائل وحكام القرى القريبة منه يأتون إليه. وقد أَسَر خالد بن الوليد في أحد سراياه أُكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فجاء به إلى الرسول ﷺ، فعقد الذمة لنفسه ولقومه وأقرّ بدفع الجزية فأطلقه ﷺ،[2] كما جاء (يُحنّة بن رؤبه) صاحب **أيلة** فدفع الجزية لرسول الله ﷺ وعقد الذمة لقومه، وجاءه أهل أذرح والجرباء، فأمنهم الرسول جميعًا وعقد لهم الذمة وكتب لهم كتبًا.[3]

---

(١) روى البخاري عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: ((لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم. إلا ان تكونوا باكين. ثم قنع رأسه وأسرع حتى أجاز الوادي)) **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٥٥.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٢٦، ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٠.

(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٢٥، ٥٢٦، ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٢٩. (انظر: كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل الروم من هذا الكتاب).

ويظهر أن الروم كانوا على علم بتحرك الرسول ﷺ، ومن معه ووصولهم إلى تبوك وإظهار قوتهم في أطراف بلاد الروم، بل إن بعضها يُعدّ داخل حدود الروم.[1] ومع كل هذا فإن قواتهم لم تتحرش بالمسلمين أو تحاول مصادمتهم أو عرقلتهم مع قدرتها على ذلك، ولعل مما يؤكد متابعة الروم للموقف بدقة أن ملك غسان قد أرسل إلى كعب بن مالك، وهو أحد المخلّفين الذين تاب الله عليهم، يطلب منه أن يَقدُم إليهم في الشام، بعد غزوة تبوك وهو في المدينة.[2] وإذا وصلت معلومات ملك غسان وهو من أمراء الروم إلى معرفة حال فرد من المسلمين في هذه الغزوة، وموقف الرسول ﷺ منه، فمن باب أولى أن يكون على اطلاع بتحرك جيش الرسول ﷺ من المدينة إلى تبوك، والإعداد لهذا الجيش قبل التحرك، خصوصًا أن وجهته كانت معلنة وجواسيس الروم يصلون إلى المدينة، ولعل ملك الروم كان على يقين تام بصدق الرسول، ولذلك آثر عدم التعرض لهذا الجيش خوفًا منه وإدراكاً أن الرسول ﷺ ظاهر عليهم عاجلاً أم آجلاً، حيث إن هرقل ما إن

---

(١) نقل ابن كثير عن الإمام أحمد رواية عن وصول رسول من ملك الروم هرقل إلى رسول الله ﷺ في تبوك وتبليغه إياه رسالة منه وهي قصة عجيبة قال عن إسنادها لا بأس به (انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٢٧ ـ ٢٩) وانظر: تلك الرواية عند أحمد في **المسند**، ج ٣/ ٤٤٢. وانظر: كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل من هذا الكتاب).

(٢) انظر: حديث كعب بن مالك عند البخاري، **فتح الباري**، ج ١/ ٢٤٢.

تسلم رسالة الرسول ﷺ واستمع أخباره ممن يعرفونه، حتى قال لمحدثه: والله لئن كنت صدقتني: «يوشك أن يملك ما تحت موضع قدميَّ هاتين»،[1] وقد عاش حتى شاهد المسلمين بعد ذلك يملكون ما تحت قدميه.[2]

وبعد أن أثبت الرسول ﷺ قوة المسلمين في أطراف جزيرة العرب عاد مرة أخرى إلى المدينة. وفي الطريق لقي الأذى ﷺ من بعض المنافقين، حيث حاولت مجموعة منهم قدرت بأربعة عشر رجلاً، قتل رسول الله ﷺ، حينما كان ﷺ يسير في عقبة ليتجاوزها، وأمر من ينادي في الناس: إن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ــ والعقبة طريق ضيق في الجبل لا يكاد يمر منه الراكب ــ وكان يقود بالرسول ﷺ حذيفة بن اليمان ويسوق به عمار بن ياسر (رضي الله عنهما).

فأقبل مجموعة من الرجال ملثمين على رواحلهم حتى غشوا عمارًا رضي الله عنه وهو يضرب وجوه رواحلهم ليبعدهم عن رسول الله، فقال ﷺ لحذيفة: قُدْ. قُدْ، وحين هبط رسول الله ﷺ قال لعمار رضي الله عنه: هل عرفت القوم؟ قال عمار: قد عرفت الرواحل والقوم ملثمين: قال له الرسول ﷺ: هل تدري ما

---

(١) من لفظ البخاري، **فتح الباري**، ج ١٢/ ٧١.

(٢) انظر: كتاب الرسول إلى هرقل الروم؛ وانظر: الطبري، **تاريخه**، ج ٤/ ٣٨؛ والأزدي، **فتوح الشام**، ص ٢٣٦.

أرادوا؟ قال عمار رضي الله عنه الله ورسوله أعلم، قال أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه.[1]

وقد عاد الرسول ﷺ إلى المدينة فلما أقبل عليها قال: «هذه طابة وهذا جبلُ أُحُد يحبنا ونحبه»،[2] وخرج النساء والصبيان لاستقبال المسلمين، وكان الصبيان ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداعْ
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعْ[3]

كانت هذه الغزوة تربيةً للمجتمع المسلم بفئاته كافةً للمشاركة في الجهاد بالنفس والمال، وتربيةً للأمة كلها على بعد النظر والطموح العالي، حيث إن الرسول ﷺ قبل أن يودع أمته إلى الرفيق الأعلى لفت نظرها إلى الروم، في حركة جهادية عملية لتقوم بالفتوح في نواحيها، بعد ذلك لم تنته قضايا تلك الغزوة بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة، بل ارتبطت به قضية مسجد الضرار، وكذلك قضية المخلّفين الذين جاءوا يعتذرون إلى الرسول بسبب تخلفهم عنه، فمنهم المنافقون الذين اعتذروا

---

(١) انظر: الإمام أحمد بن حنبل، **المسند**، ج ٥/ ٣٩٠، ٣٩١، الصالحي الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج ٥/ ٦٦٩.

(٢) البخاري، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٥٦؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٣٩٧.

(٣) انظر: ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٥٩، وانظر: د. رزق الله، **السيرة النبوية**، ص٦٣١.

بالكذب وبالباطل ففضحهم الله، ومنهم الذين تخلفوا ولكنهم التزموا الصدق في اعتذارهم لرسول الله ﷺ، وهم الثلاثة الذين تخلّفوا وعلى رأسهم كعب بن مالك، فهجرهم الرسول فترة من الوقت، ثم تاب الله عليهم في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.[1] وقد تحدثت بعض الآيات في القرآن الكريم عن غزوة تبوك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ

---

(١) انظر: تفاصيل حال المعتذرين في حديث كعب بن مالك السابق ذكره في، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٤٢؛ وابن أبي شيبة، **المغازي**، بسند متصل، ص٣٩٨.

يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَۖ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٥٢].

ويقول تعالى أيضًا عن هذه الغزوة في السورة نفسها ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ

جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠ ـ ٩٦].

ويقول الله سبحانه وتعالى راضيًا عن المؤمنين الذين اتبعوا نبيه في هذه الغزوة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١٢٣].

حج أبي بكر بالناس (سنة ٩ هـ): [١]

فتح الرسول ﷺ مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، ولم يحج في السنة نفسها، ولم يؤمِّر على الحج، ثم انشغل ﷺ باستقبال الوفود وعدد من الغزوات والسرايا منها غزوة تبوك. وحينما جاء موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة كره ﷺ أن يحج ذاك العام، في وقت يَحضُر الحجَّ مشركو العرب كعادتهم، ولذلك قال ﷺ: «إنه يحضره عُراة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». [٢]

واختار الرسول ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج لذلك العام، وبعد خروجه دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحمَّله صَدْر سورة براءة (التوبة) ليبلغها الناس في الحج، وفيها إعلانٌ للمشركين أن لا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، ونَبذٌ لعهود من له عهد حول الحرم من المشركين، ولذلك حرص الرسول أن يبلغ عنه أحدٌ من أهل بيته، وقال لعلي رضي الله عنه: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا أحدٌ من أهل بيتي». [٣]

---

(١) انظر: صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب حج أبي بكر بالناس ج٥/ ١١٥.

(٢) انظر: محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٣٦.

(٣) انظر: رواية البخاري في **صحيحه**، **كتاب التفسير**، باب قولُه فسيحوا في الأرض، ج ٥/ ٢٠٢؛ والإمام أحمد في **مسنده**، ج ٣ / ٢٨٣، والترمذي في **صحيحه**، ج ٥/ ٣٧٢.

وخرج علي ﷺ على العضباء، ناقة رسول الله ﷺ فلحق بأبي بكر الصديق في ذي الحليفة، ولما رآه الصديق سأله بكل أدب: أميرٌ أم مأمور؟ فرد علي ﷺ بكل أدب: بل مأمور.[1]

وواصلا الطريق إلى مكة، وتعاون الصِّديق وعليّ (رضي الله عنهما)، حيث كان الصديق أمير الحج وخطيبهم وإمامهم وعلي ﷺ يتلو الآيات من سورة براءة على الناس وفيها قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ

(١) انظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٩، وانظر: رواية البخاري في **صحيحه**، **كتاب التفسير**، باب قوله فسيحوا في الأرض، ج ٥/ ٢٠٢.

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ
فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ
لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ
وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ
إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ
فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم
مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ
لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ
وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ
فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ
بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ
وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أَمۡ
حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ مَا
كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ
أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ
يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ
ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ١ ـ ٢٨].

وكان بعض الصحابة يبلِّغون تلك الآيات للناس مع علي رضي الله عنه حيث ناب عن النبي ﷺ في هذا الأمر، ويؤكدون عليهم أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. روى

البخاري عن أبي هريرة (أن أبا بكر الصديق ﷺ بعثه في الحجة التي أمَّره عليها النبي ﷺ قبل حجة الوادع يوم النحر في رهط يؤذّن في الناس لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان).[1]

ولا شك أن علياً ﷺ من آل البيت يمثل النبي ﷺ ويستوثق منه الناس، وخصوصاً من كان له عهد مع النبي ﷺ وعلي أقرب أهل البيت إلى النبي ﷺ، ومن عادة العرب (في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه)،[2] فكان قيام علي ﷺ بهذه المهمة تأكيداً للجميع أن هذا ما أراد الله ورسوله، وقد سئل علي ﷺ بأي شيء بعثت في الحجة؟ قال بُعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم وكافر بالبيت الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر.[3]

وأما الذين استفادوا من الحادثة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي (رضي الله عنهما) فليس هذا في محله، فكل منهما له فضله وله مهمة بأمر الرسول ﷺ، وكل منهما يقوم بما أمر به،

---

(١) رواه البخاري، **كتاب المغازي**، باب حج أبي بكر بالناس، ج ٥/ ١١٥.
(٢) محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٣٩.
(٣) ابن القيم، **زاد المعاد**، ص ٦٥٥ رواه الترمذي في صحيحه، حديث رقم: ٣٠٩١ وأحمد في **المسند**، ١ / ٧٩.

ويحب الآخر ويحترمه ويتأدب معه بل إنهما (رضي الله عنهما) كُلٌّ منهما ساهم في عمل الآخر، وساهم معهم بقية الصحابة، سواء في إدارة الحج وشؤونه أم في تبليغ آيات سورة براءة إلى الناس في الحج، فهم يكمل بعضهم بعضاً، هدفهم واحد، هو إعلاء كلمة لا إله إلا الله في الحج وفي غيره، وإذا كنا في هذا الزمان نؤكد ما بلغه علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ بمنع المشركين والعراة من الحج، فمن باب أولى أن يكون الصحابة في زمن علي رضي الله عنه يقومون بالعمل معه، للهدف نفسه أثنا وجود المشركين، الذين انقطعوا عن مكة بحمد الله بعد سماعهم من علي ومَن سانده، وما احتاج المسلمون لتكرار ذلك عبر القرون لانقطاع المشركين عن مكة تماماً.

كان هذا الإنذار وكانت هذه الحجة تمهيداً لحج الرسول ﷺ في العام الذي يليه «حجة الوداع»،[1] حيث كانت البقاع الطاهرة خالية من المشركين، ونفوس الحجيج صافية لاستقبال الرسول ﷺ في حج الموحّدين لله وفي وداع رسول الله ﷺ الناسَ كافةً، ليبلغ الشاهدُ منهم الغائب.

(١) انظر: حجة الوداع من هذا الكتاب.

وفود القبائل[1]

الوفود، جمع وفْد، وهي الجماعة المختارة من القوم، ليتقدموهم في لقاء العظماء والزعماء والمسير إليهم وتمثيلهم في المهمات.[2]

دعوة الرسول ﷺ عالمية للناس كافةً ولذلك فقد حرص ﷺ منذ بدايتها على الاتصال بالقبائل أفراداً وجماعات[3]، وعرض الدعوة عليهم.

وقد زاد هذه الأمر بعد تضييق قريش على الرسول ﷺ، فكان يدور على القبائل في المواسم يعرض عليهم الإسلام،

---

(١) وضع البخاري في صحيحه، في **كتاب المغازي**، عشرة أبواب في الوفود، سماها بأسماء القبائل، وتضمنت ما يزيد على ثلاثين حديثاً، ج ٥/ ١١٥، حتى ج ٥/ ١٢٣، وأُلّفت العديد من الكتب حول الوفود.

(٢) انظر: النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج ١/ ١٨١.

(٣) انظر عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل من هذا الكتاب.
وانظر: الثعالبي؛ عبد العزيز، **معجز محمد رسول الله**، (الفصل الأول الرسالة المحمدية إلى الأمم كافة)، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ج١/ ٢١.

ويطلب نصرته. وكان معه في معظم جولاته على القبائل صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو رضي الله عنه العالم بالقبائل والأنساب.[1]

وقد تفاوتت ردود القبائل عليه، وكانت النتيجة شيوع خبر الرسول ﷺ والرسالة في مختلف القبائل، حيث قابل الرسول ﷺ قبل الهجرة أفواجاً كُثراً من مختلف القبائل ولم يبق حي من العرب إلا سمعوا بالرسول ﷺ ودعوته.[2]

وبعد الهجرة انتشرت أخبار الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين، وخصوصاً بعد معركة بدر.

و تضمن صلح الحديبية: (أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه)،[3] ومن ثمَّ كان على القبائل القريبة من الأحداث اختيار أحد طرفي الصراع حليفاً لها، فدخلت خزاعة في عهد النبي ﷺ، ودخل بنو بكر في عقد قريش، وكان اعتداء بنو بكر على خزاعة بمساعدة قريش علامة لنقض قريش عهدها مع الرسول ﷺ، ما أدى لفتح مكة، والقضاء على سلطة المشركين فيها.

وبعد الفتح أصبح الأمر واضحاً أمام قبائل العرب كافة في أن السيادة الوحيدة في جزيرة العرب هي للإسلام ونبيه ﷺ.

---

(١) انظر: الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٢/ ٣٨٧.

(٢) انظر: عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل من هذا الكتاب.

(٣) انظر: صلح الحديبية من هذا الكتاب.

فبدأت وفود القبائل تتكاثر في السنة التاسعة حتى سمي بعام الوفود،[1] مع أن بعضاً منها وصل قبل ذلك العام، وبعضها قدم مبكراً في السنة الخامسة للهجرة، ثم قدم مرة أخرى سنة تسع للهجرة.[2] وكانت كل قبيلة تستعرض مكانتها وشرفها، حيث يخطب خطباؤهم وتلقى القصائد من شعرائهم، وكان الرسول ﷺ يأمر أناساً من أصحابه بالرد عليهم الخطبة بالخطبة، والقصيدة بالقصيدة، فكانت أهداف الرسول ﷺ إعلاء كلمة الله والدعوة إليه وإلى دينه ونشر القيم والعدل، دونما عصبية ولا فخر، ولذلك كانت نتائجها مذهلة وباهرة، سامية المضمون أمام الآخرين، عالية الهمة والمستوى، ما جعل وفود القبائل يقرون له ﷺ بذلك. وكان ﷺ يكرم الوفود ويجيزهم ويعلمهم ويأمر الصحابة بتعليمهم، كما كان ﷺ يعين عليهم عند مغادرتهم من يتدبر أحوالهم،[3] ويرتب زكواتهم يواسي فقراءهم من أغنيائهم ويكون أميراً عليهم ومعلماً لهم.

كما يجيب ﷺ على مختلف أسئلتهم التي ترتبط بواقع يعيشونه، أو طعام أو شراب يتناولونه في مناطقهم، أو قضايا محددة تقلقهم، وتخصّهم دون غيرهم أحياناً.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٥٩.

(٢) انظر: محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٤٢.

(٣) انظر: صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب وفد بني تميم، **وكتاب التفسير**، سورة الحجرات، باب إن الذين ينادونك من وراء الحجرات، ج٦/ ٤٦.
وانظر: وفد بني تميم من هذا الكتاب.

وقد وقعت أثناء لقاءاتهم بالرسول ﷺ بعض الأحداث التي تنزلت فيها آيات من الكتاب، كما حصل مع وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات.[1]

وقد ربط ابن هشام بين الوفود ونزول سورة النصر فقال: (أفواجاً يضربون إليه من كل وجه) يقول تعالى لنبيه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].[2]

وافِدُ دَوْس (الطفيل بن عمرو):[3]

دوس قبيلة يمنية تلتقي مع الأزد في النسب، تعود إلى زهران بن كعب، وغلب عليها حالياً اسم زهران،[4] وموطنها جنوب الطائف فيما يعرف حالياً،[5] بمنطقة الباحة، وكان لهم بها حصن مشهور، ولها مكانة بين قبائل العرب في حينها.[6]

---

(١) صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب وفد بني تميم، و**كتاب التفسير**، سورة الحجرات، باب إن الذين ينادونك من وراء الحجرات، ج٦/ ٤٦ وانظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٢/ ١٧٤٤.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٥٦٠.

(٣) وضع البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب قصة الطفيل بن عمرو الدوسي، ج٥/ ١٢٣.
انظر: ترجمته بتوسع عند: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١/ ٣٤٤؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج٤/ ١٧٥

(٤) انظر: السمعاني، **الأنساب**، ج ٥/ ٣٦١. ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص ٣٧٩.

(٥) انظر: (بتاريخ ١/ ٥/ ١٤٣٢هـ .www.ar.wikiPedia.org)

(٦) انظر: السمعاني، **الأنساب**، ج ٥/ ٣٦١.

كانت قريش قبل هجرة رسول الله ﷺ حريصة على منع القادمين إلى مكة من السماع لرسول الله ﷺ. يروي الطفيل أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها: (فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضلَ بنا، وقد فرّق بين جماعتنا، وشتّت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنّه ولا تسمعنّ منه شيئاً. قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كُرسُفاً[1] فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه. قال فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة. قال: فقمت منه قريباً فأبى الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله. قال فسمعت كلاماً حسناً قال: فقلت في نفسي: واثُكْل أمّي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحَسَن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرَك حتى

(١) الكُرسف هو: القطن.

سددت أذني بكرسُفٍ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك.

قال فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قطّ أحسنَ منه ولا أمراً أعدل منه. قال فأسلمتُ وشهدتُ شهادةَ الحق وقلت: يا نبيّ الله إني امرؤ مُطاعٌ في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آيةً تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه فقال: «اللهم اجعل له آية».

قال فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنيّة تطلعني على الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثْلَة [آمةٌ] وقعت في وجهي لفراقي دينهم. قال: فتحول فوقع في رأس سوطي. قال: فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية، قال حتى جئتهم فأصبحت فيهم قال فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخا كبيراً، قال: فقلت: إليكَ عني يا أبتِ، فلستُ منكَ ولست منّي قال: ولِمَ يا بني؟ قال قلت: أسلَمتُ وتابعت دين محمد ﷺ قال: أي بني فديني دينك؟ قال: فقلت: فاذهب فاغتسل وطهّر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت. قال: فذهب فاغتسل وطهر ثيابه. قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليكِ عني، فلست منك

ولست مني، قالت لم؟ بأبي أنت وأمي، قال: قلت: قد فرق بيني وبينك الإسلام وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، قال: قلت: فاذهبي إلى حنا ذي الشرى ــ قال ابن هشام: ويقال ــ حمى ذي الشرى ـ فتطهري منه.

قال: وكان ذو الشرى صنماً لدوس وكان الحمى حمىً حَمَوْه له، وفيه وشل من ماء يهبط من جبل. قال: فقالت: بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً، قال: قلت: لا، أنا ضامن لذلك، فذهبت فاغتسلت ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت.

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فأبطأوا عليّ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة فقلت: له يا نبي الله إنه قد غلبني على دوس الزنا فادعُ الله عليهم فقال: «اللهم أهد دوساً» ارجع إلى قومك فادعهم وأرفق بهم. قال فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدرُ وأُحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخيبر. حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين.[1]

كان إسلام الطفيل كما هو واضح في مكة، حيث عاد بعدها داعية في قومه، وأسلم على يديه قلة واستعصت عليه القبيلة،

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٣٨٥.

فجاء مرة أخرى إلى الرسول ﷺ في المدينة وشرح له الوضع، وطلب منه أن يدعو على القوم، إلا أنه دعا لهم، كما جاء في رواية البخاري، حيث قال الطفيل: «إن دوساً قد هلكت عصت وأبت فادع الله عليهم فقال: اللهم أهد دوساً وأتني بهم».[١] وقد أستجيبت دعوة رسول الله ﷺ فأسلمت دوس وجاء وفدها مع الطفيل بن عمرو ومعه سبعون أو ثمانون رجلاً من القوم، وقد كان الطفيل مع رسول الله ﷺ حين فتح مكة وبعثه رسول الله ﷺ لتحطيم بعض الأصنام في نواحي دوس،[٢] ثم كان مع رسول الله ﷺ حتى توفى ﷺ فشارك في القضاء على المرتدين في معارك متعددة، حتى استشهد رضي الله عنه في موقعة اليمامة في السنة الحادية عشرة للهجرة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.[٣]

وفد عبد القيس:[٤]

عبد القيس قبيلة من ربيعة بن نزار،[٥] مواطنهم في نواحي البحرين منهم حاضرة وبادية، كانت صلتهم بالإسلام قديمة،

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، (باب: قصة الطفيل بن عمرو الدوسي)، ج ٥/ ١٢٣.

(٢) ابن سعد، **السيرة النبوية** من الطبقات ج ٢/ ١٥٧، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/ ٣٨٥.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٥٨؛ وانظر: ترجمته في **الإصابة** لابن حجر، ج ٢/ ٢٢٥

(٤) انظر: صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب وفد عبد القيس، ج ٥/ ١١٦.

(٥) انظر: ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٠٧، ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب** ص ٢٩٥.

حيث قدم وفد منهم قبل السنة الخامسة للهجرة، وفيهم الأشجّ ابن عبد القيس أحد حكمائهم، وقد أثنى الرسول ﷺ عليه بقوله: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحِلم والأناة».[1]

وقد كان قدوم الوفد الأول في وقت مبكر من الصراع بين قريش والرسول ﷺ، فقد ورد عند البخاري في صحيحه باب سماه «باب وفد عبد القيس»،[2] أورد فيه حديثاً عن ابن عباس (رضي الله عنهما) فقال: مرحباً بالقوم غير خزايا ولا نَدامى، فقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في الأشهر الحرم، حدثنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو به من وراءنا قال: (آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع)، الإيمان بالله، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغانم الخُمْس وأنهاكم عن أربع.. ما انتبذ في الدباء والنقير والحنتم والمزفت).[3] وكان هذا الوفد قد جاء بإسلام قوم من بني عبد القيس.[4]

---

(١) هو: عبد الله بن عوف، وقيل المنذر بن عوف؛ ابن حجر، **الإصابة**، ج ٢/ ٣٥٦.

(٢) صحيح البخاري، ج ٥/ ١١٦.

(٣) رواه البخاري، **كتاب المغازي**، باب وفد عبد القيس، ج ١/ ١١٦؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٧٥، وهذه أنواع من الأواني ينتبذ فيها الخمر.

(٤) انظر: **صحيح البخاري**، ج ٥/ ١١٦؛ وابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٣/ ٥٧٥.

كان فيهم الجارود بن عمرو، الذي رغب في الإسلام وكان على النصرانية، فقال: إني كنت على دين وإني تارك ديني لدينك أفتضمن لي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه فأسلَمَ وأسلم أصحابُه».[١] وقد حَسُن إسلام هذا الوفد من عبد القيس ونقلوا الإسلام إلى (جواثا) في البحرين وما حولها، ولذلك ورد عن ابن عباس (رضي الله عنهما): (أول جمعة جمعت بعد جمعة جمعت في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثى يعني قرية في البحرين).[٢]

وقبل مغادرتهم إلى البحرين طلبوا من الرسول ﷺ الحِمْلان، فاعتذر إليهم «ما عندي ما أحملكم عليه»،[٣] فقالوا: يا رسول الله: فإن بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال الناس، أفنتبلغ بها إلى بلادنا؟ فنهاهم الرسول ﷺ عنها. وقال: إنما هي حرق النار، وهكذا علمهم الرسول ﷺ حرمة أموال الناس، فرغم حاجتهم وكون هذه الضوال في الصحراء لا أحد يعلم مالكها، ومع ذلك نهاهم عنها.[٤] وذكر أن الرسول ﷺ أثنى

---

(١) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج ١/ ٢١٦، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٥٧٥.

(٢) رواه البخاري، **كتاب المغازي**، باب وفد عبد القيس، ج٥/ ١١٦. (ولا يزال مسجد جواثا بآثاره القديمة معروف إلى اليوم في الإحساء نواحي القطيف، وقد وقفت على آثاره بنفسي).

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٧٥.

(٤) رواه مسلم، وانظر: ابن القيم، **زاد المعاد**، ص ٦٦١.

عليهم قبل وصولهم فقال: «سيطلع عليكم من هاهنا وفد هم خير أهل المشرق»،[1] فقام عمر رضي الله عنه فتوجه نحوهم فلقي ثلاثة عشر راكباً فبشرهم.

وهكذا رجع القوم بأحسن دين وأحسن أخلاق وأمانة. وحين حدثت الردة في المنطقة وفي قومهم بعد وفاة الرسول ﷺ بتأثير المناذرة الذين سعوا إلى ردتهم وعودتهم إلى النصرانية، قام فيهم الجارود فخطب فيهم ودعاهم إلى الإسلام، وأعلن ثباته عليه وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه يُكفّر من لم يشهد بذلك.[2]

وفد ثقيف:

ثقيف تعود إلى هوازن من مضر.[3] كانت تسكن الطائف، أقرب المدن إلى مكة، وأكثرها علاقة بها، والطائف طيبة الهواء غزيرة الإنتاج الزراعي، ذات أودية زراعية منتجة ومشهورة، كان تجار مكة يتخذون فيها المزارع والمتنزهات، يفرون إليها من حرّ مكة في فصل الصيف.[4]

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٩٠

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٧٥.

(٣) السمعاني، **الأنساب**، ج ٣/ ١٣٤، وانظر: ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٦٦.

(٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤/ ١١؛ البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ج٥/ ٢٢٤

وكانت هوازن تجاور ثقيفاً في الطائف وما حولها إلا أن السيطرة على داخل الطائف كانت لثقيف، فكانت ثقيف حاضرة الطائف، وهوازن باديتها، ثقيف على الشِّرك يعبدون اللات الصنم العربي المشهور،[1] الذي نزل فيه قوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠]. وقد شاركت ثقيف ضد الرسول ﷺ في غزوة حُنين مع هوازن وغيرها من القبائل،[2] وانتهت المعركة بانتصار المسلمين عليهم بعد اضطراب في المعركة، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

ثم سار ﷺ إلى الطائف في شوال سنة ثمان للهجرة، بعد حنين، وحاصرها قرابة عشرين يوماً فاستعصت عليه، رغم استعماله للدبابة والمنجنيق، وساهمت أسوار الطائف في منعتها.

---

(١) البكري، **معجم ما استعجم**، ج ٣/ ٨٨٦؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤/ ١١؛ البكري، **معجم ما استعجم**، ج ٣/ ٨٨٦.

(٢) انظر: ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص ٤٩١.

وبعد رؤيا رآها ﷺ أدرك أن الطائف لن تفتح الآن فغادرها عائداً إلى مكة.[1]

وعند الجعرانة كان ﷺ قد جمع الغنائم فيها، أتاه وفد من هوازن وهم بادية الطائف ولهم أسرى من غزوة حنين وهم ذليلون مستشفعين برسول الله ﷺ طالبين أن يرد أموالهم وسباياهم، فخيرهم ﷺ بين الأموال أو السبايا فاختاروا السبايا، فأطلق الرسول ﷺ ما له ولآله من السبايا، فتأسّى بهم المسلمون وأعتقوا سبي هوازن، وكان زعيمهم مالك بن عوف فاراً عند ثقيف في الطائف فأبلغ ﷺ قومه: أنه إن جاء مسلماً تائباً ردّ عليه ماله وأهله ومائة من الإبل، فسمع مالك بذلك، فجاء إلى الرسول ﷺ تائباً مادحاً للنبي ﷺ، فاستعمله على من أسلم من قومه، وأمره بقتال ثقيف والتضييق عليهم في الطائف، حيث كانت ملجأ للفارين بعد فتح مكة، فأخذ يضيق على ثقيف ويغزوها، فضاقت بهم الحال، وفي الوقت نفسه قدم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله ﷺ مسلماً، وكان محبوباً في قومه، فخرج إليهم في الطائف يدعوهم إلى الإسلام (فلما أشرف على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله، فقيل لعروة ما ترى في دمك قال كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إليّ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم فادفنوني فيهم، فزعموا أن رسول

(١) انظر: غزوة حنين وحصار الطائف من هذا الكتاب.

الله ﷺ قال: «إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه». [1]، ثم أن ثقيفاً بعد هذه الحادثة بأشهر اقتنعت أن لا طاقة لها بحرب رسول الله ﷺ، فأعدوا وفداً فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ. [2] فأخبره بقدومهم عليه.

ولما قدموا على رسول الله ﷺ وسلم ضرب عليهم قُبة في ناحية مسجده، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم، وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي (اللات) لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً يُسمّى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يَدخُلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدمانها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «أما كسر أوثانكم

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٣٨، ابن حجر، **الإصابة**، ج ٢/ ٤٧٨.
(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٣٩.

بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه فقالوا: يا محمد فسنؤتيكها، وإن كانت دناءة».[١]

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم أمرَّ عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سناً، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن. فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ يا رسول الله إني قد رأيت هذا الغلام منهم مِن أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن،[٢] وقد بقي أميراً عليها بقية عهد النبي ﷺ، ثم طيلة خلافة الصديق بعد ذلك.[٣]

وقد تعلم الوفد شيئاً من القرآن وأمور الدين، ووافق الرسول ﷺ على أن يتولى هدم اللات غيرُهم، على أن لا تقرّ لحظة واحدة، وبعث معهم وفداً مهمته هدم الصنم في حماية من قومهم حتى يقوم بهدمها، فبَكت على الصنم نساء من ثقيف،[٤] ثم انتشر الإسلام بين ثقيف وأهل الطائف الحاضرة، فكان أهلها ممن ثبتوا على الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ ولم يرتدوا.[٥]

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٤٠.
(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٣٩، ٥٤٠.
(٣) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ٣٧٤.
(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٤٢.
(٥) انظر: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١١٥.

وفد بني تميم:[1]

إحدى القبائل العدنانية، ينتسبون إلى مُرّ بن أد، وهي من أكبر قبائل العرب،[2] مواطنهم في البحرين وشرقي نجد ونواحي الإحساء.[3]

وقد جاء وفدهم في السنة التاسعة للهجرة بعد عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك، وقد ذكر أنَّ لهم وافداً أو أفراداً مثلوا قومهم قبل هذا العام. وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه «باب وفد بني تميم» أورد فيه عدة أحاديث.[4]

وكان وفدهم من أشهر وفود القبائل على رسول الله في الأحداث، وفيهم زعماء مشهورون على مستوى القبائل العربية، منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، والحبحاب بن يزيد، وعطارد بن حاجب، وعيينة بن حصن وغيرهم.[5]

ولما وصل الوفد إلى المدينة كان ﷺ في حجرات أمهات المؤمنين، فدخلوا المسجد وأخذوا ينادون رسول الله ﷺ: (أن أخرج علينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين)،[6] فتأذى

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، كتاب المغازي باب وفد بني تميم، ج٤/ ١١٥.

(٢) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٠٥؛ ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٢٠٧.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٧٥؛ الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص٢٨١.

(٤) انظر: صحيح **البخاري**، ج ٤/ ١١٥ ـ ١١٦.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٦٠.

(٦) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٦٢.

رسول الله ﷺ من قولهم ذلك وقال: ذاك الله عزّ وجل،[1] وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥].

وبعد خروج الرسول ﷺ طلبوا أن يأذن لخطيبهم عطارد بن حاجب، فألقى خطبة جاء فيها: الحمد لله الذي له الفضل والمنّ علينا وهو أهله الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها بالمعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق، واستمر في مدح بني تميم حتى فرغ من خطبته.[2]

فلما فرغ أَمرَ الرسولُ ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس بإجابته فقام رضي الله عنه خطيباً وكان مما قال: الحمد لله الذي السموات والأرض مِن خَلْقه، قضى فيهنّ أمره، ووسع كرسيُّه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من عِلمه... وواصل خطبته التي كانت مليئة بالإيمان والصدق والدعوة إلى الله تعالى والثناء على الله ورسوله ﷺ.[3]

بعد ذلك قام شاعر تميم (الزبرقان بن بدر) وألقى قصيدة أمام رسول الله ﷺ، كانت مركزة على الفخر بقومه بني تميم ومنها:

---

(١) **المصدر السابق**.

(٢) انظر: نص الخطبة عن بن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٦٢.

(٣) انظر: نص الخطبة عند ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٦٢.

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا منا الملوك وفينا تُنصَبِ البِيَعُ[1]

فدعا الرسول ﷺ حسان بن ثابت أن يجيبه بعد فراغه، فقال حسان رضي الله عنه قصيدة عصماء منها:

إن الـذوائـب مـن فِـهـرٍ وإخـوتـهـم
قـد بـيّـنـوا سُـنّـةً لـلـنـاس تُـتَّـبـع

يـرضـى بـهـا كـلّ مـن كـانـت سَـريـرتُـه
تـقـوى الإلـهِ وكـلَّ الـخـيـر يَـصـطـنِـع[2]

فكانت كلمات حسّان تحمل معاني الإسلام السامية، والفخر بها وبرسول الله ﷺ، وقيل إنه تبودلت قصائد أخرى بين الزبرقان وحسان رضي الله عنه، فلما فرغوا قال الأقرع بن حابس (وأبي إن هذا الرجل لمؤتَىٰ له، لخطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولشاعره أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا).[3]

وقد أسلم القوم وتعلموا من رسول الله ﷺ، وأمر بعض الصحابة بتعليمهم، وكانوا يسألون رسول الله ﷺ.

وقد روى البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال: «أتى نفر من بني تميم إلى النبي ﷺ فقال: اقبلوا البشرى يا بني

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٦٤ (البيعة تأتي بمعنى التولية وتنصيب الأمراء والملوك؛ المعجم الوسيط، ص ٧٩).
(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤ / ١٧٥، ١٧٦.
(٣) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤ / ٥٦٧.

تميم قالوا يا رسول الله قد بشّرتنا فأعطنا، فرئي ذلك في وجهه، فجاء نفر من اليمن فقال: اقبلوا البشرى إذا لم يقبلها بنو تميم قالوا: قد قبلنا يا رسول الله». [1]

وحينما أراد الوفد العودة إلى ديارهم أجازهم الرسول ﷺ، وكان لأبي بكر ولعمر رأيان مختلفان حول تعيين أمير على القوم، فقد روى البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: (قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمِّرِ القعقاعَ بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمِّرِ الأقرعَ بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات] حتى انقضت). [2]

وفد بني عامر:

بنو عامر بن صعصعة من قيس عيلان من مضر. [3] يقيمون

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، باب وفد بني تميم، حديث رقم: ٤٣٦٥.

(٢) انظر: **صحيح البخاري**، كتاب التفسير «سورة الحجرات»، باب ولا ترفعوا، ج ٦/ ٤٦؛ وانظر: **تفسير ابن كثير**، ج ٢/ ١٧٤٣.

(٣) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ج ٢/ ٢٧١.

في نواحي نجد القريبة من المدينة، وكان الرسول ﷺ قد بعث أناساً من أصحابه لدعوتهم، فقتلوا في حادثة بئر معونة المشهورة.[1]

وقد قدم وفد من بني عامر فيهم عامر بن الطفيل، وهو ممن قاتل أصحاب النبي ﷺ في بئر معونة، وكان أعرابياً قاسياً، فطلب منه النبي أن يسلم فقال: ما تجعل لي إن أسلمت فقال ﷺ: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فقال للنبي ﷺ: اجعل لي الأمر من بعدك فقال ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر[2]، فقال ﷺ: لا، قال عامر: لا، ثم هدد الرسول ﷺ قائلاً: أما لأملأنها عليكم خيلاً ورجالاً، فقال ﷺ: يمنعك الله (اللهم اكفني عامر بن الطفيل)، فأصيب بغدة في عنقه، كان يصيح منها ومرض في بيت سلولية، ثم كره الموت في بيتها فركب فرسه خارجاً وهو يقول: أغدّةٌ كغدة الإبل، وموتٌ في بيت سلولية؟ وسار عليه حتى مات».[3]

وكان معه في الوفد أربد بن قيس، وهما ينويان اغتيال النبي ﷺ، وعاد إلى قومه، وكان سيئ الأدب مع الله حتى أنه قال:

---

(١) انظر: حادثة بئر معونة من هذا الكتاب.

(٢) الوبر، يقصد به البادية نسبة إلى رعاة الإبل وهي ذات الوبر، والمدر هم أهل القرى.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٦٩؛ ابن كثير، **تفسيره**، ج ١/ ١٠٠٨.

لقد دعانا محمد إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل، فخرج بعد ذلك بيوم أو يومين فأصابته صاعقة فأحرقته وقيل: نزل فيه قول الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]. (١)

وفد بني حنيفة: (٢)

بنو حنيفة قبيلة تنتسب إلى بني بكر بن وائل. (٣)

كانت مواطن بني حنيفة في اليمامة في الوادي المشهور باسمهم وما يتفرع منه، وكانت مناطق زراعية مشهورة بإنتاج القمح والتمور وغيرها يصل إنتاجها إلى مكة، (٤) فكان أن وجد بينها وبين قريش شيء من التبادل التجاري. وقبل فتح مكة أُسر أحد زعمائهم وهو ثمامة بن أثال، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَلَ نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة فقال: عندي خير يا محمد: إن تقتلني تقتل ذا دمٍ وإن تُنعم تنعم على

---

(١) انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ١/ ١٠٠٨؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٦٨.

(٢) وضع البخاري في صحيحه في **كتاب المغازي**، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، ج ٥/ ١١٧.

(٣) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص ٣٠٩.

(٤) انظر: عبد الله بن محمد بن خميس، **معجم اليمامة**، الطبعة الثانية، الرياض ١٤٠٠هـ.

شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فتُرك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك إن تُنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صَبَوتَ، قال: لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.[1]

وقد خصّ البخاري شخص ثمامة بن أثال بالمشاركة في عنوان باب («وفد بني حنيفة بعد إسلامه، وكيف رأى ثمامة صدق رسول الله ورحمته وحسن معاملته» لقد كان وجهك أبغض الوجوه إليّ، ولقد أصبح وهو أحب الوجوه إليّ).[2]

وبعد إسلامه خرج إلى مكة معتمراً. وقد علمت قريش

---

(١) رواه **البخاري**، باب وفد بني حنيفة، ج ٤ / ١١٧، ١١٨.

(٢) **البخاري**، ج ٤/ ١١٧؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٣٩.

بإسلامه فأخذوه وآذوه ثم خلوا سبيله، خشية أن يؤثر ذلك في استيرادهم للطعام من اليمامة، وبالفعل لما وصل إلى اليمامة منعهم أن يحملوا الطعام إلى مكة ويجلبوا عليها شيئاً، فتضرر المكّيون، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ في ذلك مذكرين إياه بصلته للرحم، فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين شراء الطعام من اليمامة.[1]

وكان ذلك جُزءاً من الحصار الاقتصادي لمكة، وكان لإسلام ثمامة من بني حنيفة دور في وصول الدعوة إلى اليمامة مواطن بني حنيفة، وتأثر أُناس منهم وسماعهم بالدعوة ومضمونها.

وفي السنة التاسعة من الهجرة كان ضمن الوفود التي قدمت على رسول الله وفد من بني حنيفة، منهم أناس[2] من أشرافهم، معهم مسيلمة الكذاب، قبل إدعائه النبوة وفي بداية تفكيره بذلك.

وقد أنزلهم الرسول ﷺ في دار (رملة بنت الحارث)، وكانت معدة لضيوف رسول الله ﷺ، فجاءهم رسول الله ﷺ وفي يده جريدة من نخل، ومعه بعض الصحابة فيهم (ثابت بن قيس بن شماس)، فوقف عليه رسول الله ﷺ فكلمه،[3] ولعل

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٣٩.

(٢) انظر: رواية البخاري، **كتاب المغازي**، باب وفد بني حنيفة، ج ٥/ ١١٨.

(٣) من رواية البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب قصة الأسود العنسي، ج ٥/ ١١٩.

رواية البخاري الأخرى في تفاصيل الحادثة أبلغ من أن تشرح، فقد روى ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنّك الله، وإني لأراك الذي أُريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني، ثم انصرف ﷺ عنه. قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ إني لأراك الذي أُريت فيه ما أُريت). [1]

وورد في الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ كما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: (قال رسول الله ﷺ: بَيْنَا أنا نائم أُتيت بخزائن الأرض فوضع في كفي سواران من ذهب فكَبُرا عليّ، فأوحى الله إلي أن انفخهما فنفختهما فذهبا فأوَّلتهما الكذابَيْن اللذين أنا بينهما، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة. [2]

كان رد رسول الله حاسماً وقوياً أمام ذلك الكذاب.

---

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب وفد بني حنيفة، ج ٥/ ١١٨.

(٢) من رواية البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب وفد بني حنيفة، ج٥/ ١١٨.

اشترك بنو حنيفة في العناد مع مسيلمة حين ادعى النبوة فتبعه بنو حنيفة بعد عودته إلى اليمامة عصبيةً حيث قال أحدهم: (أشهد إنك كاذب، ولكنّ كذابَ ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضر). [1]

وقد كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون). [2]

ورد عليه رسول الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». وقد كانت مكاتبته للنبي ﷺ في السنة العاشرة للهجرة. [3]

وقد قويت شوكة مسيلمة ومن معه، وهدد المسلمين في المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان من أوائل أعمال أبي بكر الصديق رضي الله عنه القضاء على المرتدين، فأرسل ثلاثة جيوش لمحاربة مسيلمة، الذي ازدادت قوته بعد انضمام قبائل أخرى منها بنو تميم لفترة مؤقتة إليه، إلى أن تمكن المسلمون من القضاء على رِدّته في معركة اليمامة المشهورة التي استشهد فيها

---

(١) الطبري، **تاريخه**، حوادث السنة الحادية عشر، ج ٣/ ٥١٤.
(٢) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ٢٤٨.
(٣) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ٢٤٨.

عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ تجاوز الثلاثمائة فيهم عدد كبير من الأنصار وكان فيهم زيد بن الخطاب أخو عمر (رضي الله عنهما) وأبو دجانة وغيرهم.[1]

وفود اليمن:

اليمن تشمل منطقة واسعة. وفي العصر النبوي وجد بها قبائل شتى. وكانت علاقة تلك المناطق بما فيها من قبائل وأفراد ومدن بالرسول ﷺ وبالإسلام في وقت مبكر من مبعثه ﷺ وقبل هجرته إلى المدينة المنورة، وكانت للقبيلة الواحدة أو المدينة الواحدة وفود متفرقة، وأحداث ذات صلة بالنبي ﷺ متعددة مما يصعب وضعها في إطار واحد.

وكان لإرسال النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه وبعض أمرائه إلى اليمن دور في قدوم مزيد من الوفود في أواخر حياة النبي ﷺ.[2] ومن أهم تلك الوفود:

وفد الأشعريين:

ينتسبون إلى أشعر بن زيد بن كهلان بن سبأ، وموطنهم باليمن.[3]

---

(١) راجع تفصيلات المعركة في: **الفتوح الإسلامية عبر العصور**، عبدالعزيز العُمري، ص١٠٣؛ والطبري، تاريخه، ج ٣/ ٢٥٢.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٥٩٢؛ مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٦٧٦.

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٩٧.

وحين أقبل وفدهم وفيهم أبو موسى الأشعري ﷺ قال ﷺ: «جاء أهل اليمن هم أرقُّ أفئدةً وأضعف قلوباً والإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية». (١)

وفي حديث آخر أنه ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب هم خيار من في الأرض». (٢)

كان فيهم إيمان وصدق وقبول لقول وأمر رسول الله ﷺ دونما تردد، وكان وصولهم مع وفد بني تميم في وقت واحد. عن عمران بن حصين ﷺ قال: (أتى نفر من بني تميم النبيَّ ﷺ فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا يا رسول الله ﷺ بشّرتنا فأعطنا؟ فرُئي ذلك في وجهه ﷺ، فجاء نفر من اليمن فقال: اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا: قبلنا يا رسول الله). (٣)

وقد ورد أنهم كانوا يتعلمون من النبي ﷺ ويسألونه عن أشياء ومنها سؤال عن بدء الخلق فكان مما قاله النبي ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض». (٤)

---

(١) رواه مسلم، انظر ابن القيم، **زاد المعاد**، ص ٦٦٧؛ ورواه البخاري، **كتاب المغازي**، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، ج ٥/ ١٢٢.

(٢) انظر: ابن القيم، **زاد المعاد**، ص ٦٦٧.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، **كتاب المغازي**، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، ج٥/ ١٢٢.

(٤) رواه البخاري، **كتاب بدء الخلق**، باب ما جاء في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ، ج٤/ ٧٣.

ويتضح من الروايات سبق إسلامهم، قبل وصول وفدهم إلى النبي ﷺ، بل ومشاركة بعض منهم في الهجرة الى الحبشة وفي فتح خيبر.[١]

وافد مراد (فروة بن مسيك):

مراد قبيلة مذحجيه من كهلان من سبأ الحميرية،[٢] وتقطن اليمن وتجاورها همدان، وتعد تابعة لملوك كنده في المنطقة.[٣]

وقد قدم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله ﷺ في المدينة المنورة مسلماً في السنة التاسعة للهجرة، وتحدث مع رسول الله ﷺ عن مصاب قومه في معاركهم مع همدان، فقال له ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً».[٤]

واستعمله الرسول ﷺ على عدد من القبائل اليمن.

وفد همدان:

همدان قبيلة يمنية تعود إلى كهلان بن سبأ.[٥] موطنها اليمن في نواحي السكون[٦] وحاشد، وتجاور

---

(١) انظر: فتح خيبر من هذا الكتاب.
(٢) ابن حزم، جهرة أنساب العرب، ص ٤٠٦، ٤٠٧.
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٥٨١.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٥٨٣.
(٥) ابن حزم، جهرة انساب العرب، ص ٣٩٢.
(٦) السكون والسكاسك مخلاف في اليمن ينسب إلى قبيلة بنفس الاسم، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣ / ٢٢٩.

الأشعريين.[١] وقد وصل بعضهم إلى مكة، واتصلوا بالرسول ﷺ قبل بيعة العقبة الأولى وسمعوا منه، كغيرهم أثناء عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل قبل الهجرة،[٢] حتى زادت معرفتهم بالإسلام وتراكمت.

فقدم وفدهم إلى المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة، بعد عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك،[٣] وفيه عدد من زعمائهم، ولهم ملابس خاصة ومراكب مميزة: (عليهم مقطعات الحبرات، والعمائم العدنية برحال الميس، على المهرية والأرحبية).[٤]

والقوم يرتجزون بأبيات شعرية، وقد لفت مظهرهم ونشيدهم أنظار أهل المدينة، فجاءوا مقرين لرسول الله ﷺ، فقام مالك بن نمط زعيمهم فقال: (يا رسول الله ﷺ نصية[٥] من همدان من كل حاضرٍ وبادٍ أتوك على قُلُص نَواجٍ، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف

---

(١) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص ١٠١، ١٠٥.

(٢) انظر: عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل من هذا الكتاب.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ١/ ٣٤١؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٨٨.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٧، ٥٩٨. (ورِحَال الميس رحال مصنوعة من خشب الميس، والمهرية والأرحبية: إبل تنسب إلى قبيلة مهرة باليمن وقبيلة أرحب، ابن هشام، ج٤/ ٥٩٧ هامش رقم: ٣، ٤، ٥)

(٥) النَصِية الخيار من القوم.

خارف ويام شاكر، أهل السود والقود، أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الإلهات والأنصاب، عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع وما جرى اليعفور بصلع).[١]

وقد كتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً في حمى مناطقهم.[٢]

وفد كنده:

كنده قبيلة يمنية مشهورة ترجع إلى كهلان بن سبأ.[٣] وموطنها الأصلي في اليمن نواحي السكاسك والسكون، وتمتد إلى مناطق مختلفة في بلاد العرب، وفيها سلطة وملوك تصل إلى أطراف الشام. وقد وصل الإسلام إليهم في اليمن وأسلموا قبل وصولهم إلى المدينة، كما يظهر من بعض النصوص، وقد قدم وفدهم فيه ثمانون رجلاً، عليهم الأشعث بن قيس الكندي من كندة اليمن الأصلية، (فدخلوا على رسول الله ﷺ في مسجده وقد رجّلوا جُمَمهم وتكحلوا وعليهم جبب الحبرة، وقد كفتوها[٤] بالحرير، فدخلوا على رسول الله ﷺ فقال: ألم

---

(١) اليعفور وصلع، قيل اليعفور اسم ماء يجرى بجبل صلع في نواحيهم والنص عن ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٨؛ وانظر: هامش ٧، ٨.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٨

(٣) انظر: السمعاني، **الأنساب**، ج ١٠/ ٤٨٥، ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٢٥.

(٤) الكَفت: هو التكفيف للقماش. انظر: حاشية ابن هشام في السيرة، رقم: ٥، ج٤/ ٥٨٥.

تسلموا؟ قالوا: بلى، قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم، قال: فشقوه منها فألقوه). [1]

وقد حصل تردد من الأشعث بن قيس بعد وفاة النبي ﷺ، إلا أنه تاب، ولزم الإسلام، وتزوج أخت أبي بكر الصديق رضي الله عنه أم فروة، وكان له بلاء حسن في فتوحات الإسلام زمن الصديق وعمر رضي الله عنه. [2]

وفد الأزد و(جُرش):

الأزد هم أزد شنوءة، ويعودون إلى كهلان بن سبأ، [3] ومواطنهم نواحي جُرش من أرض اليمن. [4]

وقد قدم صرد بن عبد الله الأزديّ في وفد من قومه على رسول الله ﷺ في المدينة في السنة التاسعة للهجرة، [5] فأسلم ومن معه وحسن إسلامهم، فأمره الرسول ﷺ ومن أسلم معه بجهاد المشركين في نواحيهم: (فخرج صرد بن عبد الله يسير بأمر الرسول ﷺ، حتى نزل بجُرش وهي يومئذ مدينة معلقة، وبها قبائل من قبائل اليمن وقد ضوت إليهم خثعم فدخلوها

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٥/ ٥٨٥.

(٢) انظر: ترجمته عند: ابن حجر، **الإصابة**، ج ١/ ٥١، وابن سعد، **الطبقات**، ج٦/ ٢٢؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢/ ٣٧.

(٣) السمعاني، **الأنساب**، ج ١/ ١٩٨.

(٤) انظر: **ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2/ 11**.

(٥) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٨٧.

معهم، حيث سمعوا بسير المسلمين إليهم فحاصروهم فيها قريباً من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر، ظن أهل جُرش أنه إنما ولّى عنهم منهزماً، فخرجوا في طلبه حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً شديداً.

كان أهل جُرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشية بعد صلاة العصر، إذ قال رسول الله ﷺ: بأي بلاد الله شكر؟ فقام إليه الجُرشيان فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر، وكذلك يسميه أهل جُرش، فقال إنه ليس بكشر ولكنه شكر، قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال إن بُدْنَ الله لتنحر عنده الآن، قال: فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان فقال لهما: ويحكما إن رسول الله ﷺ لينعى لكما قومكما، فقوما إلى رسول الله ﷺ فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال: اللهم ارفع عنهم فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبد الله في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر.[1]

لقد أثرت هذه الحادثة على أهل جُرش، فأعدوا وفداً خاصاً

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٨٧، ٥٨٨.

قدم على رسول الله ﷺ في المدينة وقابلوه وأعلنوا إسلامهم، وكتب لهم رسول الله ﷺ وحَمى لهم حِمَى لقريتهم خاصة يُمنع منه الآخرون.[١]

وفد الحارث بن كعب:

بنو الحارث بن كعب قبائل متعددة تعود في أصلها إلى كهلان بن سبأ.[٢] ومواطنهم نواحي نجران.[٣]

وعرفوا بين العرب بالشدة والقوة، وسيطرتهم على كثير من نواحي نجران وما جاورها. وقد بعث إليهم رسول الله ﷺ في أوائل السنة العاشرة للهجرة خالد بن الوليد في جيش من المسلمين، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة أيام، ويقبل منهم إن أسلموا ولا يقاتلهم، فوصل خالد إلى مناطقهم وبث الركبان في كل اتجاه يدعون بني الحارث إلى الإسلام مبلغين إياهم: أيها الناس أسلموا تسلموا، فأسلم الناس،[٤] فبقي فيهم خالد ومن معه من جند الصحابة يعلمهم الإسلام، ويقرئهم كتاب الله، ويعلمهم سنته ودينه.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٥٨٨؛ وانظر: مهدي رزق الله، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، ص ٦٥٥.

(٢) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص ٤١٦.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٣؛ وانظر: محمد بن عوض العتيبي، **نجران في عصر النبوة والخلافة الراشدة**، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ والحضارة، جامعة الإمام.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٥.

وفرح خالد بن الوليد ومن معه ﷺ بذلك،[1] وكفى الله المؤمنين القتال وكتب خالد ﷺ إلى رسول الله ﷺ وكان مما جاء في كتاب خالد: (أسلموا ولم يقاتلوا وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عن ما نهاهم عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة نبيه ﷺ حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته). وقد رد عليه الرسول ﷺ وطلب منه أن يُقبل ومعه وفد منهم،[2] فأقبل خالد إلى المدينة ومعه وفد منهم فيه عدد من زعمائهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم، قال: مَنْ هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل: يا رسول الله: هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب، (فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله وأنه لا إله إلا الله، قال رسول الله: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله، ثم قال رسول الله ﷺ: أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا، فسكتوا فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثالثة، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استقدموا، قالها أربع مرات، فقال رسول الله ﷺ: لو أن خالداً لم يكتب إلي أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا، لألقيت رؤوسكم تحت

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٣.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٣.

أقدامكم، فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا، قال: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله عزّ وجلّ الذي هدانا بك يا رسول الله، قال: صدقتم، ثم قال: بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: لم نكن نغلب أحداً. قال بلى. قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم. قال صدقتم، وأمَّر عليهم قيس بن الحصين).[1]

وبعد أن عاد الوفد إلى مواطنهم بعث إليهم رسول الله ﷺ عمرو بن حزم معلماً ومفقهاً لهم وأميراً على الصدقات فيهم وبعث معه كتاباً وافياً، تبشير ونذارة، وبيان بأنصبة الزكاة الواجبة.[2]

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٥.

(٢) انظر: نص الكتاب عند ابن هشام، ج ٢/ ١٠١٤ ـ ١٠١٥؛ وانظر: تخريجه والحكم عليه عند مهدي زق الله، ص ٦٦؛ وانظر: محمد بن عوض العتيبي، **نجران في عصر النبوة والخلافة الراشدة**، رسالة ماجستير، ص٧٥.

وفود نصارى العرب[1]

كانت النصرانية تنتشر في عدد من الحواضر والقبائل في بلاد العرب، وكان أهلها أهل كتاب ذوي علم، وقد وصلتهم دعوة النبي ﷺ، فكان لبعضهم وفود وأفراد قابلوا الرسول ﷺ وآمنوا به.[2] وكانت صلات رسول الله ﷺ تحقيقاً لعالمية رسالته ورحمته الشاملة لكل أهل الأرض، كما أن علمهم بالأنبياء السابقين، وانتظارهم لآخر الأنبياء وخاتمهم كان مما يميزهم عن غيرهم ومن وفودهم.

وفد الداريين:

ينتسبون إلى الدار، بطنٌ من لخم، ومواطنهم نواحي متفرقة من فلسطين والشام بالقرب من بيت لحم والرملة وغيرها.[3]

---

(١) انظر: د. فاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٦هـ.

(٢) انظر: الفصل الخاص بالوفود عند فاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، ص ٩٣.

(٣) انظر: فاروق حمادة، **مرجع سابق**، ص ١٥٧.

وهم من نصارى العرب الذين وصلتهم دعوة الإسلام، وقد قدم عشرة منهم إلى النبي ﷺ في المدينة بعد عودته من تبوك، كانوا نصارى فأسلموا وقدموا للقاء النبي ﷺ فيهم تميم الداري وأخوه نعيم، وقد أقطع الرسول ﷺ تميماً أرضاً بالشام، وهي لم تفتح بعد. وكان الرسول ﷺ على يقين بفتحها في القريب، وكان تميماً مصدقاً بذلك مؤمناً به ولذلك استقطع النبي ﷺ أرضاً، فلما فتحت الشام في زمن أبي بكر الصديق أعطاه تلك الأرض.[1]

وقد اشتهر حديث تميم الداري عن الدجال، حيث سمعه منه النبي ﷺ، وجمع الناس في مسجده ليسمعوا منه قصته، التي من خلالها يتضح ركوب تميم الداري البحر قبل وصوله إلى المدينة المنورة.[2]

وفد تغلب:

تغلب إحدى القبائل العربية التي تنتسب إلى تغلب بن وائل من ربيعة بن نزار العدنانية، وهي بطون كثيرة،[3] وتسكن شمال الجزيرة العربية وتمتد بعض بطونهم إلى الشام والعراق.

---

(١) انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢/ ٤٤٢.

(٢) انظر: الإمام مسلم في صحيحه، **الفتن واشراط الساعة**، باب قصة الجساسة، ص٤٣٢٥؛ **سير أعلام النبلاء**، ج ٦/ ٣٧٣، ج ٢/ ٤٤٢، حاشية رقم: ٢.

(٣) السمعاني، **الأنساب**، ج ٣/ ٦٢؛ ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٣٠٣.

وكانت إحدى أهم قبائل العرب النصرانية، فيها العلماء والأحبار النصارى ذووا التأثير بين قومهم وغيرهم من القبائل، وذووا الصلة بالروم ونجران، بل وحتى الحبشة.

وفي السنة العاشرة للهجرة قدم وفد منهم فيهم ستة عشر رجلاً،[١] بعضهم على النصرانية وبعضهم سبق إسلامهم، وقد أنزلهم رسول ﷺ في دار رملة بنت الحارث[٢]، حيث كان ينزل الضيوف. وقد سمعوا من النبي ﷺ وعقدوا معه صلحاً، وعند فتح العراق عاندوا، ولحق بعضهم بالروم ونقضوا عهدهم، فكانت لهم معاملة مختلفة من عمر نتيجة مخالفتهم للعهد.[٣]

وفود طي:

طي قبيلة عربية قحطانية تعود إلى كهلان بن سبأ.[٤] ومساكنهم نواحي جبلي أجا وسلمى شمالي نجد وتسمى جبلي طي،[٥] وتمتد إلى العراق والأطراف الجنوبية لبلاد الشام إضافة إلى شمال الجزيرة العربية.[٦]

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ١/ ٣٦١.

(٢) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤/ ٣٠٥

(٣) يحيى بن آدم، **الخراج**، ص ٢٠٠؛ القاسم بن سلام، **الأموال**، ص ٣٦؛ والبلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٥١.

(٤) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، **السمعاني**، **أنساب العرب**، ج ٨/ ١٨٧.

(٥) الهمذاني، **صفة جزيرة العرب**، ص ٢٦٦؛ عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب**، ج٢/ ٦٨٨.

(٦) ابن حزم، **جمهرة انساب العرب**، ص ٣٩٩، ٤٠٠.

قدم وفد من طي على رسول الله ﷺ في السنة التاسعة للهجرة،[١] وكان فيه سيدهم زيد الخيل، وهو ابن مهلل بن زيد من الغوث من طي.[٢] وكان زيد شاعراً مشهوراً من فرسان الجاهلية، ذاع صيته بين العرب واشتهر بالكرم، وقد أسلم ومن معه بعد لقائهم رسول الله ﷺ وحُسن أسلامهم.

وأورد ابن هشام أن رسول الله ﷺ قال عنه: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه، ثم سماه رسول الله ﷺ زيد الخير وأقطع له فيداً[٣] وأرضين معه وكتب له بذلك»،[٤] وعند عودته إلى نجد توفي بسبب الحمى،[٥] وقيل إنه عاش إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.[٦]

وفد فروة بن عمرو الجذامي:[٧]

جذام قبيلة عربية من كهلان من القحطانيين، ومواطنهم مما

---

(١) ابن حجر، **الإصابة**، ج ١/ ٥٧٢.

(٢) ابن حزم، **جمهرة انساب العرب**، ص ٤٠٤.

(٣) مكان معروف شرقي حائل حالياً.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٧٧؛ وانظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج١/ ٣٢١.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٧٨؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٣٥٥.

(٦) ابن حجر، **الإصابة**، ج ١/ ٥٧٢.

(٧) وضع ابن هشام في **السيرة النبوية** عنواناً إسلام فروة بن عمرو الجذامي، ص٥٩١.

يلي الروم من نواحي الأردن في معان وما جاورها إلى الغرب نواحي مدين غرب تبوك، وتمتد إلى فلسطين.[1] وكان فروة بن عمرو عاملاً للروم على عرب معان، وكان على النصرانية فبلغته دعوة رسول الله ﷺ، فأسلم وبعث وفداً إلى رسول الله ﷺ في المدينة ومعه هدية لرسول الله ﷺ، فلما علم الروم بإسلامه حبسوه ثم قتلوه، وذكر أنه لما قدم ليقتل بعث سلامه في أبيات لرسول الله ﷺ وللمسلمين منها قوله:

بلّغْ سراةَ المسلمين بأنني سَلْمٌ لربي أعظُمي ومقامي[2]

وفد غسان:

غسان قبيلة عربية مشهورة تعود في أصلها إلى الأزد.[3] وقد كان لهم حكم دمشق وما جاورها وما بينها وبين حمص، تابعين في ذلك للروم وعرف ملوكهم بملوك الغساسنة، وكانوا على النصرانية، ومع الروم في مواجهة الإسلام وقد قدم ثلاثة نفر منهم على النبي ﷺ في رمضان من السنة العاشرة للهجرة،[4] فأسلموا وعادوا إلى بلادهم ولم يظهروا إسلامهم

---

(١) فاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، ص ١٢٧.

(٢) انظر: تفاصيل الوفد عند ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٩٢.
ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٤٦.

(٣) انظر: فاروق حمادة، **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، ص١٥٥.

(٤) انظر: ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٣٣٨؛ ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٦٩.

خشية من الروم، وتوفي اثنان منهم قبل فتح الشام، وقدم الثالث على أبي عبيدة قبيل اليرموك فأكرمه.[1]

وفادة عدي بن حاتم الطائي:[2]

هو ابن لحاتم طي أشهر العرب الجاهليين بالكرم، أحد زعماء طي المشهورين، كان من زعماء النصرانية بين العرب[3] على الركوسية[4] وهي فرقة معروفة من النصارى في زمن النبي ﷺ، تربطه علاقات خاصة بنصارى عرب الشام، وخصوصاً الغساسنة ونصارى عرب العراق من المناذرة وغيرهم، إضافة إلى علاقته بقبيلته طي، حيث كان زعيماً من زعمائهم.

وقد وصلته أخبار الإسلام مبكرة وتردد في الاتصال برسول الله ﷺ والسماع منه، رغم أن خبر رسول الله ﷺ ذاع بين العرب والعجم، ولعل وصول زيد الخير «زيد الخيل» إلى النبي ﷺ مع بعض زعماء طي وإسلامهم قد أثر في عدي سلباً، حيث

---

(١) انظر: ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣ /٦٦٩؛ وابن سيد الناس، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٢٥٦.

(٢) وضع البخاري في صحيحه في **كتاب المغازي**، باب قصة وقد طي وحديث عدي بن حاتم.

(٣) عرف نصارى العرب باتباعهم للمذهب اليعقوبي في الشام والنسطوري في العراق، عبد العزيز الثعالبي، **محاضرات في تاريخ الأديان**، ص ١٤٨؛ الفيومي، في الفكر الديني الجاهلي، ص ٦٨.

(٤) الركوسية: فرقة لها دين ومذهب بين النصارى والصابئين عرفت زمن النبي ﷺ بين العرب، **المعجم الوسيط**، ص ٣٦٩.

يقول: بُعث النبي ﷺ (فكرهته أشد ما كرهت شيئاً قط، فانطلقت حتى أنزل أقصى العرب مما يلي الروم، فكرهت مكاني أشد مما كرهت مكاني الأول).[١]

لم يقدم على لقاء الرسول ﷺ إلا بعد أن أُسرت أخته، وأحسن الرسول ﷺ معاملتها وأسمعها ما توصله إلى عدي بن حاتم.

ذلك أن إحدى سرايا الرسول الله ﷺ بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه أغارت على بعض نواحي طي، في ربيع الآخر سنة تسع للهجرة، وكانت تهدف لهدم صنمهم (الغُلس)، وتمكنت من أسر بعض الطائيين وفيهم سفانة بنت حاتم طي أخت عدي،[٢] «فجعُلت بنت حاتم في حظيرة[٣] بباب المسجد كانت السبايا يحبسن فيها، فمرّ بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي منَّ الله عليك. قال: ومن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال الفارّ من الله ورسوله؟ قالت: ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني، حتى إذا كان من الغد مرّ بي، فقلت: له مثل ذلك وقال: لي مثل ما قال بالأمس. قالت: حتى إذا كان بعد الغد مرّ

---

(١) ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ١٤٢.

(٢) ابن سعد، **السيرة النبوية** (من الطبقات)، ج ٢/ ١٦٤.

(٣) هي السياج الخاص يوضع للأسرى،انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٥٧٩(حاشية رقم: ٣)

بي وقد يئست منه، فأشار إلي رجل من خلفه أن قومي فكلميه. قالت: فقمت إليه فقلت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي منَّ الله عليك، فقال ﷺ: قد فعلتُ فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني. فسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن أكلمه فقيل علي بن أبي طالب (رضوان الله عليه)، وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة، قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام. قالت فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني رسول الله ﷺ وحمّلني، وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام». [1]

كان عدي بن حاتم محتاراً بعد سبي أخته وفراره إلى الشام.

وبعد إكرام أخته ومغادرتها إلى الشام يصف عدي حال وصولها فيقول: (فوالله إني لقاعد في أهلي، إذ نظرت إلى ظعينة تصوّب إلي تؤمّنا، قال فقلت: ابنة حاتم؟ قال: فإذا هي هي، فلما وقفت عليّ انسحلتْ[2] تقول: القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقية والدك عورتك، قال: قلت: أي أخيّة لا تقولي إلا خيراً، فوالله ما لي من عذر لقد صنعت ما ذكرت. قال: ثم نزلَت فأقامت عندي، فقلت لها:

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٧٩.
(٢) رفعت صوتها باللوم والعتاب.

وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن، وأنت أنت. قال قلت: والله إن هذا الرأي). [1]

وقد توجه عدي بن حاتم بعد ذلك من الشام إلى المدينة المنورة لمقابلة رسول ﷺ، وذلك في أواسط السنة التاسعة للهجرة. [2]

وحين وصل المدينة استشرفه الناس، ويظهر أنه وصل بشكل ملفت للنظر سواء في لباسه أم موكبه، وربما من يرافقه، بحيث لفت أنظار أهل المدينة إليه، ثم دخل المسجد على رسول الله ﷺ فسلم عليه فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم (فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، قال قلت في نفسي: والله ما هذا بملك، قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها إليّ فقال اجلس على هذه قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال إيه يا عُدي بن حاتم ألم تك

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٨٠.

(٢) من رواية بن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٤٢.

ركوسياً؟ قال قلت: بلى. قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى، قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك; قال قلت: أجل والله. قال: وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل، ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، قال: فأسلمت، وكان عدي يقول قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة والله لتكونن، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وأيم الله لتكونن الثالثة ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه). [1]

وقد انتهت مقابلة عدي بإسلامه على يد رسول الله ﷺ عن قناعة تامة اتضحت من خلال حديثه عن لقائه مع رسول الله

---

(١) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ١٥٠، وانظر: رواية **البخاري في صحيحه**؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ١٤٢؛ وابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٨١.

ﷺ، ومن خلال ما رأى من تواضعه وكرمه وحسن خلقه ومعرفته بالنصرانية وأصلها وما أصابها من انحراف. وما كان يقوم به عدي من أخذ المرباع من النصارى وهو محرم عليه.

وهذا الحوار كان طويلاً، ولعله حاور الرسول ﷺ في أكثر من موقف وأكثر من يوم أثناء وجوده في المدينة، ومن ذلك أنه (دخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: بلى. إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم، وقال رسول الله ﷺ: يا عدي، ما تقول؟ أيفرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يفرك؟ أيفرك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله غير الله؟ ثم دعاه للإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق).[1]

وكان إسلام عدي بن حاتم دافعاً له للتعلم من الرسول ﷺ وسؤاله عن ما أشكل عليه. ومن ذلك ما ثبت في الصحيح (عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة فيمسكن عليّ، وأذكر اسم الله عليه، فقال: إذا أرسلت

(١) ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٧٤.

كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل، قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك سميت على كلبك ولم تسم على غيره، قلت له: فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب فقال: إذا رميت بالمعراض فخزق فكُلْه، وإن أصابه بعرضه فإنه وقيذ[1] فلا تأكله، وفي لفظ لهما إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله فإن أخذ الكلب ذكاته وفي رواية لهما فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه). [2] كما أنه ناقش في الصيام وطلوع الفجر. [3]

ولقد أحب عدي بن حاتم الدين وشعائره، حتى ورد عنه أنه رضي الله عنه قال: ما دخل وقت صلاة إلا وأنا أشتاق إليها. [4]

وقد ثبت أن عدي بن حاتم كان ثابتاً على الإسلام متعاوناً مع أبي بكر الصديق في خلافته زمن الردة، حيث ساهم في

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب صيد المعراض، ج ٦/ ٢١٨.
(والوقيذ: هو ما مات من الضرب ولم يجرح ويخرج منه دم وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ﴾[من الآية ٣ سورة المائدة].
(٢) ابن كثير، **تفسيره**، ج ١/ ٥٨٢، في تفسير سورة المائدة، وقد خرَّج الحديث.
(٣) ابن حجر، **الإصابة**، ج ٢/ ٤٦٨.
(٤) **المصدر السابق**.

جمع صدقات قومه والدفاع عن المسلمين ضد المرتدين. فقد أورد البخاري في صحيحه باباً سماه (قصة وفد طيء) وحديث عدي بن حاتم أورد فيه حديثاً عن عدي بن حاتم قال: أتينا عمر ابن الخطاب وفداً فجعل يدعو رجلاً رجلاً ويسميهم، فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال بلى، أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا، فقال عدي: فلا أبالي إذاً.[١]

وقد كان من أول من قدم بالصدقة على أبي بكر الصديق في المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، وكان له دور في ردع أناس من قومه ومنعهم من الردة.[٢]

كما شارك رضي الله عنه في الفتوح زمن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وشهد فتح العراق وفارس ومنها المدائن عاصمة الفرس، ورأى بنفسه كنوز كسرى بيد المسلمين، كما وعد الرسول ﷺ بذلك، وقد أقام في الكوفة وكان مع علي رضي الله عنه.[٣]

وفد نصارى نجران:[٤]

نجران منطقة واسعة في جنوب الجزيرة العربية،[٥] تقطنها

---

(١) صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، ج ٥/ ١٢٣.
(٢) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ٢/ ٣٢٨.
(٣) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ٢/ ٣٢٩.
(٤) وضع البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، ج ٥/ ١٢٠.
(٥) الحموي، **معجم البلدان، ج ٥/ ٢٦٦**.

قبائل متعددة وبها حواضر مختلفة، وقد انتشرت فيها النصرانية وقويت قبل الإسلام.

كانت ترتبط بعلاقات قوية مع نصارى العرب في بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية، وكذلك الحبشة،[١] ويقع بينهم تبادل ثقافي ديني، حيث ينتقل علماء النصرانية العرب، منها وإليها، ولذلك عُدت معقلاً قوياً للنصارى في عهد النبي ﷺ.[٢] وقد عرفوا دعوة الرسول ﷺ قبل هجرته إلى مكة،[٣] كما ثبت بطرق مختلفة سماع الرسول ﷺ لقس بن ساعدة الإيادي أسقف نجران في زمانه وهو يخطب في سوق عكاظ.[٤]

وقد عُدت نجران المركز الرئيسي للنصرانية جنوب بلاد العرب، ولها تنظيمها وإدارتها ومناصبها وعليها (العاقب)، وهو كما يقول أهل السّيَر: أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه و(السيد)، وهو ثِمالُهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم «مسؤول مالي واجتماعي» و(الأسقف)، وهو حَبْرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم والسيد وإليهما إدارة

(١) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ٦/ ٦١٤.
(٢) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ٦/ ٦١٦.
(٣) انظر: محمد بن عوض العتيبي، **نجران في عصر النبوية والخلافة الراشدة**، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام، ص ١٩.
(٤) انظر: جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ٦/ ٦١٦.

الجماعة، والإشراف على شؤونهم السياسية والمالية، ويدير ما يحتاج المجامع إليه من بقية الشؤون.[1]

ولم تكن الرئاسة في نصارى نجران منصباً قبلياً، بل تتبع مراجع دينية بعيداً عن العصبية القبلية، حيث شارك فيها أقوام من قبائل شتى.[2]

كتب رسول الله ﷺ إلى نصارى نجران كتاباً.

فلما أتى الأسقفَ الكتابُ فقرأه فظع به، وذعره ذعراً شديدًا، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعة ــ وكان من همدان ولم يكن أحد يُدعى إذا نـزلت معضلة قبله، لا الأيهم ولا السيِّد ولا العاقب ــ فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل، فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمَن أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيي، وجهدتُ لك، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس. فتنحَّى شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: عبد الله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حِمْير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه،

---

(١) منقولاً عن: جواد علي، **المفصل**، ج ٦/ ٦١٧.

(٢) انظر: جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ٦/ ٦١٨.

فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: فاجلس، فتنحى فجلس ناحية. وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: جبار بن فيض، من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه؟ فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية.

فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعًا، أمر الأسقف بالناقوس فضُرب به، ورُفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله ــ وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل. فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأيُ أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني).[1]

ونتيجة تباحث علمائهم وتبادل الرأي قدم منهم (ستون راكباً: منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم (العاقب) أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبد المسيح (والسيد) ثِمالهم وصاحب رحلهم

(١) ابن كثير، **تفسيره**، ج ١/ ٣٧٠، ٣٧١.

ومجتمعهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر ابن وائل (أسقفهم) وحبرهم وإمامهم وصاحب مِدارسهم.

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه، من علمه واجتهاده في دينهم.

وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللا لهم يجرونها، من الحِبرة وخواتيم الذهب ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه، فلم يرد عليهم السلام وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وكانا معرفة لهم، كانا يخرجان العير في الجاهلية إلى نجران فيُشترى لهما من بُرّها وثمرها وذُرَتها، فوجدوهما في ناس من الأنصار والمهاجرين في مجلس فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد علينا سلامنا وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما أنعود؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان وعبد الرحمن (رضي الله عنهما): أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يأتوا إليه، ففعل الوفد ذلك فوضعوا

حللهم وخواتيمهم ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه فردّ سلامهم.[1]

وحينما قابلوا الرسول ﷺ قال: رسول الله ﷺ لأسقف نجران: «يا أبا الحارث أسلم، فقال: إني مسلم، قال: يا أبا الحارث أسلم، قال: قد أسلمت قبلك، قال نبي الله: كذبتَ، منعك من الإسلام ثلاثة: دعاؤك لله ولداً، وأكلُك لحم الخنزير، وشربك الخمر».[2]

وقد دارت بينهم وبين رسول الله ﷺ مناقشات طويلة، حيث قال رئيسهم لرسول الله ﷺ تشتم صاحبنا وتقول إنه عبد الله، ثم قال أحدهم مَنْ أبو عيسى؟ من أبو عيسى؟ فسكت النبي وكان لا يعجل حتى يكون ربه هو يأمره، فأنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦١].

وحينما نزلت آيات الملاعَنَة على رسول الله ﷺ دعاهم إلى

---

(١) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٢٩ ـ ٦٣٣.

(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٠٩؛ وانظر: ابن حجر، **فتح الباري**، ج١٦/ ٢٥٩؛ وعمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ١/ ٥٨٣.

الملاعنة، وواعدهم من الغد، فتشاوروا فيما بينهم وكانوا من علماء النصارى فقال بعضهم فوالله إن كان نبياً فلاعّناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا،[1] وقال: (لأنْ كان الرجل نبياً فلاعّناه لا يبقى على وجه الأرض منّا شعر ولا ظفر إلا هلك).[2]

ثم إن بعضهم عندما رأوا إنصاف رسول الله ﷺ وحسن حديثه وصدقه أجمعوا على أن ينزلوا تحت حكمه وبما يأمر ولا يلاعنوه، حيث قال زعيمهم شرحبيل: (إني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً).[3]

فلما أقبل رسول الله ﷺ من الغد كان معه فاطمة والحسن والحسين وعلي (رضي الله عنهم أجمعين)، فدعاهم النبي ﷺ فخافوا ولجأ بعضهم في نواحي المسجد لما يعلمون من إجابة دعوته خوفاً أن يدعو عليهم، ثم أقبل زعيمهم شرحبيل على رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت خيراً من ملاعنتك، قال ﷺ: وما هو؟ فقال: حكمك إلى الليل وليلتك إلى الصباح مهما حكمت فينا فهو جائز، فقال ﷺ لعلّ وراءك أحد يثرب عليك، فقال: سَلْ صاحبي، فسأله ما يَرِدُ الوادي ولا يَصْدُرُ إلا عن رأي شرحبيل، فرجع ﷺ ولم يلاعنهم، فأتوه في الغد وصالحهم وكتب لهم كتاباً جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب

---

(١) عمر بن شبه، **تاريخ المدينة**، ج ٢/ ٥٨٤.
(٢) ابن كثير، **تفسيره**، ج ١/ ٣٧١.
(٣) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٤٣.

محمد النبي رسول الله لأهل نجران، إذ كان حكمه عليهم، أن في كل بيضاء وسوداء وصفراء وتمرة ورقيق، وأفضل عليهم وترك ذلك لهم، على ألفي حلّة في كل صفر ألف حلّة، وفي كل رجب ألف حلة مع كل حلة أوقية، ما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقي فبحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بحساب، وعلى نجران مثواة رسلي ومتعتهم بها عشرين فدونه، ولا يحبس رسول فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، إذا كان كيد باليمن ومعذرة، وما هلك مما أعاروا رسولي من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسولي حتى يؤديه إليهم، ولنجران وحسبها جوار الله وذمة محمد النبي على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم، وأن لا يغيّروا مما كانوا عليه، ولا يُغير حق من حقوقهم، ولا ملتهم ولا يُغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا وافهٍ عن وَفَهيّته،[1] وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس عليهم ريبة ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصَف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما في

(١) الوفهية: هي البيعة، والوافه: هو القيم على البيعة، انظر: هامش (٢) عند عمر بن شبة في **تاريخ المدينة**، ج ٢/ ٥٨٥.

هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم).[1]

وفي هذه الحادثة نزلت الآيات من سورة آل عمران ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٤]. وفي أول الآيات وآخرها مناقشة عامة للنصارى في كل زمان ومكان ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]، وكثير من النصارى في هذا الزمان يعلمون حقيقة رسالة محمد ونبوءته كما علمها نصارى نجران في حينه، لكنه عصيان لله ولمن أرسله الله.

وحين اتفق الرسول ﷺ مع نصارى نجران طلبوا منه أنْ:

---

(١) عمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ٢/ ٥٨٤ ـ ٥٨٦؛ وانظر: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص٧٣؛ وابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٣٥٨.

(ابعث معنا رجلاً أميناً؟ فقال ﷺ لأبعثن معكم رجلاً حق أمين، حق أمين، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فأرسله معهم).[1]

وحينما عاد الوفد إلى نجران دافعوا عن أنفسهم أمام قومهم وأنهم كتبوا العهد ودفعوا الجزية خشية دعائه عليهم، واظهروا معرفتهم بنبوته. ومع ذلك لم يسلموا، فبادر اثنان منهم إلى اللحاق فوراً برسول الله ﷺ في المدينة، وقد أسلم أحدهما ويسمى بشر، ولحق برسول الله ﷺ حتى استشهد بعد ذلك.[2]

وقد بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة إلى نجران، فكان قدوة حسنة داعية مباركاً، وعاملاً إدارياً مالياً قام بمهمته خير قيام.[3] وقد كانت تجري بينه وبين علماء النصارى في نجران مناقشات علمية حول ما نزل في القرآن، وكذلك بينهم وبين بقية الصحابة الآخرين الذين كان يبعثهم رسول الله ﷺ إلى نجران، ومن ذلك ما رواه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا لي: إنكم تقرأون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٨٠]. وبين موسى وعيسى ما شاء الله من السنين فلم أدر ما أجيبهم به، حتى رجعت إلى النبي

---

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٠٨؛ وانظر **صحيح البخاري**، **باب قصة أهل نجران**، ج٥/ ١٢١.

(٢) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج٣/ ٦٣٧؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٥/ ٥٥.

(٣) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٠٩.

ﷺ فسألته فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسمَّون بأنبيائهم والصالحين من قبلهم». [1]

وقد بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إليهم في السنة العاشرة للهجرة بقبض جزيتهم وصدقات مسلمي نجران، فقدم على النبي ﷺ في الحج (حجة الوداع). [2]

وقد مرت بقية حياة النبي ﷺ مع نصارى نجران بسلام، وكان العهد قائماً بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وبعد وفاته ﷺ ظهرت الردة في نواحٍ كثيرة، ومنها منطقة نجران في بعض من أسلم منهم، ولا يستبعد أن هناك من شارك حركة الردة في العصيان العسكري من غير المسلمين من أهل المنطقة، سواء من النصارى أم غيرهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة.

لكن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مضت ولم يحدث بين نصارى نجران وبين المسلمين خلاف يذكر.

وحينما جاء عهد عمر رضي الله عنه وفتحت الأمصار انتقل كثير من القبائل من بلاد العرب إلى البلاد المفتوحة، وخصوصاً

---

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٠٩؛ والحديث أخرجه مسلم من طريق ابن أبي شيبة؛ وانظر: ابن كثير، **تفسيره**، ج ٢/ ١١٨٥.

(٢) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٦٣٧؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٠؛ وانظر: حجة الوداع، من هذا الكتاب.

المشاركة في الفتوح. وكان نصارى نجران مستقلين عن الدولة الإسلامية، لا مشاركة لهم في الفتوح بحكم بقائهم على دينهم، فتاقت أنفسهم لأخذ أراضٍ جديدة، وما كان يحق لهم ذلك لعدم إسلامهم ومشاركتهم. وفي الوقت نفسه كانت أعدادهم في نجران تزيد وخطورتهم على المسلمين محتملة.

وأورد بن أبي شيبة بسنده قال: (كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفاً، قال: وكان عمر يخافهم أن يميلوا على المسلمين فتحاسدوا بينهم، قال: فأتوا عمر، فقالوا: إنا قد تحاسدنا بيننا فأجْلِنا، قال: وكان رسول الله ﷺ قد كتب لهم كتاباً أن لا يُجلوا، قال: فاغتنمها عمر فأجلاهم، فندموا، فأتوه فقالوا أقِلنا، فأبى أن يقيلهم، فلما قدم علي أتوه فقالوا: إنا نسألك بخط يمينك وشفاعتك عند نبيك ألا أقلتنا، فأبى وقال: ويحكم، إن عمر كان رشيد الأمر، قال سالم: فكانوا يرون أن علياً لو كان طاعناً على عمر في شيء من أمره طاعناً عليه في أهل نجران)،[1] كما يتضح من النصوص أن عمر اشترى بياض أرضهم وكرومهم.[2]

وقيل إن سبب قدومهم على عمر رضي الله عنه أنهم أكلوا الربا، وقد شُرط عليهم عدم التعامل به في عهدهم مع الرسول ﷺ فخشوا

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٠٨.
(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٠٧.

من انتقام عمر وبادروا بطلب الرحيل إلى العراق والشام. ومن الواضح من الروايات المختلفة أنهم هم الذين استبدلوا عهدهم من النبي ﷺ في نجران بمناطق جديدة من الفتوح عوضوا بها عن مناطقهم في نجران بناءاً على طلبهم، كما دُفع إليهم أموال مقابل مزارعهم وكرومهم، ولكنهم ندموا على ذلك وحاولوا الاستعفاء من الأمر فرفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد أن مضى الاتفاق معهم على ذلك، فكان أن رحلوا إلى العراق مع كتاب من عمر إلى الأمراء لتسهيل أمورهم وإعطائهم من الأرض، جاء فيه (هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران من سار منهم أنه آمِنٌ بأمان الله لا يضرهم أحد من المسلمين، وفاء لهم بما كتب لهم رسول الله ﷺ وأبو بكر، أما بعد: فمن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من جريب الأرض فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة وعقبة لهم بمكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم، أما بعد: فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن تقدموا، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التي اعتملوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم، شهد عثمان بن عفان ومعيقب بن أبي فاطمة، فوقع ناس منهم بالعراق فنزلوا النجرانية التي بناحية الكوفة). [1]

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١/ ٣٥٨.

هدم الأصنام

كانت الأصنام تنتشر في بلاد العرب في كل مكان، وفي مكة وضعت داخل المسجد بجوار الكعبة، وقد ورد ذكر لبعضها بأسمائها في القرآن الكريم، كاللات والعزى ومناة. وكانت قبائل العرب تفتخر بها وتعبدها من دون الله تعالى. وقد ورد العديد من الآيات القرآنية في التحذير منها وبيان حرب الأنبياء لها عبر العصور: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وكان همّ رسول الله ﷺ انتزاع ما في قلوب الناس من اعتقاد وشِرك، وتحطيم تلك الأصنام وتدميرها تماماً ومحوها مادياً من الوجود، ولذلك بادر ﷺ بنفسه بتحطيم الأصنام المحيطة بالكعبة وفي الحرم على مرأى ومسمع من الناس يوم الفتح من ساعته، وكان ﷺ يردد: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. (١) واستهدف ﷺ تحطيم الأصنام في أي مكان

(١) انظر: فتح مكة، من هذا الكتاب.

تصل إليه يده ﷺ، فبعث السرايا من عنده في كل اتجاه للقيام بهذه المهمة منذ فتح مكة، وهابته العرب وسيطر على مناطقها، حيث حرص على إزالة الأصنام وتحطيمها في الواقع وفي نفوس أصحابها عُبَّاد الأوثان، ومن تلك السرايا المتخصصة بتحطيم الأصنام:

سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم العُزى:[1]

كانت العزى صنماً في نخلة شرق مكة بينها وبين الطائف في منطقة هذيل.[2] وكانت تعبد من دون الله وهي التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠]. وكان العرب يدعونها ويرفعون ذكرها من دون الله،[3] ولذلك نجد أبا سفيان يرفعها شعاراً في أُحُد حينما قال: (لنا العُزّى ولا عُزّى لكم)، فأمر الرسول ﷺ بالرد عليه (الله مولانا ولا مولى لكم).[4] وقد بعث رسول الله ﷺ خالد ابن الوليد في سريه لهدم العزى بعد فتح مكة فذهب إليها فهدمها في قصة طويلة.[5]

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٣٦؛ عنوان مسيرة خالد بن الوليد لهدم العزى.

(٢) انظر: ابن الكلبي، **الأصنام**، ص ١٦؛ وجواد علي، **المفصل**، ج ٧٧/ ٢٣٥.

(٣) انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب التفسير**، سورة النجم، باب أفرأيتم اللات والعزى، ج٦/ ٥١؛ ابن كثير، **تفسيره**، ج ٢/ ١٧٨٠.

(٤) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٢٣٨؛ وانظر: غزوة أحد من هذا الكتاب.

(٥) انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ١٤٥.

سريه عمرو بن العاص ﷺ لهدم سُواع:[1]

سُواع صنم عند هذيل شرقي مكة، وقد ورد ذكرها في القرآن في قوله تعالي: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. وقد بعث إليه رسول الله ﷺ عمرو بن العاص بعد فتح مكة في سريه خاصة ليهدمه، وقد زعم سادنه أنه يدافع عن نفسه، وأن عمراً لا يستطيع هدمه، لكنه حينما رأى السادِنُ أنه يُهدم حجراً حجراً ولا ينفع نفسه ولا يضر غيره، أسلم بعد ذلك وهُدم هذا الصنم إلى الأبد.[2]

سريه سعد بن زيد الأشهلي ﷺ لهدم مَناة:

كانت مَناةُ صنماً في نواحي[3] المشلل عند قديد[4] بين مكة والمدينة، وتعبده العرب عموماً ومشركو الأوس والخزرج خصوصاً، وتتقـــرب إليه وهو الوارد في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٠ ـ ٢١].

وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري في جيش من المسلمين لهدمها بعد فتح مكة، فتمكن من تحطيم الصنم

---

(١) هو: صنم قديم ببطن نخلة شرقي مكة. جواد علي، **المفصل**، ج ٦/ ٢٥٧.

(٢) انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن**، ج ١/ ١٩٢٣.

(٣) انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن**، ج ٢/ ١٧٨١.

(٤) جواد علي، **المفصل**، ج ٦/ ٢٤٦؛ وانظر: الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام من هذا الكتاب.

والقضاء عليه دون مقاومة من سدنته الذين يزعمون أنها تدافع عن نفسها. وهكذا حُطم الصنم في الواقع وفي النفوس.[1]

سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهدم االفُلس في طيء:[2]

كانت سريه علي رضي الله عنه في السنة التاسعة للهجرة في ربيع الآخر، فأغار على طيء وحطم صنمهم وغنم خزينته، وأسر بعض القوم وكان في الأسرى سفانة بنت حاتم طيء وكانت سبباً في قدوم أخيها عدي وإسلامه.[3] كما مرَّ ذكره والتفصيل فيه.[4]

سرية الطفيل بن عمرو رضي الله عنه لهدم صنم ذو الكفين في دوس:

بعد غزوة حنين مباشرة، وجه الرسول ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي لهدم صنم يسمى ذا الكفين في قبائل عمرو بن حمحمة، فتوجه إليه وهدمه وحرقه، ثم عاد وقابل الرسول ﷺ أثناء حصار الطائف.[5]

---

(١) انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢/ ١٤٦؛ والهيثمي، **شرح المواهب اللدانية**، ج٢/ ٣٤٨.

(٢) ابن القيم، **زاد المعاد**، ج ٣/ ٥١٧

(٣) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ١٤٨؛ البخاري، صحيحه، **كتاب المغازي**، حديث رقم: ٤٣٤٠؛ ابن سعد، **السيرة النبوية من الطبقات**، ج ٢/ ١٦٤.

(٤) انظر: وفود نصارى العرب من هذا الكتاب (وفادة عدي بن حاتم).

(٥) انظر: ابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ١٥٧؛ والواقدي، **المغازي**، ج ٣/ ٩٢٢؛ محمد الصلابي، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٦٦.

سرية جرير بن عبد الله البَجَلي ﷺ إلى ذي الخلصة:[1]

كان في نواحي بجيلة في اليمن في قبيلة خثعم يقال له ذي الخلصة،[2] وكان مقصداً للقبائل في تلك الناحية حتى أن بعضهم سمى نصباً له بالكعبة.

فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبد الله: «ألا تريحني من ذي الخلصة»، فقال جرير: بلى يا رسول الله، وكان ﷺ لا يثبت على الخيل، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعا له وضرب على صدره قائلاً: «اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً، فما وقع عن فرسه بعد ذلك». وقد توجه جرير ومعه خمسون فارساً من أحمس إلى ذي الخلصة فهدمه، وأرسل بشارة ذلك لرسول الله ﷺ. وقد روى البخاري في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال: (قال لي رسول الله ﷺ: ألا تريحني من ذي الخلصة. فقلت: بلى فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري، وقال: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً. قال: فما وقعت عن فرس بعدُ. قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة، فيه نصب تَعبُّد يقال له «الكعبة»، قال: فأتاها فحرقها

---

(١) وضع البخاري في **صحيحه**، **كتاب المغازي**، باباً سماه، باب غزوة ذي الخلصة، ج٥/ ١١١.

(٢) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ١٩٠.

بالنار وكسرها، قال: ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام، فقيل له: إن رسول رسول الله ﷺ ها هنا فإن قدر عليك ضرب عنقك، قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير، فقال: لتكسرنّها ولتشهدنّ أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك قال فكسرها، وشهد، ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يكنى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ يبشره بذلك، فلما أتى النبي ﷺ قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب، قال: «فبرك النبي ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات». (١)

(١) البخاري، **صحيحه**، حديث رقم: ٤٣٥٧.

حجة الوداع[1]

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام. وقد سميت باسمه سورة من سور القرآن الكريم، وتحدثت عنه وعن شعائره العديد من الآيات القرآنية التي وصل عددها إلى اثنتي عشرة آية.

ومن المؤكد أن الرسول ﷺ كان يحج قبل هجرته موحِّداً على نُسك إبراهيم عليه السلام، وأنه كان ينزل مخالفاً لقريش موافقاً لسنة إبراهيم، مع أن الحج لم يفرض إلا بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].[2]

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، باب حجة الوداع.
ومسلم **في صحيحه**، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ج ٤/ ٣٨.

(٢) انظر: ابن القيم، **زاد المعاد**، ج٣ /٥٩٥ وانظر: رواية البخاري في **صحيحه**، **كتاب المغازي**، باب: حجة الوداع، ج ٥/ ١٢٦، ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٢٦٣.

وبعد هجرته ﷺ إلى المدينة لم يثبت أنه حج غير حجة الوداع التي كانت في السنة العاشرة،[1] مع أن الصديق رضي الله عنه حج بالناس في السنة التاسعة للهجرة.[2]

وكان الرسول ﷺ حريصاً على أن لا يَرى أي مظهر للشرك في مكة، وهذا هو الدافع لتأجيل حجه إلى السنة العاشرة، وتبليغ الناس أنه ليس للمشركين أن يقربوا المسجد الحرام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وحجة الوداع هي التطبيق العملي للحج ومناسكه من قبل النبي ﷺ وبأمره، حيث قال: «ويقول: «لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».[3]

ولأهمية الأمر وضع البخاري في صحيحه باباً سماه (باب حجة الوداع).[4]

---

(١) كما وضعت فصول خاصة عند المحدثين فيها، ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٩٩، من رواية البخاري ج ٥/ ١٢٣.

(٢) انظر: حج أبي بكر بالناس، من هذا الكتاب.

(٣) رواه **مسلم في صحيحه**، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً. وبيان قوله صلى ﷺ «لتأخذوا عني مناسككم»، ج ٤/ ٧٩.

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، ج ٥/ ١٢٣، ابن هشام، **السيرة النبوية**، عنوان: (حجة الوداع)، ج ٤/ ٦٠١.

فقبل شهر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة أعلن الرسول ﷺ أنه سيحج، «فقدم المدينة بشر كثير كل منهم يلتمس أن يأتمَّ برسول الله ﷺ».[١]

كان خروج الرسول ﷺ للحج من المدينة المنورة في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة، وقد بقي في الطريق ثمانية أيام، كان الناس يتعلمون خلالها من رسول الله ﷺ تزيد أعدادهم تدرّجاً، حيث وافاه خلق كثير وقبائل شتى من أنحاء العرب كافة،[٢] بالإضافة لمن كان معه من أهله وزوجاته ومن أهل المدينة.[٣]

كان النبي ﷺ يلبي ويردد الناس تلبيته، ويتلقون عنه في إعلان واضح بإخلاص العبادة لله، وتوحيده سبحانه وتعالى: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك).[٤] هذه التلبية التي تناقلتها الأمة ولا تزال ترددها إلى اليوم هي إعلان واضح وقوي بالبراءة من الشرك وأهله وإرجاع الملك والنعمة لله وحده لا شريك له.

وقد بات النبي ﷺ في اليوم الرابع من ذي الحجة قرب

---

(١) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٢٩.
(٢) انظر: ابن كثير، **حجة الوداع**، ص ١٤٥ من رواية الإمام أحمد.
(٣) انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب المغازي**، باب حجة الوداع، ج ٥/ ١٢٥.
(٤) انظر: ابن كثير، **حجة الوداع**، ص ١٣٥ من رواية مسلم، ورواية البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية ج ٢/ ١٤٧.

مكة، ودخلها ضحى اليوم الخامس، ودخل البيت الحرام وهو يردد «اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام حيِّنا ربنا بالسلام»،[١] ولما رأى البيت قال ﷺ: «اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة».[٢]

وتوجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة وطاف بها وهو راكب ناقته ينظر إليه الناس من كل اتجاه، فيقتدون به ويسألونه جاءوا من كل مكان يحيطون به وينظرون لما يصنع ويسمعون لما يدعو.[٣]

وقد استلم الرسول ﷺ الحجر بمحجن في يده، ورمل في الثلاثة أشواط الأولى،[٤] وعند فراغه قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وصلى ركعتين عند المقام، حيث جعله بينه وبين الكعبة، قرأ في الركعة الأولى قل يا أيها الكافرون، وفي الركعة الثانية قل هو الله أحد، ثم استلم الركن وتوجه إلى الصفا وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ

---

(١) انظر: تخريجه عند ابن كثير، **حجة الوداع**، ص ١٦٦.
(٢) انظر: ابن كثير، **حجة الوداع**، ص ١٦٥.
(٣) ابن كثير، **حجة الوداع** ص ١٤٦.
(٤) ابن كثير، **حجة الوداع** ص ١٦٨.

بِهِمَآۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] حتى إذا صعد على الصفا استقبل الكعبة وكبر وقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»، ثم توجه إلى المَرْوة وأكمل سعيه، كان ﷺ يَذكُر ويُذكّر بنصر الله له وهزيمة أحزاب المشركين الذين آذوه في مكة، وظهور التوحيد، وأن الله سبحانه وتعالى صدق وعده سينصر المسلمين ويحقق لهم ما وعد.

وقد بقي رسول الله ﷺ في مكة أربعة أيام كان يقيم فيها بالأبطح. وخلال هذه الفترة قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن، وكان ﷺ قد بعثه إليها، ووافى زوجته الحبيبة فاطمة بنت النبي ﷺ ورضي الله عنها.[١]

وفي ضحى يوم التروية الخميس الثامن من ذي الحجة خرج النبي ﷺ مع الحجيج إلى مِنى، حتى إذا جاء مِنى صلّى بالناس الظهر والعصر جمعاً وقصراً وكذلك المغرب والعشاء، وكان بلال رضي الله عنه يؤذن لرسول الله ﷺ[٢] والناس يتبركون بفضل

---

(١) انظر: رواية **البخاري في صحيحه، كتاب المغازي**، باب بعث النبي ﷺ وخالد إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم: ٤٣٥٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٣٣٤، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٠٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب بعث النبي ﷺ، علي بن أبي طالب وخالد ابن الوليد إلى اليمن، ج ٥/ ١١٠، وابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٣٥.

وضوء النبي ﷺ وفي صبيحة يوم عرفة صلى النبي ﷺ الفجر في الناس بمنى، وبعد شروق الشمس توجه إلى عرفات، وقد أمر أن تضرب له قبة في نمرة، وخالف قريش، واستشعر أمر الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

ونزل ﷺ في القبة التي ضربت له في نمرة، وكان يوم عرفة يوافق السادس من مارس سنة ٦٣٢م[١] وهو الشهر الثالث أواخر الشتاء وبداية الربيع، حيث عرفت مكة بشدة الحر حتى في الشتاء فكيف بالربيع.

ولذلك كانت القُبة للظل، ولمعرفة مكان النبي ﷺ لمن يقصده وتحديد مكان وقوفه بعرفه، وبقي ﷺ بالقبة يذكر الله تعالى، ويطبق ما قاله ﷺ: «أفضل الدعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وفي رواية (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير).[٢]

وقد روى الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

---

(١) انظر: عبدالسلام الترمانيني، **أزمنة التاريخ الإسلامي**، ص ٢٨.

(٢) مالك بن أنس، **الموطّأ**، كتاب الحج، باب جامع الحج، ص٣٥٠.

وقد ورد أنه كان من دعائه في يوم عرفه «اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجِل المشفق، المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهال الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذلّ لك جسده، ورغِمَ لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين».[١] وثبت أنه دعا وهو على ناقته ﷺ.[٢]

واستمر الرسول ﷺ يدعو في قبته، حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء، فركبها فأتى بطن الوادي فأمر أن يُنصت الناس[٣] له ليسمعوا خطبته ويعوها، فتوزع رجال ليصرخوا بما يقول ﷺ في الناس،[٤] وقد وردت روايات متفرقة عن أجزاء مما قال ﷺ في خطبته، وصعب على بعض الرواة استحضارها جميعاً نصّياً، لكنهم فهموا معانيها، وأوردوا تلك الأجزاء من الخطبة في روايات متفرقة ومناسبات متعددة وكان مما قال ﷺ فيها:[٥] «أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا

---

(١) ابن كثير، **حجة الوداع**، ص ٢٤١؛ **وتفسيره**، ج ١/ ٣٥٨.
(٢) انظر: **صحح البخاري**، حديث رقم: ٤٣٩٩، ٤٤٠٠.
(٣) البخاري، **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٠٤.
(٤) انظر: الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ١٦٩.
(٥) انظر: كتاب ألف عن الخطبة بعنوان: «**الوصية النبوية للأمة الإسلامية**»، للدكتور فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، ١٤٢٢هـ.

ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم، أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلّوا ما حرّم الله ويحرّموا ما أحلّ الله. إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم ثلاثة متوالية ورجب ومضر، الذي بين جمادى وشعبان. أما بعدُ أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطِّئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن

بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عَوانٌ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغتُ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمُن أنفسكم اللهم هل بلغت؟ فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم أشهد».[1]

وكان مما قال ﷺ: «إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه وإنه لا تجوز وصية الوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»،[2] ومما قال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».[3]

وقد وردت الخطبة بألفاظ أخرى مع اتفاقها في معنى ما أورده ابن هشام ولعل بعضها يوم العيد أو غيرها ومن ذلك ما

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٠٥؛ وانظر: أجزاء منها عند **البخاري في صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٠٣؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٤٢.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٠٥

(٣) من رواية **البخاري في صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٠٣

ورد عند البخاري في صحيحه من حديث أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ثم قال: ألا أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، ثم قال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى، ثم قال أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليست البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم قال: وأحسبه قال: وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغِ الشاهدُ الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعضِ من سمعه فكان محمد إذا ذكره يقول: صدق محمد ﷺ ثم قال: ألا هل بلغت؟ مرتين». (١)

ومن الواضح أن هذه الخطبة أو الخطب تعد دستوراً للإنسانية جمعاء عبر العصور البشرية وأجيالها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي أهم الخطب التي نطق بها خاتم أنبياء

(١) البخاري، **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٠٦.

الله ورسله ﷺ، بأمر الخالق موجهة إلى الخلق، فيها توحيد الله، وحفظ حقوقهم البدنية والروحية والمادية، وتحديد حقوق المرأة وكرامتها، وتحريم الاعتداء على حقوق الآخرين، والحرص على أداء الأمانة لأهلها، وبدأ نظام عالمي جديد يعتمد اقتصادياً على منع الربا، وأمنياً على نسيان الماضي وما فيه من الدماء، والحرص على حقنها حاضراً ومستقبلاً، وأخلاقياً على التحذير من الشيطان وعمله للإفساد بين الناس وإشاعة الإرهاب وسفك الدماء.

والتأكيد على المساواة بين الناس وأنهم إخوة وأصلهم واحد، وتذكيرهم بالمرجع الشرعي، وهو القرآن والسنة، والرسول ﷺ يؤكد هنا على النظام والشريعة ومرجعيتها، وبناء المجتمعات البشرية على ما نظمه لها خالقها، لكي تصل إلى السلام فيما بينها، وإلى رضا الخالق تبارك وتعالى، وإلى التفاهم والحياة المدنية السليمة، والحضارة الإنسانية القائمة على الأسس الصحيحة والمساواة بين الناس.

كما اتضح حرص الرسول ﷺ أن يشهد الناس بأنه أدى أمانة الرسالة ﷺ وقام بواجبها، ولذلك لما سمع منهم تلك الشهادة رفع أصبعه إلى السماء وقال اللهم فاشهد، كان ﷺ يستشعر ما يعبر عنه الناس فيرفع بصره طالباً رضى الله سبحانه وتعالى وهو المطّلع عليه وعلى الناس.

وأكّد ﷺ أن عرفة كلها موقف، كما أكّد في مزدلفة على

أنها كلها موقف، وأكّد حينما نحر في منى أن كل منى منحر.[1]

وبعد خطبته ﷺ بعرفة[2] نزل عليه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣]، فلما سمع عمرالآية بكى. فقال النبي ﷺ: ما يبكيك؟ قال: أبكاني أنا كنا في زيادة أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص، فقال: صدقت، فكانت هذه الآية تنعي رسول الله ﷺ.[3]

ويأتي نزول الآيات تأكيداً لسماع الله لشهادة الناس بأن رسوله قد بلّغ وأدى الأمانة ونصح الأمة، لتؤكد الآيات كمال الدين وتمام نعمة الله بأداء محمد ﷺ لمهمته وتأديته لرسالته، وتوديعه للناس وقرب رحيله وصدق قول الصحابة: «كنا نتحدث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا ولا ندرى ما حجة الوداع».[4]

---

(١) انظر: **مسند الإمام أحمد**، ج ١/ ٧٢؛ وانظر: **الطبري**، **تاريخه**، ج٤/ ١٧٠.

(٢) البخاري، في **صحيحه** حديث رقم: ٤٤٠٧.

(٣) الحلبي، **السيرة الحلبية**، ج ٣/ ٣٢٥؛ وانظر: رواية **البخاري في صحيحه**، ج٥/ ١٢٧؛ وانظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ١/ ٥٧٩.

(٤) انظر: حديث ابن عمر عند **البخاري في صحيحه**، **كتاب المغازي**، باب حجة الوداع، ج٥/ ١٢٦.

ومن المؤكد أنه كان للرسول ﷺ خطب أخرى متعددة في منى وفي مكة،[١] سواء منها ما كان يوم النحر وصلاة العيد أم في غيرها، تناقلها العلماء والمحدثون، ونقلوا أجزاء منها.[٢] ومن ذلك ما رواه ابن عمر في البخاري أن الرسول ﷺ: «حمد الله وأثني عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره وقال: ما بعث الله نبياً إلا أنذر أمته، انذره نوح والنبيون من بعده، وإنه يخرج فيكم فما خفي عليكم من شَأْنِهِ فليس يخفي عليكم إن ربكم ليس على ما يخفى عليكم، ثلاثاً، إن ربكم ليس بأعور وإنه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافئة».[٣]

وبعد نهاية الخطبة يوم عرفة أذَّن بلال بن رباح رضي الله عنه، ثم أقام فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ركعتين، ثم أقام بلال مرة أخرى، فصلى رسول الله ﷺ بالناس العصر ركعتين، ثم ركب ناقته، وجعل بطن ناقته إلى الصخرات أسفل جبل الرحمة واستقبل القبلة وأخذ يدعو ﷺ.[٤]

فلما غربت الشمس أردف معه أسامة بن زيد ثم أفاض من عرفات.[٥] وكان يذكر قول الله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ

---

(١) انظر: إبراهيم محمد إبراهيم محمد، **الجانب الإعلامي في خطب الرسول ﷺ**، ط ١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ص١١٩، ١٢٩.

(٢) ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٣٣.

(٣) البخاري، **صحيحه**، **كتاب المغازي**، **باب حجة الوداع**، ج ٥/ ١٢٦.

(٤) الحلبي، **السيرة الحلبية**، ج ٣/ ٣٢٤.

(٥) انظر: رواية البخاري، **كتاب الحج**، باب النزول بين عرفة وجمع، ج٢/ ١٧٦.

ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وكان الرسول ﷺ يأمر الناس «أيها الناس السكينةَ السكينة». (١)

وكان ﷺ يلبي، حتى إذا وصل إلى مزدلفة رفع بلال الأذان ثم أقام فصلى المغرب، ثم صلى العشاء قصراً، ثم نام ﷺ فلما طلع الفجر صلاها في أول وقتها ثم أتى المِشعر الحرام فاستقبل القبلة وأخذ يلحّ في الدعاء حتى أسفر، وهو مردف للفضل بن عباس رضي الله عنه.

وقد روي أن النبي ﷺ (عاود الدعاء لأمته في المزدلفة، فأكثر الدعاء، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لهم إلا ظلم بعضهم بعضاً، فقال: يا رب إنك قادر على أن تثيب المظلوم خيراً من مظلمته، وتغفر لهذا الظالم، فلم يجبه هذه العشية، فلما كان غداة المزدلفة أعاد الدعاء، فأوحى الله إليه أنه غفر لهم كل شيء، فجعل إبليس يدعو على نفسه بالويل والثبور، ويحثو التراب على رأسه). (٢)

وأمر ابن عباس أن يلتقط له سبع حجرات صغيرة للرمي قاس الناس عليها حجارتهم إلى اليوم، (٣) حتى وصل منى، فرمى جمرة العقبة راكباً بعد طلوع الشمس يكبر مع كل رمية، (٤) ثم رجع إلى منى وخطب في الناس صبيحة يوم عيد الأضحى.

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب الحج**، باب أمر النبي ﷺ بالسكينة، ج٢/ ١٧٦.

(٢) أبو شهبة، **السيرة النبوية**، ص ٥٧٦.

(٣) انظر التخريج عند: إبراهيم العلي، **صحيح السيرة النبوية**، ص ٥٤٦.

(٤) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٧٣.

وكان مما جاء في خطبته ﷺ (وبلال يقود براحلته، وأسامة ابن زيد يظلله بمنى) ما قرر فيها تحريم الزنا والأموال والأعراض، وذكر حرمة يوم النحر، وحرمة مكة على جميع البلاد، فقال: «يا أيها الناس أيّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا، قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا»، أعادها مرارا «ثم رفع رأسه وقال: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وأمرهم بأخذ مناسكهم عنه لعله لا يحج بعد عامه ذلك، وكان وقوفه بين الجمرات، والناس بين قائم وقاعد». (١)

ومما حُفظ من خطبته ﷺ: «اعبدوا ربكم وصلّوا خمسكم وأطيعوا إذا أُمرتم تدخلوا جنة ربكم». (٢)

وكان مما حفظ عنه ﷺ من تلك الخطب أيضاً: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا أبيض على أسود ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس لآدم وآدم من تراب». (٣)

وقد يظن البعض أن في ذلك خطأ من الرواة في تكرار

---

(١) صالح العلي، **صحيح السيرة النبوية**، ص ٣٢٧.

(٢) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٢.

(٣) الصلابي، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٧٨٠.

المعاني، لكن الذي يبدو، والله أعلم، أنه ﷺ تعمد التأكيد على بعض القضايا والمعاني في أكثر من خطبة في حجة الوداع، وليس خلطاً من الرواة، بل تكرار لما فيه المصلحة لبعض ما دار في خطبة الوادع في أكثر من موضع.[1]

وبعد ذلك توجه ﷺ إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بُدنةً بيده الشريفة، وهذا يوافق عدد سنّي عمره ﷺ، ثم أمسك وأمر علياً رضي الله عنه أن ينحر ما بقي من المائة، وهذا يدل على فضل النحر وحرص الرسول ﷺ على قيامه بذلك بنفسه، وكان يكفيه أقل من ذلك العدد، لكنه ﷺ يدرك عظيم أجر النحر، ولذلك زاد ﷺ في العدد ولم يُعدّ هذا من الإسراف، بل من الطاعة والقربات إلى الله. كما يدل الموقف على مكانة علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الرسول ﷺ، حيث استكمل نحر ما أهدى رسول الله ﷺ، واختياره لهذا الأمر دون غيره، هو تكريم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لنيابته عن الرسول ﷺ في هذا الموضع خاصة.

وقد أكل رسول الله ﷺ من لحوم هديه، حيث أخذ من كل بدنة بضعةً وجعل ذلك في قدر وطبخ فأكل ﷺ من ذلك اللحم وشربَ من مرقه، وقد أمر ﷺ بتفريق لحوم هَدْيِه وجلودها على الناس، وأمر بأن لا يُعطى الجزار أجره من لحمها.[2]

---

(١) انظر: الصلابي، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٧٧٦.

(٢) انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب الحج**، باب لا يعطى الجزار من الهَدْي شيء ج ٢/ ١٧٦، وباب يتصدق بجلود الهدي، ج ٢/ ١٨٦.

ثم حلق رسول الله ﷺ رأسه الشريف، حلقه معمر بن عبد الله فبدأ بشقه الأيمن فحلقه، ثم شقه الأيسر، وذكر أنه أعطى نصف شعره لأبي طلحة الأنصاري، وهو زوج أم سليم، وأعطاه النصف الثاني وأمره أن يقسمه بين الناس.

وكانوا يتباركون بشعره وعرقه وريحه ﷺ، وقد قسم بين الناس الشعرة والشعرتين والثلاث.[١]

وقد دعا الرسول ﷺ: «اللهم اغفر للمحلقين، قالوا والمقصرين فأعاد رسول الله ﷺ وأعادوا ثلاثاً وقال في الرابعة والمقصرين».[٢]

وبعد حلقه طيّبته أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) بطيب حملته معها.[٣] وكان الناس يسألونه، منهم من قدم الحلق، ومنهم من قدم النحر، فيقول ﷺ: افعلْ ولا حرج.[٤]

وتوجه بعد ذلك إلى مكة وطاف طواف الإفاضة، ثم شرب

---

(١) **صحيح مسلم، كتاب الحج**، ج ٤/ ٨٢؛ وانظر: **صحيح البخاري، كتاب الحج**، باب الحلق والتقصير والإحلال، ج ٥/ ١٨٨.

(٢) انظر: **صحيح البخاري، كتاب الحج**، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، ج ٢/ ١٨٨.

(٣) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٣٧٨؛ وانظر: **صحيح البخاري**، حديث رقم: ٤٤١٠ ورقم ٤٤١١؛ وشرحه عند ابن حجر في، **فتح الباري**، ج١٦/ ٢٣٦.

(٤) من حديث **البخاري في صحيحه**، كتاب الحج، باب الفتيا على الدابة عند الجمرة، ج٢/ ١٩؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٣، وانظر: العلي، **صحيح السيرة**، ص٥٤٨.

من سقاية العباس رضي الله عنه، وتوجه إلى زمزم فشرب منها ﷺ وكان يحب أن ينزع مع بني عبد المطلب لكنه خشي أن يغلبهم الناس على سُقيا زمزم فقال ﷺ: «انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم».[1]

ثم رجع ﷺ فبقي في مِنى ليالي التشريق يرمي جمرة العقبة والجمرات الأخرى الوسطى والصغرى، كل يوم بعد الزوال كل جمرة بسبع حُصيات، يكبّر مع كل حصاة، وكان يأذن لأصحابه بزيارة البيت الحرام أيام التشريق.

كان ﷺ يجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء، يُعلِّم الناس مناسكهم، ويجيب على أسئلتهم، ويحدثهم بما يُوحي لهم أنه مودعهم، وقد انتشر الناس نزولاً بمنى المهاجرون والأنصار، والقبائل المختلفة وكان ﷺ يقول: «مِنى مَنَاخُ من سبق».[2] وكان يُرخص للرعاة والضعفاء والنساء أكثر من غيرهم. وقد ورد أنه خطب الناس ثاني أيام التشريق ويسمى يوم الرؤوس،[3] وذَكر في تلك الخطبة بعض ما ورد في خطبة عرفات وفي يوم النحر وزاد عليها، ومما قال ﷺ: «ألا لا

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٨١.

(٢) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٨.

(٣) سُمي يوم الرؤوس لأنهم يأكلون فيه رؤوس الهَدْي، (ابن كثير) **السيرة النبوية**، ج٣/ ٤٠٥. (ولا يزال يسمى بهذا الاسم عند عوام الناس)

تظلموا ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه». (١)

وقد ورد أنه نزلت عليه سورة النصر في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، فعُرف أنه الوداع. (٢)

وبعد فراغ أعمال الحج رحل ﷺ من منى ونزل بالأبطح في مكة، وهو مكان يطلق على خَيْفِ بني كنانة أو المخضّب، (٣) وكان من أنسب الأمكنة استعداداً لخروجه ﷺ من مكة.

وقد ورد أن أسامة بن زيد رضي الله عنه سأل النبي ﷺ: أين تنزل غداً فقال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً، ثم قال: «نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة، ويعني المخضب، حيث تقاسمت قريش على الكفر». (٤)

وفي صبيحة اليوم التالي صلى النبي ﷺ بالناس الفجر عند الكعبة وقرأ بسورة الطور كاملة، ثم طاف بالبيت سبعة أشواط

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠١.

(٢) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠٣؛ وانظر: **حديث البخاري، كتاب التفسير**، سورة إذا جاء نصر الله والفتح، ج ٦/ ٩٣ ــ ٩٤.

(٣) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤١٠؛ إبراهيم العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٤٩.

(٤) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠٧، من رواية البخاري.

ووقف في الملتزم بين الحجر وباب الكعبة وأخذ يدعو ﷺ.[1]

وقد أمر ﷺ الناس بالطواف للوداع فقال: «لا ينفرّن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت».[2]

وكان النبي ﷺ يراعي أحوال أصحابه وأمهات المؤمنين، فهذه عائشة (رضي الله عنها) رغبت بعمرة فما كان منه ﷺ إلا أن دعا عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فقال له: «أخرج بأختك من الحرم فلتهلّ بعمرة، ثم لتطفْ بالبيت فإني أنتظركما، قالت فخرجنا فأهللت ثم طفت بالبيت وبالصفا والمروة فجئنا لرسول الله ﷺ في منزله وهو في جوف الليل فقال: «هل فرغت؟ قلت نعم فأذن في أصحابه بالرحيل».[3]

وقد كان خروج الرسول ﷺ من أسفل مكة وتوجه إلى المدينة، وكانت هذه الحجة هي الأولى بعد الهجرة، والآخرة لرسول الله ﷺ، كما كانت هذه الزيارة هي الوداع لمكة، فلم يزرها ولم يرها رسول الله بعد ذلك حتى توفى ﷺ.[4]

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤١١.

(٢) رواه **مسلم في صحيحه**، **كتاب الحج**، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض، ج ٤/ ٩٣، والبخاري، **صحيحه**، باب طواف الوادع.

(٣) أخرجه البخاري، في **باب الحج على الرحل** وباب قوله تعالى (الحج أشهر معلومات)؛ ومسلم في صحيحه، **كتاب الحج**، بيان وجوه الإحرام؛ وانظر العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٣٤. وابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤١٠.

(٤) انظر: صحيح البخاري، **كتاب المغازي**، باب حجة الوداع، ج ٤/ ١٢٦.

وفي مكة أثناء حجة الوداع كان ﷺ حريصاً على متابعة أصحابه وتفقد أحوالهم في الحج، فرغم انشغاله بعموم الحجيج فقد علم بمرض سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو ذو صحبة قبل الهجرة وبعدها، وأحد المبشرين بالجنة، فعاده النبي ﷺ ففي حديث سعد بن أبي وقاص في البخاري قال: (عادني النبي ﷺ عام حجة الوداع من مرض أشفيت منه على الموت، فقلت يا رسول الله بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا، قال أفأتصدق بشطره؟ قال: لا، قلت: فالثلث؟ قال الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا آجرك الله بها، حتى اللقمة تجعلها في فيِّ امرأتك، قلت: يا رسول الله أأخلف بعد أصحابي؟ قال إنك لن تخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة، ولعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون، اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم).[1]

وفي هذا الأمر لطف النبي ﷺ ورفقه ومحبته لأصحابه وتفقده لهم، كما أن فيه معجزة لرسول الله ﷺ، فقد بقي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وعاش مدة بعد النبي ﷺ، وقاد جيوش المسلمين في القادسية وفي فتح المدائن، حيث دخل عاصمة

(١) البخاري، **صحيحه**، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، ج ٤/ ١٢٧.

الفرس مكبراً مهللاً رافعاً صوته بشهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وهكذا صدق فيه قول الرسول ﷺ: «ولعلك تُخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون». (١)

وقفات عند حجة الوداع:

- هي الحجة الوحيدة التي شهدتها الأمة مع رسول الله ﷺ، وأخذت منه أحكام الحج وتشريعاته مباشرة.
- كثرت الروايات عنها من شهود عيان مرافقين للنبي ﷺ، فقد صحبته أمهات المؤمنين وظهرت حكمة تعددهن، ولكل واحدة منهن حالها، مع نساء أخريات مما أوجد فتاوى متعددة في الحج حسب حالاتهن وما حدث لهن.
- وكان الناس شهوداً يأخذون الحج من رسول الله ﷺ مباشرة، كما قال: «خذوا عني مناسككم»، كما أن روايات الخطب التي ألقاها ﷺ وعلى رأس ذلك خطبة عرفات، جاءت متعددة يكمل بعضها بعضاً، دونما تعارض بينها. وقد يكون التكرار مقصوداً لذاته بين خطبة وأخرى لاختلاف السامعين أحياناً ولتأكيد قضية في أذهان الناس، كما كان شهود العيان عن قبائل ومناطق شتى شهدوا النبي ﷺ وعرفوا وصاياه، وحملوها في كل أنحاء بلاد العرب وخارجها.

---

(١) من رواية البخاري في **صحيحه**، **كتاب المغازي**، باب حجة الوداع، ج ٥/ ١٢٨.

- استشهد النبي ﷺ الناسَ وأمرهم أن يبلغوا ما سمعوا وسُرّ ﷺ بشهادتهم أنه بلّغ حيث كان على يقين أن الله سيسأله عن ذلك.

- حرص ﷺ في خطبه المتعددة على تأكيد توحيد الله تعالى، وأنه مرسل من عنده بما فيه الخير للبشرية، وأكَّد على أهمية حقوق العباد وصيانة دمائهم وأموالهم، وعدم اعتداء بعضهم على بعض، أو ظلم أحد لآخر، وكذلك على صيانة حقوق المرأة وعدم استضعافها، وقطع صلة الأمة بالجاهلية، وأنظمتها الفاسدة في كل مجال، ومنها المجال الاقتصادي بتحريم الربا، وكذلك الزنا، وسائر الظلم، كما أكَّد في خطبته على المساواة بين الناس، وتحريم الاعتداء على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

- وأكَّد ﷺ أن هنالك نظاماً ومرجعاً يتحاكم الناس إليه، وهو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأن الأمة لن تضلّ إن تمسّكت بهما، ومن هذا فالصلاحية دائمة للبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا يُحمّل الأمة وأفرادها مسؤولية تَعلم القرآن والسنة وتعليمهما للناس جيلاً بعد جيل.

- وقد أكَّد ﷺ على الحضور ضرورة التبليغ «فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ فرُبّ مُبلَّغ أوعى من سامع».[1]

---

(١) انظر: نص الخطبة في هذا الكتاب.

- وقد طَبق ﷺ هذا الأمر بنفسه، فاستغل كل مناسبة ليربي الناس ويعلمهم ويفتيهم ويرشدهم ﷺ.

- واظهر الله سبحانه تمام هذا الدين بنزول آية الإكمال، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

- كما استبشرت الأمة بنزول سورة النصر، وحزن الصحابة، حيث فهموا منها قرب أجل رسول الله ﷺ. وكانت هذه الحجة وداعاً حقيقياً من الأمة لنبيها ﷺ ومن النبي ﷺ لأمته، حيث أشهد الله على شهادتهم له بأدائه الأمانة.

- كان الحج وعلى رأسه التلبية والدعاء في سائر شعائره توحيداً وتعظيماً لله وبُعداً عن الإشراك به وأداءً للنسك كما أمر الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ

حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

- حرص الرسول ﷺ على الرفق والسكينة في الحج، وأمر الناس بذلك، ويسَّر أحوال الضعفاء من النساء والرعاة وغيرهم.
- ارتبط كثير من شعائر الحج بآيات قرآنية سواء منها سورة الحج التي سميت بهذا الاسم أو الآيات القرآنية الأخرى المرتبطة به، ومن ذلك: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٢٥].
- مطلوب في الحج بُعدُ الناس عن الرفث والفسوق ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وتأتي الآية التي تؤكد فريضة الحج للمستطيع ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، لتؤكد مبدأ التيسير وهو أن الحج للمستطيع وليس واجباً على من لا يقدر عليه.

- تميزت أيام الحج بتسميات خاصة لها معان، من ذلك يوم التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[البقرة: ٢٠٣].

- إن مما تعلمته الأمة من نبيها ﷺ السماع له في محبة أهل البيت عموماً وتقديمهم وتفضيلهم، وبخاصة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فنقل عنه أهل السنة تلك المحبة والتقدير لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ولأبنائه ولسائر أهل البيت. والذي علمنا هذه المحبة ﷺ هو الذي علمنا التوحيد وليس شرطاً لمحبة علي وآل البيت أن يغالى فيهم فيخرجوا من بشريتهم ويشرك بهم من دون الله حتى يصل البعض إلى تأليههم وعبادتهم ودعائهم من دون الله. وهم بحاجة لمن يدعو لهم لا من يدعوهم بعد موتهم، فحاشا لله أن يرضى رسول الله ﷺ أو أهل بيته الطيبين الطاهرين بذلك.

- وهذا الغلوّ ليس محبةً بل هو شِرْك أكبر يرضي الشيطان ويبعد عن آل البيت وما يرضيهم، أكثر من أن يقرب إليهم. وهذا لا يجوز مع النبي ﷺ نفسه ولا أحد من أهل بيته، وما غضب الله على النصارى إلا لغلوهم في عيسى عليه السلام، فاللهم احشرنا مع الموحِّدين ومع آل البيت الطيبين

- كما تأتي وصيته ﷺ بآل بيته تمهيداً للقاء ربه ﷺ، ولم يبق

رسول الله ﷺ بعد هذه الحجة إلا قرابة ثلاثة أشهر. وصدق قوله ﷺ للناس: «خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا». (١)

حديث غدير خُـمّ:

وقعت الحادثة أثناء عودة رسول الله ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة، فكل المسلمين يعرف أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم رسول الله ﷺ وصهره، من أحب الناس وأقربهم إليه وله منزلة خاصة، فهو زوج فاطمة ووالد الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ، أول من أسلم من الشباب، وأحد العشرة المبشرين، بالجنة أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنه.

بعثه النبي ﷺ في مهمة إلى اليمن فكان محسناً أميناً صادقاً، ولعل بعض من كان معه نقموا عليه لأنه لم يفضلهم على غيرهم، فكان أميناً حقاً عادلاً ومنصفاً. ومن المعروف أن علياً رضي الله عنه وصل إلى مكة أثناء وجود الرسول ﷺ في حجة الوادع وقبل يوم عرفة، وقد انشغل الرسول ﷺ ومن معه في الحج.

وفي طريق العودة إلى المدينة، وفي موضع ماء يسمى غدير خُم أو قبله تكلم بعض من صحب علياً في سفره إلى اليمن في علي أمام النبي ﷺ، فدافع عنه ﷺ، ففي حديث زيد بن أرقم قال: (قام فينا رسول الله ﷺ، خطيباً بماء يدعى خُماً، بين مكة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٣٦٥٤.

والمدينة. فقال: أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ربي، و إني تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى و النور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي). [1]

وقد ورد في ألفاظ أخرى أنه ﷺ قال وقد أخذ بيد عليّ: «من كنت وليه فهذا وليه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه». [2]

ولاشك أن علياً أُوذي من بعض رجال الجيش الذين صحبوه إلى نجران، كما أوذي النبي ﷺ من بعض من شارك في جيش حنين.

والأمة كلها تجمع على موالاة علي رضي الله عنه ومحبته والدفاع عنه وعلى رأس ذلك أهل السنة والجماعة، وأولهم أصحاب النبي ﷺ الذين سمعوا مقالته في غدير خُم وفي غيرها وعَلموا محبته ﷺ لعلي، فأحبوه زيادة كما كانوا يحبونه سابقاً، وهو

---

(١) أخرجه مسلم في **صحيحه**، **فضائل الصحابة**، **باب من فضائل علي** ، ج٧/ ١٢٣، وانظر تخريجه عند صالح العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٥٠، ٥٥١.

(٢) **أخرجه النسائي**، في **خصائص علي**، ص ٢١؛ وانظر تخريجه عند: صالح العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٥١؛ وانظر تخريج ابن كثير للحديث في **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٢٥.

أهل لذلك، ولو سمعوا منه ﷺ شيئاً آخر يتعلق بالخلافة وغيرها لما تركوا وصية الرسول ﷺ، خصوصاً أن هذا ليس أمراً هيناً يُتجاوَز فيه، ولا يُعقل أن يكون قال شيئاً من ذلك، ولم يكتشفه هذا الجمع الكبير وهم من الصحابة ولم ينقله التابعون ثم يزعم أناس متأخرون أنهم أعلم بقول الرسول ﷺ من الصحابة أنفسهم الذين سمعوا منه مباشرة وشهدوا الحادثة.

فحاشا لله أن تكون أمة محمد ﷺ وتربيته من الصحابة من السوء بما يزعم هؤلاء الغلاة في علي رضي الله عنه الذين وصل بعضهم في غلوه إلى تأليه علي وعبادته، وحاشا لله أن يتركوا شيئاً أمر به ﷺ، ونحن نعلم أن علياً رضي الله عنه لم يقل به وهو أشجع الناس في زمانه، وليس هؤلاء الطاعنون في الصحابة بأشجع من علي، ولا أكثر محبة لعلي من أصحاب رسول الله ﷺ، فاللهم احشرنا مع علي وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم من أصحاب رسول الله ﷺ.

بعثُ جيش أسامة بن زيد:[1]

كانت الروم تسيطر على بلاد الشام، وقد كتب رسول الله ﷺ إلى ملكهم هرقل في السنة السادسة للهجرة كتابه المشهور.[2]

وكانت غزوة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة إلى أطراف الشام

---

(١) وضع البخاري في صحيحه في **كتاب المغازي**، باب بعث النبي ﷺ أسامة ابن زيد (رضي الله عنهما) في مرضه الذي توفي فيه، ج ٥/ ١٤٥.

(٢) انظر: كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل في هذا الكتاب.

الجنوبية، نواحي الأردن، حيث استشهد عدد من الصحابة، منهم عبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة (قائد الجيش) مولى رسول الله ﷺ،[1] وتبع ذلك غزوة تبوك التي قادها الرسول ﷺ قريباً من الأردن، حيث حدود الروم وسيطرتهم، إلا أن الرسول ﷺ لم يلق كيداً،[2] حيث إن ملك الروم أمر بعدم الاحتكاك بقوات المسلمين. ولعل قناعته بأن المسلمين قادمون لنشر الإسلام في ما تحت قدميه من الشام وغيرها وأن هذا موعود إلهي عرفه، كان وراء امتناعه عن مقاومتهم.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن عاهد عدداً من زعماء المنطقة وأوضح قوة المسلمين وسيطرتهم وتطلعهم لما وراء تبوك.

وبعد عودته ﷺ انشغل بأمور عِدّة، منها حجة الوداع، وعقب عودته إلى المدينة من الحج واستقرار الأمور في بداية السنة الحادية عشرة للهجرة ندب ﷺ الناس لغزوة الروم في أواخر شهر صفر واستدعى ﷺ (أسامة بن زيد بن حارثة)، وهو ابن شهيد وقائد مؤتة زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ (رضي الله عنهم)، وكان شاباً صغيراً في الثامنة عشرة من عمره وأمره

(١) انظر: غزوة مؤته في هذا الكتاب.
(٢) انظر: غزوة تبوك من هذا الكتاب.

ﷺ[1] قائلاً: «سِرْ إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتكَ هذا الجيش، وأسرع السير تسبق الخبر، فإن ظفرك الله بهم فأقلّ اللبْث فيهم وخذ معك الأدلاّء، وقدِّم العيون والطلائع». [2]

كان هدف الجيش محدداً، وهي تخوم البلقاء من أرض فلسطين، [3] والهدف واضح؛ هو إثبات القوة وبسط السيطرة، والخطة واضحة، وهي سرعة إنجاز المهمة وعدم الإطالة فيهم.

وقد انتُدب ﷺ عدد كبير في هذا الجيش قُدِّر بثلاثة آلاف مقاتل، [4] كان منهم شيوخ الصحابة أمثال أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما). [5]

وقد استغرب بعضهم تولية أسامة بن زيد وهو شاب حَدَث على شيوخ أسنّ من أبيه أسلموا قبل ولادته وهم أهل قدرة على القيادة ودراية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيْمُ الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ من بعده». [6]

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، السيرة من الطبقات، ج ٢/ ٢٤٨.
(٢) ابن سعد، **الطبقات**، السيرة من الطبقات، ج ٢/ ١٩٠.
(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ١٠٥٦.
(٤) الواقدي، **المغازي**، ج ٣/ ١١٢٠.
(٥) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٧٦.
(٦) رواه **البخاري في صحيحه** (باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد في مرضه الذي مات فيه)، حديث رقم: ٤٤٦٨؛ وابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٧٦.

وعقد ﷺ لواء أسامة بيده وسلمه إليه، ووجهه بتوجيهات، وعَسْكرَ بجيشه بالجرف شمال المدينة انتظاراً لأمر رسول الله ﷺ له بالانطلاق، إلا أن مرض الرسول ﷺ حال دون تحرك الجيش، حيث استمر في معسكره أثناء المرض، وبعد وفاة الرسول ﷺ شاركوا في الصلاة عليه، وعادوا لمعسكرهم بانتظار أمر أبي بكر الصديق الذي أنفذه، كما خطط وأوصى بذلك ﷺ «أَنفِذوا جيش أسامة».[1] فكان في تحرك الجيش وقيامه بمهمته بركة عظيمة على الإسلام ودولته التي تربص بها الأعداء بعد وفاة الرسول ﷺ، فكانت حركة الجيش مخيفة للأعداء المتربصين، الذين عادوا للحفاظ على مواقعهم بدلاً من التفكير بغزو المدينة، كما أثبتت للروم استمرار المسلمين في السير على خطط الرسول ﷺ التي بدأها بنفسه لنشر الإسلام في الشام وغيرها، مما هو تحت سيطرة الروم، وأن وفاة الرسول ﷺ لم توقف مدّ الإسلام، حيث وضع ﷺ خطته لنشر نوره في الشام وما جاوره بعد وفاته ﷺ.

كان أسامة ومن معه امتداداً لوالده زيد بن حارثة ومن معهم ممن حمل دعوة لا إله إلا الله.

كما أن تعيين أسامة وإبقاء أبي بكر له بعد توليته الخلافة إعلانٌ للجميع بنبذ العصبية، والسير على منهج رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: ابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ١٩١.

في مراعاة مصالح الأمة والبعد عن العصبية، وأن القيادة لمن هو أفضل للأمة، وليس لذوي الحسب والنسب فقط أو لكبار السن، وفيها أيضاً إعلان صريح بحب رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد ولوالده من قبله رضي الله عنه.

إقامة دولة الإسلام

كان واضحاً منذ بعثة الرسول ﷺ، أنه يسعى لنشر توحيد عبودية الله سبحانه وتعالى، وإقامة دولة رحيمة ونظام عادل يطبق فيه شرع الله على خلقه، والشرع كله رحمة وعدل.

ومنذ الأيام الأولى للدعوة في مكة كان ﷺ يبشر أصحابه بانتشار الإسلام في كل مكان، وغلبته على الشرك ومختلف أنظمته.

وكانت مكة وما حولها التي بدأت فيها رسالة الإسلام، عديمة النظام قائمة على الأعراف والعادات التي كان معظمها ظالماً جائراً، فليس فيها تشريع محدد ولا نظام مؤسسي ولا قضاء منصف، ولا شريعة معلومة، وكانت تسود بينهم الموبقات كالزنا والخمر، وأكل مال الربا، ووأد البنات، والقتل، واحتقار المرأة، ومن ثمّ فإن مكة وما جاورها في جاهليتها حاولت منع انتشار الإسلام بما يحمله من نظام وعدل وإنصاف، أوَّله التوحيد.

والإسلام، كما نعرف، جاءت تشريعاته في أوقات متفرقة، لكن ملامحه واضحة منذ البداية، وهي حفظ حق الله وحقوق عباده، والرحمة والعدل والمساواة بين الناس، والإحسان في كل شيء، مع سياسة داخلية وخارجية لهذا المجتمع تراعي الحقوق والعدل وهذه أهم المقومات لأي مجتمع مدني متحضر.

وحين صعب الأمر على الرسول ﷺ في تحويل مكة إلى مجتمع ودولة مسلمة، بدأ يبحث في الأماكن والقبائل الأخرى عمن يعينه، بمكان مناسب وقوم مساندين لدولة الإسلام، يعيش فيها المسلمون في مجتمع إنساني مسلم مسالم متعاون، مكونين أمة تفوق الأمم الأخرى وترتبط بالله وشرعه لتقود البشرية للسعادة والكمال ولتنصف نفسها، وأصحاب الديانات الأخرى ممن يطلبون الحياة الكريمة.

ولذلك أخذ الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل أثناء الحج وغيره من مواسم العرب وأسواقها، باحثاً عن من يؤيه وينصره ليقيم مجتمعاً لا يُفرَّق فيه بين العرب والعجم قادراً على تنظيم نفسه والدفاع عن كيانه أمام مختلف الأعداء، مُحصَّناً بالعدل والإيمان.

وبعون رباني وجد رسول الله ﷺ ما ينشده في الأنصار من أهل المدينة، الذين قابلوه في موسم الحج وسمعوا له وصدقوه واستعدوا ليجعلوا مدينتهم قاعدة لدولته المرتقبة ومجتمع السلم

المسلم، ورجالهم جنداً مناصرين بالنفس والمال لهذا الدين وما يتطلب من نظام.

يقول محمد حميد الله في كتابه «**الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**»: (إن السياسة الحكومية في العهد النبوي، على صاحبه السلام، كانت قد أُلقيت أساساتها قبل الهجرة إلى المدينة في بيعتي العقبة الأولى والثانية).[1] وتم تطبيقها بالتدرج عملياً بعد الهجرة، حتى اكتمل بناء الدولة.

وقد ألفت كتب وأبحاث مختلفة عن قيام دولة الرسول ﷺ ونظامها ووظائفها والقائمين عليها، ولعل من أبرز ذلك ما كتبه الخزاعي في تخريج الدلالات السمعية،[2] الذي شُرح من قبل الشيخ عبد الحي الكتاني في كتابه: «نظام الحكومة النبوية» المسمى التراتيب الإدارية، وكذلك ما كتبه عون الشريف قاسم في كتابه: «نشأة الدولة الإسلامية». وقد قال الكتاني في مقدمة كتاب التراتيب الإدارية: (كان ﷺ يشغل منصب النبوة الديني على قاعدة جَمعِ دينه القويم بين سياسة الدين والدنيا جمعاً مزج بين السلطتين، بحيث كادتا أن تُدخلا تحت مسمّى واحد وهو

---

(١) محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ٢١.

(٢) الخزاعي، أبو الحسن علي بن محمد التلمساني (ت: ٧٤١هـ)، **تخريج الدلالات الشرعية على ما كان في عهد رسول الله** ﷺ من الحرف والصنايع والعمالات الشرعية، حققه أحمد محمود أبو سلامة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٠١هـ.

الدين وكذلك وقع، وكانت الإدارات اللازمة للسياستين على عهده صولجانُها دائرٌ والعمالات بأتم أعمالها إلى الترقي، والعمل سائر). [1]

لقد كان التنظيم النبوي لأعمال الإدارة ووظائف الأمة، وترتيب الدولة وما حمله من أمثلة في السيرة والسنة، أساساً اقتبس منه المؤلفون والفقهاء في كتب الأحكام السلطانية، ما استندوا عليه في التنظير للنظم الإسلامية وإدارة الدولة في مختلف العصور، سواء منها الإدارة السياسية، أم المالية، أم العسكرية، أم الاجتماعية وغيرها.

لقد كان بين تلك النظم والتشريعات وبين الوقائع التاريخية تلاحم وترابط جعلنا نعرف تفصيلات أدق عما طبقه الرسول ﷺ من أجل بناء الدولة الإسلامية ومجتمعها وتكوين أول حكومة ونظام سياسي في الإسلام، كان نواة لما جاء بعده من أنظمة ودول مختلفة، وتفاوتت في ما بينها بالأخذ من سنته ﷺ في هذا الجانب.

لقد كان الظلم يقع على أصحاب رسول الله ﷺ في مكة، فيبشّرهم بأنه سيأتي يوم يمنع فيه الظلم ويقام فيه العدل ليس في مكة وحدها، بل في أصقاع كثيرة يعرفونها، فحينما اشتكى له خباب بن الأرت ما كان يتعرض له من أذى، وطلب من رسول

---

(١) عبد الحي الكتاني، **التراتيب الإدارية**، ج ١/ ٩.

الله ﷺ أن يدعو على من ظلمه، قال له ﷺ: «لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه». (١)

كان موعود الله ورسوله بانتصار الإسلام، واستخلاف المسلمين في الأرض والتمكين لهم، يعني أمنهم، وتالياً قيام تنظيم ونظام يتحقق من خلاله الاستقرار، يجمع بين التشريع وتطبيقه في الواقع من خلال سياسة الدنيا بالدين، هذا الوعد كان واضحاً في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. إن الاستخلاف في الأرض يعني حكمها وتنظيمها وسياستها وإدارتها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

لقد كان واضحاً للرسول ﷺ أن النظام الإسلامي السياسي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين في مكة، ج ٥/ ٢٣٨.

الذي أسّس له ﷺ سيرث الأنظمة العالمية المعاصرة، كنظام الأكاسرة في فارس، ونظام القياصرة عند الروم. فقد روى جابر ابن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتفتحَنَّ أرضَ كسرى عصابةٌ من المسلمين»،[1] وفي أثناء حفر الخندق قبيل غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة اعترضت لبعض الصحابة صخرة فقام الرسول ﷺ ليحطمها، وحين ضربها برقت منها بارقة فكبر وكبر المسلمون معه، ثم ضربها ثانية فبرقت فكبر وكبر المسلمون معه، ثم ضربها ثالثة فكبر وكبر المسلمون معه، وقد قال ﷺ إثر الضربة الأولى: «الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعةَ، ثم ضربها الثانية فقال: الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح فارس والله إني لأبصرُ قصر المدائن الأبيض، ثم ضربها الثالثة وقال الله أكبر أعطيتُ مفاتيح اليمن إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة».[2]

كان ﷺ يُربي أصحابه على امتداد الإسلام ودولته إلى مختلف أصقاع الأرض، وأن المسلمين سيفتحونها، ليحولوا الناس إلى عبادة الله سبحانه تعالى في نظام مؤسسي ديني إداري سياسي عرفه العوام والخواص من المسلمين، ولذلك نجد ربعي ابن عامر يتحدث عن هذا الهدف النبيل الدافع لإقامة نظام يسود

---

(١) انظر: ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص ٢٧١.

(٢) رواه أحمد في مسنده ج ٤ / ٣٠٣، وحَسَّنه عدد من العلماء منهم ابن حجر (انظر د. أكرم ضياء العُمري: **السيرة النبوية الصحيحة**، ج ٢/ ٤٢٣).

فيه العدل بين الإنسانية؛ قال لرستم وهو يحاوره قبيل معركة القادسية: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام...».[1]

لقد سعى رسول الله ﷺ منذ أيام دعوته الأولى إلى قيام نظام إنساني يسوس الناس على العدل والمساواة، إن قيام دولة الرسول ﷺ كان متدرّجاً؛ انطلق مع الدعوة والنبوة، وتأكد بعد الهجرة، ونما وازدهر بعد فتح مكة حتى سادت دولة الرسول معظم أنحاء الجزيرة العربية، وشغل ﷺ منصب القيادة العليا في الدولة الإسلامية مع شرف النبوة والرسالة في وقت واحد، وأعدّ أصحابه من بعده لتنظيم العالم كله وإقامة التوحيد والعدل.

وقد ضبط ﷺ أمور الدولة (بأنظمة ومناصب وعمالات ووظائف استقامت بها دولته وسارت أحوالها، ونظمت قوتها البشرية والمالية والاجتماعية والأمنية وسائر أمورها الداخلية والخارجية).[2]

وهذه الإدارة الفعالة المتميزة كانت جزءاً من الدين الإسلامي الذي حمله ﷺ رحمة للبشرية، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، حيث جمع ﷺ بين الدين والدنيا بشكل أدهش المسلمين وغيرهم.

---

(١) انظر: الطبري، **تاريخه**، ج ٤/١٠٦.

(٢) انظر: د. عبد العزيز العُمري، **مبادئ التخطيط والإدارة في السيرة النبوية**، ص ١٤.

يقول مايكل هارت: (Michael H.Hart) في كتابه: «أعظم مائة رجل في تاريخ البشرية»: Aranking the most inflontial persons: «إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً مما يخول محمداً ﷺ أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية». (١)

تنظيم الدولة وولاياتها:

كانت بلاد العرب وخصوصاً الحجاز ونجد، بعيدة عن التنظيم السياسي والإداري، خاضعة للأعراف والقبائل التي تدير نفسها عشوائياً، دون سياسة ودولة معينة في الغالب، فلم يعرف في مكة قيادة مسموعة وإدارة مسؤولة، ولا في المدينة شيء من ذلك، حيث ساد عندهم التنظيم القبلي وأعرافه، فرغم أنهم سكان مدن إلا إنها كانت دون تنظيم أو إدارة محددة، حتى أصبحت تحت حكم الرسول ﷺ.

لقد كانت إدارة الحكم وتنظيمه إحدى العلامات البارزة التي جاءت في القرآن يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨ ـ ٥٩].

---

(١) مايكل هارت، **المائة الأوائل**، ص ٢١.

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

كان الرسول ﷺ رأس الدولة، ويعين الموظفين والعمال.[١] وكان ﷺ حريصاً على الإدارة وترتيب المسؤوليات. ومنذ بيعة العقبة الثانية نظم الرسول ﷺ المبايعين وطلب منهم أن يُخرجوا له نقباء من بينهم يكونون مسؤولين عن الآخرين لتلقى الأوامر والتوجيهات ومتابعة التنفيذ كلٌ فيما يخصه.[٢]

وكانت البيعة من الرجال والنساء ذات معنى خاص[٣] وردت في كتاب الله يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

كانت أوامر الرسول ﷺ واضحة في ترتيب المسؤولية في

---

(١) انظر: عمال الرسول ﷺ على البلدان عند خليفة بن خياط، تاريخه، ص٦٠ (تسمية عماله ﷺ)؛ وعبد العزيز العُمري، **الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين**، ص٣٩ عنوان: (الولاية على البلدان في العصر النبوي).

(٢) انظر: تفصيلات ذلك في بيعة العقبة الثانية في هذا الكتاب.

(٣) الكتاني، **التراتيب الإدارية**، ج ١/ ٢٢٢.

أي تجمع قليل أو كثير، فقد قال ﷺ: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم». [١]

وكان ﷺ يسوس أمور الدولة العسكرية والمدنية فيبعث الجيوش والسرايا، ويرتب قيادتها، بل يتخذ الاحتياطات حتى لا يشغر منصب القيادة فيها، ففي غزوة مؤتة استخلف رسول الله ﷺ على جيش مؤتة زيد بن حارثة وقال: «فإن أصيب فجعفر ابن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون رجلاً». [٢]

لقد كان التنظيم وترتيب القيادة والسمع والطاعة لها بالمعروف مما ربّى عليه الرسول ﷺ الأمة.

لقد أصبحت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، وكان الرسول ﷺ هو الحاكم الفعلي للمدينة المنورة، وهو الذي يهتم بإدارة شؤونها، كما كان الرسول ﷺ يستخلف على المدينة من يختاره من أصحابه أثناء غيابه عنها، وقد ذكر أصحاب السير عند كل غزوة اسم من استخلفه الرسول ﷺ على المدينة.

ومن أشهر الذين ولاهم الرسول ﷺ على المدينة أثناء غيابه: عبد الله بن أم مكتوم، [٣] حيث ذكر أنه ولاه قرابة (١٣)

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ج ٢/ ١٧٧.

(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٣٦٧؛ ابن تيمية، **السياسة الشرعية**، ص ١٦. انظر: غزوة مؤته من هذا الكتاب.

(٣) ابن حجر، **الإصابة**، ج٢/ ٥٢٥.

مرة،[١] منها في غزوة بدر،[٢] ومنها في غزوة حمراء الأسد وغيرها من الغزوات،[٣] كما استخلف الرسول ﷺ عثمان بن عفان على المدينة المنورة في بعض غزواته.[٤]

واستخلف الرسول ﷺ على المدينة في غزوة تبوك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحينما شق الأمر على علي رضي الله عنه، قال له الرسول ﷺ: (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي).[٥] وعلى العموم فإن الرسول ﷺ كان يحرص باستمرار على بقاء من ينوب عنه في تصريف أحوال المدينة، حتى ولو كانت فترة غيابه قصيرة. وهذا يعطينا دلالة عظيمة على اهتمام الرسول ﷺ بهذا الجانب الإداري والتنظيمي في الحكومة النبوية.

وحينما اتسعت الدولة الإسلامية في عصره ﷺ وتجاوزت حدود المدينة المنورة، أخذ الرسول ﷺ يرسل العمال من الولاة والقضاة وغيرهم إلى مختلف المناطق والأقاليم، بل وحتى القبائل، لأمور عدة وبصلاحيات منضبطة، حددها لهم الرسول ﷺ وهي في مجملها ضوابط عامة، وقد يختلف بعضها من إقليم إلى إقليم ومن ولاية إلى ولاية.

---

(١) ابن حجر، **الإصابة**، ج٢/ ٥٢٣.
(٢) خليفة بن خياط، ص ٩٦.
(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ١٠١، ١٠٢.
(٤) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ج ١/ ١٤٨.
(٥) أخرجه **البخاري في صحيحه**، **كتاب المغازي**، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، ج٥/ ١٢٨. والإمام أحمد في **مسنده**، ج ١/ ١٨٢.

أهم الولايات التي عرفت في العصر النبوي

ولاية اليمن:

أرسل الرسول ﷺ مجموعة من الولاة والقضاة إلى اليمن في أوقات مختلفة وبأهداف واختصاصات محددة لكل والٍ من هؤلاء، سواء أكان اختصاصه محدداً بإقليم معين أم بأعمال معينة، كجمع الصدقات وتوزيعها أو غير ذلك. وقد برزت أسماء كثيرة لولاة على اليمن في عصر الرسول ﷺ كان أشهرهم معاذ بن جبل رضي الله عنه،[1] الذي أرسله الرسول ﷺ إلى اليمن أميراً لأمراء الرسول[2] فيها وقاضياً ومعلماً، وقد كان من أبرز مهام معاذ رضي الله عنه في اليمن تعليم الناس الدين والشريعة، والقضاء بين الناس، إضافة إلى جمع الصدقات مع العمال الآخرين الذين أرسلهم الرسول ﷺ إلى اليمن.[3]

---

(١) ابن حجر، **الإصابة**، ج٣/ ٤٢٦.

(٢) انظر: البخاري في **صحيحه**، باب (بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن)، ج ٥/ ١٠٧؛ خليفة ابن خياط، **تاريخه**، ص٩٧. البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٨١.

(٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٨٠.

وقد أمر الرسول ﷺ معاذاً بأمور شرعية تتعلق بالزكاة والأطعمة اشتهرت عن معاذ رضي الله عنه.[1]

استمر رضي الله عنه في تأدية عمله بقية عصر الرسول ﷺ، فكان يأخذ الصدقات من الأغنياء ويردها على الفقراء، ما زاد في انتشار الإسلام وزيادة رقعته في اليمن، وكان معاذ يقوم بالولاية على منطقة (الجَنَد)،[2] بالإضافة إلى إشرافه العام على بقية الولاة.

وإلى جانب معاذ هناك العديد من الولاة الذين تقاسموا اليمن وحضرموت، وارتبطوا بأقاليم محددة، واستمروا يؤدون رسالتهم على أكمل وجه، حتى إذا قامت الفتنة في اليمن قبيل وفاة الرسول ﷺ وظهر فيها الأسود العنسي الكذاب، اشترك الولاة في دفع هذا الخطر، ومحاربة المرتدين مع الأسود العنسي الكذاب، حتى استقر الأمر للإسلام في اليمن، في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.[3]

---

(١) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٨٣؛ انظر: **صحيح البخاري**، (باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن)، ج ٥/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) ابن حبيب، **المحبرّ**، ص ١٢٦، **الطبري**، تاريخه، ج ٣/ ٢٦٤. (والجَنَد) بفتح الجَنَد هي أحد الأقسام الرئيسة لليمن في صدر الإسلام، وبه مدينة سميت باسمه واشتهرت بمسجد معاذ بن جبل (ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٢/ ١٦٩).

(٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١١١، ١١٣؛ اليعقوبي، **تاريخه**، ج٢/ ١٣٢؛ الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ٢٧٠؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٢/ ٣٧٨.

مكة المكرمة:

دخلت تحت السيادة الفعلية للحكومة النبوية بعد فتحها في العام الثامن للهجرة، وقد عين الرسول ﷺ والياً عليها (عَتّاب بن أَسيد بن أبي العيص).[١] وقد استمر أميراً لمكة أيام الرسول ﷺ، وأيام خليفته أبي بكر ، وتوفي في أول خلافة عمر رضي الله عنه.[٢] وقد دارت بين الرسول ﷺ وبين عَتّاب العديد من المراسلات التي تتعلق بشؤون مكة، وشؤون شرعية أخرى مختلفة.[٣]

الطائف:

أسلمت في وقت متأخر برضا أهلها، بعد أن عجز المسلمون عن فتحها خلال الحصار الذي أعقب غزوة حنين. وقد ولّى عليها الرسول ﷺ (عثمان ابن أبي العاص).[٤] وتوفي رسول الله ﷺ وهو على الطائف، وأقره أبو بكر عليها كما أقره عمر، ولكنه طلب من عمر بعد ذلك أن يعفيه من منصبه، فنقله إلى البصرة والبحرين.

---

(١) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ١٢٦؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج٥ /٤٤٦؛ وابن حجر، **الإصابة**، ج٢/ ٤٥١.

(٢) الذهبي، **العِبر في خبر من غَبر**، ج ١/ ١٣.

(٣) انظر محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ٢٨٦.

(٤) ابن حبيب، **المحبر**، ص ١٢٧؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج ٧/ ٤٠؛ ابن حجر، **الإصابة**، ج٢/ ٤٦.

وأما بقية الحجاز فقد عين الرسول ﷺ ولاة للمدن والقرى الأخرى فيه، فقد كان للرسول ﷺ وال على (وادي القرى)،[١] وكذلك له والٍ على (تيماء)[٢].

وكان الرسول ﷺ إلى جانب هذا يبعث بعض أصحابه إلى (القبائل) لتعليم الناس أمور الدين، وجمع الصدقات من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، كما كان هؤلاء الأمراء مسؤولين عن إقامة الصلاة في هذه القبائل، شأنهم في ذلك شأن الولاة في المدن والقرى الأخرى، وكانوا يقومون بالمهام نفسها التي يقوم بها ولاة البلدان من صلاة وقضاء وتعليم وغير ذلك من الاختصاصات التي كانت توكل للولاة عادة.

وقد أرسل الرسول ﷺ ولاته إلى مختلف القبائل في نجد والحجاز وغيرها من بلاد العرب، وكان كثيراً ما يختار الولاة أو المبعوثين لهذه القبائل ممن أسلم من أفراد القبيلة نفسها، فكان لهم دور في التنظيم وإقامة العدل في بلدانهم وقبائلهم[٣].

---

(١) (وادي القُرَى) وادٍ يقع بين المدينة والشام، وبين تيماء، ويسمى الآن وادي العلاء، ويبعد ٣٢٢ ميلاً عن المدينة (عاتق غيث البلادي، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، ص ٩٣).

(٢) تَيماء بلد صغير بين الشام ووادي القرى، على طريق الحج الشامي، وهي بلدة مشهورة باسمها حالياً (انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٢/ ٦٧).

(٣) ابن حبيب، **المحبر**، ص ١٢٦.

البحرين:

تردد ذكر البحرين كجزء من الدولة الإسلامية في أواخر العصر النبوي. وقد بعث الرسول ﷺ مجموعة من الولاة إليها، نظراً لوجود العديد من القرى فيها.[١] وكان أشهر ولاة البحرين خلال العصر النبوي الصحابي الجليل (العلاء بن الحضرمي).[٢] وقد بعث معه الرسول ﷺ بعض الصحابة، منهم أبو هريرة رضي الله عنه.[٣] وقد دارت بينه وبين الرسول ﷺ العديد من المراسلات التي تتعلق بشؤون الولاية.

وكان الرسول ﷺ يبعث بعض أصحابه إلى العلاء ليحضر الجزية المفروضة على المجوس في البحرين إلى المدينة المنورة. وكان من هؤلاء المبعوثين (أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.[٤] واستمر العلاء والياً للبحرين بقية أيام الرسول،[٥] وقد أقره أبو بكر على ولايته بعد وفاة الرسول ﷺ، كما أقره عمر بعد وفاة أبي بكر (رضي الله عنهما).[٦]

---

(١) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٩٠.
(٢) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١/ ٢٦٢، وكذلك، **العبر**، ج ١/ ١٩.
(٣) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١/ ٢٦٤.
(٤) ابن سلام، **الأموال**، ص ٤١.
(٥) خليفة بن خياط، **تاريخه**، ص ١٢٣.
(٦) **المصدر السابق**.

عُمَان:

بعث الرسول ﷺ إلى ملكي عمان (جيفر وعباد ابني الجلندي) برسالة مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، فعرض عليهما الإسلام،[١] فأسلما.

وأقر الرسول ﷺ عمرو بن العاص والياً على عمان مع وجود الملكين، وأخذ عمرو في دعوة الناس إلى الإسلام مع القيام بمهمته الرسمية في عمان، وكان له حوار طويل مع أساقفة عمان ورهبانها، الذين أخذوا يسألونه أسئلة كثيرة عن الإسلام.[٢] كما أرسل الرسول ﷺ مجموعة من الأمراء إلى قرى عمان، وكانت بينهم وبين رسول الله ﷺ مكاتبات.[٣] وقد حدثت ردة في عمان بعد وفاة الرسول ﷺ، وتمكن أبو بكر من القضاء عليها بمساعدة جيفر وعباد ابني الجلندي،[٤] ثم استمرت عمان ولاية إسلامية خلال العصور الإسلامية، وكان لقبائلها تأثير قوي في الفتوح الإسلامية بعد النبي ﷺ.

---

(١) خليفة بن خياط، **تاريخه**، ص ٩٧؛ السهيلي، **الروض الأنف**، ج ٤/ ٢٥٠.

(٢) ابن قدامة، **منهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين**، مخطوط مصور على ميكروفيلم تحت رقم: ١٢٤٦م ح، مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، ورقة ٢١.

(٣) انظر محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ١٦٤.

(٤) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ٢٦١.

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ اهتم بأمر البلدان والقرى التي دخلت تحت لواء الدولة الإسلامية، فكان يرسل إليها الولاة والأمراء معلمين وموجهين وناصحين، ويَكِلُ إليهم القيام بمهام محدّدة، منها إقامة الصلاة وتعليم الناس أمر دينهم وجمع الزكاة من الأغنياء وردها على الفقراء، إضافة إلى جمع الجزية من غير المسلمين وإنفاقها في وجوهها الشرعية، أو بعثها للرسول ﷺ في المدينة المنورة.

كما أن بعض هؤلاء الولاة كان يقضي بين الناس كمعاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب وغيرهما، إضافة إلى الإجابة على الأسئلة التي كان الناس يلقونها عليهم، ممن يريد أن يتعرف على الإسلام أو من علماء أهل الكتاب، كما حدث لمعاذ بن جبل في اليمن وعمرو بن العاص في عمان.

وقد كان الرسول ﷺ يجمع العمل لشخص معين أو يقسمه بين أشخاص، فهو يجمع الصلاة والصدقات لأمير واحد، وقد يفرقها على أميرين أحياناً، كما كان يسند القضاء إلى أمير البلد نفسه، أو يرسل معه قاضياً غيره، وكانت هناك اتصالات عديدة بين الرسول ﷺ وبين هؤلاء الولاة تتعلق بشؤون الولاية وعموم أمور المسلمين وأحكامهم الشرعية.

كان بعض الولاة يرسلون ما يجمعون من أموال الصدقة إلى

الرسول ﷺ في المدينة، لكي يقسمها في وجوهها الشرعية. وكان الرسول ﷺ يتابع أحوال ولاته ويراسلهم.[١]

كما أن الرسول ﷺ كان يصدر تعليماته المستمرة للولاة على ضوء ما يجد من أحداث، وبما أن الرسول ﷺ كان يحب التفاؤل، فقد كتب لأحد ولاته: (إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم)[٢] وكان يكتب إلى ولاته باستمرار ينهاهم عن الخيانة ويأمرهم بالأمانة[٣] ويؤكد عليها.

وكان الرسول ﷺ يركز على الولاة بتعليم الناس أمور دينهم والتيسير عليهم، فقد قال لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري حين بعثهما إلى اليمن: «يسِّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»، وقال ﷺ: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا منفرين».[٤]

والرسول ﷺ وضع الأساس للأمة في إدارة البلدان وترتيب أقاليم الدولة المختلفة. ولا شك أن الإدارة العليا تحتاج باستمرار إلى مشاورة الكوادر الأخرى المشاركة في المسؤولية قبل اتخاذ القرارات المصيرية، وقد ساد في الفكر الإداري

---

(١) انظر: محمد حميد الله، **الوثائق السياسية**، ص ٢١١.

(٢) **المرجع السابق**، ص ٣٣٢.

(٣) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٢١.

(٤) ابن تيمية، **السياسة الشرعية**، ص ١٣٧؛ وانظر: **رواية البخاري في صحيحه**، ج٥/ ١٠٨.

الحديث أهمية المشاورة قبل اتخاذ قرار إداري محدد وجرت دراسات مختلفة حول أهمية المشاورة ونتائجها بالنسبة للقيادات الإدارية العليا.[1]

كان رسول الله ﷺ وهو قائد الدولة الإسلامية يكثر من مشاورة أصحابه رضي الله عنهم، حيث نزلت عليه سورة الشورى لتؤكد هذا المبدأ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٢٨]. وفي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد ثبت كثرة مشاورة الرسول ﷺ للصحابة العاملين معه قبل اتخاذ القرارات الهامة، حتى عرف بعض الصحابة أنهم من أهل شورى رسول الله ﷺ.

ولا شك أن معظم المصائب والأخطاء في العالم الإسلامي المعاصر ترجع إلى انفراد أصحاب القرار بالرأي من دون الرجوع لأهل الخبرة والمشورة، حيث ابتعدوا عن سنة الرسول ﷺ في هذا الجانب، فكانت قرارات كارثية وإدارات عاجزة ومشاكلات كبرى.

---

(١) الهواري، **الإدارة الأصول والأسس العلمية**، ص ١٧٦.
وانظر: عبد العزيز العُمري، **مبادئ التخطيط والإدارة في السيرة النبوية**، ص ٤٥.

العدل والمساواة:

العدالة مبدأ إسلامي وإنساني مهم، يحكم أمور المسلم في كل أحواله العامة والخاصة وخصوصًا ما يتعلق بالآخرين إذا تولى عملاً للناس وفضيلة سامية تسمو إلى تحقيقها النظم في كل زمان ومكان، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

كما شدّد القرآن في التحذير من الظلم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞۚ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٤].

والعدل مطلوب مع الجميع حتى مع الأعداء، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ولا شك أن العدالة ليست خاصة في القضاء فقط، بل هي توجيه عام لكل مسلم، وهي من صميم العمل الإداري، حيث أن المسؤول الإداري ينبغي أن يكون عادلاً مع موظفيه وأن يكون عادلاً مع ذوي العلاقة بالعمل، وأصحاب المصالح المتصلة بعمله، والعدالة مطلوبة من كل إنسان حتى في إدارة عائلته وعمله الخاص، فكيف إذا كان صاحب منصب وعمل متصلاً بعامة الناس أو خاصتهم.

وحين زعم أحد الجُهال أن الرسول ﷺ لم يعدل في قسمة أموال حُنين، غضب رسول الله ﷺ لعظم التهمة في نظره ولاتهامه بعدم الإنصاف وهو ﷺ أعدل الناس وأبرّهم، وأسوة لجميع العاملين على شؤون الناس وحقوق العباد ﷺ، ولا يقبل الظلم من أحد فكيف يظلم بنفسه، حاشاه الله.

وقد كان ﷺ يحذر من الظلم ومن ذلك قوله: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». (١)

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، ج ٣/ ٩٩؛ ورواه الإمام أحمد في **مسنده**، ج ٢/ ٩٢.

كما كان يأمر بتطبيق العدل وإقامة الحدود على الضعيف والقوى، ويحذر من التهاون في ذلك بقوله: «إنما أهلكَ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سَرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». (١)

كان رسول الله ﷺ يتولى القضاء بنفسه بين الناس(٢)، يتحرى العدل ويخشى تدليس الخصوم على بعض، ويحذر من الاعتداء على حقوق الآخرين ولو بحكم قضائي، ولذلك ورد أنه ﷺ: «سمع خصومةً أمام باب حجرته، فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها». (٣)

وقد كان رسول الله ﷺ يقضي بين الناس كافة ويعمل على أداء الحقوق إلى أهلها سواء كانوا مسلمين أم كفاراً، ويوضح القواعد الأخلاقية للقضاة والخصوم، ويحذر من الكذب في الدعوى، أو اليمين التي تؤدي إلى أخذ الإنسان ما ليس له، فقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «من

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٣٧٣٣.

(٢) للتوسع حول الموضوع انظر: القرطبي، عبد الله محمد بن فرج المالكي، **أقضية رسول الله**، مطابع قطر الوطنية، الدوحة قطر، (د. ت).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٢٤٥٨.

حلف على يمين وهو فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان».[1] وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]. وقرَنَ قول الزور مع الشرك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]. كما كانت توجيهاته واضحة في المساواة بين الخصوم، وعدم الحكم بالهوى وأن يكون القضاء بنظام شرعي واضح ومنه: (البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر).[2] كما أنه قطع الطريق على الدعاوى الباطلة فقال: «لو يعطى الناس بدعواهم لادَّعى ناس دماء رجال وأموالهم».[3] وأكّد على أهمية الشهادة: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. واعتبر أداء الشهادة من أسباب العدل.

---

(١) من حديث البخاري، **كتاب الخصومات**، حديث رقم: ٢٤١٦.

(٢) وضع البخاري في **صحيحه في كتاب الشهادات** (باب ما جاء في البينة على المدعي)، ج٣/ ١٤٦.

(٣) رواه مسلم في **صحيحه**، ج ٥ / ١٣٨.

وطالب القرآن بإقامة العدل دون هوى، حتى لو كان الحق على أعز الناس إلى الإنسان، بل حتى لو على نفسه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وطالب القرآن بالعدل حتى مع الأعداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وورد في الحديث القدسي «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».(١)

وقد جاءت أخلاقيات الإسلام لتضمن العدالة ونزاهة القضاء والعاملين عليه فحذر ﷺ من الحكم بالهوى أو الجهل، كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وقد حذر رسول الله ﷺ قضاة الجور بقوله: «القضاة

---

(١) رواه مسلم في **كتاب البر**، باب تحريم الظلم، ج ٨/ ١٧؛ رواه الإمام أحمد في **مسنده**، ج٥/ ١٦٠.

ثلاثة، قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة، رجل قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاضٍ لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاضٍ قضى بالحق فذاك في الجنة». (١)

كما حرم الإسلام الرشوة، وهي مما يدفع إلى الظلم وغمط الناس حقوقهم، ويؤثر في القضاة والحكام. قال ﷺ: «لعن الله الراشي والمرتشي والرائش». (٢)

وكان القضاء عاماً بين الناس في المجتمع المسلم وطبق في العهد النبوي يدخل فيه المسلم وغيره، ومطلب العدل عام مع المسلمين وغيرهم، يقول تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقد شرع رسول الله ﷺ كل ما من شأنه تنظيم العدل بتعيين القضاة في الأماكن البعيدة عن المدينة، فقد بعث ﷺ عدداً من الصحابة للقضاء في منازعات الناس، ومن أشهر هؤلاء القضاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث بعثه النبي ﷺ إلى بعض نواحي اليمن قاضياً، ولم يرجع إلا أثناء حجة الوداع. وقد دار حوار

---

(١) سنن الترمذي، **كتاب الأحكام**، رقم: ١٣٢٢، ج٣/ ٦١٢.

(٢) رواه أحمد في **مسنده**، ج ٢/ ١٦٤، وج ٥/ ٢٧٩؛ والترمذي في **كتاب الأحكام**، حديث رقم: ١٣٣٦، ج ٣/ ٦٢٢؛ وابن ماجة في **كتاب الأحكام**، والدارمي في **الأقضية**.

بينه وبين النبي ﷺ حول أسس القضاء كما سابق وذكرنا، ومن ذلك قول الرسول ﷺ لعلي: «إذا حضر خصمان بين يديك فلا تقض لأحدهما حتى تسمع كلام الآخر». (١)

كما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، وكان من مهمته القضاء بين الناس وقد حاور ﷺ معاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن فقال: «بم تحكم؟ قال بكتاب الله وسنة نبيه، قال: فإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي، فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسوله». (٢)

ولم يبق إقليم تابع لدولة الرسول ﷺ إلا حدد فيه الأمراء ومن يقضي بين الناس ويقيم العدل فيهم، ولعل أشهر دستور عالمي في القضاء هو كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء. (٣)

والذي لا شك فيه أن عمر استقاه مما تعلمه من النبي ﷺ في شؤون القضاء والعدل، وقد جاء فيه: (أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلُّمٌ

---

(١) الماروردي، **الأحكام السلطانية**، ص ٦٧.

(٢) الماروردي، **الأحكام السلطانية**، ص ٦٧.

(٣) شرح ابن القيم كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري في كتابه إعلام الموقعين عن رب العالمين بما يزيد على(٤٥٠) صفحة (، ج ١/ ٨٦ حتى ٤٠٦، ج ٢/ ١ ـ ١٦٥).

بحقٍ لا نفاذ له، واسِ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيْفك ولا ييأس ضعيف من عدلك.

البيِّنة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق؛ فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك، ما ليس في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه، ثم اعرف الأمثال والأشباه وقِسِ الأمور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فمن أحضر بينة أخذت له حقه واستحلل القضية عليه، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى. والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدّ، أو مجرّباً عليه بشهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن الله عفا عن الأيمان ودرأ بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسِّن به الذكر والسلام).[1]

ولا شكّ أن انتظام الحياة والإسلام في أي مجتمع إنساني

---

(١) ابن القيم، **إعلام الموقعين**، ج١/ ٨٥ ــ ٨٦؛ الهواري، **الإدارة الأصول والأسس العلمية**، ص ١٧٦.

لا يقوم إلا على نظام وقوانين وشريعة واضحة يتساوى أمامها الجميع، مع وجود مرجعية قضائية لحفظ الحقوق، وقوة تساعد في إعادة الحقوق إلى أهلها ومنع الظلم وتطبيق أحكام القضاء. وهذا يدفع الجميع للأمان والوقوف مع هذا النظام العادل الضامن للحقوق، والمعين على الحياة الكريمة، والإنتاج الصحيح بعيداً عن سرقة الناس، والاعتداء على أموالهم أو أعراضهم أو أنفسهم.

وهكذا بنى الرسول ﷺ بتوجيهات إلهية وتطبيقات نبوية هذا المجتمع المسلم في المدينة وما وقع تحت حكمه وإدارته من أنحاء الجزيرة العربية على العدل، وأصبح هذا النظام نبراساً للدول الإسلامية ومجتمعاتها يزيد أمانها وإيمانها كلما اقتدت به وسارت على نهجه، وتضيع الحقوق كلما ابتعدت عن طريقه.

وقد ألّف العلماء وفقهاء الشريعة في هذا المجال ما يصعب حصره من تراث علمي سياسي إداري قانوني شرعي عدلي،[1] جهله كثير من أبناء الأمة وتجاهله كثير من القادة وأصحاب القرار فضاعوا وأضاعوا.

(١) انظر: محمد فتحي عثمان، **من أصول الفكر السياسي الإسلامي**.

ترتيب الأمن والسلام

الحفاظ على الأمن حاجة إنسانية قائمة، وضرورية وملحّة في كل المجتمعات البشرية، وحينما بُعث النبي ﷺ، كانت بلاد العرب تعيش حالاً من الفوضى الأمنية، حيث يأكل الضعيف القوي، وتسود الفوضى ويعجز الناس عن السفر وحماية أنفسهم إلا بقوة وأحلاف تتعاون لضبط الأمن، ولم يكن هناك نظام أو شرع وقانون يحمي الناس من اعتداء الآخرين، وجاءت آيات القرآن لتذكر الناس بأهمية الأمن وقرنته بالرزق في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ٤] وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨] وقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ

ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آلعمران: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وبيّن الله في قصص الأنبياء السابقين أهمية الأمن في حياة الأمم ففي قوم صالح قال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦]، وفي عموم القرى والأمم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨، ٩٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل].

وقد كان ﷺ يبشر الصحابة في أكثر من موضع بأن الأمن

سوف يسود بهذا الدين، ومن ذلك قوله لعدي بن حاتم: «فو الله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها «حتى» تزور هذا البيت لا تخاف أحداً إلا الله».[1] وقال ﷺ: «ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه».[2]

كان الأمن والسلام بين الناس من أهم أهداف الإسلام، وبالتالي لزم الأمر محاربة الخوف وما يؤدي إليه، ولذلك كان هدف سلطة الدولة التي كان على رأسها رسول الله ﷺ تحقيق الأمن.

وكان القضاء وأدواته وتشريعاته تعمل لتحقيق العدل والأمن والسلام فكان الحفاظ على أرواح الناس: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ

---

(١) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ١٥٠؛ وانظر: ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ١٤٢؛ وابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٨١.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، **كتاب المغازي**، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين في مكة، ج ٥/ ٢٣٨.

ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

وكان الرسول ﷺ يؤكد في أحاديثه وخطبه على السلام بين الناس على تأمينهم وعدم الاعتداء عليهم. وكان يؤكد في بيعته على ذلك؛ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله في رهط فقال: أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا فهو له كفارة وطهور، ومن ستره الله فذلك إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له).[1]

وكان من أشهر ما قاله ﷺ في حجة الوداع يوم عرفة: ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة؟ قالوا: ألا شهرنا هذا. قال: ألا أي بلد تعلمونه أعظم حرمة؟ قالوا: ألا بلدنا هذا. قال: ألا أي

---

(١) انظر: **صحيح البخاري، كتاب الحدود**، ج ٧/ ١٨؛ حديث رقم: ٦٧٨٤؛ ٦٨٠١.

يوم تعلمونه أعظم حرمة؟ قالوا: ألا يومنا هذا. قال: فإن الله تعالى حرم عليكم دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، إلا بحقها كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا من شهركم هذا. ألا هل بلغت؟ ثلاثاً، كل ذلك يجيبونه: ألا نعم، قال ويحكم أو ويلكم لا ترجُعنّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». (١)

وقد أكّد ﷺ على أهمية الأمن في حياة الإنسان بقوله: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا». (٢) وقد قال ﷺ ((لا يحلّ لمسلم أن يروِّع مسلماً))، (٣) وكان من دعائه: ((اللهم استر عورتي وآمن روعتي)). (٤)

وقد أدت دولة الإسلام في المدينة دورها في بسط الأمن والسلام بين الناس، المسلمين وغيرهم، وكان ذلك عماد معاهدة المدينة بين الرسول ﷺ وعموم سكان وقبائل المدينة، هو الدفاع المشترك وبسط السلام فيها وعدم إعانة من يسببون الخوف لأهلها من المُحْدِثين وغيرهم. (٥)

---

(١) من رواية **البخاري في صحيحه، كتاب الحدود**، حديث رقم: ٦٧٨٥؛ ابن حزم، المحلّى، كتاب الحج، ج ٤/ ٨٤.

(٢) رواه الترمذي **في الزهد**، حديث رقم: ٢٣٤٦، ج ٤/ ٥٧٤.

(٣) رواه الإمام أحمد في **مسنده**، ج ٥/ ٢٦٢.

(٤) رواه الإمام أحمد في **مسنده**، ج ٢/ ٢٥.

(٥) انظر: وثيقة المدينة من هذا الكتاب.

وكان ﷺ يتابع بنفسه أمن المدينة وسلامة أهلها والقادمين إليها، ويقيم الحدود الشرعية على المجرمين الذين يفسدون في الأرض ويريقون الدماء ويخلّون بأمن الناس وسلامتهم، كما فعل مع العُرنين. وقد وضع البخاري في صحيحه كتاباً سماه (كتاب الحدود وما يحذر من الحدود)،[١] أورد فيه عدة أبواب، منها باب (إقامة الحدود على الشريف والوضيع)[٢] وباب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان)[٣] روى فيه عن عائشة (رضي الله عنها): (أن قريشا أهمتهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها يعني رسول الله ﷺ قالوا ومن يجترئ إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: يا أسامة أتشفع في حدّ من حدود الله؟ ثم قام فخطب فقال: إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد،وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).[٤] وقد أمر القرآن الكريم بقطع يد السارق في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا

(١) **صحيح البخاري**، ج ٨/ ١٣.

(٢) صحيح البخاري، ج ٨/ ١٦.

(٣) صحيح البخاري، ج ٨/ ١٦.

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**، **كتاب الحدود** باب إقامة الحد على الشريف والوضيع، ج٨/ ١٦.

نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨ ـ ٣٩].

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. (١) وقد طبق الرسول ﷺ حد السرقة على المرأة المخزومية ولم يمنعه شرفها ولا شفاعة أسامة ابن زيد وغيره من أشراف مكة في منع تطبيق الحد الشرعي عليها. ويظهر أنه طبق حد السرقة أكثر من مرة في حياته ﷺ. (٢)

وكان لحد السرقة دور كبير في أمن الناس على أموالهم، وخوف السُراق من إقامة الحد عليهم، حتى خفت السرقة وكادت تنعدم في زمن النبي ﷺ.

ولا شك أن أي بلد ومجتمع في العالم يقيم حد السرقة تقل فيه السرقة، ويأمن الناس على أموالهم. كما أن القتل كانت عقوبته القتل إلا أن يعفو أولياء الدم. وقد جاء الحكم صريحاً في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وكان الأمر واضحاً أن في حد القصاص يمنع الناس من التفكير في القتل وإراقة دماء الناس إذا علموا أن دماءهم مهددة،

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحدود باب ١٣، ج ٨/ ١٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، ج ٨/ ١٥ ـ ١٨

وأن القصاص من ورائهم إن فعلوا ذلك، ومن ثمّ فإن في القصاص حماية للدماء وحياة للناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقد عرف حد الحرابة، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

وقد حدث أن رسول الله ﷺ أكرم أناساً من الأعراب جاؤه مرضى، وهم رهط من عكل وفدوا على النبي ﷺ، كانوا في الصفة فاجتووا المدينة، فقالوا يا رسول الله: ابغنا رِسْلاً، فقال ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله، فأتوها فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحّوا وسمنوا، وقتلوا الراعي واستاقوا الذود، فأتى النبي ﷺ الصريخ، فبعث الطلب في آثارهم فما ترجل النهار حتى أتي بهم، فأمر بمسامير فأُحميت فكحّلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم، ثم ألقوا في الحرّة يستسقون فما سُقوا حتى ماتوا. قال أبو قلابة: سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله).[1] وقد عرف النبي ﷺ حاجة الناس إلى

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، **كتاب الحدود**، باب سَمْر النبي ﷺ أعين المحاربين، ج ٨/ ١٩.

الأمان وأن لا يراعوا، فأمِن أعداؤه في مكة، حين دخلها فاتحاً، حيث أعلن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.[1]

كان ﷺ واعياً بأهمية الأمن في حياة الناس، ولذلك كان من أوائل ما ذكر به الناس بعد الفتح تحريم سفك الدماء.[2] لقد كان الأمن للناس جميعاً في دولة الإسلام، منذ أن ظهرت إلى الوجود في المدينة المنورة، لقد كان الأمن والسلام الشامل أول أهداف دولة الرسول ﷺ منذ قيامها.

إنه الجمع بين منع الجريمة، وإقامة الحدود على المجرم، وحفظ الحقوق، وتنظيم العدل، وإشاعة الأمن، وهذا أهم مطلب إنساني بعد الدين والتوحيد ومعه الرزق، وكلها وردت في إعجاز بيّن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣ ـ ٤]، إنه التوحيد والرزق والأمن مقترنة في هذا الإعجاز الرباني، ومربوطة ببيت الله وقبلة المسلمين رمزاً للمكان والنظام والدين في وقت واحد.

---

(١) انظر: فتح مكة، من هذا الكتاب.

(٢) انظر سيرة ابن هشام، ج ٤/ ٤١٥.

بناء الآداب والأخلاق الاجتماعية[1]

إن المجتمعات البشرية عموماً والمجتمع العربي خصوصاً فسدت أخلاقهم، وأساء بعضهم إلى بعض واحتقر بعضهم بعضاً.[2] وكانت محاولات الرسول ﷺ لتغيير مجتمع مكة من الداخل قوية وجادة، بمحاولته نشر الإسلام وما يرتبط به من شريعة وبناء أدبي وأخلاقي وترابط إنساني، وعلاقات حميمة بين أفراد المجتمع عموماً، بدايةً بذوي القربى والآباء وأبنائهم في تلاحم بين الدين والمجتمع والأخلاق،وقد تعنتت قريش ومنعت الدعوة ووقفت في وجهها، وحاربت رسول الله ﷺ وآذته وأصحابه، ما دفعه للبحث عن مكان آخر لإقامة المجتمع

---

(١) لعل من أجمل ما يطرح حول الموضوع ما جمعه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، من أبواب متفرقة في الأخلاق والصلة والسماحة والتعامل مع الجار والمسكين والأرحام وغير ذلك فيما يزيد على (١٢٨) باباً. انظر: **صحيح البخاري**، ج ٧/ ٦٨ ــ ١٢٥.

(٢) للتوسع في هذا الموضوع راجع د. أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد، **أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة** في ثلاثة أجزاء من إصدار دار الغرب الإسلامي، بيروت طبعة ثانية، ١٤١٩هـ.

المسلم المميز بأدبه وأخلاقه وتلاحمه، فكانت الهجرة إلى المدينة وبداية بناء المجتمع الإنساني المسلم الآمن، حيث توافد المهاجرون، وتآلفوا وتحالفوا وتآخوا مع الأنصار، ووجد بينهم ما عرف بنظام الموآخاة الذي أظهر معادن المجتمع الصافي المتآخي كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

كان بناء التآلف والتآخي لجيل الصحابة ولأجيال الأمة كلها من بعدهم يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

لقد كانت تزكية النفس وبناء الأخلاق من صميم دعوة الرسول ﷺ جاءت في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وكذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقد جاءت مختلف تشريعات الإسلام لتقيم العلاقة الحسنة بين أفراد المجتمع[١]، وبين العائلة الواحدة، فقال ﷺ: «البرُّ حُسْن الخلق»،[٢] وقال: «خياركم أحسنكم أخلاقاً».[٣] وركز الإسلام على تحسين علاقة الأبناء بآبائهم والآباء بأبنائهم، حيث كان الأمر الإلهي ببر الوالدين يعني إصلاح العلاقة بين جيل وآخر، وإشاعة التراحم والتواصل. وقد كان بر الوالدين مقروناً بطاعة الله تعالى كما قال: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

كما أكدّ القرآن على ذوي القربى وحسن العلاقة بهم في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ [الإسراء:٢٦]، كما كان رسول الله ﷺ على أعلى

---

(١) انظر: الخولي، محمد عبد العزيز، **الأدب النبوي، عظات بالغة وحكم بالغة**، ط ١، دار القلم، بيروت، ١٤٠٦هـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في **مسنده**، ج ٢/ ٢٥٠.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه، كتاب الأدب**، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، ج ٧/ ٨٢.

درجات الخلق كما وصفه الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وأمر الله سبحانه الناس بالتأسي به في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقد قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».[1]

وكان ﷺ متواضعاً يعود المريض، ويتبع الجنازة ويجيب الدعوة ويكره أن يقوم له الناس، يتواضع مع الكبار والصغار، حتى أن الغريب إذا جاء وجده بين أصحابه غير متميز بجلسة. كان جواداً يأمر بالجود، كريماً يأمر بالكرم عفيفاً يأمر بالعفة والاستغناء عن الناس، شجاعاً، حليماً يأمر بالحلم، رفيقاً يأمر بالرفق، طيب الرائحة نظيفاً يأمر بذلك، ويأتي على رأس ذلك كله حسن الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ابتداء بالتوحيد والرضا بعبوديته، وحسن الظن به والتوكل عليه، والخوف منه والرضا بما قسم، ورجاء ما عنده، وتقواه وخشيته في الغيب والشهادة، والأنس بذكره وشكره وحسن عبادته: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٣]، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقد قال

---

(١) صححه الألباني، انظر: **مسند الإمام أحمد**، ج ٢/ ٣٨١؛ وعنده لأتمّم صالح الأخلاق.

تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، وهو القائل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقد قال ﷺ مذكراً بحسن الأدب مع الله: «استحيوا من الله حق الحياء فاحفظوا الرأس وما وعى والبطن وما حوى واذكروا الموت والبلى».(١)

وقد قال ﷺ: «فالله أحق أن يستحيا منه من الناس».(٢)

ومن حسن الأدب مع الله الإنابة إليه، والاستغفار والرجوع والفرار إلى الله، كما قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وتذكّر أن النعم منه كما قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وتذكر كرمه وفضله وإحسانه ومراقبته لخلقه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن حسن الأدب مع الله حسن الآداب مع القرآن كلام الله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

---

(١) الإمام أحمد في **مسنده**، ج ١/ ٣٨٧.

(٢) رواه البخاري في **كتاب الغسل**، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة، ومن تستر فالستر أفضل، ج ١/ ٧٣.

[الأعراف: ٢٠٤]. ومن الآداب التي تربت عليها الأمة الإسلامية حسن الأدب مع رسوله ﷺ في حياته وبعد مماته، كما في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١ ـ ٥].

وقد أمر القرآن أصحاب النبي ﷺ باتباع أمره وعدم معصيته في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، وأكد على حسن الأدب مع الرسول ﷺ وأن لا ينصرفوا عنه إذا كان في أمر جامع إلا بإذنه ﷺ وذلك في قوله

تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٢ ـ ٦٣].

كما أمر الأمة بالسمع والطاعة لرسول الله ﷺ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥١ ـ ٥٤].

كان ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ». (١)

كان ﷺ زاهداً في الدنيا ويأمر بذلك، اتصف بأعلى الصفات التي تحث على النظافة واحترام شعور الآخرين في مأكله ومشربه وملبسه وشعره ومظهره، وكان يأمر بإشاعة المحبة

(١) انظر: أبو بكر الجزائري، **منهاج المسلم**، ص ١٠٣

والسلام بين الناس، قال ﷺ «ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجالِسَ يوم القيامة، أحاسِنُكُمْ أخلاقاً الموطّأون أكنافاً الذين يألفون ويُؤلِفون».[1] كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابّوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم».[2] وكان ﷺ يسلم على الصبيان إذا مرّ بهم.

وقد أمر الله بالاستئذان وإفشاء السلام كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]، وأكدّ القرآن في بنائه الأخلاقي للمجتمع على التواضع والسلام مع الناس في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وقوله: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ [الإسراء: ٣٧]. ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩].

كما كان ﷺ يأمر بالرفق وهو من أسباب الألفة في الأسرة والمجتمع فقال: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»،[3] كما

---

(١) رواه البخاري، **كتاب المناقب**، باب فضائل الصحابة، ج ٤/ ٢١٨ والإمام أحمد في مسنده، ج ٤/ ١٩٣.

(٢) **صحيح مسلم كتاب الإيمان**، ج ١/ ٥٣.

(٣) رواه **البخاري في صحيحه**، **كتاب الأدب**، باب الرفق في الأمر كله، ج٧/ ٨.

قال: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه».[1] وقد طبق الرسول ﷺ الرفق واللين مع الصحابة كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومع الرفق واللين كانت محبة النبي ﷺ للأمة وحرصه عليهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

كان ﷺ مثال الرحمة والعطاء وحسن الخلق، خبرته خديجة (رضي الله عنها)، وهدأت من روعه بعد نزول الوحي عليه، مذكرة بأخلاقه العالية (كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقرئ الضيف وتعين على نوائب الدهر)،[2] وفي ذلك تأكيد للأمة جمعاء: (إن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب للسلامة من مصارع

---

(١) رواه **مسلم في صحيحه**، **كتاب البر**، باب فضل الرفق، ج ٨/ ٢٢؛ ورواه الإمام **أحمد في مسنده**، ج ٦/ ٥٨، ١١٢.

(٢) رواه **البخاري في صحيحه**، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو الحديث الثالث عند البخاري في صحيحه، ج ١/ ٣.

السوء).[1] ولما دخل ﷺ مكة فاتحاً كان متواضعاً مطأطأً رأسه بلا فخر ولا خيلاء.[2] وكان يقف مع المرأة الضعيفة والصبي يسمع إليهم ويحدثهم ويقضي حوائجهم.[3] ولعل حديث أنس رضي الله عنه يشرح ذلك في قوله: (كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، قال وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف وعليه أكاف من ليف)..،[4] وكان لا يأنف أن يُردف معه رجلاً آخر أو صبياً، فكان كثيراً ما يردف أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) ويردف بعض نسائه أحياناً.[5] وقد قال ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد».[6]

ويعمل ﷺ مع أصحابه في السفر فيحتطب ويقوم بجزء من العمل كغيره من الناس. وقد شارك في بناء مسجده، كما شارك أهله في أعمالهم المنزلية: «يكون في مهنة أهله»،[7] وقد اعتاد

---

(١) أحمد بن عبد العزيز الحداد، **أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة**، ج ١/ ٧٧.

(٢) انظر: فتح مكة من هذا الكتاب

(٣) انظر: **صحيح مسلم**، باب قرب النبي ﷺ من الناس

(٤) الترمذي، **كتاب الجنائز**، باب، (٣٢)، حديث رقم: ١٠١٧، ج ٣/ ٣٣٧.

(٥) أخرجه البخاري، **كتاب الأدب**، باب قول الرجل جعلني الله فداك، ج ٧/ ١١٦.

(٦) رواه **ابن ماجه في سننه، باب الحياء**، حديث رقم: ٤١٧٩، ج ٢/ ١٣٩٩.

(٧) من حديث عائشة (رضي الله عنها) عند البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله، ج ٧/ ٨٣.

على الحياء ﷺ ووصفه الله بذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

وكان يدعو إلى الاعتدال في التوفيق بين الدنيا والآخرة، وأن لا تكون الدنيا وزينتها همّ الإنسان الأول ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران]. وقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف]. ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص]. وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَاسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا

حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

لقد كان ﷺ حريصاً على معرفة الصحابة لحبه لهم، ولذلك حدّث معاذ بن جبل يوماً وقال: «يا معاذ والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعنّ في دُبُر كل صلاة أن تقول اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»،(١) قال ﷺ: (إذا أحب أحدكم أخاه فليُعلمه)،(٢) كما كان يحث على كل ما يشيع المحبة بين الناس، كالزيارة والهدية،(٣) والابتسامة التي قال عنها: «وتَبَسُّمِك في وجه أخيك صدقة»،(٤) وعلمهم أن يحيي بعضهم بعضاً بالأفضل ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]. وقد وضع البخاري في صحيحه في كتاب الاستئذان، باب إفشاء السلام من الإسلام،(٥) كما وضع في صحيحه في كتاب الإيمان، باب

---

(١) انظر: **مسند الإمام أحمد**، ج ٥/ ٢٤٥.

(٢) روه الإمام أحمد في **مسنده**، ج ٤/ ٣٠.

(٣) **سنن الترمذي، كتاب البر**، ص: ٣٤؛ ما جاء في قبول الهدية والإثابة عليها، حديث رقم: ١٩٥٣، ج ٤/ ٣٣٨.

(٤) سنن الترمذي، **كتاب البر**، ص ٣٦؛ وما جاء في صنائع المعروف من الحديث، رقم: ١٩٥٦، ج ٤/ ٣٤٠. جمع عبدالله نجيب سالم، **مرويات التبسم في السيرة النبوية** في كتاب سماه «**ابتسامات نبوية**»، دار اقرأ الدولية، ط١، القاهرة ١٤٢٧هـ.

(٥) انظر: **صحيح البخاري**، ج ٧/ ١٢٨.

السلام من الإسلام، ووضع الترمذي في صحيحه، باب ما ذكر في فضل السلام.[1]

كما منع القرآن الكريم تميّز الناس بعضهم على بعض، وذكّرهم بأصلهم الواحد وحرّم أن يسخر بعضهم من بعض في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٣]، وأكّد على أخوّة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وأوجب الإصلاح بينهم في حال النزاع والوقوف ضد الباغي والاستمرار في الإصلاح في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩].

---

(١) صحيح البخاري، ج ١/ ١٢؛ صحيح مسلم، ج ٧/ ٢؛ وانظر: كتاب الاستئذان، ج ٥/ ٥٢.

كما نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة،[1] وعن احتقار بعضهم بعضاً: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»،[2] كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وأمَرَ الله بالعفو والصفح عن الناس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

---

(١) انظر: **سنن الترمذي، كتاب البر**، باب ما جاء في الغيبة، ج ٤/ ٣٢٩.

(٢) رواه الترمذي في **كتاب البر**، باب (١٨)، ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، حديث رقم: ١٩٢٧، ج ٤/ ٣٢٥؛ والإمام **أحمد في مسنده**، ج٣/ ٤٩١.

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

كل هذه المساواة وتقدير الآخرين والإصلاح بين المتنازعين من أجل بناء مجتمع إسلامي أخلاقي متحد ومترابط ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالرحمة وأوصى بها، وأمر الناس بالتواصي بها، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

كما قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء».(١) وقال: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».(٢) وأكّد على التراحم العام بين المسلمين وأن يسود المجتمع: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».(٣)

---

(١) رواه **البخاري في صحيحه**، **كتاب الجنائز**، باب ٣٣، قول النبي ﷺ يعذب الميت ببكاء أهله عليه، ج ٢/ ٨١.

(٢) من حديث رواه **الترمذي**، **كتاب البر**، باب (١٦)، ج ٤/ ٣٢٤.

(٣) رواه **مسلم في صحيحه**، **كتاب البر**، باب ما جاء في رحمة المسلمين، تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ج ٨/ ٢٠.

تعد الصلاة من أهم العبادات عند رسول الله ﷺ، ومع ذلك فقد كان يتجوز فيها رحمة بالأطفال، فقد روى البخاري عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة فأريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز مما أعلم من شدة وَجْد أمه من بكائه». (١)

وكان ﷺ رحيماً بالرقيق والموالي، جعل عَتْقهم من أعظم القربات، ومن أبواب الكفارات المختلفة، وضيق الإسلام أبواب الرق بعد أن كانت مفتوحة في كل الشرائع والنظم زمن النبي ﷺ وأوصى بهم ﷺ خيراً بقوله: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس،ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم، ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي، ولكن ليقلْ فَتايَ وفتاتي». (٢)

إن هذا التراحم والآداب الإنسانية لم تقف عند المسلم والإنسان فقط، بل تعدتها تشريعات الإسلام إلى الحيوان والرأفة به وإطعامه وعدم تعذيبه وقتله بلا رحمة وبلا فائدة، فكما قال ﷺ: «في كل ذات كبِدٍ رطبة أجْر». (٣) وقال: «من لا يرحم لا

---

(١) من رواية **البخاري في صحيحه، كتاب الأذان**، باب (٦٥)، من أخف الصلاة، ج١/ ١٧٢؛ ورواه الإمام أحمد في **مسنده**، ج ٣/ ٢٠٥.

(٢) أحمد بن حنبل في **المسند**، ج ٢/ ٢٤٧؛ ورواه **البخاري، كتاب الإيمان**، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ج ١/ ١٣.

(٣) من رواية **البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة**، باب فضل سقي الماء، ج٣/ ٧٧.

يُرحم»[1] وقد قال ﷺ: «عُذبت امرأة في هِرةٍ سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض».[2] وقد قال ﷺ: «لعن الله من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً».[3]

كل هذه التعليمات في حقوق الحيوان سبق الإسلام بها العالم الحديث بقرون عديدة وهي من رحمة الله التي شرعها لعباده المؤمنين به، المقتدين بهديه، ليكونوا رحمة لكل كائن حي، فما بالك بالإنسان.

وقد أكّد الإسلام على مساعدة الناس والوقوف مع المحتاجين منهم، ومنع الأذى عن بقية الناس رجالاً ونساءًا فقال تعالى في آيات متصلة بعضها ببعض: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

---

(١) حديث متفق عليه من رواية أبي هريرة، انظر: **صحيح البخاري، كتاب الأدب**، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ج ٧/ ٧٥؛ وانظر: **صحيح مسلم**، حديث رقم: ٤٢٨٢.

(٢) رواه **البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة**، ج ٣/ ٧٧؛ ورواه **مسلم في صحيحه**، باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها، ج ٨/ ٣٥.

(٣) رواه الإمام أحمد في **المسند**، ج١/ ٢١٦؛ ورواه مسلم في **صحيحه، كتاب العيد**، باب النهي عن صبر البهائم، ج ٦/ ٧٣.

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٢ ـ ٢٥].

وأكّد القرآن على حسن التعامل مع الجار والإحسان إليه،(١) كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. كما قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره».(٢) وقال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».(٣) كما قال ﷺ: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن فقيل من هو يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه».(٤) ولم يتوقف الأمر على المسلمين بل تعداه إلى غيرهم في أمر واضح وصريح في حسن التعامل معهم إن كانوا مسالمين في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى

---

(١) وضع البخاري في **صحيحه**، **باب الوصاة بالجار**، ج ٧/ ٧٨، وهو حديث متفق عليه.

(٢) رواه **البخاري في صحيحه**، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ج٧/ ٧٨، والحديث متفق عليه.

(٣) رواه **البخاري في صحيحه**، باب الوصاة بالجار، ج ٧/ ٧٨، والحديث متفق عليه.

(٤) رواه **البخاري في صحيحه**، باب أثم من لا يأمن جارة بوائقه، ج ٧/ ٧٨؛ وهو حديث متفق عليه.

ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

وقد أمر ﷺ بالإحسان إلى الأسرى المقاتلين من الأعداء في قوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

وقد أمر ﷺ بالإحسان إلى أسرى بدر وغيرها من المشركين، فكان المسلمون يطعمونهم مما يأكلون ويحسنون التعامل معهم مما أثر فيهم ودفعهم إلى الإسلام بعد ذلك.[١]

ومن أروع الأخلاق التي بنيت عليها الأمة؛ السخاء والعطاء،[٢] وقد عرف العطاء في الأمة في المجالات، كافة ومن ذلك العطاء المالي سواء من خلال الزكاة أم الصدقات التي قرنت مع الصلاة في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٦]، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ

---

(١) انظر: **غزوة بدر**، من هذا الكتاب.

(٢) وضع **البخاري في صحيحه**، في **كتاب الآداب**، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، ج ٧/ ٨١.

بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٣]، وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وفي الحديث الشريف قال ﷺ: «إن الله جواد يحب الجُود».[١] وفي سبيل إبعاد الضّغْناء والتحاسدُ والبعد عن القتال لأجل المال قال ﷺ: «اتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».[٢]

إن هذا التوجيه الكريم لبناء الأمة ومجتمعها على الجود والعطاء كان يمارسه ﷺ من خلال حياته وسيرته، حتى عرف بأنه أكرم من على وجه الأرض، وكان يحث على الصدقة ولو بالقليل: «اتقوا النار ولو بشقّ تمرة».[٣] وقد كان المسلمون في زمانه يتنافسون في الصدقة والإنفاق على المحتاجين من

---

(١) من رواية الترمذي في **صحيحه**، **كتاب الأدب**، حديث رقم: ٢٧٩٩.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**، **كتاب البر**، باب تحريم الظلم، ج ١٨/٨؛ والإمام أحمد في **مسنده**، ج ٢/ ١٦٠.

(٣) رواه البخاري، في **صحيحه**، **كتاب الزكاة**، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، ج ٢/ ١١٤.

المسلمين، وتجهيز جيوشهم وإكرام ضيوفه ﷺ، ويأتي في مقدمة هؤلاء عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي جهز جيش العُسْرة.[1]

كما كان الوفاء بالعهد من أهم أخلاق النبي ﷺ والمسلمين عموماً طبقها ﷺ في حياته مع أصدقائه ومع أعدائه ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

كما كان أداء الأمانة من أساسيات الأخلاق التي بني عليها الإسلام ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وكان ﷺ مضرب المثل في قريش قبل البعثة وبعدها حتى أنهم كانوا يسمونه الصادق الأمين، وكان الصدق سلوكه وخلقه وصفه الله به في قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

---

(١) انظر: غزوة تبوك.

وكان ﷺ يحث على الصدق ويأمر به ويربي الناس عليه فقال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً»،[1] كما حذر ﷺ: «آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذبَ، وإذا وعد أخلف، وإذا أُتمن خان».[2]

أما في مجال الأخلاق الاجتماعية الأسرية، فقد اعتنى الإسلام ببنائها آخذاً في الاعتبار احتمالات الخلاف، وتشابك العلاقات، ولذلك جاءت الشريعة وتطبيقاتها في مجال الأحوال الشخصية والشرائع الأسرية بما في ذلك علاقات الزواج والطلاق وما يصحبها من مُشاحة، ونفقة ومتاع وحضانة وتربية ورعاية ومسؤولية، وجعل هناك حقوقاً واضحة وحدوداً مرعية من كل جانب، لا يظلم أحد أحداً، ولا يعتدي أحد على حق أحدٍ.

وحذر المسلمين من تعدي تلك الأنظمة والقوانين الإلهية. ولعل ما ورد في سورة البقرة من تلك الأحكام والحدود يبين دقة

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**، **كتاب البر والصلة**، باب قبح الكذب، ج ٨/ ٢٩.

(٢) رواه البخاري، **كتاب الإيمان**، باب علامة المنافق، ج١/ ١٤؛ ورواه مسلم **في صحيحه**، كتاب الإيمان، باب آية المنافق ثلاث، ج ١/ ٥٦.

التنظيم لهذه الجوانب من الآية ٢٢٦من سورة البقرة حتى الآية ٢٣٧من السورة نفسها.

وقد جاءت قواعد أخرى مختلفة حول ما يرتبط بالزواج ابتداءً من الخطبة إلى الفراق وأمر الأزواج بحسن المعاشرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩]، وسميت سورةٌ بالنساء لترفع من مكانتهن في نظر المجتمع، كما جعلت الشريعة المرأة ممثلة في الأم أغلى الناس وأحقهم بالبر لدى الإنسان، وجعلت الحياة الزوجية قائمة على المودة والرحمة والسكن وهو أعظم معنى من الحب: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١]. وأُمر الزوج بالتحبب لزوجته، وأُمرت المرأة بطاعته [١]، وقد جاءت الأحكام الشرعية لتحريم العلاقة الجنسية، وما يؤدي إليها خارج إطار الزوجية، لما في ذلك من تجنٍّ على المواليد لغير آباء ومن إضعاف رباط الزوجية، وإفساد النساء على أزواجهن والرجال على زوجاتهم، إضافة إلى الأمراض الجسدية، واعتبر الزنا من الكبائر، بل وأمر الإنسان

(١) الكمداني، **فن تعامل النبي ﷺ في الحياة الزوجية**، ص ٦٠.

رجلاً أو امرأة بغض البصر، وأن لا ينظر إلا إلى من أحلّ الله له من الزوجات والمحارم.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

وهذه الآيات جامعة في السلوكيات والأخلاق التي تجعل الرجل لا ينظر إلا إلى أهله، والزوجة كذلك، ولا يكون النظر للآخرين ليبعد الإنسان عن أي سبب يؤدي إلى علاقة محرمة، فهي وقائية أولاً وعلاج مسبق لإيجاد الثقة بين الأزواج.

وفي الوقت الذي بني فيه الرسول ﷺ المجتمع المسلم على أفضل الأخلاق فإنه حذر من الأخلاق السيئة، ومنها ظلم الناس في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]، وقال ﷺ: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله

حجاب»،[1] كما حذر من الحسد في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، كما حذر من الغش فقال: «من غشنا فليس منّا»،[2] وحذر ﷺ من الرياء كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧].

وحذر ﷺ من الرياء فقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشِّرْك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء».[3] كما نهى عن الغرور والعُجب بالنفس وهو من أقوى المهلكات، كما قال ﷺ: «ثلاث مهلكات، شُح مُطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»،[4] وقد أمر ﷺ أن لا يغتر الإنسان بماله أو عبادته أو قوته أو شرفه أو عمله، وقد أمر ﷺ ألاَّ يغتر بشيء من ذلك كما قال ﷺ: «لن ينجي أحداً منكم عَمَله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».[5]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب اتقاء دعوة المظلوم، ج ٣/ ٩٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، ج ١/ ٦٩.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده عن محمود بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه، ج ٥/ ٤٢٨.

(٤) انظر: أبو بكر الجزائري، منهاج المسلم ص ١٧٠؛ وانظر: ابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين ص ٢٣٤.

(٥) رواه مسلم في **صحيحه**، **كتاب صفة القيامة والجنة والنار**، باب لن يدخل الجنة بعمله، ج ٨/ ١٣٩.

كما كان ﷺ يكره الكسل ويتعوذ منه في قوله: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل».[1]

ولعل من أهم ما قدمه الإسلام للمجتمعات البشرية العناية بالوقت وترتيبه، والتفريق بين عمل النهار وسكون الليل، واستغلال الأوقات فيما ينفع، وعدم إضاعة الوقت في ما لا فائدة منه. وفي تقسيم أوقات الصلاة وتحديدها بدقة تظهر عناية الإسلام بالوقت، الذي هو حياة الإنسان ومادتها، في توزيع دقيق ليومه وما يرتبط به من عبادة وعمل، وما يحتاج من راحة. وحق الإنسان على نفسه في هذا الترتيب هو كحق الله على الإنسان في العناية بالعبادات وتنظيم أوقاتها.

ومن الواضح لكل ذي لُبّ عاقل أن هذه التشريعات والتطبيقات الأخلاقية في عصر الرسول ﷺ ومن خلال سيرته ساهمت في ترابط المجتمع وتلاحمه، ومحبته للرسول ﷺ ولما شرعه الله سبحانه وتعالى.

ولم يقف تأثيرها عند ذلك العصر، بل امتدت بركتها في الأمة والإنسانية حتى يومنا الحاضر.

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**، **كتاب صفة القيامة والجنة والنار**، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، ج ٨/ ١٣٩.

البناء العسكري[1]

بدأ الرسول ﷺ دعوته في مكة وجهر بها بعدما يقارب الثلاث سنوات من البعثة، وناله من قريش أذى كثير، كما نال أصحابه أشدّ العذاب حتى قتل بعضهم من شدة العذاب من أمثال عمّار وسمية.

وكان الرسول ﷺ يواسيهم ويدعو لهم ويأمرهم بالصبر ويعدهم بالنصر والتمكين، ويمنعهم من القتال.

وبعد إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب عزّ المسلمون، ومع ذلك لم يؤمروا بقتال، ولم يتوقف الأذى عن المسلمين عموماً وعن الرسول ﷺ خصوصاً، حتى أن قريشاً حاولت قتله ليلة الهجرة فنجاه الله منهم.

---

(١) أُلِّف العديد من الكتب عن الجوانب العسكرية في حياة الرسول ﷺ منها: محمود شيت خطاب، «المصطلحات العسكرية في القرآن»؛ و«الرسول القائد»، ومحمد فتح الله كولن، «الرسول قائداً»، ومحمد ظاهر وتر، «فن الحرب في عهد الرسول ﷺ.» وغيرها كثير مما يصعب حصره.

وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ومن معه من المهاجرين وانضمامهم إلى الأنصار في دار الهجرة أصبحوا ذوي عدد وقوة، ومع ذلك فإنهم لم يؤمروا بقتال في المرحلة الأولى، مع أن الجميع كانوا مستعدين لما يأمر به الرسول ﷺ، جاء ذلك على لسان الأنصار حينما بايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية، وقالوا: «والذي بعثك إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا فأجاب ﷺ: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم». (١)

كان معظم المهاجرين والأنصار من شجعان الرجال المحاربين للقتال المتمرنين عليه، وتزايدت أعدادهم وقويت شوكتهم وكانوا على استعداد للقتال بأمر رسول الله ﷺ، وجاءت الآيات القرآنية تأذن لهم بالقتال لرفع الظلم عن أنفسهم، ولتطلق تلك القدرات لدى الصحابة مع الاستمرار بعد ذلك في تنمية تلك القوة الناشئة فنزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١/٤٤٨؛ انظر: بيعة العقبة الثانية من هذا الكتاب.

مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١].

ونزلت بعد ذلك سورة الأنفال التي عرفت بسورة القتال، وفيها تشريعات عظيمة جهادية، وتتابعت الآيات بعد ذلك لتنمية القوة وإعدادها لدى المسلمين ومن ذلك: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وأكَّدت الآيات حسن مصير الشهداء عند الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

كما أكَّدت آيات أخرى على أهمية الجهاد دون اعتداء: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وتوالت التشريعات في مجال قتال المشركين والكفار طوال حياة الرسول ﷺ ونالت أحكام الجهاد مكانتها عند علماء الشريعة حتى أُلفت في ذلك كتب وأبواب خاصة وفقه للجهاد.[1]

---

(١) انظر: كوركيس عواد، **مصادر التراث العسكري عند العرب**، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٢هـ، ٣ مجلدات.

وقد كان تكوين الجيش زمن الرسول ﷺ بسيطاً، منظماً قوياً، بتسليح وتجهيز ذاتي من الأفراد في الغالب، وقد اعتمد الرسول ﷺ على أرقى الأساليب في إعداد قواته وجيشه، ومن ذلك استمرار التدريب والعمل الجاد للصحابة من خلال السرايا التي كان يبعثها من المدينة. وكان رجالها يقومون بأعمال عسكرية محددة الأهداف والطرق والقادة، بعضها للمناورة، وبعضها للقتال، وبعضها لاعتراض الأعداء وقطع الإمدادات عنهم. وكلها على اختلاف وجهاتها مع تحقيقها لأهدافها الخاصة ساهمت في تدريب وتطوير القدرات العسكرية لأصحاب النبي ﷺ، وزادت من قدراتهم القتالية والقيادية وتحملهم الشدائد واستعدادهم للتضحية والشهادة.

وقاتلوا مع رسول الله ﷺ في بدر وأحد والخندق والمشاهد كلها ضد المشركين وحلفائهم، حتى فتح الله مكة، وضدّ يهود حتى أخرجوهم بعد خيانتهم من المدينة، وفتحوا خيبر. وبدأ المسلمون الانطلاق خارج الجزيرة العربية في معركة مؤتة، وفي غزوة تبوك، التي أثبتت تنامي القوة العسكرية بالتدرّج في حياة الرسول ﷺ حتى غيرت مجرى التاريخ الإنساني، بانطلاقتها في الفتوح الكبرى على يد الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول ﷺ، بقيادة أصحابه وجنودهم الذين تولى ﷺ تدريبهم وتربيتهم ليحقق الله فيهم ما وعد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي

ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ويمكن تلخيص أهم ملامح النظام العسكري لدولة الرسول ﷺ في نقاط منها:

- أن الرسول ﷺ كان يقود الجيوش بنفسه ويشاركهم الجهاد والتضحية، وأنه أصيب في بدنه، وجاهد بنفسه وتعرض للخطر كغيره من الجنود، كان يتعب معهم، ويواسيهم ويداوي جراحهم، لا يتكبر ولا يتجبر، بسيطاً في تعامله رحيماً بجنده.
- كان ﷺ يختار الأكفاء في القيادة للمهمات العسكرية، وإن كان فيهم من هم أقدم إسلاماً أو أكبر سناً، كان يؤمِّر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه، لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب.(١)
- كان ﷺ لا يجبر أحداً من المسلمين على الانضمام إلى الجيش، ولا يُكره على ذلك، مع أنه كان يحبِّب لهم الجهاد بالمال والنفس، ويضرب لهم الأسوة بنفسه، ويذكرهم بموعود الله للمجاهدين عموماً وللشهداء خصوصاً فكان

(١) انظر: ما سطره ابن تيمية في كتابه الرائع (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) تحت عنوان: اختيار الأمثل فالأمثل، ص ٢٥.

جُنْد الرسول ﷺ أعلى جنود الأرض معنوية وأسماهم أهدافاً وأكثرهم رحمة بالخلق، وحماساً في أداء الواجب.

- كان جميع جنود الرسول ﷺ من المتطوعين، الذين يؤمنون بالجهاد معه، لا ينتظرون مقابل ذلك راتباً أو أجراً دنيوياً، وكانوا مسؤولين عن إعداد أنفسهم بالسلاح والتموين اللازم للرحلات العسكرية والسرايا والغزوات الجهادية، باحثين عن رضا الله، ويكلَّفون بمهامهم كل حسب قدرته، منهم الفارس والراجل، ومنهم الرامي وحامل الراية، ومنهم المسؤول عن الاستطلاع، ومنهم المسؤول عن السقاية، ومنهم الراعي، يكمل بعضُهم بعضاً، الكل مجتهد في قتال أعداء الإسلام، مستعد للتضحية في سبيل الله وطلب رضاه، واعتبر الفرار أو التولي يوم الزحف من الكبائر العظيمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

ومع أن التمويل المادي للجند ذاتيٌّ في الغالب فقد رَغَّب الله سبحانه وتعالى في النفقة على المجاهدين وبذل المال مع النفس في هذا الأمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١]. ولذلك عرف عدد من الصحابة بكثرة نفقاتهم على المجاهدين في سبيل الله، منهم

عثمان بن عفان ﷺ في غزوة تبوك،[1] وطلحة بن عبيد الله ﷺ الذي سماه الرسول ﷺ بطلحة الجود لتبرعه بالكثير في إحدى الغزوات.

وقد شاركت النساء مع الرجال في الإعداد المالي والتموين وفي السقاية ومداواة الجرحى.[2]

ما يصيبه المسلمون من أموال الأعداء له طريقته ونظامه في التقسيم، فمنه الغنيمة وهي: (ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة)،[3] وكذلك عرف الفيء وهو: (ما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب).[4]

وقد كانت الشريعة واضحة في تقسيم ما يصيبه المسلمون من الأعداء، فالغنيمة يعطى منها المقاتلون، ويبدأ بمن قتل قتيلاً فله سلبه،[5] ثم يؤخذ بعد ذلك الخُمس لله وللرسول يضعه رسول الله ﷺ، حيث يشاء لمصلحة الأمة فيما يراه، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾

---

(١) انظر: غزو تبوك من هذا الكتاب.

(٢) عبد العزيز السلومي، **ديوان الجند**، ص ٣٧٣.

(٣) يحي بن آدم، **الخراج**، ص ١٧.

(٤) يحي بن آدم، **الخراج**، ص ١٧.

(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الوقعة، ج ٤/ ٥١؛ وباب «من لم يخمس الأسلاب» و«من قتل قتيلاً فله سلبه»، ج ٤/ ٥٧.

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنفال: ٤١]. وفي قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٩].

وأما الفيء وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٥ ـ ٧].

الخراج في عصر عمر ومن بعده عُمِل به عملَ الفيء أي قُسِّمَ على مصالح الأمة تحت نظر الخليفة، بعدل ونظام يعم المسلمين ومصالحهم، بعيداً عن مصالح الخلفاء الخاصة، عملاً بسنة رسول الله ﷺ، كما حصل في أموال بني النضير بعد أن غنمها رسول الله ﷺ،[1] وقد ألفت كتب في هذه الأحكام التي سارت عليها الأمة في زمن الراشدين ومن جاء بعدهم.[2]

اهتم الرسول ﷺ بالسلاح والتدريب عليه، فقد كان يقتنيه

---

(١) **تفسير ابن كثير**، ج ٢ / ١٨٤٥/١٨٤٦.

(٢) انظر: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ويحي بن آدم، **كتاب الخراج**، وابن رجب الحنبلي، **الاستخراج لأحكام الخراج**، و الماوردي، **الأحكام السلطانية**.

ويستعمله، فقد استعمل السيف والرمح ورمى بالقوس ولبس الدرع والمغفر وقال: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري».[١] وحثّ الرسول ﷺ على صناعتها فقال: «إن الله عزّ وجل يدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة، صانِعهُ يحتسبُ في صنعته الخير، والمُمِدّ به، والرامي به».[٢] كما قال ﷺ: «تعاهدوا قرنكم فلا تزال مملوءة نبلاً أبداً».[٣]

وتصنيع السلاح[٤] وإعداده جزء من إعداد القوة التي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وكان بعض صغار الصحابة يبرون النبال ويُعدونها، فإذا قيل لأحدهم ابن كم كنت؟ قال: كنت أبرئ النبل وأُريشها.[٥] وكان بعض الصحابة يصنع النبال فيأتي بها المسجد للتصدق بها.[٦]

---

(١) صحيح البخاري، **فتح الباري**، ج ١٢/ ٥٦.

(٢) الدارمي، **في سننه**، ج ٢/ ٢٤.

(٣) انظر: السخاوي، **القول التام في فضل الرمي بالسهام ورقة ٥٣**.

(٤) انظر: عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي**، (تصنيع السلاح)، ص ٢٠٧.

(٥) الطبري، **تاريخه**، ج ٣/ ١٨٧.

(٦) السخاوي، **القول التام**، ورقة ٩٣.

كان أصحاب النبي ﷺ يمارسون التدريب على السلاح باستمرار بناءاً على توجيهه ﷺ وكان يشهد ذلك معهم وخصوصاً الرمي، حتى أنهم كانوا في بعض الأيام يترامون عامةَ اليوم.[١]

وقد بيّن أهمية التدريب فقال: «كل شيء يلهو له الرجل إلا رمي الرجل بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبة أهله، وقال من ترك الرمي بعد ما عُلِمه فقد كفر الذي عُلمه»[٢].

ويمكننا القول إن التنظيم العسكري وما يرتبط به من استعدادات وجيوش وسلاح في العصر النبوي شمل الهندسة العسكرية وما يتبعها من إعداد خاص سواء كان المباني العسكرية أو مختلف أنواع التحصينات.

فقد كان في المدينة عدد من الحصون التابعة للأنصار كان لها دورها في حماية النساء والذراري وغير المقاتلين في الغزوات التي استهدفت المدينة، مثل حصن فارع[٣] وغيره

---

(١) السخاوي، **القول التام في فضل الرمي بالسهام**، ورقة ٨٢؛ د. عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول** ﷺ ص ٢١٨.

(٢) الدارمي، **سننه**، ج ٢/ ٢٠٥، والترمذي **سننه**، ج ٤/ ١٧٤؛ وابن القيم، **الفروسية**، ص ٢٠.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٣/ ٢٢٨؛ والفيروز آبادي، **المغانم المطابة**، ص ٣٩؛ وانظر: إلى هذه الآطام مفصلة في كتاب أحمد بن عبد الحميد العباسي، **عمدة الأخبار**، ص٢٣٢ ــ ٤٣٧؛ وما كتبه الدكتور عبدالعزيز كعكي في موسوعته الرائعة عن **معالم المدينة المنورة في العمارة والتاريخ**، الجزء الثالث الأسوار والأبواب والقلاع والأبراج، م١/ ١٧٥.

والمدينة تفتقد إلى سور عام يحميها من الأعداء زمن الرسول ﷺ ولذلك اعتمدت على الحصون والآطام، وقد وجدت حصون كثر عند يهود المدينة، الذين دخل الرسول ﷺ في حرب معهم، ونصره الله عليهم، رغم حصونهم القوية فقد نصر الله نبيه عليهم ومكّنه منهم يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. وفي قوله تعالى عن بني قريظة: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وحينما غزت قريش ومن معها من الأحزاب المدينة المنورة سبقهم الرسول ﷺ بعمل الخندق المشهور حولها، حيث أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بذلك، فقام ﷺ بنفسه بدراسة جغرافية المكان وحدد نقاطاً يتم الحفر بينها لوضع حزام من الخندق المحفور حول المدينة، يمنع دخول الأعداء من الأحزاب.[1]

(١) انظر: غزوة الأحزاب من هذا الكتاب. وانظر: عبد العزيز العُمري، **الحرف والصناعات في العصر النبوي**، ص ١٩١.

دولة الرسول ﷺ والسلام العالمي:

قامت دولة الرسول ﷺ على السلام لمن هم تحت لوائها، سواء أكانوا مسلمين أم ذميين، ضمنت لهم العدل والأمان وحماية دين الله من المعتدين. وقد توسعت دولته بالتدرج حتى شملت جزيرة العرب وامتدت لعلاقات خارجية سواء ما كان مع القبائل العربية خارجها أو مع الدول المجاورة.

وكان ﷺ منذ بعثته وقبل ذلك، يعرف القوى العالمية المجاورة، ولذلك فإن اختياره الحبشة لهجرة أصحابه كان عن دراية تامة بأهلها ونظامها وملكها، ولذلك طلب ﷺ من أصحابه الهجرة إليها وأفادهم: «إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد».[1] وثبت ما قال ﷺ، كما عرض نفسه على مختلف القبائل قبل الهجرة، سواء في مكة أثناء موسم الحج أم في الأسواق والمواسم في بلاد العرب.[2] وهذا تأكيد للعلاقة الخارجية، وبعد الهجرة كاتَبَ ﷺ ملوكَ وقادة وزعماء الدول والقبائل بما في ذلك كسرى فارس وقيصر الروم[3] في رسائل واضحة لتبليغ الرسالة والسلام لمن سالم مُصدِّراً ذلك في كل كتبه: بـ«السلام على من اتبع الهدى»، حيث كانت كلمة السلام هي الأولى من ألفاظه، وكان يخبر ﷺ أصحابه باستمرار بأن دعوته ستصل إلى

---

(١) انظر: الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

(٢) انظر: عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل من هذا الكتاب.

(٣) انظر: كتبه ﷺ للملوك والزعماء، في موضعه من هذا الكتاب.

كل مكان ليبلغنّ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار وذلك تأكيداً لعالمية رسالته: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

والمطّلع على رسائل الرسول ﷺ للملوك والزعماء يدرك هذا البعد وحرصه على السلام البشري للناس كافة[١]، وأن ما وضعه الله ورسوله من شرع ونظام كفيل بالسلام للجميع حتى لو لم يدخلوا في الإسلام، شرط أن لا يعتدوا على المسلمين أو يصدّوا الناس عن سماع الإسلام، واتباعه إن اختاروه، إنه الشرع الدولي في عهد الرسول ﷺ.[٢]

نظرة عامة للعالم، والعلاقة به مبنية على السلام وتبليغ الرسالة للناس كافة، وعدم الانعزال عن المجتمعات البشرية وأهمية الاحتكاك بها،[٣] وتبليغها الخير والأخلاق والسلام الذي جاء به الإسلام[٤] وإمكانية التعايش مع المخالفين في الدين في ضوء حفظ الحقوق للجميع، بما فيها من حق الزكاة

---

(١) انظر: ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، **رسائل ورُسُل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأشراف**، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار سعد الدين، دمشق، ١٤٢٥هـ؛ الخالدي: صلاح عبد الفتاح، **الرسول المُبلّغ ﷺ**، دار القلم، دمشق، ١٤١٨هـ، ص٩ ــ١٢.

(٢) انظر: د. عبد الوهاب كلزية، **الشرع الدولي في عهد الرسول ﷺ**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

(٣) انظر: د. عبد الوهاب كلزية، **مرجع سابق**، ص ٦.

(٤) انظر: قلعة جي، محمد رواس، **قراءة سياسية للسيرة النبوية**، ط ٢، دار النفائس بيروت ١٤٢٠هـ، ص ٣٠٤.

على المسلمين والجزية على غيرهم داخل دولة الإسلام، فمن منع الزكاة فهو مخالف للنظام والشرع، وكذلك من منع الجزية، مع التعاون في دفع الظلم ومد وإقامة الجسور الاقتصادية مع سائر المناطق والشعوب المجاورة وحفظ طرق القوافل التجارية وإقامة العهود والمواثيق مع الدول والجماعات والقبائل لتبادل المصالح والتعايش، وكانت واجبة التنفيذ من منطلق ديني وشرعي قابلة لمختلف الشروط التي يتم الاتفاق عليها.[1] وقد ألفت كتب عدة في هذه الوثائق والمعاهدات النبوية يمكن الرجوع إليها.[2]

(١) انظر: د. عبد الوهاب كلزية، **مصدر سابق**، ص ٨٦.

(٢) انظر: ما احتواه كتاب د. محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعصر النبوي والخلافة الراشدة** من وثائق عالمية عن عصر الرسالة.

وفاة المصطفى ﷺ(١)

جاء الرسول ﷺ ليعلم الناس عبادة الله والاستعداد لليوم الآخر ولقاء الله، وكان يذكّرهم بالموت والمعاد، وقد وردت لفظة الموت ومشتقاتها في أكثر من خمسين موضعاً في القرآن الكريم ومنذ بداية البعثة والقرآن ويذكِّر النبي ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[الضحى: ٤ ـ ٥].

وجاءت الآيات القرآنية لتعلن صراحة: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١]، وتردّ الآيات على كفار قريش الذين كانوا ينتظرون وفاة الرسول ﷺ لتنتهي دعوته كما زعموا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ

(١) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، وقوله تعالى: [إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ]؛ ووضع ابن أبي شيبة، في كتاب المغازي، ما جاء في وفاة النبي ﷺ، ص٤٠٩؛ كما أُلِّف العديد من الكتب في وفاة النبي ﷺ، وأخر ما تكلم به منها: أحمد جاد؛ **وفاة الحبيب**، وأبوتراب الظاهري؛ **ذهول العقول بوفاة الرسول** ﷺ وغيرها.

ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وهذا الأمر مبدأ عام لكل البشر والخلق: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥] وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

كما أنه ﷺ حين ودع معاذ بن جبل قبل سفره إلى اليمن، قال: «يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا فتمر بقبري ومسجدي»،[1] فبكى معاذ رضي الله عنه.

في الوقت الذي هيأ فيه رسول الله ﷺ نفسه للقاء ربه واستعد لذلك كان القرآن يُعِدُّ أصحابه وسائرَ الأمة لفراقه والثبات على دينه من بعده: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج٤/ ٢١٠؛ وصححه الألباني في السلسلة، برقم: ٢٤٩٧.

وكانت هذه الآية من مثبتات الصِدِّيق عند وفاة الرسول ﷺ تلاها على الناس فكانت عوناً في تهدئتهم وثباتهم، وقد قال ﷺ لابنته فاطمة «إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة وأنه عارضني به العامَ مرتين، وما أرى ذلك إلا اقتراب أجلي». (١)

وقد ورد عن عائشة (رضي الله عنها): كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: (سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك) قالت: قلت يا رسول الله: ما هذه الكلمات أراك أحدثتها تقولها قال: «جُعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣]». (٢)

وكما كان رسول الله ﷺ حريصاً على توديع الأحياء، فقد كان كذلك حريصاً على زيارة قبور الأموات من المسلمين في آخر أيامه، فقد زار ﷺ قبور شهداء أُحُد كالمودع لهم. (٣)

كما حرص رسول الله ﷺ على زيارة مقبرة البقيع والدعاء لأهلها. (٤)

---

(١) رواه **البخاري**، حديث رقم: ٣٦٢٤؛ ورواه **مسلم في صحيحه**.

(٢) رواه **مسلم**، **كتاب الصلاة**، باب ما يقال في الركوع والسجود، ج ٢/ ٥٠، وانظر: تفسير ابن كثير، سورة النصر، ج ٢/ ٢٠٤٣.

(٣) العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٥٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤١٨.

(٤) العلي، **صحيح السيرة**، ص ٥٥٣، وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ٦٦٢.

شكوى رسول الله ﷺ:

في أواخر شهر صفر وقبل وفاته ﷺ بخمسة وعشرين يوماً تقريباً، بدأت شكوى رسول الله ﷺ، وكان صابراً محتسباً لا يشتكي لكن مناسبة أظهرت شكواه، ذلك أنه ﷺ كان راجعاً من زيارة أصحاب البقيع، فاشتكت له أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) من صداع في رأسها «تقول عائشة زوج النبي ﷺ: رجع إلي النبي ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً وأنا أقول: وا رأساه، قال: (بل أنا والله يا عائشة وا رأساه)،[1] قالت: ثم قال: وما ضركِ لو مِتِّ قبلي فغسلتك وكفنتك، وصليتُ عليك ودفنتك؟ قالت: قلت: والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرسْتَ فيه ببعض نسائك، قالت: فتبسّم رسول الله ﷺ وتتامّ به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعزّ به وهو في بيت ميمونة فدعا نساءه، فأستأذنهن في أن يمرض في بيتي، فَأَذِنَّ له».[2]

ورد عن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عُرفاً ثم ما صلّى لنا بعدها حتى

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب قول المريض إني وجِعٌ أو وا رأساه أو أشتدّ بي الوجع، ج ٧/ ٨، وانظر: الرواية الأخرى في **كتاب المغازي**، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ج ٥/ ١٤٢، وأنظر: كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، ج ٨/ ١٢٥.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٤٣؛ وانظر: **صحيح البخاري**، حديث رقم: ٤٤٤٢.

قبضه الله.[1] ولعل حديث أم الفضل يشير إلي مغرب الليلة التي اشتدّ فيها وجع رسول الله ﷺ كما ذكرت عائشة (رضي الله عنها) ولعل هذا اليوم هو يوم الإثنين قبل وفاته بأسبوعين كما ذكر بعض العلماء.[2]

اشتداد المرض على رسول الله ﷺ:

كان عند رسول الله ﷺ قبيل موته تسعٌ من أمهات المؤمنين، وكان يرتاح أكثر عند أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، وحين مرض ﷺ كان حريصاً على إعطائهن حقهن من المبيت، رغم ما في ذلك من إزعاج له بالتنقل اليومي حال المرض، ولما اشتدّ عليه المرض كان يسأل: «أين أنا غداً أين أنا غداً؛ يريد يوم عائشة، فأذِن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها».[3] وتوضح بعض الروايات كيفية انتقاله ﷺ للتمريض في بيت عائشة..[4]

وقد نقلت لنا أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) بكل صدق وأمانة موقفاً يبين مكانة فاطمة (رضي الله عنها) من رسول

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (باب مرض النبي ﷺ ووفاته)، ج ٥/ ١٣٧.

(٢) من رواية البخاري، ابن حجر، **فتح الباري**، ج ١٦/ ٢٦٠.

(٣) من حديث البخاري، في صحيحه، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ج ٥/ ١٤٢.

(٤) انظر: رواية البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ج٥/ ١٣٨.

الله ﷺ وما خصّها به من علم لم يُعْطَه أحد قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشيّ النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «مرحباً بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكت. فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت. فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقربَ من حزن. فسألتها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، حتى قُبِض النبي ﷺ فسألتها. فقالت: أسرّ إليّ أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العامَ مرتين، ولا أراه إلا حَضَر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي، فبكيت. فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين؟ فضحكت لذلك.[1]

إن هذه الحادثة والرواية تعطى وضوحاً تاماً في خصوصية فاطمة (رضي الله عنها) بالعلم وإخبار الرسول ﷺ لها أنها سيدة نساء أهل الجنة، كما أن عائشة (رضي الله عنها) كانت صادقة في النقل عن رسول الله، فها هي تحدّث بفضائل فاطمة، في كتاب المناقب عند البخاري (رحمه الله) وعند غيره. وما خصَّ به رسول الله ﷺ فاطمة، وهذا من أكبر الأدلة على الصلة الصحيحة الحقة بين أمهات المؤمنين وبين بقية آل بيت النبي

(١) رواه البخاري في **كتاب الأنبياء**، حديث رقم: ٣٦٢٣، ٣٦٢٤، ٣٦٢٥؛ ورواه مسلم في **كتاب فضائل الصحابة**، رقم: ٢٤٥٠ــ ٩٩؛ والترمذي في **كتاب المناقب**، حديث رقم: ٣٩٦٤.

ﷺ، فمعظم الأحاديث في فضل فاطمة وعلي (رضي الله عنهما) وردت برواية أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

ولعل في تمريض الرسول ﷺ في بيت عائشة حِكمَاً متعددة، فبالإضافة إلى راحة النبي ﷺ معها، فقد كانت أكثر أمهات المؤمنين حفظاً لما يقول ﷺ وهو في أيامه الأخيرة. ومن المواقف الأخرى الخاصة بفاطمة (رضي الله عنها) أنه لما ثقل النبي ﷺ قالت فاطمة (رضي الله عنها): وا كَرَبَ أباه فقال ﷺ «ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم».[1]

كما ورد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: وددت لو أن عندي بعض أصحابي، قلنا: يا رسول الله ﷺ ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكت، فقلنا: ألا ندعو لك عمر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عثمان؟ قال: نعم. فجاء، فخلا به فجعل النبي ﷺ يكلمه ووجه عثمان يتغير).[2]

وقد ورد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال يوم الدار: إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً فأنا صائر إليه، فكانوا يرونه ذلك اليوم.

وقد ورد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عثمان إنه إن ولاك الله هذا الأمر يوماً فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك

---

(١) من حديث البخاري في **صحيحه**، ج ٥/ ١٤٤.

(٢) رواه ابن ماجه، في **المقدمة**، ص ١١٣، وابن سعد، **الطبقات**، ج ٣/ ٦٦، وصححه الألباني؛ انظر: أحمد جاد، **وفاة الحبيب**، ص ٧٦.

الذي قَمَصَك الله فلا تخلعه، يقول ذلك ثلاث مرات». [1]

وقد ثبت عن أسامة بن زيد ﷺ قال: لما ثقل رسول الله ﷺ هبطتُ وهبط الناس بالمدينة فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أُصْمِت فلم يتكلم، فجعل رسول الله ﷺ يضع يديه عليّ ويرفعهما فأعرف أنه يدعو لي. [2] ومن المعروف أن أسامة بن زيد ﷺ كان مكلفاً في تلك الفترة وقبل مرض النبي ﷺ بقيادة جيش البلقاء.

وقد ثبت عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعَك فمسَسْته بيدي فقلت يا رسول الله: إنك لتوعك وعكاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال ﷺ: أجل، ثم قال ﷺ: ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطّ الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها». [3]

وفي أثناء مرض الرسول ﷺ مرّ أبو بكر بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: ذكرنا

---

(١) من رواية الترمذي في **صحيحه**، المناقب، ص ٣٧٠٥.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥١؛ رواه الترمذي، **كتاب المناقب**، ج٣٨١٧؛ ورواه أحمد في **مسنده**، حديث رقم: (٢١٢٤٨).

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، باب شدة المرض حديث رقم: ٥٦٤٧، وباب «أشد الناس بلاء الأنبياء»، حديث رقم: ٥٦٤٨، ٩٢٧.

مجلسنا من رسول الله ﷺ، فدخل العباس على النبي ﷺ فأخبره بذلك، فخرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: أيها الناس فإن الناس يكثُرون، وتقلُّ الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولّي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من مُحسنهم ويتجاوز عن مسيئهم». (١)

ومن الخطب التي نقلت عنه ﷺ في مرضه ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه، عاصباً رأسَه بخرقه، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنه ليس أحد من الناس أمنّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت مّتخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام أفضل، سُدّوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر». (٢)

ولا شك أن هذه الرواية من ابن عباس رضي الله عنه فيها ردّ على من يدعي وجود خلاف بين أبي بكر رضي الله عنه وبين آل البيت، فها

---

(١) من رواية البخاري في **صحيحه**، ج ٤/ ٢٧٧ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٥٠.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب الصلاة، ج ١/ ١٢٠؛ وأحمد في **مسنده**، ج ١/ ٢٧٠؛ انظر: رواية مسلم في **صحيحه**، كتاب المساجد (٥٣٢).

هو أحد علماء آل البيت يتحدث عن فضائل أبي بكر الصديق في كلام من آخر ما تحدث به رسول الله ﷺ إلى الأمة.

وورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ فقال: «إن الله خَيّر عبداً ما بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فقلت في نفسي ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيّر عبداً ما بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد وكان أبو بكر أعلمنا، قال: «يا أبا بكر لا تبك إن من أمن الناس عليّ في صحبته وفي ماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باباً إلا سد إلا باب أبي بكر».[1]

وقيل إن الصِدّيق رضي الله عنه لما فطن لكلام رسول الله ﷺ بكى وقال: (بل نفديك بآبائنا وأمهاتنا وأنفسنا وأموالنا يا رسول الله، ثم هبط فما قام عليه حتى الساعة)،[2] وهذا دليل على أنها آخر خطب الرسول ﷺ.

ومن هذه الخطبة والتورية من رسول الله ﷺ فهم الصديق وداع النبي ﷺ وقُرْب أجله، فبكى وأعلن استعداده لفداء رسول

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، باب الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم: ٤٦٦؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ص ٦٤٩.

(٢) رواه الدارمي في المقدمة، باب وفاة النبي ﷺ، ج ١/ ٣٦.

الله ﷺ بكل ما يستطيع، فإذا برسول الله ﷺ يبادله الشعور ويثنى عليه ويعطيه فضلاً ناله وحده رضي الله عنه، وهو أن تكون خوخته هي الباب الوحيد الذي يبقى مباشرة للدخول على مسجد رسول الله ﷺ. وهذا فيه إشارة إلى أنه سيكون إمام المسلمين للصلاة بهم بعد رسول الله ﷺ وهذا ما حصل بعد ذلك.

وقد اجتمع عليه ﷺ أهل بيته وقد اشتدّ به الوجع،[1] فتشاوروا فيما بينهم، فقرروا أن يلدُّوه بدواء جيء به من الحبشة (أي يدخل دواء في جانب فمه) وهو دواء خاص بذات الجنب، فأشار إليهم ﷺ أن لا يفعلوا ذلك، فقالوا كراهية المريض للدواء، فأمر رسول الله ﷺ أن يُلدَّ كل من شهد ذلك «لا يبقى أحد في البيت إلا لُدَّ وأنا أنظر إليه إلا العباس، فإنه لم يشهدكم»،[2] وقد أراد رسول الله ﷺ القصاص منهم تطهيراً لهم، فالخطأ في حقه أعظم من غيره، خشية أن يأتوا يوم القيامة ويحاسبوا على فعل عصوا فيه رسول الله ﷺ فكان حريصاً على التكفير عنهم بالقصاص رحمة بهم، لا انتقاماً كما يظن البعض.[3]

كما ثبت أنه حين أشتد عليه وجعه قال: «هريقوا عليَّ من سبع قِرَبٍ لم تحل أوكيتهنّ لعليّ أعهد إلى الناس»، فأجلسناه

---

(١) انظر: أحمد جاد، **وفاة الحبيب**، ص ٦٤.

(٢) من رواية البخاري في **كتاب المغازي**، حديث رقم: ٤٤٥٨.

(٣) انظر الزرقاني، **المواهب اللدُّنِّيَة بالمنح المحمدية**، ج ٣/ ٣٧٩؛ وما بين القوسين من لفظ البخاري، حديث عائشة رقم: ٤٤٤٢.

في مِخْضبٍ [وعاءٌ لغسل الثياب أو خَصْبها] لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القِرب، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتنّ، قالت ثم خرج إلى الناس فصلى لهم وخطبهم». [١]

كما ثبت عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: (لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصةً [ثوب أسود مربّع] له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه). [٢]

وكان من سُنَّته ﷺ أن ينفث على نفسه في صحته ومرضه ﷺ، وقد ورد عن عائشة (رضي الله عنها): (أنّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوِّذات ومسح عنه بيده فلما اشتكى وجعه الذي توفّي فيه طفقتُ أنفثُ على نفسه بالمعوّذات التي كان ينفث، وامسح بيد النبي ﷺ عنه). [٣]

وقد ورد أنه ﷺ كان يشتكي من السُمّ الذي أكله في شاة اليهودية، في الطعام الذي صنَعتْه لرسول الله ﷺ في خيبر، وأرادت به قتله ﷺ، فقد ورد عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: (كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألمَ الطعام الذي أكلت بخيبر أو إن وجدت انقطاع أبهري في ذلك السُمّ». [٤]

---

(١) من حديث البخاري، رقم: ٤٤٤٤، عن عائشة (رضي الله عنها).

(٢) من حديث البخاري، رقم: ٤٤٤٢.

(٣) رواه البخاري، حديث رقم: ٤٤٣٩.

(٤) رواه البخاري، **باب مرض النبي ﷺ ووفاته**، رقم: ٤٤٢٨.

وفي الأيام الأخيرة اشتدّ الألم برسول الله ﷺ، وكان يجتمع عنده أهل بيته وبخاصّة أصحابه للسلام والاطمئنان عليه. وكان من لم يدخل عليه يسأل من دخل عليه، وأن علياً رضي الله عنه خرج من عند رسول الله ﷺ قال: أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده العباس فقال: أنت، والله بعد الثلاث عبْدُ العصا، والله إني لأرى رسول الله سيُتوفّى في وجعه، وإني لأعرف في وجوه بني عبد المطلب الموت فاذهبْ بنا إلى رسول الله ﷺ فنسأله فيمن يكون الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أمَّرناه فأوصى بنا، قال علي: والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً وإني لا أسألها رسول الله أبداً.(١)

وهذه الرواية تدل على إحساس العباس رضي الله عنه عم النبي ﷺ بحال النبي ودنو أجله، وخوفه مما قد يحدث لآل البيت بعد وفاة النبي ﷺ، و يؤكد على أنهم لا يعلمون فيمن يكون الأمر والخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وأن العباس يرى الاستفسار عن ذلك، ولكن علياً رضي الله عنه رأى عدم سؤال رسول الله ﷺ، مع أن الأمر لم يكن واضحاً بالنسبة لعلي والعباس (رضي الله عنهما)، وقد وردت أحاديث أخرى تدل على أن رسول الله ﷺ أراد أن يكتب كتاباً للناس من بعده، إلا أن خلافاً حدث في من عنده.

---

(١) رواه البخاري عن **كعب بن مالك**، حديث رقم: ٤٤٤٧؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ص ٦٥٤.

عن ابن عباس ﵄ قال: (لما حضر رسول الله وفي البيت رجال فقال النبي ﷺ: «هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ، قوموا). قال عبيد الله: فكان يقول ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم.[1]

وفي رواية أخرى عن ابن عباس ﵄ أنه تحدث بما كان يريد أن يكتب، فقد روى البخاري قال ابن عباس: (يوم الخميس، وما يوم الخميس، اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه فقال: إئتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما شأنه أهجر؟ استفهموه. فذهبوا يردون عليه فقال: دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه، وأوصاهم بثلاث قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها.[2]

ومن الواضح من هذه الرواية لابن عباس أحد علماء أهل

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٣٢.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٣١.

البيت ما هي الوصايا التي أرادها ﷺ، ولم تكن الخلافة من بعده موضوع تلك الوصية، فإنه لم يكن فيها تحديد لشخص بعينه لا لعلي رضي الله عنه ولا لأبي بكر، ولو كان سينص على ذلك لعلي رضي الله عنه أو غيره لما ترك هذا الأمر إلى لحظات مرضه الأخيرة، ولكان ذَكره أكثر من مرة قبل المرض، لأهمية الأمر.

ومن المعروف أنه ﷺ خطب الناس أكثر من مرة ولم يذكر أو يشر إلى شيء من ذلك في تلك الخطب، مع إمكانية الأمر ويُسْره لو كان ﷺ راغباً فيه، خصوصاً أنه تحدث عن أقل من هذا في تصور من يدّعون رغبته في الوصية لعلي رضي الله عنه أو لغيره.

كما ورد من حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: (قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: ادْعِ لي أبا بكر وأخاكِ، حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر).[1] ومع هذا فالثابت أنه لم يكتب لأبي بكر رضي الله عنه، وهذا الحديث يمكن الجمع بينه وبين حديث ابن عباس رضي الله عنه السابق في البخاري بنية الرسول ﷺ في الكتابة واختلاف من حوله ثم عدوله عن الكتابة، وأنه ﷺ ربما كان ينوي الكتابة لأبي بكر لو كان موصياً، خصوصاً أنه أمره بالصلاة بالناس مكانه وهذه علامة قوية، والأمة ترى أنه لم يوصِ لأبي بكر ولا لغيره.

---

(١) رواه مسلم في **فضائل الصحابة**، باب فضل أبي بكر الصديق؛ وأحمد بن حنبل في **فضائل الصحابة**، ص ٢٠٣، ٢٠٤؛ **والمسند**، ج ٦/ ٣٦؛ وابن سعد في **الطبقات**، ج٣/ ١٨١.

ومن المؤكد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد صلى بالناس ثلاثة أيام وقيل سبع عشرة صلاة قبل وفاة النبي ﷺ. وكانت أولى تلك الصلوات صلاة عشاء، فقد ورد عن عائشة قالت: (ثقل برسول الله ﷺ وجعه فقال: أصلّي الناس؟ قلنا: لا. هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: صبّوا ماء في المخضب ففعلنا، قالت فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله والناس عكوفاً في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله إلى أبي بكر ليصلي بالناس، فكان أبو بكر رجلاً رقيقاً، فصلّى بهم أبو بكر تلك الأيام).[1]

وقد ورد في رواية أخرى عند الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بطبق يكتب فيه ما لا تضلّ فيه أمته من بعده، قال: فخشيت أن تفوتني نفسه فقلت: إني أحفظ وأعي قال: «أوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم».[2] وفي وراية لأم سلمة (حتى جعل يجلجلها في صدره، وما يفيض بها لسانه).[3]

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٢؛ وعثمان الخميس، **كنوز السنة**، ص٤٢١.

(٢) انظر: الذهبي، **السيرة النبوية**، ص ٥٥٧؛ وانظر: أبو تراب الظاهري، **ذهول العقول بوفاة الرسول**، ص ٣٣؛ وانظر: **رواية عائشة عند البخاري في صحيحه، كتاب المغازي**، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ج ٥/ ١٤٠.

(٣) رواه النسائي (انظر تخريجه)، في **ذهول العقول بوفاة الرسول**، ص ٣٣.

وقد ورد عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: (قال رسول الله ﷺ لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بربه).[1]

اليوم الأخير في حياة الرسول ﷺ:

وفاة الرسول ﷺ كانت يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة الموافق: ٨ حزيران ٦٣٣م وذلك في الضحى قبل منتصف النهار في فصل الصيف.[2]

كان رسول الله ﷺ قد انقطع عن الصلاة بالمسلمين قبل الوفاة ثلاثة أيام (الجمعة والسبت والأحد)، مع أن حجرته تعد داخل المسجد وفي طرفه، وفي صبيحة يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ حرص رسول الله على الاطمئنان على المسلمين ووحدتهم واصطفافهم للصلاة جماعة، خلف أبي بكر الصديق. فقد روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: (إن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلي لهم، لم يفاجئهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، قال أنس: وهَمّ المسلمون أن

---

(١) انظر: الذهبي، **السيرة النبوية**، ص ٥٥٧؛ ومهدي رزق الله، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، ص ٦٨٩.

(٢) أبو تراب الظاهري، **ذهول العقول بوفاة الرسول** ﷺ، ص٤٢. وعبدالسلام الترمانيني، **أزمنة التاريخ الإسلامي**، ص ٢٩.

يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم رسول الله بيده ﷺ أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر).[1]

كان هذا آخر عهد جماعة المسلمين برسول الله ﷺ، ولم يره بعدها إلا بعضهم، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث كان مرابطاً بالقرب من رسول الله ﷺ أثناء مرضه بمنزله المجاور للرسول ﷺ، منقطعاً عن بيته الآخر الذي بالسنح في أطراف المدينة، حيث زوجته الثانية.

وفي اليوم الذي توفي فيه الرسول ﷺ استأذن أبو بكر من رسول الله ﷺ في أن يزور بيته الذي بالسنح ليتفقد أحوالهم، فكان هناك حين قبض رسول الله ﷺ.[2]

ولعل حديث أنس عن حال فاطمة بنت النبي ﷺ مع أبيها كان يوم وفاته ﷺ: «لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة (عليها السلام): وا كَرَبَ أباه، فقال لها ﷺ: ليس على أبيك كرب بعد اليوم».[3]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، **كتاب المغازي**، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ج ٥/ ١٤١؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٣.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٤؛ أبو تراب الظاهري، **ذهول العقول بوفاة الرسول** ﷺ، ص ٣٧؛ وانظر رواية **البخاري في صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٥٢. (والسُنح منطقة في أطراف المدينة تبعد ما يقارب الميل عن مسجد رسول الله ﷺ وفيها مزارع بني الحارث ابن الخزرج قرب وادي بطحان المشهور في عوالي المدينة).

(٣) من رواية البخاري في **المغازي**، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث رقم: ٤٤٦٢.

وربما بدلّ الحديث على أنه أخبرها أن هذا آخر يوم في حياته، وأنه لن يكون من أهل الدنيا بعد ذلك اليوم.

كما أنه لا يستبعد أنّ نَفْثَ عائشة (رضي الله عنها)[1] على النبي ﷺ كان أكثر من مرة، ومنها اليوم الذي توفي فيه، حيث أشتدّ عليه الألم ﷺ.

وقد شهد بعض الصحابة آخر ما تكلم به النبي ﷺ ولعل ذلك كان في اليوم الذي توفي فيه ﷺ ومن ذلك ما رواه أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: آخر ما تكلم به النبي ﷺ: «أَخْرِجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب واعلموا أن شِرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».[2] وهذا هو آخر ما سمعه أبو عبيدة من النبي ﷺ وقد يكون غيره سمع من بعده شيئاً آخر.

ومن هذه الرواية يبدو أن أبا عبيده بن الجراح رضي الله عنه كان من آخر من لقي الرسول ﷺ. ويتضح من ذلك اهتمامه ﷺ باستقرار الدولة الإسلامية، ومن ذلك إخراج اليهود والنصارى، حيث كانوا يشكلون تهديداً في تلك المرحلة، كما كان واضحاً أن الرسول ﷺ، كان متشدِّداً في منع الناس من اتخاذ قبور الأنبياء

---

(١) انظر: حديث البخاري في **صحيحه**، **باب مرض النبي ﷺ ووفاته**، حديث رقم: ٤٤٣٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في **مسنده**، ج١/ ١٩٥؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، رجاله ثقات، ج ٥/ ٣٢٥.

مساجد، لما في ذلك من الشرك الأكبر، وإن كان هذا لا يجوز مع الأنبياء، فمع غيرهم من أهل الأنبياء وأصحابهم من باب أولى، وتالياً حرص على أن يكون من آخر وصاياه للأمة ﷺ.

وكان الرسول ﷺ يخشى أن يَفعَل الناس بقبره كما فعلت الأمم السابقة بقبور أنبيائهم، كاليهود والنصارى، ويؤكد ذلك رواية أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، وابن عباس (رضي الله عنهما) في صحيح البخاري، قالا: لما نزلت برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتمّ كشفها عن وجهه وهو كذلك يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»،[1] يحذر مما صنعوا، كما أكدت عائشة (رضي الله عنها) في رواية أخرى قالت: (لولا ذلك لأبرز قبره خشية أن يتخذ مسجداً).[2]

ولذلك فكل من فعل مثل ذلك بأي قبر لأي إنسان كائناً من كان فهو عاص لرسول الله ﷺ ومخالف لأمره.

السواك:

كان رسول الله ﷺ حريصاً على السواك طوال حياته يفعله ويأمر المسلمين به، عند كل وضوء وعند كل صلاة، يحث عليه ويحمله معه في حله وترحاله.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٤٤٤٤.

(٢) من رواية البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٤٤٤١.

وكان من آخر من دخل على رسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رضي الله عنهما)، حيث كان دخوله خاصاً بحكم أخوته لأم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) وكونه محرماً لها، وتقص أم المؤمنين عائشة حادثة دخول عبد الرحمن بن أبي بكر واستياك رسول الله ﷺ في آخر حياته فتقول: (دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ، وأنا مُسنِدَتُه إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به فأبده رسول الله ﷺ بصره فأخذت السواك فقضمته، ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى رسول الله ﷺ فاستنّ به فما رأيت رسول الله ﷺ استنّ استناناً قط أحسن منه فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال: «في الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، وكانت تقول مات بين حاقنتي وذاقنتي)،[1] [ما بين الترقوتين].

وكانت عائشة (رضي الله عنها) فخورة باختلاط ريقها بريقه ﷺ بسبب ذلك السواك تقول (رضي الله عنها): (فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة).[2]

وقبل وفاته ﷺ أخذته بُحة وفهمت عائشة (رضي الله عنها) ما كان يقول، تقول (رضي الله عنها): (فسمعت النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه وأخذته بحة، يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(١) رواه **البخاري في صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٣٨، ٤٤٤٩، ٤٤٥٠؛ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٦٥٤.

(٢) من رواية **البخاري في صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٥١.

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء] قالت: فظننت خيراً حينئذ).[1]

وكان ﷺ في صحته يحدث (وهو صحيح أنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده في الجنة ثم يُخيَّر)، قالت عائشة: (فلما نزل برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي، غُشي عليه ساعة ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال: «اللهم الرفيقَ الأعلى».[2] قالت عائشة: إذاً لا يختارنا.

قالت عائشة: فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ قوله: «اللهم الرفيق الأعلى». وقد قُبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجر عائشة، وقد قالت (رضي الله عنها): (مات رسول الله ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ).[3]

ومن المؤكد إسناد ظهره إلى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في لحظاته الأخيرة، فقد ورد عنها (أصغيت إليه قبل أن

---

(١) رواه **البخاري**، باب مرض النبي ﷺ حديث رقم: ٤٤٣٥؛ **ومسلم** في فضائل الصحابة.

(٢) رواه البخاري، باب من تسوك بسواك غيره، حديث رقم: ٤٤٦٣؛ وانظر: حديث رقم: ٨٩٠؛ وابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٥٥.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٤٠، ٤٤٤٩.

يموت وهو مسند إليّ ظهره يقول: «اللهم أغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى».[١]

وفي حديث آخر قالت: (وإني لمسندته إلى صدري)،[٢] وفي حديث آخر ما يدل على أن رأسه على فخذ عائشة (رضي الله عنها) ولا تناقض بين ذلك، روى البخاري أن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح أنه لم يقبض نبي قط، حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال في الرفيق الأعلى).[٣]

وفي رواية لعائشة (رضي الله عنها) أنه كان: (بين يديه ركوة أو شيء فيه ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»، ثم نصب يده فيقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده).[٤]

كانت صورة الرسول ﷺ الجسدية حسنة، لم تتغير قبل وفاته ﷺ، فمع مرضه ما يقارب أسبوعين إلا أنه ﷺ كان في

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٥٩.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٦٣.

(٣) انظر: حديث رقم: ٤٤٣٧ في **البخاري** سبق ذكره.

(٤) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٤٩؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٥.

أحسن صورة، ولم يؤثر المرض في جماله وبهائه ﷺ.[1] مع أنه ﷺ لم تظهر عليه آثار الشيخوخة أو الشيب والضعف، فقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (توفي رسول الله ﷺ وما في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء).[2]

كانت عائشة (رضي الله عنها) شابة لم ترَ الأموات ولا خبرة لها بذلك، فلما مال رأسه عند الموت سقط من فيه نقطة باردة على ترقوة عائشة (رضي الله عنها) وصدرها ثم مال فسقط على الفراش تقول (رضي الله عنها): (ولم أكن رأيت ميتاً قط، فأعرف الموت بغيره، فجاء عمر يستأذن ومعه المغيرة بن شعبة، فأذنت لهما ومددت الحجاب، فقال عمر: يا عائشة ما لنبي الله؟ قلت: غُشي عليه منذ ساعة، فكشف عن وجهه فقال وا غمّاه، إن هذا لهو الغم، ثم غطاه، ولم يتكلم المغيرة، فلما بلغ عتبة الباب قال المغيرة: مات رسول الله ﷺ يا عمر، قال: كذبت ما مات رسول الله ولا يموت حتى يأمر بقتال المنافقين، بل أنت تحوسك فتنة)،[3] [تسعى لفتنة].

كان الصِدّيق أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، وقد حل محله للصلاة بالناس بأمره، وعدّه الناس نائباً للرسول في الإمامة بالصلاة وغيرها، وكان غائباً تلك اللحظة عند زوجته الأخرى

---

(١) أحمد جاد، **وفاة الحبيب**، ص ١١٧.

(٢) رواه احمد في **مسنده**، حديث رقم: ١٢٠٤٣.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٩٥.

بالسُنح في أطراف المدينة، على بعد ميل تقريباً، وما أن توفي الرسول ﷺ حتى أسرع الناس إلى استدعاء الصديق رضي الله عنه، الذي أقبل مسرعاً على فرسه، ولم يحدث أحداً، ودخل حجرة ابنته عائشة (رضي الله عنها)، ورفع الحجاب فنظر إلى الرسول ﷺ، وقال ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة]، مات رسول الله ﷺ، ثم جاء قِبَل رأسِه وقبَّل رأسَه وقال: وا نبيّاه. ثم قبَّل رأسه وقال: وا صفيّاه. ثم قبَّله وقال: وا خليلاه، مات رسول الله ﷺ.[1]

وقال: (والله لا يجمع عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتّها).[2] وقد أشار البخاري إلى تقبيل أبي بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ في أكثر من حديث).[3]

كان الوضع في مسجد رسول الله ﷺ صعباً، حيث كان الناس يتجمعون، ليسألوا عن صحته ﷺ ويطمئنوا عليه، ولشدة محبتهم له لا يكاد بعضهم يفارق مسجده، وكان عمر غير مصدق بوفاة الرسول ﷺ، يتكلم ويزمجر ويتوعّد،[4] قائلاً: إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله عزّ وجل المنافقين.

---

(١) رواه أحمد في **مسنده**، ج ٦/ ٣١؛ وانظر: رواية البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٥٠، ورواه الترمذي في **مختصر الشمائل**، ص ١٩٦.

(٢) من حديث البخاري في **صحيحه**، باب الدخول على الميت، والحديث رقم: ٤٤٥٢، وكتاب **المغازي**، باب مرض الرسول ﷺ ووفاته، ج ٥/ ١٤٣.

(٣) انظر: حديث البخاري، ج ٥/ ١٤٣.

(٤) انظر: حديث البخاري رقم: ٤٤٥٤؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٥.

فخرج أبو بكر ﷺ من حجرة عائشة إلى المسجد، فلما رآه الناس انصرفوا عن عمر وتوجهوا إلى أبي بكر ليسمعوا ما يقول، وكان عمر لا يزال يتكلم في الناس، ويصف ابن عباس المشهد وهو شاهد عيان حاضر فيقول: (إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمعُ بشراً من الناس إلا يتلوها، وقال سعيد بن المسيب: إن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعُقِرتُ حتى ما تُقِلّني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، أن النبي ﷺ قد مات).[1] لقد كان فقه أبي بكر وحكمته واضحين، كان صاحب الموقف ورَجُله، أوعى الناس للقرآن وأكثرهم استحضاراً له، ولذلك فإن الكثيرين ما إن سمعوا الصديق يقرأ تلك الآية حتى أحسّوا وكأنها نزلت الساعةَ،

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه** حديث رقم: ٤٤٩٧؛ وابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٤١٠؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٧.

فخرج الناس من المسجد إلى طرقات المدينة يتلون الآية وكأنها أنزلت للتو.[١]

وذكر أن علياً رضي الله عنه أُقعد ولم يستطع حراكاً لشدة الصدمة، كما ذكر أن عثمان رضي الله عنه أُخرس وبدأ يذهب ويجيء ولا يتكلم.[٢]

أما ابنته وحبيبته ﷺ فاطمة (رضي الله عنها)، الوحيدة الباقية من بناته فقد كان مصابها عظيماً وجللاً، وكان ﷺ أخبرها مقدماً بدنو أجله. وينقل أنس بن مالك رضي الله عنه ما قالته حين علمت بوفاة الرسول ﷺ: (لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشَّاه، فقالت فاطمة (عليها السلام): وا كرب أباه. فقال لها النبي ﷺ: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم». فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه. فلما دفن قالت فاطمة (عليها السلام): يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب).[٣]

أما أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، الذي كان متعلقاً برسول الله ﷺ ملازماً له ﷺ فيعبر عن مصابه بوفاة الرسول ﷺ بقوله: (لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء منها

---

(١) القسطلاني، **المواهب اللدانية**، ص ٣٩١.

(٢) انظر السهيلي، **الروض الأنف**، ج ٤/ ٤٦٨.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٤٤٦٢.

كل شيء وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي إنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا).[1]

شمل وقع الوفاة كل من عرف رسول الله ﷺ وأحبه، فأم أيمن حاضنة النبي ﷺ كانت هاجرت إلى المدينة وكان ﷺ يزورها ويتفقدها، فلما توفي الرسول ﷺ حرص أبو بكر على زيارتها، فقال بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: (انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقال لها ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله، قالت: والله ما أبكي، أن لا أكون أعلم ما عند الله خير لرسوله ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان).[2]

إن تفكير أم أيمن (رضي الله عنها) بحس أهل الأرض جميعاً، وحاجتهم إلى الوحي والتوجيه، وافتقادهم إلى الرابط والوساطة بين السماء والأرض، بين الرب وعباده حيث كان الرسول المعلم المربي الموجه الرحيم الشفيع ﷺ بين أظهر الناس، فإذا مات انقطعت تلك الصلة المباشرة. كان الناس كلهم يفتقدون رسول الله ﷺ، وكان يعزي بعضُهم بعضاً، وذكر أن بلال بن رباح رضي الله عنه لما أذّن بعد وفاة الرسول ﷺ قال أشهد

---

(١) أخرجه الترمذي في **المناقب**، باب رسول الله خاتم النبيين، ٣٦٢٢؛ وأحمد في **المسند**، ج٣/ ١٢٢، ٢٤٠.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**، باب فضائل أم أيمن رقم: ٢٤٥٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤١٣.

أن محمداً رسول الله أرتج المسجد بالبكاء والنحيب فلما دفن ﷺ ترك بلال الأذان.[1]

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيعزي الناس بعضُهم بعضاً من بعدي تعزيةً فيّ»، وكان الناس يقولون ما هذا؟ فلما قبض رسول الله ﷺ لقي بعضُنا بعضاً يعزي بعضُهم بعضاً برسول الله ﷺ.[2]

وتبصّروا في قول رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبتَه بي فإنها من أعظم المصائب».[3]

ويصف الشيخ محمد الغزالي انتشار الخبر في المدينة بقوله: (وتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون، وله طنين في الآذان، وثقل ترزح تحته النفوس، وتدور به البصائر والأبصار. وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة قد أظلمت، فتركتهم لوعة الثُّكل حيارى لا يدرون ما يفعلون).[4]

كان الحزن شديداً لدى المسلمين عامة، ولدى أهل المدينة خاصة، لكنهم يتذكرون قول الله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٤ ـ ٥]، فيؤمنون

---

(١) القسطلاني: **المواهب اللدانية**، ج ٣/ ٣٩٢.

(٢) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، ج ٩/ ٣٨؛ وانظر: أحمد جاد، **وفاة الحبيب**، ص ١٥٦.

(٣) قال عنه الألباني، صحيح بشواهد سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١١٠٦.

(٤) محمد الغزالي، **فقه السيرة**، ص ٥١٩.

أن لقاء الله نعمة لرسول الله ﷺ وجنة الفردوس الأعلى والكوثر موعده، وكان للمؤمنين والأمة كلها حزن وبلاء ومصيبة عظيمة، تقول عائشة (رضي الله عنها): (لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب واشرأبت اليهود والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المَطِيرة في الليلة الشاتية لِفقدْ نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبي بكر الصديق رضي الله عنه).[١]

وقد ثبت أن النبي ﷺ لم يترك ديناراً ولا درهماً، روى البخاري بسنده عن عمرو بن الحارث قال: (ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة).[٢]

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها): (أن رسول الله ﷺ اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهن درعاً من حديد).[٣]

وورد عن عائشة قالت: (توفى النبي ﷺ ودرعه مرهونة بثلاثين صاعاً من شعير).[٤]

وكان ﷺ في حياته يقول: (ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦٥.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم ٤٤٦١؛ وانظر: رواية عائشة عند الإمام أحمد في **مسنده**؛ وانظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٤٥.

(٣) رواه البخاري، حديث رقم: ٢٠٦٨، و ٢٩١٦، و ٤٤٦٧.

(٤) البيهقي، **دلائل النبوة**؛ وانظر: ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٤٥.

الدنيا إلا كراكبٍ سار في صائفٍ فاستظلّ تحت شجرة ساعةً من نهار ثم راح وتركها).[1] ما كان ﷺ حريصاً على جمع المال وتكديسه للورثة، وكان يحذر من ذلك في قوله الذي رواه الحارث بن سويد قال عبد الله قال النبي ﷺ أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال فإن ماله ما قدّم ومال وارثه ما أخّر».[2]

وقد قال ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»،[3] كما أنه من المعروف أن الصدقة لا تحل له ﷺ ولا لآل بيته إنما يأكلون من الخُمْس.

لقد جادت قرائح الشعراء منذ وفاة الرسول ﷺ إلى اليوم الحاضر بقصائد مختلفة في رثاء الرسول ﷺ، ولعل أصدقهم رثاءً كان شاعره ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري، الذي أجاد في مدح الرسول ﷺ في حياته، كما أبدع في رثائه عند مماته وهو أول من فتح للشعراء باب رثاء النبي ﷺ، حيث قال يبكي رسول الله ﷺ في قصيدة من عيون الشعر أوردها ابن هشام.[4]

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب الرقائق، باب ما قدم من ماله فهو له، ج٧/ ١٧٦.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٣٥٥٤.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٢٥٧٨، وانظر: باب الخراج والإمارة والفيء قول رسول الله ﷺ: ((لا نورِّث ما تركنا صدقة)).

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، شعر حسان بن ثابت في مرثيته الرسول، ج٤/ ٦٦٦ــ ٦٦٩.

تجهيز الرسول ﷺ والصلاة عليه ودفنه:

حينما توفي الرسول ﷺ كان يلبس كساءً غليظاً؛ ورد عن أبي بردة رضي الله عنه قال: أخرجت إلينا عائشة إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساءاً من هذه التي يدعونها المليدة. وفي وراية أنها قالت: (في هذا نزع روح رسول الله ﷺ)،[1] ولا شك أن عائشة تركت حجرتها وخرجت بعد أن سَجّتْ رسول الله ﷺ عند اجتماع المسلمين ليباشر النبيَّ ﷺ أهلُه من الرجال، الذين واروا الحجرة على جسد رسول الله ﷺ الطاهر، وبقي كذلك ﷺ فترة انشغال المسلمين بالخبر، وكان أشد الناس حزناً على رسول الله ﷺ وفقداً له أقربهم إليه ابنته فاطمة (رضي الله عنها)، ولذلك اجتمع عندها وفي بيتها آل البيت، على رأسهم عمه العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومعهم طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.[2] كما عرف عن صفية (رضي الله عنها) أنها كانت تلوح بثوبها بيدها ما تستطيع الحديث من الحزن.[3]

وكانت جميع بيوت الصحابة صغيرة يصعب اجتماع

---

(١) من رواية **البخاري**، باب ما ذكر من درع النبي وعصاه وسيفه وقدحه، ٣١٠٨؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الزينة، باب التواضع في اللباس، ٢٠٨٠/ ٣٤.

(٢) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٠.

(٣) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤١٤.

الكثيرين فيها في وقت واحد، واجتمع بعض المهاجرين والأنصار عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد أغلقت الحجرة على جسد رسول الله ﷺ، وبقي جسده ﷺ بقية يوم الاثنين يوم الوفاة، حيث انشغل الناس بتدبير خلافة الرسول ﷺ. ولعلهم اهتموا لهذا الأمر مبكرين قبل تجهيز جسده الطاهر ودفنه، لشعورهم أنهم ما زالوا تحت إمرته ما دام جسده موجوداً لم يوارَ التراب، وإحساسهم بأن عليهم تدبير أمر خلافته قبل دفنه ﷺ، واشتغل الناس ببيعة الصديق رضي الله عنه.[1]

وفي يوم الثلاثاء وهو التالي لوفاته ﷺ، اجتمع في حجرة عائشة (رضي الله عنها) آل النبي ﷺ، عمه العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وأبناء عمه العباس والفضل، وقُثم، وأسامة ابن زيد، وصالح مولى رسول الله ﷺ،[2] ثم نادى من وراء الناس أوس بن خولي الأنصاري الخزرجى من بني عوف، وكان من أهل بدر فقال: يا علي ننشدك الله وحظنا من رسول الله، وكان يريد السماح بمشاركة الأنصار في الغسل وهو واحد منهم فقال علي رضي الله عنه له: ادخل فدخل معهم.[3]

---

(١) مروان كجك، **تهذيب سيرة ابن كثير**، ص ٦٨٣؛
وانظر: بيعة العقبة، من هذا الكتاب؛ وانظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٥.

(٢) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤١٤.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦٢.

وقيل إن أبا بكر الصديق ﷺ (أمرهم أن يغسله بنو أبيه).[1] وكان أمراً طبيعياً وتلقائياً حتى لو لم يأمرهم أبو بكر ﷺ بذلك، فالأهل مقدّمون على الأصحاب في مثل هذا الموقف،ومن الأرجح أنهم وضعوه على سريره في الحجرة للغسل لثبوت صلاتهم عليه وهو على سريره ﷺ.

وقد غسلوا النبي ﷺ من دون أن ينزعوا لباسه ﷺ، ففي رواية لعائشة (رضي الله عنها) قالت: (لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا والله ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه، فلما اختلفوا، ألقى الله عز وجل النوم حتى ما بهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو، أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه، وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص دون أيديهم، فكانت عائشة تقول: (لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما غسله غير نسائه).[2]

وهذا رأيها، لاختصاصهنّ بجواز النظر إلى جسده الطاهر كاملاً.

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل، باب ما جاء في وفاة النبي ﷺ ص٢٠٠، وقال الألباني صحيح انظر هامش الرواية.

(٢) رواه أبو داود في ستر الميت عند غسله واللفظ له، ٣١٤١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٦٦٢؛

ومن المؤكد أن الميت يكون في باطنه ما يحتاج إلى تنظيف لكن الرسول ﷺ لم يجدوا فيه ذلك، فقد ورد أن (علياً رضي الله عنه التمس من النبي ما يلتمس من الميت فلم يجدوا شيئاً، فقال: بأبي وأمي طبت حياً وميتاً).[١]

كان غسل رسول الله ﷺ بالماء والسِدر،[٢] وكان علي رضي الله عنه يسنده إلى صدره وعليه قميصه، وكان العباس وابنه الفضل وقثم يقلبونه مع علي رضي الله عنه، وكان أسامة بن زيد وصالح مولى رسول الله ﷺ يصبان الماء، وعلي يغسل ويدلك والقميص دون أيديهم.[٣]

ثم أُدرج ﷺ في ثوبين أبيضين وبُرد حبرة (وتعني ثياب يمنية مخططة)،[٤] وقيل أنها كانت من القطن (الكرفس). وقد ورد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية بيض).[٥] وكان غسله من بئر بقباء يشرب منها ﷺ، وتسمى بئر سعد بن خيثمة.[٦] وهذا دليل على نقاء ذلك الماء وطهارته وتميزه عن غيره.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص: ٤١٦، وابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥١٩

(٢) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٢٠؛ وابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ٢٨٠.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦٢.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦٣.

(٥) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ٢٨١، أنظر: عنوان: صفة كفنه ﷺ عند ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٥٢٢.

(٦) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤١٦.

وقالت عائشة (رضي الله عنها): (كُفِّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرفس ليس فيها قميص ولا عمامة)،[1] وذكر أنه أُبقي على قميصه الذي كان عليه تحت الكفن.[2]

وقد وُضع رسول الله ﷺ على السرير بعد تكفينه، فتشاور المسلمون في الصلاة على النبي ﷺ، فكان رأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن لا يُخرج ﷺ من المكان الذي توفي فيه، قالوا: (يا صاحب رسول الله ﷺ أيصلى على رسول الله ﷺ قال: نعم، قالوا كيف؟ قال يدخل قوم فيكبرون ويصلون ويدعون ثم يخرجون، ثم يدخل قوم فيكبرون ويصلون ويدعون ثم يخرجون، حتى يدخل الناس، قالوا: يا صاحب رسول الله أيدفن رسول الله؟ قال: نعم، قالوا أين؟ قال في المكان الذي قبض الله فيه روحه، فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب فعلموا أنْ قد صدق).[3]

ثم دخل الناس يصلون عليه أرسالاً، يدخل الرجال حتى إذا فرغوا أُدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء، أُدخل الصبيان. ولم

---

(١) من رواية **البخاري في كتاب الجنائز**، باب الكفن بغير قميص، حديث رقم: ١٢٧١، ١٢٧٢؛ ومسلم في **صحيحة**، **كتاب الجنائز** «في كفن الميت»، ج ٩٤١/ ٤٥.

(٢) انظر: أبو داود، **كتاب الجنائز**، باب الكفن، ص ٣٥٣.

(٣) رواه الترمذي في **الشمائل**، ص ٣٧٨؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٦٣؛ وابن سعد، في **الطبقات**، ج ٢/ ٢٧٥؛

يؤمّ الناسَ على رسول الله ﷺ أحد،[1] وكان المصلون يرونه أنه أمامهم وهو ميت ﷺ.

ولا شك أن هذا الأمر تطلب ترتيباً وتنظيماً، حيث أن الكل يرغب في الصلاة على رسول الله ﷺ والمكان ضيق، فاحتاج الأمر شيئاً من الترتيب، ويبدو أنه كان للسن دور في ذلك، وقد ورد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه روى عن رسول الله ﷺ قال: (سمعت رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته قال: ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه، ادفنوه في موضع فراشه).[2]

وقد تكون المحبة للمكان من الله ليكون قبر نبيه فيه، وقد تكون من النبي ﷺ للمكان، وكلها تتفق مع اختيار الله لموضع قبر نبيه ﷺ، كما اختار له مهاجراً، ولم نسمع أن أحداً من الصحابة أبدى رأياً آخر حول موضع قبر النبي ﷺ مخالفاً لرأي أبي بكر رضي الله عنه.

وأما الحفر لقبر رسول الله ﷺ فبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة توفي عدد من أصحابه، وكانوا أحياناً يُلحدون لحداً وهو

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٢/ ٢٨٩؛ وابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦٣؛ انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤١٢.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الجنائز، ص ١٠٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٢٦٣؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤١١.

الشق في جدار القبر، وأحياناً يشقون شقاً،[١] وهو الحفر في وسط القبر، وهي طريقة أهل المدينة، وكلها متبعة بحسب من كان يقوم بإعداد القبر. ولما مات رسول الله ﷺ (اختلفوا في اللحد والشق حتى تكلموا في ذلك، وارتفعت أصواتهم، فقال عمر لا تصخبوا عند رسول الله ﷺ حياً ولا ميتاً، أو كلمة نحوها فأرسلوا إلى الشَقّاق واللاّحِد جميعاً، فجاء اللاحِدُ فلحدَ لرسول الله ﷺ ثم دفن رسول الله ﷺ). [٢]

وقد ورد أن الذي كان يلحد هو أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري، وكان يحفر لأهل المدينة، وأن الذي يشق هو أبو عبيدة بن الجراح، وأن الذي بعث يدعوهما هو العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فجاء الأنصاري أولاً فلحد لرسول الله ﷺ،[٣] ولذلك أحبّ الناس عموماً والصحابة خصوصاً أن يُلحد لهم، فهذا سعد بن أبي وقاص في مرضه الذي مات فيه يقول: ألحدوا لي لحداً وانصبوا عليّ اللَّبِنَ نصباً كما صُنع برسول الله ﷺ. [٤]

ووافق اللحد ما كان يدعو به الصحابة، حيث كانوا بعد

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، **كتاب الجنائز**، باب اللحد والشق في القبر، ج ٢/ ٩٦.

(٢) وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤١٤.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ح ٤/ ٦٦٣.

(٤) رواه **مسلم**، في **كتاب الجنائز**، باب اللحد ونصب اللبن على الميت.

استدعاء الرجلين يقولون: (اللهم اختر لرسولك)،[1] فكان اللحد ما كتبه الله لرسوله.

كان الرسول ﷺ بجوار القبر حتى استكمل الناس رجالاً ونساءاً وصغاراً وكباراً الصلاة عليه في جوف الليل، من مساء الثلاثاء ليلة الأربعاء الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ١١ للهجرة الموافق ١٤ حزيران سنة ٦٣٣م.

ثم نُحي السرير عن حفرة القبر، وأُدخل ﷺ القبر، حمله علي رضي الله عنه وعمه العباس وابناه قثم والفضل ومولاه شقران،[2] وقيل إن شقران مولى رسول الله ﷺ وضع قطيفة كانت لرسول الله تحته كان يفترشها رسول الله ﷺ ويلبسها فقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً، وذلك خشية أن يتنافس الناس عليها.[3]

وقد شاركهم في ذلك أوس بن خولي الأنصاري رضي الله عنه، وحينما وضع الرسول ﷺ في قبره نصب عليه اللبن ليمنع التراب (كما يفعل في القبور حالياً)، نشاهدها بالطريقة نفسها حتى الآن، يتبعون فيها ما فُعل برسول الله ﷺ، ثم بعد إتمام كمال اللبِن

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦٣.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٢/ ٢٧٥؛ وانظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص٤١٤، ٤١٥.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦٤. والترمذي، **كتاب الجنائز**، ما جاء في الثوب الواحد يلقى تحت الميت في القبر، (١٠٤٧)؛
انظر: **صحيح مسلم**، **كتاب الجنائز**، باب جعل القطيفة في القبر، ٩٦٨/ ٩٦٧.

وتطيينه، أهالوا التراب على قبر رسول الله ﷺ وذلك في جوف الليل.

تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) (ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي [جمْع مِسْحاة] من جوف الليل من ليلة الأربعاء).[١]

وفي صباح اليوم التالي أذّن بلال الفجر، فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله بكى وبكى الناس، وظهر حزنهم على رسول الله ﷺ.[٢]

وقد بقي قبر الرسول ﷺ كما هو في حجرة عائشة (رضي الله عنها) دون إبراز أو رفعٍ زائدٍ عن مستوى الأرض،[٣] وهو ما طُبق بمعرفة الصحابة لحديث رسول الله ﷺ الذي روته عائشة (رضي الله عنها) وعقبت عليه (أنه ﷺ قال في مرضه الذي لم يقم بعده: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لولا ذلك أبرز قبره غير أنه خَشي أو خُشي أن يُتخذ مسجداً).[٤]

وقد دُفن أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك بجوار رسول الله ﷺ ثم

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦٤.

(٢) الندوي، **السيرة النبوية**، ص ٤١٤.

(٣) **صحيح البخاري**، عن أبي بكر بن عياش، عن سفيان الثمار أنه رأى قبر رسول الله ﷺ مسنماً، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، حديث رقم: ١٣٩٠.

(٤) رواه البخاري، في **صحيحه**، **كتاب الجنائز** باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر رقم: ١٣٩٠.

استأذن عمر ﷺ أن يُدفن معهما في الحجرة نفسها عند وفاته، فأذنت له عائشة في قصة طويلة).[1]

وقبر أبي بكر أدنى من قبر الرسول ﷺ، وقبر عمر أدنى من قبر أبي بكر، وكلهم في اتجاه القبلة، بحيث إن رأس الصديق بحذاء كتف الرسول ﷺ، ورأس عمر بحذاء كتف أبي بكر الصديق ﷺ أجمعين، وأبو بكر خلف النبي ﷺ ومن خلفه عمر (رضي الله عنهما)، وأصبحا رفيقي رسول الله ﷺ في الحجرة الشريفة، كما كانا صاحبيه في حياته ﷺ.[2] وكانت القبور ترتفع عن الأرض أربعة أصابع.[3]

كان أكثر الناس احتكاكاً برسول الله ﷺ أثناء مرضه وعند وفاته أقربهم إليه، سواء من النساء أمثال عائشة (رضي الله عنها) وبقية أمهات المؤمنين، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، أو من الرجال كأبي بكر وعمر وآل البيت علي والعباس وبنوه، وأنس ابن مالك، وأسامة بن زيد ﷺ أجمعين، ولذلك نقلت عائشة (رضي الله عنها) لنا أخباراً ووصايا عنه لم ينقلها أحد آخر. وهكذا يتضح أنه كان للنساء دور في مشاركة الأمة في العناية برسول الله ﷺ وقت حاجته لذلك، في مرضه الذي مات فيه.

ولعل تمريضه عند عائشة (رضي الله عنها) وفي حجرتها،

---

(١) انظر: عمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ٣/ ٩٤٤؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج ٣/ ٣٦٨.

(٢) انظر: كيف استأذن عمر من عائشة في الدفن مع رسول الله ﷺ عند **البخاري في صحيحه**، حديث رقم: ١٣٩٠.

(٣) القسطلاني، **المواهب اللدانية**، ج ٣/ ٤٠١.

وموته على صدرها ﷺ، وكونها ملاصقة له في آخر أيامه، أبان عن فضلها ومكانتها عند رسول الله ﷺ، وهو أعلم بها من غيره ﷺ، وثقة آل بيته وهي منهم وائتمان الأمة إياها على أغلى البشر ﷺ، وكانت شابة حافظة لكل ما صدر عن رسول الله ﷺ من أقوال وأفعال، وقد ثبتت حكمة رسول الله ﷺ في أن يُمرَّض عند عائشة (رضي الله عنها)، حيث حفظت عنه ووعت، كما كانت لها محبة خاصة في قلبه، وراحته عندها لا يجدها عند غيرها.

ومن ثَم فإن معظم الروايات المتعلقة بمرض الرسول الله ﷺ ووفاته وآخر وصاياه كانت من طريق أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، وهذا أبان فضلها وعِلْمَها لكل ذي عقل.

كما أن وجوده في بيت عائشة يتيح لأبي بكر الصديق رضي الله عنه الدخول عليه والاتصال به ﷺ أكثر من غيره من الناس، وكان علي رضي الله عنه وآل البيت مجاورين لرسول الله ﷺ متصلين به متفقدين له باستمرار، وكان آل البيت وآل أبي بكر الصديق مجتمعين ومعهم بقية المهاجرين والأنصار هم أحباب رسول الله ﷺ قبل وفاته وبعد وفاته، بينهم من التوادّ والتراحُم والألفة إضافة إلى المصاهرة ما ليس بين غيرهم. وكان أولى الناس بتجهيز رسول الله ﷺ وغسله هم أبناء أبيه الأقربين، يعني أبناء عبد المطلب وأحفاده، وقد تولوا هذا الأمر بكل أمانة، وهم الأولى في مثل هذا الموقف دون تقصير من بقية الصحابة. وكان أكثرهم عملاً ومباشرة لتجهيز جسد رسول الله ﷺ الشريف علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عمه، مع عمه العباس وأبنائه وموالي رسول الله ﷺ، وبمشاركة رمزية من الأنصار رضي الله عنهم.

بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

كان الرسول ﷺ إمام المسلمين في صلاتهم، ورأس الدولة الإسلامية وقائدها وبانيها، وكان همه ﷺ والأمة كلها استمرار الدولة والنظام وحفظ الحقوق وقيام الدين. وهدف الرسول ﷺ الامتداد إلى مختلف أنحاء العالم لتبليغ الرسالة وضمان العدل والأمن للناس كافة، مع التفكير بدايةً بفارس والروم المجاورة لبلاد العرب، ومن هنا جاء توجيهه ﷺ لجيش أسامة بن زيد وإعداده للخروج قبيل وفاته إلى أطراف الشام.[1] وهذا يعني ضرورة وجود رأس قيادة للدولة يتولى تنفيذ أوامر الرسول ﷺ ووصاياه، وإقامة شرع الله والامتداد العالمي للدولة والدعوة الإسلامية.

وكان هذا همّ للرسول ﷺ، ومع ذلك فإنه لم يوص لأحد بعينه ليلي الأمر من بعده.[2] وقد كانت هناك إشارات اتضح

---

(١) انظر: **صحيح البخاري، كتاب المغازي**، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد في مرضه الذي توفي فيه، حديث رقم: ٤٦٦٨، ٤٦٦٩.

(٢) انظر: حديث رقم: ٢٧٤٠، ٢٧٤١، عند **البخاري في صحيحه** (وانظر: وفاة الرسول ﷺ من هذا الكتاب).

منها ترجيحه لأبي بكر الصديق ﷺ لهذا الأمر. وكان عماد الدولة الإسلامية بالدرجة الأولى سكان المدينة الأنصار، إضافة إلى المهاجرين ﷺ، ولكل مكانته كمجموع في السلطة وإدارة الدولة ومساعدة الرسول ﷺ في مختلف شؤونها مع تفاوت في المهام والمكانة بين أفرادهم.

كان واضحاً للجميع ما تنزّل من آيات تأمر بالاستمرار وحمل الدين، وما يطلبه من نظام وعدم الرجوع إلى الوراء بعد موت الرسول ﷺ:[1] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]. نعم إنهم الشاكرون الذين اختاروا أبا بكر ليقيموا نظاماً مستعداً للقضاء على من ينقلب على عقبيه من المرتدين وأمثالهم. واتضح معنى الآية في ذلك الموقف والحفاظ على القوة والنظام، والاستعداد للدفاع عن دولة الرسول ﷺ ضد المرتدين الذين قيض الله لهم أبا بكر وأعوانه من المهاجرين والأنصار ﷺ.

حادثة السقيفة:

في يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ اجتمع

(١) انظر: رواية البخاري في **صحيحه**، حديث رقم ٣٦٦٨، كتاب **فضائل الصحابة**، حديث رقم: ٣٦٦٨.

الأنصار ــ وهم أهل المدينة ــ قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، وهو من زعمائهم في سقيفة بني ساعدة، في وقت كان علي بن أبي طالب وبقية آل البيت عند فاطمة رضي الله عنها. وكان عمر رضي الله عنه مع بعض المهاجرين والأنصار مجتمعين عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه.[1] وكان الوضع صعباً والتفكير قائماً، فالأنصار يرون أنهم أهل المدينة وسلموها للرسول ﷺ بعد الهجرة، وأن الأمر بعد الوفاة يتطلب ترتيباً جديداً، ربما يكون في نظر بعضهم عودة القيادة فيها لأهلها، بعد وفاة المصطفى ﷺ. وكان غالبية الأنصار والمهاجرين يرون أن الوضع اختلف، وأن دولة إسلامية نظامية أشمل وأوسع من المدينة قامت وستستمر بعد الرسول ﷺ بنظام وترتيب بعيد عن أي وضع سابق قبل الهجرة. وكان أكثر الناس تأهيلاً لقيادة الدولة هم أكثر الناس فهماً لنظامها وترتيبها وشرعها، وهم المهاجرون السابقون الذين صحبوا الرسول في مكة والمدينة وتعلموا على يديه، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق، وأنهم أولى الناس بالأمر من بعده. وهذا الأمر كان مفهوماً عند بعض الأنصار وعند المهاجرين من أهل المدينة.

ولذلك بادر بعض الأنصار بإبلاغ أبي بكر وعمر ومن معهم باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وطلبوا منهما حضور

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/٦٥٧؛ ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٢٤.

ذلك الاجتماع، قبل أن يصدر عنه شيء يكرهونه. وكان هذا دليلاً على حرص الأنصار أن يحضر شيوخ المهاجرين اجتماعهم، فقال عمر لأبي بكر: (انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه).[1]

وفي الطريق قابلا رجلين من الأنصار، هما عويمر بن ساعدة الأنصاري ومعن بن عدى من بني العجلان، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم.[2] كان واضحاً أن القضية ليست منافسة بين المهاجرين والأنصار، بل كان حدثاً فيه الكثير من التقدير والاحترام بين الفئتين اللتين وصفهما الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. فالذي بلَّغ أبا بكر وعمر بالاجتماع هم من الأنصار، والذين قالوا: لا عليكم اقضوا أمركم من الأنصار، وعمر رضي الله عنه قال: أنطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فالكل يرى أنه أخٌ للآخر، ليست منافسة ولا حباً في الرئاسة، لكنه اجتهاد في الحق والوصول إلى الأفضل، وإن كان للبعض ممن يكرهون الصحابة رأي آخر مبني على الشك في الصحابة أصلاً وفي كل تصرفاتهم.

---

(١) انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٥٧.

(٢) من حديث عمر بن الخطاب، **المغازي**، لابن أبي شيبة، ص ٤٢٤؛ انظر: **الروض الأنف**، ج ٤/ ٤٧٢.

ولعل عمر رضي الله عنه أحسّ في وقت متأخر من خلافته بمثل هذا الرأي، فحدث الناس بنفسه عما وقع في سقيفة بني ساعدة في حديث طويل رواه ابن عباس قال: (كنت اختلف إلى عبد الرحمن بن عوف ونحن بمنى مع عمر بن الخطاب، أُعلم عبد الرحمن بن عوف القرآن، فأتيته في المنزل فلم أجده، فقيل: هو عند أمير المؤمنين، فانتظرته حتى جاء، فقال لي: قد غضب هذا اليوم غضبًا ما رأيته غضب مثله منذ كان، قال: قلت: لم ذاك؟ قال: بلغه أن رجلين من الأنصار ذكرا بيعة أبي بكر، فقال: والله ما كانت إلا فلتة، فما يمنع امرئ إن هلك هذا أن يقوم إلى من يحب، فيضرب على يده، فتكون كما كانت، قال: فهمّ عمر أن يكلم الناس، قال: فقلت: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنك ببلد قد اجتمعت إليه أفناء العرب كلها، وإنك إن قلت مقالة، حُملت عنك، وانتشرت في الأرض كلها، فلم تدر ما يكون في ذلك، وإنما يعينك من قد عرفت أنه سيصير إلى المدينة، فلما قدمنا المدينة، رحت مهجرًا حتى أخذت عُضادة المنبر اليمنى، وراح إليّ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل حتى جلس معي، فقلت: ليقولن هذا اليوم مقالة ما قالها منذ استخلف، قال: وما عسى أن يقول، قلت: ستسمع ذلك، قال: فلما اجتمع الناس، خرج عمر حتى جلس على المنبر، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر رسول الله ﷺ فصلى عليه، ثم قال: إن الله أبقى رسوله بين أظهرنا ينزل عليه الوحي من الله

يحل به ويحرم، ثم قبض الله رسوله، فرفع معه ما شاء أن يرفع، وأبقى منه ما شاء أن يبقى، فتشبثنا ببعض، وفاتنا بعض، فكان مما كنا نقرأ من القرآن «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم»، ونزلت أية الرجم، فرجم النبي ﷺ ورجمنا معه، والذي نفس محمد بيده! لقد حفظتها وعلمتها وعقلتها، لولا أن يقال: كتب عمر في المصحف ما ليس فيه، لكتبتها بيدي كتابًا، والرجم على ثلاثة منازل، حَمْلٌ بَيِّنٌ، أو اعتراف من صاحبه، أو شهودٌ عَدْل، كما أمر الله.

وقد بلغني أن رجالاً يقولون في خلافة أبي بكر: إنها كانت فلتة، ولعمري إن كانت كذلك، ولكن الله أعطى خيرها ووقى شرها، وأيكم هذا الذي تنقطع إليه الأعناق كانقطاعها إلى أبي بكر، إنه كان من شأن الناس أن رسول الله ﷺ توفى فأُتينا، فقيل لنا: إن الأنصار قد اجتمعت في بني ساعدة مع سعد بن عبادة يبايعونه، فقمت وقام أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح نحوهم فزعين أن يحدثوا في الإسلام فتقًا، فلقينَا رجلان من الأنصار، رجلا صدقٍ: عويمر بن ساعدة ومعن بن عدي، فقالا: أين تريدون؟ فقلنا: قومكم لِمَا بلغَنا من أمرهم، فقالا: ارجعوا فإنكم لن تُخالَفوا، ولن يؤتى شيء تكرهونه، فأبينا إلا أن نمضي، وأنا أروي كلامًا أريد أن أتكلم به، حتى انتهينا إلى القوم، وإذا هم عكوف هناك على سعد بن عبادة، وهو على سرير له مريض، فلما غشيناهم، تكلموا فقالوا: يا معشر

قريش، منا أمير ومنكم أمير، فقام الحُباب بن المنذر، فقال: أنا جَذيلُها المحكَّك وعذيقها المرجَّب، إن شئتم والله رددناها جِذعَة، فقال أبو بكر: على رِسْلكم، فذهبت لأتكلم، فقال: أنصت يا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر الأنصار! إنا والله ما ننكر فضلكم، ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا، ولكنكم قد عرفتم أن هذا الحي من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا على رجل منهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فاتقوا الله ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث في الإسلام. ألا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: لي ولأبي عبيدة بن الجراح، فأيهما بايعتم فهو لكم ثقة، قال: فوالله ما بقي شيء كنت أحب أن أقوله إلا وقد قاله يومئذ غير هذه الكلمة، فوالله لأن أُقتل، ثم أَحيا، ثم أُقتل، ثم أَحيا في غير معصية، أحب إليّ من أن أكون أميرًا على قوم فيهم أبو بكر، قال: ثم قال عمر: يا معشر الأنصار! يا معشر المسلمين! إن أولى الناس بأمر رسول الله ﷺ من بعده ثاني اثنين إذ هما في الغار؛ أبو بكر السبّاق المبين، ثم أخذت بيده وبادرني رجل من الأنصار، فضرب على يده قبل أن أضرب على يده، ثم ضربت على يده وتتابع الناس، ومِيْلَ على سعد بن عبادة، فقال الناس: قُتل سعد، فقلت: اقتلوه قتله الله، ثم انصرفنا وقد جمع الله أمر المسلمين بأبي بكر، فكانت لعمرُ الله فلتة كما قلتم، أعطى الله

خيرها ووقى شرها، فمن دعا إلى مثلها فهو الذي لا بيعة له ولا لمن بايعه.[1]

لقد كان واضحاً من الحوار الذي دار في سقيفة بني ساعدة احترام الأنصار للمهاجرين، والمهاجرين للأنصار وتبادل الآراء، وزهد أبي بكر وعمر في الخلافة،[2] وحرصهم جميعاً على استتباب النظام، فقوة الدولة والنظام مصلحة لجميع المسلمين، ورأسهم المهاجرين والأنصار الذين أسسوها مع الرسول ﷺ. كما كان واضحاً حرص أبي بكر على الإنصات للأنصار، وكذلك ثناؤه عليهم حين خطب فيهم، وقد اقترح أحد الأنصار أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير، فرفض ذلك عمر رضي الله عنه،[3] وقد وردت رواية أخرى أنه: (لما كان ذلك اليوم، خرج أبو بكر وعمر حتى أتيا الأنصار، فقال أبوبكر: «يا معشر الأنصار إنا لا ننكر حقكم ولا ينكر حقكم مؤمن، وإنا والله ما أصبنا خيراً إلا ما شاركتمونا فيه، ولكن لا ترضى العرب ولا تقر إلا على رجل من قريش، لأنهم أفصح الناس ألسنة، وأحسن الناس وجوهاً، وأوسط العرب داراً، وأكثر الناس سجية في العرب، فهلموا إلى عُمر فبايعوه»، قال: فقالوا لا، فقال

---

(١) ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ٤٢٢ ــ ٤٢٥؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٥٩.

(٢) انظر: رواية البخاري في **صحيحه**، **باب فضل أبي بكر الصديق**، حديث رقم: ٣٦٦٨.

(٣) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٣.

عمر: لِمَ؟ فقالوا نخاف الأثَرة، قال عمر: أمَّا ما عشت فلا، قال: فبايعوا أبا بكر، فقال أبو بكر لعمر: أنت أقوى مني، فقال عمر: أنت أفضل مني، فقالاها الثانية، فلما كانت الثالثة قال له عمر: إن قوتي لك مع فضلك، قال: فبايعوا أبا بكر، قال: وأتى الناس عند بيعة أبي بكر أبا عبيدة بن الجراح، فقال: أتأتونني وفيكم ثالث ثلاثة، قال ابن عون: فقلت لمحمد: من ثالث ثلاثة؟ قال: قول الله ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة من الآية ٤٠][1]

لقد كان من الطبيعي تبادل وجهات النظر والاختلاف فيها أحياناً والمناقشة والسماع لمختلف الآراء. وهذا بالطبع يؤكد على أن هذا الاجتماع تمّ دون أي ترتيب أو تنسيق مسبق، إنما انطلق الجميع من المصلحة العامة والبحث عن الحق بعفوية ونية صادقة.

ولذلك كان رأي عمر رضي الله عنه منطلقاً من ناحية شرعية حيث قال: (يا معشر الأنصار: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؟ قالوا: بلى، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر).[2]

---

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٢٨، ٤٢٩.

(٢) من رواية ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ٤٢٥؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج ٣/ ١٧٨.

وقد قام خطيب من الأنصار فقال: تعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار رسول الله ﷺ، ونحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره)،[1] وبادر أحد الأنصار وبايع قبل عمر بن الخطاب،[2] ثم تتابع الحضور في سقيفة بني ساعدة على بيعة أبي بكر في غير رغبة منه، وكل الحضور كانوا من الأنصار عدا أبا عبيدة ابن الجراح وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وكانت هذه البيعة الخاصة بيعة سقيفة بني ساعدة خاصة بمن حضرها، ولم يعتب على من غاب عنها، وكانت يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ.

ولا شك أن هؤلاء المبايعين لو كان عندهم أدنى خبر في وصية عن رسول الله ﷺ في الولاية من بعده لأبي بكر لما ناقش المجتمعون، ولبايعوا مباشرة دون مبادلة للآراء والأدلة، كما لو كان هناك وصية لعلي رضي الله عنه لما خفيت عليهم رضي الله عنهم، ولما تجاهلوها فهم خير من يفهم، هم تلاميذ محمد ﷺ تربيته وأصحابه حملوا السلاح والأرواح معه:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣] فكيف يتجاهلون

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٩٠.

(٢) انظر: ابن أبي شيبه، **المغازي**، ص ٤٢٥.

الوصية بهذه البساطة، كما أن علياً لم يذكر الوصية أو يطالب بشيء من ذلك، وهو أشجع الناس رضي الله عنه فحاشا لله أن يخاف في الله لومة لائم.

هذه البيعة المهمة لم تكن كافية، إذ كانت هناك حاجة إلى بيعة العامة، فكان من الغد، وهو يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر، البيعة العامة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد الصلاة، وهي عُرْفاً، المناسبة العامة للتنصيب، بعد أن تمّ اختياره وانتخابه من كثرة الأنصار وعدد محدد من المهاجرين من أهل الحَلِّ والعقد، اختاروه وبايعوه لما يرون من استخلاف رسول الله ﷺ له بالصلاة بالناس، قبل تقديمه لعامة الناس وقد قام عمر فتكلم في الناس.

روى ابن إسحاق عن أنس بن مالك قال: (لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر، فتكلم قبل أبي بكر: فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إني كنت قلت لكم بالأمس مقالةً ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهد إليّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبّر أمرنا، يقول: يكون آخرنا. وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحِبِ رسول الله ﷺ،

ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة، بعد بيعة السقيفة).[1]

كانت هذه المبايعة من عامة الناس كل من حضر، ولم يرد حدوث أي اعتراض على هذه البيعة، لا من علي ﷺ ولا من غيره من آل البيت ﷺ، فقد كانوا أكثر من غيرهم فرحاً ببيعة أبي بكر الصديق ﷺ، وكانوا مساعديه الأولين في شؤون الدولة عامة وفي مقاومة المرتدين خاصة.

ولما تمت بيعة أبي بكر الصديق ﷺ خطب خطبة الخلافة في الناس، وهي تعتبر كإعلانٍ رسمي عن توجهاته وسياسته المقبلة في الأمة، ومنهجه في تسيير أمورها، وكان مما قال ﷺ بعدما حمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله: (أما بعد أيها الناس، فإني قد ولِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يَدعُ قومٌ الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني

(١) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، ص ٤٢٩؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/٦٦؛ ابن سعد، **الطبقات**، ج ٣/١٨٢؛ الطبري، **تاريخه**، ج ٢/ ٢٣٥.

ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم). [1]

كانت بداية عهده ﷺ بالتواضع، وإعلان أنه لا يزكي نفسه، وأنه ليس خيرهم، وكان ﷺ خيرهم فيما نعلم، لكن خُلُقَ الإسلام التواضع والثناء على الله وليس مدح النفس.

كما أكدّ ﷺ قضية العدل والمساواة، وأن الجميع أمام نظر الشريعة والدولة ومؤسساتها سيأخذون حقوقهم بإنصاف تام، كما أكدّ عليهم مبدأ الجهاد والأخذ بالقوة، وأنه منهج الرسول ﷺ وأحد أسباب القوة وهيبة المسلمين.

كما حذر ﷺ من الفاحشة وضررها والمجاهرة بها، وأنها من أسباب الأمراض المتجددة في الأمة، وليته يرى حال البشرية اليوم وأمراضها الناتجة عن الفاحشة وعلى رأسها الأمراض الاجتماعية، ليضع سياسة مقاومة الفاحشة، والوقوف في وجه من يحب أن تشيع بين الأمة.

كما بيّن ﷺ أنه يسير وفق شرع الله وسنة رسوله وأن طاعته واجبة في حدود اتباعه هذا المنهج، وأن طاعته لا تجب في غير ذلك، بل إن طاعته لا تلزم إذا خالف ذلك.

إن هذه الخطبة التي تمثل خطة عمل وسياسة مستقبلية

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٦٦١؛ الطبري، **تاريخه**، ج ٢/ ٢٣٨؛ ابن كثير، **تاريخه**، ج ٥/ ٢٤٨.

تحتاج إلى مزيد دراسةٍ وتحليلٍ من الباحثين، لإبراز ما فيها من القيم والمعاني والسياسة والخطط الداخلية والخارجية للدولة والنظام الذي يسيره.[1]

أسباب اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

لاشك أن الصديق رضي الله عنه هو أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ وكان أكثر الناس التصاقاً برسول الله ﷺ، وهو صاحبه في الهجرة من بين سائر الأمة. وقد أشار الصحابة إلى ما ورد من ذلك في القرآن الكريم ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤]).[2]

وقد كان ﷺ يعتمد على الصديق أكثر من غيره في مرضه الذي مات فيه وقبله، ومع أن الرسول ﷺ لم يوصِ مباشرة لأبي بكر الصديق، إلا أن هناك بعض الأحداث التي اعتُبرت مؤشرات واضحة في تفضيل بيعة الصديق رضي الله عنه، وإن كانت لم تكن وصية، حيث إنه ﷺ ترك الأمر شورى بين المسلمين،

---

(١) من أفضل من حلل الخطبة التي قالها الصديق، د. محمد الصلابي، **سيرة أبي بكر الصديق**، من ص ١٦٨ــ ١٧٨.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٤٢٨ ــ ٤٢٩.

ليكون منهجاً مستمراً للأمة تأخذ به، ويكون التشاور مبدأً أخلاقياً سياسياً، ونظاماً تسير عليه إن أرادت الحق والسعادة. ومن تلك المؤشرات:

- أنه ﷺ أمر بالاقتداء به وأشار إلى إنهما من بعده أبي بكر وعمر؛ عن حذيفة بن اليمان قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: إني ما أدري قَدْر بقائي فيكم، فاقتدوا بالذين من بعدي، وأشار إلى أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود بشيء فصدقوه). (١)
- أن الرسول ﷺ أمر أن يصلي أبو بكر بالناس حين مرضه الذي مات فيه، بعد عجزه عن الخروج للصلاة بالناس. روى مسلم في صحيحه عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (لما دخل رسول الله ﷺ بيتي قال: مُرُوا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس، قالت: فقلت: يا رسول الله ﷺ إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر.. فراجعته مرتين أو ثلاثاً فقال: لِيُصلِّ بالناس أبو بكر فإنكنّ صواحِبُ يوسف). (٢)

وكانت مراجعة عائشة لرسول الله ﷺ خشيةً على أبيها،

---

(١) انظر: ابن أبي شيبة، **المغازي**، رواية رقم: ٥١٦، ص ٤٢٧ـ ٤٢٨.

(٢) رواه مسلم في **صحيحه**، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، ج٢/ ٢٢؛ انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٥٢؛ رواه الإمام أحمد في **مسنده**، ج٦/ ٣٥.

وقد عللت ذلك في رواية ابن هشام قالت: (يا نبيّ الله إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، قال مُرُوهُ فليصلّ بالناس، قالت: فعدتُ بمثل قولي، فقال إنكنّ صواحِبُ يوسف، فمروه فليصل بالناس، قالت: فوالله ما أقول ذلك إلا أني كنت أحبّ أن يصرف ذلك عن أبي بكر، وعرفت الناس لا يحبون رجلاً قام مقامه أبداً، وأن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان، فكنت أحب أن يُصرَف ذلك عن أبي بكر).[1]

- كان واضحاً ثناء الرسول ﷺ على أبي بكر في آخر خطبة خطبها الرسول ﷺ حيث أمر بسدّ الأبواب التي تفتح على مسجده عدا باب أبي بكر رضي الله عنه.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدْري رضي الله عنه قال: (خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله، قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خُيّر فكان رسول الله ﷺ هو المخيّر، وكان أبو بكر أعْلَمُنا فقال رسول الله ﷺ: إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر،[2] ولكن

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٥٢؛ **صحيح مسلم**، ج٢/ ٢٢.

(٢) انظر: **صحيح البخاري**، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً؛ و**صحيح مسلم**، ج ٧/ ١١٠.

أخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باباً إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر). [1]

- كما كان من المبررات الواضحة، كما نُقل ابن عباس رضي الله عنه قول عمر بن الخطاب: (يا معشر المسلمين إن أَوْلى الناس بأمر نبي الله ثاني اثنين إذ هما في الغار أبو بكر السبّاق المُسّن). [2]

- وكان الناس في حياة الرسول ﷺ يسألون ويناقشون عن أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ فيذكرون الصديق رضي الله عنه أولهم؛ عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: (كنا نُخيَّر بين الناس في زمن النبي ﷺ فنتخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان). [3]

وقد ورد عن عائشة (رضي الله عنها) قولها: لما ثقل رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن أبي بكر: ائتني بكَتِفٍ ولوح حتى أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه فلما ذهب عبد الرحمن ليقوم قال: أبى الله والمؤمنون أن يُختَلفَ عليك، يا أبا بكر. [4]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر، ج ٤/ ١٩٠.

(٢) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٩٣؛ وقد نقل ابن أبي شيبة القول عن أبي عبيدة، في **المغازي**، ص ٤٢٩.

(٣) رواه **البخاري في صحيحه** حديث رقم: ٣٦٥٥.

(٤) رواه **الإمام أحمد في مسنده**، ج ٦/ ٤٧؛ ورواه **مسلم في صحيحه**، ج ٧/ ١١٠.

- ومن المعروف أن الصديق رضي الله عنه كان كارهاً للخلافة فقد روى رافع الطائي رفيق أبي بكر الصديق في غزوة ذات السلاسل قال: وسألته عما قبل بيعتهم، فقال: وهو يحدثه عما تقاولت به الأنصار وما كلّم به عمر بن الخطاب الأنصار وما ذكّرهم به من إمامتي إياهم بأمر رسول الله ﷺ في مرضه، فبايعوني لذلك وقبلتها منهم وتخوفت أن تكون فتنة بعدها رِدّة). [1]

- كما كانت هناك بعض الرؤى فسّرها الرسول ﷺ بولاية أبي بكر الصديق رضي الله عنه من بعده. روى البخاري أن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: «إن رسول الله ﷺ قال: بينما أنا على بئرٍ أنزع منها إذ جاء أبو بكر وعمر فأخذ أبو بكر الدلو فنزع ذنوباً [دلْوٌ لها ذَنَب] أو ذنوبين، وفي نزعه ضعفٌ والله يغفر له، ثم أخذ عمر بن الخطاب من أبي بكر، فاستحالت في يده غَرْباً [أي سَهْماً لا يُعرف راميه] فلم أر عبقرياً من الناس يفري فَرْيه حتى ضُرب الناس بعطن، ــ قال وهب: العطن مبرك الإبل ــ، يقول: حتى رويت الإبل فأناخت). [2] وقد ورد: «أن امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه. قالت: أرأيتَ إن جئتُ ولم أجدك؟ كأنها تقول الموت. قال ﷺ: (إن لم تجديني فأتي أبا بكر). [3]

---

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٥.

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٣٦٨٢.

(٣) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٣٦٥٩.

وعلينا أن نذكر أن علي بن أبي طالب ﷺ كان من أكثر الناس ثناءً على أبي بكر وعلى علمه ﷺ، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﷺ قال: (إني لواقف في قوم فدعوا الله لعمر بن الخطاب وقد وضع على سريره، إذا رجل من خلفي وضع مرفقه على منكبي، يقول: رحمك الله إن كنت أرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك، لأني كثيراً مما كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: كنت وأبو بكر وعمر، وفعلت وأبو بكر وعمر، وانطلقت وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما، فالتفتُّ فإذا هو علي بن أبي طالب). (١)

- وقد أثنى علي بن أبي طالب ﷺ على أبي بكر الصديق وخلافته، وكذلك خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما). وشهادة علي بن أبي طالب ﷺ بنفسه رد مباشر على من حاول القدح في الصِّديق أو الزعم بأن لعلي وصية تجاهلها أبو بكر ﷺ. عن عبد بن خير قال: (سمعت علي ابن أبي طالب ﷺ يقول: قُبِضَ رسول الله ﷺ على خير ما قُبِضَ عليه نبي من الأنبياء، قال: ثم أستُخلف أبو بكر فعمل لعمل رسول الله ﷺ وبسنته، ثم قُبِضَ أبو بكر على خير ما قُبِضَ عليه أحد، وكان خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ثم أُستُخلف عمر، فعمل بعملهما وسنتهما، ثم قُبِضَ على خير

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٣٧٢١.

ما قُبِضَ عليه أحد، وكان خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ وبعد أبي بكر).[1]

كما ورد عن محمد بن الحنفية وهو ابن لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (قلت لأبي أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال ثم عمر، وخشيت أن يقول عثمان قلت: ثم أنت، قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين).[2]

- ولا شك أن الروايات في فضائل أبي بكر من أقوال علي رضي الله عنه تؤيد الروايات التي ذكرت بيعة علي رضي الله عنه والعباس وغيرهم من آل البيت لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في البيعة العامة بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة في مسجده صباح الثلاثاء التالي لوفاته[3]. ومن الثابت أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه وخرج معه إلى ذي القصة في حرب المرتدين.[4]

لقد كان واضحاً ترك الرسول ﷺ الأمة دون تحديد أمير، وأنه ﷺ وضع قواعد يتم اتباعها في الشورى والاختيار من أهل الحَلّ والعقد.[5] وقد علمت الأمة هذا الأمر وأصبح قاعدة

---

(١) ابن أبي شيبة، **المغازي**، رواية رقم: ٥٢٠، ص ٤٣٠.
(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، حديث رقم: ٣٧١٥.
(٣) ابن كثير؛ **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٨.
(٤) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٩٥.
(٥) تحدثت كتب السياسة الشرعية والأحكام السلطانية بتفصيلات كثيرة =

اتبعها عمر بن الخطاب ﷺ، حيث ثبت في الصحيحين عن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب لما طُعِن قيل له: ألا تستخلف يا أمير المؤمنين؟ فقال إن أستخلِفْ فقد استخلفَ من هو خير مني يعني ــ أبا بكر ــ وإن أتركْ فقد ترك من هو خير مني، يعني رسول الله ﷺ قال ابن عمر: فعرفت حين ذكر رسول الله ﷺ أنه غير مستخلِف). (١)

كما ورد عن علي ﷺ أنه قال، بعد أن طُلب منه أن يستخلف: (ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يْرِدِ الله بالناس خيراً فيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم). (٢)

ويؤكد ابن كثير أن علي بن أبي طالب والزبير بن العوام (رضي الله عنهما) قد بايعا الصديق في اليوم الأول مع المسلمين ولم يتخلفا عن بقية المسلمين، ويستدل بذلك على شُهود علي ﷺ الصلاةَ مع أبي بكر الصديق منذ وفاة الرسول ﷺ بل وقبل

= عن قضايا البيعة، ومنها: ابن تيمية في السياسة الشرعية، وابن القيم في الطرق الحكيمة، والماوردي في الأحكام السلطانية، وأبي يعلي الفراء في الأحكام السلطانية، وغيرهم.

(١) رواه **البخاري** و**مسلم** في **صحيحه**، كتاب الحكام، باب الاستخلاف، ج٨/ ١٢٦، انظر: عمر بن شبة، **تاريخ المدينة**، ج ٣/ ٨٨٩، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣/ ٣٣٥.

(٢) انظر: تخريجه عند ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٤٠١؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٤/ ٦٥٣.

ذلك لم ينقطع عن الصلاة خلف الصديق على الإطلاق، وخرج معه في أول غزوة غزاها بعد وفاة الرسول ﷺ إلى ذي القصة لقتال أهل الردة.[1] وصدق في أبي بكر وعلي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: ٥٤]، فكانوا يحبون الله ويجاهدون في سبيله.

وقد جدد علي بن أبي طالب البيعة لأبي بكر الصديق بعد ستة أشهر مرة أخرى، وذلك بعد وفاة فاطمة (رضي الله عنها)، وذلك للتأكيد على رضاه وحسن العلاقة بينهما (رضي الله عنهما) ونفي ما يُشاع من خلاف ذلك.

(١) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ج ٤/ ٣٩٨.

الخاتمة

منَّ الله على المؤمنين ببعثته، وجعله رحمةً للعالمين، تعبدُ الله الناسُ باتباعه، عاش ﷺ أحداث عصره بمشاركة من المؤمنين من أهل البيت والأصحاب الذين شاركوه الأحداث وتأثروا به وأثروا في الأمة، عاش ﷺ حياته، ورفع الله ذكره كما لم يُذكر أيّ أحد من البشر إلى يوم القيامة، يمر الملوك ويُنسون عبر السنين، وتقوم الدول وتنتهي، وتمر الدهور والعصور ويُنسى من مرّ بها، لكنه ﷺ باقٍ في القلوب، قدوة في السلوك، عُرف من حياته ودقائقها، بكل وضوح وأمانة، ما لم يُعرف عن غيره، قدّمه المسلمون ﷺ على أنفسهم، محبته واجبة على كل مسلم، سيرته واضحة ومدونة، فيها الصدق والشمول، احترمه معادوه من غير المسلمين، ورأى الجميع أنه ﷺ النموذج البشري الأرحم والأمثلَ، والأتقى والأعدل والأحكم، فاستمروا في الكتابة عنه وعن حياته وسيرته ﷺ وسيستمرون إلى يوم القيامة، ولن يجدوا له مثيلاً من البشر.

سيرة رسول الله ﷺ مباركة، حياةُ نبيّ ومسيرة دولة ومجتمع وأمة، أحباب وأصحاب سلام وجهاد، عزة ورفعة في كل شيء رحمة وإحسان لكل حيّ وإنسان، في دراستنا استعراض لكل ما يمسّ شخص رسول ﷺ وما يلتصق به؛ معرفة للوحي ومناسباته والهَدْي وأوقاته، فهو قدوة لكل من يريد الله واليومَ الآخر وذكرَ الله كثيراً، نوراً وهدى وبصيرة وقدوة حسنة. نسأل الله أن يحشرنا في زمرته، ويرزقنا شفاعته ﷺ، ويوردنا حوضه ولا يفتنا بعده ﷺ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت، ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م).

- الكامل في التاريخ ــ بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ.
- أُسد الغابة في معرفة الصحابة. ــ بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

ابن آدم، يحي القرشي (ت، ٣٠٣هـ).

- الخراج. ــ بيروت: دار المعرفة، (د. ت).

الأزدي، محمد بن عبد الله (ت، ٢٣١هـ).

- تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر. ــ القاهرة: مؤسسة سجل العربي، ١٩٨٠م.

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت، ٢٥٠هـ).

- أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس. ــ بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٩هـ.

ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت، ١٥١هـ).

- سيرة ابن إسحاق، المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي،

تحقيق محمد حميد الله. ـ ط٢. ـ قونية تركيا: الوقف للخدمات الخيرية، ١٤٠١هـ.

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد عبد الله (ت، ٤٣٠هـ).

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. ـ ط٤. ـ بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة.

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا. ـ بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٦٥م.

الألوسي، محمود شكري.

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. ـ شرح وتصحيح محمد بهجة الأثري. ـ ط٢. ـ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية (د. ت).

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد.

- المصنف. ـ تصحيح عبد الخالق الأفغاني. ـ كراتشي: دار الفرقان، ١٤٠٦هـ.
- المغازي. ـ تحقيق عبد العزيز بن إبراهيم العُمري. ـ ط ١. ـ الرياض: دار اشبيليا، ١٤٢١هـ.

البخاري، الحافظ أبي عبد الله إسماعيل بن إبراهيم (ت، ٢٥٦هـ).

- صحيح البخاري، (الجامع الصحيح). ـ الرياض: دار اشبيليا. ـ بيروت: دار الفكر. ـ ط١. ـ ١٤١١هـ. (بالصفحات).

برنابا

- إنجيل برنابا، ترجمة خليل سعادة، تحقيق أحمد حجازي السقا. ـ ط١. ـ أربد الأردن: دار الأمل، ٢٠٠٥هـ.

البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت، ٤٨٧هـ).

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا. ــ بيروت: عالم الكتب، (د. ت).

البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر بن داود البغدادي(ت، ٢٧٩هـ).

- فتوح البلدان. ــ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ.
- أنساب الأشراف، القسم الثالث، تحقيق عبد العزيز الدوري، القسم الرابع، تحقيق إحسان عباس. ــ بيروت: ١٣٩٨هـ، ١٤٠٠هـ.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت، ٤٥٨ هـ).

- دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي. ــ ط١. ــ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سور. (ت، ٢٧٩هـ).

- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمود شاكر. ــ بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- مختصر الشمائل المحمدية، اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني. ــ عمّان الأردن: المكتبة الإسلامية. ــ الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢١هـ.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت، ٨٧٤هـ).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ــ القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د. ت).

التميمي, سيف بن عمر الأسدي (ت، ١٨٠هـ).

- الردة والفتوح، تحقيق قاسم السامرائي. ــ الرياض: دار أمية، ١٤١٨هـ.

ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد السلام (ت، ٧٢٨ هـ).

- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. ــ ط٤. ــ بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد. ــ ط٢. ــ القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٣٩٩هـ.

ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي.

- طبقات الأطباء و الحكماء. ــ تحقيق فؤاد سيد. ــ القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٥٥م.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت، ٥٩٧هـ).

- رسائل ورسُل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأشراف، تحقيق محمدعبد الرحيم. ــ ط١. ــ دمشق: دار سعد الدين، ١٤٢٥هـ.
- الوفاء بأحوال المصطفى. ــ بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

الحاكم أبي عبد الله النيسابوري.

- المستدرك على الصحيحين بذيله التلخيص للذهبي. ــ القاهرة: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٣٩٠هـ.

ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت، ٢٤٥هـ).

- كتاب المحبّر، تحقيق ايلزه ليختن شتيتر. ــ بيروت: دار الآفاق، (د. ت).

ابن حبيب، محمد البغدادي (ت، ٢٤٥هـ).

- كتاب المنمق في أخبار قريش. ــ تحقيق خورشيد أحمد عالم. ــ حيدر آباد: الهند.

ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني(ت، ٨٥٢هـ).

- الإصابة في تمييز الصحابة. ــ القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ.
- فتح الباري «شرح صحيح البخاري». ــ مراجعة عبد الرؤوف سعد وآخرين. ــ القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ.

ابن أبي حديدة، محمد بن علي بن أحمد الأنصاري (ت، ٧٨٣هـ).

- المصباح المُضي في كُتاب النبي الأمي ورُسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي. ــ تعليق أحمد فريد المزيدي. ــ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ ــ ٤٥٦هـ).

- جمهرة أنساب العرب، راجعه لجنة من العلماء. ــ ط١. ــ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

الحلبي، علي بن برهان الدين (ت، ٩٧٥هـ).

- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، (إنسان العيون). ــ بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله.

- معجم البلدان. ــ بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت).

الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت، ٩٠٠هـ).

- الروض المعطار في خبر الأقطار. ــ ط٢. ــ بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.

ابن حنبل، الإمام أبي عبد الله أحمد (ت، ٢٤١هـ).

- مسند الإمام أحمد. ــ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ.
- فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله بن محمد عباس. ــ ط١. ــ بيروت: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى مكة. ـ مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ.

الخزاعي، أبو الحسن علي بن محمد التلمساني.

■ تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمود أبو سلامة. ــ ط١. ــ القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٠١هـ.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت، ٨٠٨هـ).

■ المقدمة. ــ بيروت: دار العلم، ١٩٧٨م.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت: ٦٨١هـ).

■ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس. ــ بيروت: دار صادر، (د. ت).

خليفة بن خياط، ابن أبي هُبيرة الليثي العصفري (١٦٠ ــ ٢٤٠هـ).

■ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العُمري. ــ ط٢. ــ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ.

الدارمي، أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام (ت، ٢٥٥).

■ سنن الدارمي، عناية محمد أحمد دهمان، (د. م) و (د. ت).

الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٨٤٧هـ).

■ سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط٢ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.

■ السيرة النبوية، تحقيق، حسام الدين القدسي. ــ بيروت: دار ومكتبة الهلال.

ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن الحنبلي (ت، ٧٩٥هـ).

■ الاستخراج في أحكام الخراج. ــ بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٩هـ.

الزبيدي، أبو الفضل محمد مرتضى.

■ تاج العروس من جواهر القاموس. ـ ط١. ـ القاهرة: المكتبة الخيرية، ١٣٠٦هـ.

الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبدالله بن المصعب (١٥٦ ـ ٢٣٦هـ).

■ نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال. ـ ط٣. ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م.

الزرقاني، محمد بن عبد الباقي (ت، ١١٢٢هـ).

■ شرح المواهب اللدنية، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي ـ بيروت: دار الكتب، ١٤١٧هـ.

ابن زنجويه، حميد بن مخلد بن قتيبة الأذري (ت، ٢٥١هـ).

■ الأموال، تحقيق شاكر ديب فياض. ـ ط١. ـ الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ١٤٠٦هـ.

السخاوي محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت، ٩٠٢هـ).

■ القول التام في فضل الرمي بالسهام. ـ المدينة المنورة: مخطوط مصور مكروفيلم بالجامعة الإسلامية، رقم: ١٧٤١.

ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (ت، ٢٣٠هـ).

■ السيرة النبوية من الطبقات الكبرى. ـ ط١. ـ القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٩هـ.

■ الطبقات الكبرى. ـ بيروت: دار صادر، (د. ت).

ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت، ٢٢٤هـ).

■ الأموال، تحقيق محمد خليل هراس. ـ ط٢. ـ القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٥هـ.

السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت، ٥٦٢هـ).

■ الأنساب، تحقيق عبد الرحمن يحي المعلمي، ط١ـ بيروت: نشر محمد أمين دمج ١٤٠٠هـ.

السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (٩١١هـ).

■ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. ــ ط٣ـ بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ.

السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي (ت، ٥٨١هـ).

■ الروض الأنف في تفسير السيرة لابن هشام، ضبط طه عبد الرؤوف سعد. ــ بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ.

ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى (ت، ٧٣٤هـ).

■ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي. ــ ط ٢. ــ دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ.

ابن سيد الناس، أبو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله (ت، ٦٧١هـ).

■ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير. ــ بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، أبو الفضل (ت، ٩١١هـ).

■ الخصائص الكبرى(كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب). ــ بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

■ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم. ــ ط١. ــ القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية، ١٣٨٧هـ.

■ تاريخ الخلفاء، تحقيق محي الدين عبد الحميد. ــ ط٣. ــ القاهرة: مكتبة المدني، ١٣٨٣هـ.

ابن شبة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت، ٢٦٤هـ).

- تاريخ المدينة، تحقيق فهيم شلتوت. ـ المدينة المنورة: نشرة السيد حبيب محمود أحمد، ١٣٩٣هـ.

الصالحي الشامي، محمد بن يوسف (ت، ٩٤٢هـ).

- سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد، تحقيق مصطفى عبد الواحد وآخرون. ـ القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٩٢هـ ـ ١٣٩٩هـ.

الطبراني. أبو القاسم سليمان بن أحمد.

- المعجم الأوسط، تحقيق طارق عوض الله ومحمد الحسني. ـ ط١. ـ الرياض: دار الحرمين، ١٤١٥هـ.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ).

- تاريخ الأمم والملوك. ـ بيروت: دار الفكر، (د. ت).

العباسي، أحمد بن عبد الحميد.

- عمدة الأخبار في مدينة المختار، ضبط محمد الطيب الأنصاري وحمد الجاسر. ـ ط٤. ـ المدينة المنورة: المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، (د. ت).

ابن عبد الحكم، القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت، ٢٥٧هـ).

- فتوح مصر وأخبارها. ـ لايدن: ١٩٢٠م.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (٤٩٩ ـ ٥٧١هـ).

- تاريخ دمشق، صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق مكملة من القاهرة واسطنبول. ـ المدينة المنورة: صورة أولى، مكتبة الدار، ١٤٠٧هـ.

الفاكهي، أبو عبد الله أحمد بن إسحاق (٢٧٩هـ تقريبًا).

- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن

دهيش. ـ ط١. ـ مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ.

ابن فهد، النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد فهد (٨١٢ ـ ٨٨٥هـ).

- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، ط١ـ مكة المكرمة: جامعة أم القرى ١٤٠٣هـ.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت، ٨١٦هـ).

- سفر السعادة، تحقيق أحمد السايح وعمر حمزة. ـ ط١. ـ القاهرة: مركز الكتاب، ١٤١٧هـ.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت، ٢٧٦هـ).

- المعارف، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي. ـ ط٢. ـ بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٠هـ.

القرطبي، عبد الله بن محمد بن فرج المالكي.

- أقضية رسول الله ﷺ. ـ الدوحة: مطابع قطر الوطنية، (د. ت).

القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح.

القسطلاني، أحمد بن محمد (ت، ٩٢٣ هـ).

- المواهب اللدنية، تحقيق مأمون محي الدين الجنان. ـ ط١. ـ بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت، ٧٥١ هـ).

- زاد المعاد في هدي خير العباد. ـ بيروت: المكتبة العلمية، (د. ت).
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ـ بيروت: دار الفكر العربي، (د. ت).
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق محمد حامد الفقي. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

■ الطب النبوي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق وآخرون. ـ الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، (د. ت).

ابن كثير، إسماعيل بن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت، ٧٧٤هـ).

■ حجة الوداع، تحقيق، خالد أبو صالح. ـ ط١. ـ الرياض: دار الوطن ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

■ السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد. ـ بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٦هـ.

■ تفسير القرآن العظيم. ـ ط٢ـ، الرياض: دار كنوز اشبيليا، ١٤٣٠هـ.

■ البداية والنهاية. ـ ط٣. ـ بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٨م.

ابن ماجه، الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ ـ ٢٧٥هـ).

■ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. ـ القاهرة: ١٣٧٣هـ.

مالك بن أنس، الامام (ت، ١٧٩هـ).

■ الموطأ، مراجعة فاروق سعد. ـ ط٨. ـ بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠١هـ.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت، ٤٥٠ هـ).

■ الأحكام السلطانية. ـ بيروت: دار الفكر، (بدون تاريخ).

ابن المثنى، أبو عبيدة معمر (ت، ٢٠٩هـ).

■ أزواج النبي ﷺ، تحقيق يوسف علي بديوي. ـ بيروت: مكتبة التربية، ١٤١٠هـ.

مسلم، الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت، ٢٦١هـ).

■ الجامع الصحيح. ــ بيروت: دار الآفاق الجديدة، (د. ت).
■ مختصر منهاج القاصدين. ــ بيروت: ، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥هـ

المقريزي، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ).

■ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (القول الإبريزي) ـ القاهرة: مطبعة التوفيق، ١٨٩٨م.

الموسوي، محمد بن عبد الله الحسيني الشهير بـ (كبريت).

■ رحلة الشتاء والصيف. ــ تحقيق محمد سعيد طنطاوي. ــ ط٢ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٨٥هـ.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي (٢١٤ ــ ٣٠٣هـ).

■ كتاب الوفاة، وفاة النبي ﷺ، تحقيق دار الفتح. ــ ط١. ــ الشارقة: دار الفتح، ١٤١٥هـ.
■ سنن النسائي. ــ بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. ــ بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (ت، ٦٧٦ هـ).

■ شرح صحيح مسلم. ــ إعداد مجموعة من الأساتذة بإشراف علي عبد الحميد أبو الخير. ــ ط٣. ـ دمشق: دار الخير، ١٤١٦هـ.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ ــ ٧٣٣هـ).

■ نهاية الأرب في فنون الأدب. ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون. ــ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٥هـ.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري (ت، ٢١٨هـ).

■ السيرة النبوية. ــ حققها مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبدالحفيظ شلبي. ــ القاهرة: دار الكنوز الأدبية، (د. ت).

الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد (ت، ٤١٥ هـ).

- تثبيت دلائل النبوة. ـ شبرا القاهرة: دار المصطفى، ٢٠٠٦م.

الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.

الواقدي، محمد بن عمر (ت، ٢٠٧هـ).

- المغازي. ـ تحقيق مارسدن جونس. ـ بيروت: عالم الكتب، (د. ت).

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت، ٢٨٢هـ).

- تاريخ اليعقوبي. ـ بيروت: دار صادر، ١٣٧٩هـ.

أبو يعلى الفراء، محمد بن الحسين الحنبلي (ت، ٤٥٨هـ).

- الأحكام السلطانية. ـ تحقيق محمد حامد الفقي. ـ ط٣. ـ بيروت: دار الفكر، ١٣٩٤هـ.

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت، ١٨٢هـ).

- كتاب الخراج. ـ تحقيق قصي الدين الخطيب. ـ ط٥. ـ القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٩٦هـ.

ثانياً: المراجع:

إبراهيم، محمد إبراهيم محمد.

- الجانب الإعلامي في خطب الرسول ﷺ. ـ ط١. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ.

أحمد، إبراهيم خليل.

- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن. ـ الكويت: دار المنار، ١٤٠٩هـ.

الأعظمي، محمد مصطفى.

- كُتَّاب النبي. ـ ط١. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ.

الآغا، مسعود يحي.

- الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي. ـ ط ٢. ـ السعودية الرياض: الجمعية التاريخية، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

الأفغاني، سعيد.

- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام. ـ ط٣. ـ بيروت: دار الفكر، ١٩٧٤م.
- عائشة والسياسة ط٢ـ دمشق: المكتبة الهاشمية، ١٩٥٧م.

الألوسي، محمود شكري.

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. ـ مراجعة محمد بهجة الأثري. ـ ط٢. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

أنيس، د. إبراهيم، وآخرون.

- المعجم الوسيط. ـ إعداد مجمع اللغة العربية القاهرة. ـ اسطنبول: المكتبة الإسلامية، (د. ت).

باشميل، محمد أحمد.

- العرب في الشام قبل الإسلام. ـ ط١. ـ بيروت: دار الفكر، ١٣٩٣هـ.

بامدحج، محمد بن عيظة بن سعيد.

- غزوة أحد دارسة دعوية. ـ ط١. ـ الرياض: دار اشبيليا، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩م.

باوزير، أحمد محمد العليمي.

- مرويات غزوة بدر. ـ ط١. ـ مكتبة طيبة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

أبو بكر، علي الشيخ أحمد.

- معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة. ـ ط١. ـ الرياض: مكتبة الثرية، ١٤١٣هـ.

بل، آيدرس هـ.

- مصر من الاسكندر حتى الفتح العربي، دراسة. ـ ترجمة عبد اللطيف أحمد علي. ـ القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٨م.

البلادي، عاتق بن غيث.

- على طريق الهجرة. ـ رحلات في قلب الحجاز. ـ مكة: دار مكة، ١٣٩٨م.
- معالم مكة التاريخية والأثرية. ـ ط٢. ـ مكة: دار مكة.
- معجم قبائل الحجاز. ـ مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ.
- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية. ـ ط١. ـ دار مكة، ١٤٠٢هـ.
- أودية مكة المكرمة. ـ ط١. ـ دار مكة: ١٤٠٥هـ.

بينز، نورمان.

- الإمبراطورية البيزنطية. ـ تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد. ـ القاهرة: ١٩٥٠م.

الترمانيني، عبد السلام.

- أزمنة التاريخ الإسلامي. ـ الجزء الأول، المجلد الأول (أهم أحداث التاريخ الإسلامي). ـ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون ١٤٠٢هـ.

الثعالبي، عبد العزيز.

- محاضرات في تاريخ الأديان. ـ بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧م.

■ معجزة محمد رسول الله. ــ مراجعة محمد اليعلاوي. ــ بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٩م.

جاد، أحمد.

■ وفاة الحبيب وما كان في الأيام الأخيرة من حياة الرسول ﷺ. ــ القاهرة: دار الغد، ٢٠٠٣م.

الجزائري، أبو بكر.

■ هذا الحبيب يا محب. ــ المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ٢٠٠١م

■ منهاج المسلم. ــ الرياض: دار السلام، ١٤٢٣هـ.

الجمل، أحمد عبد الغني النجولي.

■ هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة. ــ المنصورة: دار الوفاء، ١٤٠٩هـ.

الجميل، محمد بن فارس.

■ النبي ﷺ ويهود المدينة. ــ ط١. ــ الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٢م.

■ رحلة الرسول إلى الشام ومقابلة بحيرا الراهب. ــ بحث غير منشور (في حينه).

الحداد، أحمد عبد العزيز بن قاسم.

■ أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة. ــ ط٢. ــ بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

الحربي، محمد بن أحمد بن ناصر.

■ إقرأ باسم ربك. ــ ط١. ــ جازان: نادي جازان الأدبي، ١٤٢٣هـ.

حركات، إبراهيم.

■ السياسة والمجتمع في العصر النبوي. ــ بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٠م.

حسيني، مولوي س. أ. ق.

- الإدارة العربية. ـ ترجمة إبراهيم العدوي، مراجعة عبد العزيز عبدالخالق. ـ القاهرة: مكتبة القاهرة، (د. ت).

الحليسي، نواف بن صالح.

- رحلة الشتاء والصيف. ـ ط١. ـ١٤١٤هـ.

حماده، فاروق.

- مصادر السيرة النبوية وتقويمها. ـ ط١. ـ بيروت: دار القلم، ١٤٢٥هـ.
- الوصية النبوية للأمة الإسلامية في حجة الوداع. ـ بيروت: دار القلم، ١٤٢٣هـ.
- خطبة الفتح الأعظم "فتح مكة المكرمة". ـ مكة: دار الثقافة، ١٩٨٣م.
- العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ط١ـ دمشق: دار الفكر ١٤٢٦هـ.
- مراجع مختارة عن حياة الرسول ﷺ. الرياض: دار العلوم، ١٩٨٢م.

الحمد، محمد بن إبراهيم.

- الحوار في السيرة النبوية ـ الكويت: وزارة الأوقاف ١٤٢٩هـ.

حميد الله، محمد.

- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. ـ ط٤. ـ بيروت: دار النفائس، ١٤٠٣هـ.

الخالدي، عبد الله بن صالح وعبد اللطيف بن محمد الحسن.

- محبة النبي ﷺ وتعظيمه. ـ ط١. ـ الرياض: دار البيان، ١٤٢٦هـ.

خطاب، محمود شيت.

- المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم. ـ ط١. ـ بيروت: دار الفتح، ١٣٨٦م.
- الرسول القائد. ـ ط ٢. ـ القاهرة: دار مكتبة الحياة، مكتبة النهضة، ١٩٦٠م.

الخطراوي، محمد العيد.

- المدينة في العصر الجاهلي. ـ الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية. ـ جدة: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٣هـ.

أبو خليل، شوقي.

- غزوة الخندق. ـ دمشق: دار الفكر، ١٩٨٢م.

خليل، عماد الدين.

- دراسة في السيرة. ـ ط١٥. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٢هـ.

الخميس، عثمان محمد.

- كنوز السيرة. ـ ط ٢. ـ الكويت: غراس للنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ.

ابن خميس، عبد الله.

- معجم اليمامة. ـ ط٢. ـ الرياض: دار اليمامة، ١٤٠٠هـ.

الخولي، محمد عبد العزيز.

- الأدب النبوي. ـ ط١. ـ بيروت: دار القلم، ١٤٠٦هـ.

الخياري، أحمد ياسين الخياري.

- تاريخ ومعالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، تحقيق عبيد الله كردي، ط ١ـ المدينة المنورة: النادي الأدبي ١٤١٠هـ.

خياط، عبد الله.

- حِكم وأَحكام من السيرة النبوية ـ الرياض: دار الرفاعي ١٩٨١م.

أبو داهش، د. عبد الله بن محمد.

- شعراء حول الرسول ﷺ، ط١ـ الدمام: نادي المنطقة الشرقية الأدبي١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

داود، عبد الأحد.

- محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى. ــ ترجمة حمد فهد الزين. ــ ط١. ـ الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ.

الدرع، محمد خير.

- نبي الإسلام شخصيته حياته رسالته. ــ ط١. ــ دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢م.

دروزة، محمد عزة.

- عصر النبي وبيئته قبل البعثة. ــ ط٢. ــ بيروت: دار اليقظة، ١٣٨٤هـ.

درمنغم، إميل.

- حياة محمد. ــ ترجمة عادل زعيتر. ــ ط٢. ـ القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩م.

الدملوجي، فاروق.

- تاريخ الأديان الألوهية وتاريخ الآلهة. ــ بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

ديورانت، وِلْ.

- قصة الحضارة. ــ ج٢ م١ (الشرق الأدنى القديم). ــ ترجمة أحمد بدران. ـ ط٢. ــ القاهرة: ١٩٦١م.

رزق الله، أحمد مهدي.

- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. ــ ط١. ــ الرياض: مركز الملك فيصل، ١٤١٢هـ.
- صفوة السيرة النبوية في سيرة خير البرية. ــ ط١. ــ دار إمام الدعوة، ١٤٢٧هـ.

رستم، أسد.

- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. ـ ط١. ـ بيروت: دار المكشوف، ١٩٥٦م.

الرشيد، عبد الله محمد.

- القيادة العسكرية في عهد الرسول،الرياض: دار المعارف، ١٩٨٧م.

الرشيد، ناصر بن سعد.

- سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام تاريخه ونشأته وموقعه، ط١ـ القاهرة: دار الأنصار ١٣٩٧هـ.

رضا، محمد رشيد.

- الوحي المحمدي. ـ القاهرة: دار المنار، ١٣٦٧هـ.

الرفاعي، صالح بن حامد سعيد.

- الأحاديث الواردة في فضائل المدينة. ـ ط ١. ـ المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ـ مجمع المصحف، ١٤١٣هـ.

رنسيمان، ستيفن.

- الحضارة البيزنطية. ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. ـ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م.

زيدان، جورجي.

- العرب قبل الإسلام. ـ مراجعة وتعليق حسين مؤنس. ـ القاهرة: دار الهلال (د. ت).

سالم، عبد الله نجيب.

- ابتسامات نبوية. ـ ط١. ـ الكويت: دار إقرأ، ١٤٢٧هـ.

سعادة، خليل.

- إنجيل برنابا ترجمة من الإنجليزية. ـ تعليق أحمد حجازي السقا. ـ الأردن: دار الأمل، ٢٠٠٥م.

السقا، أحمد حجازي.

- نبوة محمد في الكتاب المقدس. ـ ط١ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٩٨هـ.

سلطان، عبد المنعم عبد الحميد.

- تاريخ عُمان والخليج في صدر الإسلام. ـ الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٧م.

السلومي، عبد العزيز.

- ديوان الجند. ـ ط١. ـ مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٦هـ.

السندي، عبد القادر بن حبيب الله.

- الذهب المسبوك في تحقيق راويات غزوة تبوك. ـ الكويت: مكتبة المعلا، ١٤٠٦هـ.

السويكت، سليمان بن عبد الله.

- محنة المسلمين في العهد المكي. ـ الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٢هـ.

شاكر، محمود.

- السيرة النبوية. ـ ط٣. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.
- التاريخ الإسلامي (قبل البعثة). ـ ط٣. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

الشامي، صالح.

- أضواء على دراسة السيرة. ـ ط. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١١هـ
- من معين السيرة. ـ ط١. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

الشريف، أحمد إبراهيم.

- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول. ـ القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت).

الشعيبي، أحمد قائد.
- وثيقة المدينة المضمون والدلالة. ـ سلسلة كتاب الأمة. ـ ط١. ـ الدوحة قطر: وزارة الأوقاف، ١٤٢٦هـ.

شلبي، رؤوف.
- المجتمع العربي قبل الإسلام. ـ القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٧م.

الشنقيطي، أحمد بن محمد الأمين.
- البعوث والغزوات النبوية. ـ القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٦م.

الشنقيطي، محمد الأمين عوض الله.
- السيرة النبوية عند ابن حجر في فتح الباري. ـ الكويت: ١٤١٤هـ.

أبو شهبه، محمد بن محمد.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة. ـ ط ٧. ـ دمشق: دار القلم، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

الصالح، صبحي.
- مباحث في علوم القرآن. ـ ط١٦. ـ بيروت: دار العلم للملايين. ١٩٨٥م.
- النظم الإسلامية. ـ نشأتها وتطورها. ـ ط٥. ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.

الصلابي، علي بن محمد بن محمد.
- أصح الكلام في سيرة خير الأنام (السيرة النبوية). ـ ط ٣. ـ دمشق: دار ابن كثير، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الانشراح ورفع الضيق في سيرة أبي بكر الصديق (شخصيته وعصره). ـ الإسكندرية: دار الإيمان، ٢٠٠٢م.

ضيف، شوقي.

- تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي. ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٦م.

آل بو طامي، أحمد بن حجر.

- الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب. ـ الدوحة: مكتبة الثقافة، ١٣٩٧هـ.

طرهوني، محمد بن رزق.

- صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية. ـ ط١. ـ الرياض: دار ابن تيمية، ١٤١٠هـ.

طعيمة، صابر.

- الأدب النبوي في ضوء العلم الحديث. ـ بيروت: دار الجيل.

الظاهري، أبو تراب.

- ذهول العقول بوفاة الرسول. ـ جدة: دار القبلة، ١٤٠٤هـ.
- أصحاب الصّفة. ـ جدة: دار القبلة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ.

العبد اللطيف، عبد الحليم إبراهيم.

- حديث الإفك. ـ ط١. ـ بريدة: نادي القصيم الأدبي، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

العبيدي، عبد الجبار.

- الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية. ـ ط٢. ـ الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ.

العتوم، علي.

- تجربة مؤتة. ـ عمّان الأردن: مكتبة الرسالة الحديثة، ١٤٠٦هـ.

العتيبي، محمد بن عوض.

- نجران في عصر النبوة والخلافة الرائدة. ـ رسالة ماجستير مقدمة

لقسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام. ـ الرياض: ١٤٣٠هـ، غير منشورة.

عثمان، محمد فتحي.

- من أصول الفكر السياسي الإسلامي. ـ دراسة لحقوق الإنسان ولوضع رئاسة الدولة في ضوء الشريعة الإسلامية وتراثها التاريخي والفقهي. ـ ط٢. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ.

عيسى، أحمد عبد الرحمن.

- كتاب الوحي. ـ ط١. ـ الرياض: دار اللواء، ١٤٠٠هـ.

عطية، عصام بن محمد.

- لماذا نحب محمداً. ـ الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٢٨هـ.

العلي، إبراهيم.

- صحيح السيرة. ـ ط٢. ـ بيروت: دار النفائس، ١٤١٦هـ.

علي، جواد.

- المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٦م.

علي، خالد سيد.

- رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء والقبائل. ـ الكويت: دار التراث، ١٤٠٧هـ.

علي، سر الختم عثمان.

- تدريس السيرة النبوية في مناهج التاريخ المدرسية. ـ الرياض: دار العلوم، ١٤٠٢هـ.

العلي، صالح أحمد.

- محاضرات في تاريخ العرب (الدولة العربية قبل الإسلام)، م٩٦٠م،(د. م).

العُمري، بريك بن محمد أبو مايلة.

- السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة. ـ ط١. ـ الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٧هـ.
- غزوة مؤتة. ـ ط١. ـ المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

العُمري، أكرم ضياء.

- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر النبوة. ـ ط١ـ الرياض: دار اشبيليا، ١٤١٧هـ.
- السيرة النبوية الصحيحة. ـ ط٣. ـ المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٥هـ.

العُمري، عبد العزيز بن إبراهيم.

- مبادئ التخطيط و الإدارة في السيرة النبوية. ـ ط١. ـ الرياض: مطبعة سفير، ١٤٢٨هـ.
- الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين. ـ ط١. ـ الرياض: دار اشبيليا، ١٤٢٢هـ.
- الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ. ـ ط٣. ـ الرياض: دار اشبيليا، ١٤٢٠هـ.
- الفتوح الإسلامية عبر العصور. ـ ط٢. ـ الرياض: دار اشبيليا، ١٤١٩هـ.

عواد، كوركيس.

- مصادر التراث العسكري عند العرب. ـ ط١. ـ بغداد: المجمع العلمي بغداد، ١٤٠٣هـ.

العودة، سليمان بن حمد.

- السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق. ـ ط١. ـ الرياض: جامعة الإمام، ١٤١٩هـ.

■ الهجرة الأولى في الإسلام (فقه المرويات). ــ ط١. ــ الرياض: دار طيبة، ١٤١٩هـ.
عيسى، د. أحمد عبد الرحمن.
■ كُتاب الوحي. ــ ط١. ــ الرياض: دار اللواء، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
محمد بن عبد الله غبان.
■ شهداء غزوة بدر الكبرى. ــ ط ١٥. ــ الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
■ مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه جمعاً ودراسة (رسالة دكتوراه). ــ المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، (د. ت).
الغزالي، محمد.
■ فقه السيرة. ــ ط٧. ــ القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦هـ.
أبو فارس، محمد عبد القادر.
■ في ظلال السيرة النبوية. ــ الإسراء والمعراج. ــ الأردن ـ عمّان: دار الفرقان للنشر، والتوزيع، ١٤٠٨هـ.
الفوزان، صالح بن فوزان.
■ حقوق النبي بين الإجلال والإخلال. ــ ط١٠. ــ الرياض: دار البيان، ١٤٢٦هـ.
الفيومي، محمد إبراهيم.
■ تاريخ الفكر الديني الجاهلي. ــ القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م.
قلعه جي، محمد رواس.
■ قراءة جديدة للسيرة النبوية. ــ الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٤م.
الكتانى، عبد الحي بن عبد الكبير.
■ نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية. ــ بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

كحالة، عمر رضا.

- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. ـ ط٢. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ.

كجك، مروان.

- تهذيب سيرة ابن هشام. ـ الرياض: دار طيبة، ١٤١٩هـ.

الكردي، راجح عبد الحميد.

- شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي. ـ الأردن: دار الفرقان، ١٤٠٦هـ.

كعكي، عبد العزيز عبد الرحمن إبراهيم.

- معالم المدينة المنورة بين العمارة والتاريخ. ـ ط١. ـ المدينة المنورة: ١٤٢٧هـ.
- المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة. ـ ط١. ـ المدينة المنورة: ١٤٢٠هـ

كلزية، عبد الوهاب.

- الشرع الدولي في عهد الرسول ﷺ. ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.

الكمداني، أديب.

- فن تعامل النبي ﷺ في الحياة الزوجية. ـ دمشق: دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٥هـ.

كولن، محمد فتح الله.

- الرسول ﷺ قائداً التنظير والتطبيق. ـ اسطنبول: دار النيل، ١٤٢٥هـ.

اللحام، حنان.

- هدى السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي. ـ ط٢. ـ بيروت: دار الفكر، ١٤٢٣هـ.

ماهر، سعاد.

- مساجد في السيرة النبوية. ــ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

لوبون، غوستاف.

- حضارة العرب، نقله الى العربية. ــ عادل زعيتر. دار إحياء التراث العربي. ــ ط٣. ـ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

معدي، الحسيني الحسيني.

- الرسول ﷺ في عيون منصفة. ــ ط١. ــ القاهرة: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦م.

مؤنس، حسين.

- التاريخ الصحي للرسول ﷺ. ــ القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٠م.

النجار، عبد الوهاب

- قصص الأنبياء. ــ القاهرة: دار التراث، (د. ت).

النحوي، عدنان علي رضا.

- النبي العظيم والرحمة المهداة ـ الرياض: دار النحوي، ٢٠٠٦م.

الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. ــ ط٣. ــ الرياض: دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤١٨هـ.

هارت، مايكل.

- أعظم مائة رجل في التاريخ. ــ ترجمة أنيس منصور. ــ ط ٩. ـ القاهرة: المكتب المصري، ١٩٩٧م.

الهواري، سيد.

- الإدارة والأصول والأسس العلمية. ــ القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦م

وتر، محمد ضاهر.

- فن الحرب في عهد الرسول ﷺ. ـ دمشق: دار الفكر، ١٤٠٥هـ.

الوزان، د. عدنان بن محمد بن عبد العزيز.

- حقوق الإنسان في الإسلام وسماتها في المملكة العربية السعودية. ـ ط١. ـ مجلد ٥. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٥هـ.

الوكيل، محمد السيد.

- الحركة العلمية في عصر الرسول ﷺ وحلفائه. ـ ط١. ـ جدة: دار المجتمع، ١٤٠٦هـ.

ثالثاً: مراجع أجنبية:

- Jewish Encyclopedia. Y. 11 P. 415

- Gospel of Barnaba

R. Goltheril, "Achri stristian Bahira legencl. " Zcits Chrift Fur Assyriologie, 13 (1898) pp. 189-242: 14 (1898) pp. 203-268, 151900. pp. 56-102, 16 (1903) pp. 125-166

رابعاً: مواقع الكترونية:

www.4shared.com
www.ar.wikipedoa.com
http://www.hurras.org (بتاريخ ٢٧/ ١١/ ٢٠١٠)
www.ar.wikipedoa.com
http://www.islam-love.com

الفهرس

إهداء ٧

المقدمة ١١

أهداف دراسة السيرة النبوية وفوائدها ١٥

في دراسة سيرته ﷺ تحقيق لمحبته ٢٠

كيفية دراسة السيرة النبوية ٢٦

خصائص السيرة النبوية ٣٠

أحوال العرب في العصر الجاهلي ٣٥

الجوانب الدينية ٣٦

الحياة الاجتماعية ٣٧

أحوال العالم الدينية في العصر الجاهلي ٣٩

اليهودية ٣٩

النصرانية ٤٠

المجوسية ٤١

البوذية ٤٢

الحالة السياسية في العصر الجاهلي ٤٥
أحوال العرب السياسية ٤٥
الأعراب ٤٦
مكة والمدينة ٤٧
العالم وانتظار الرسول ٥٣
اليهود ٥٣
النصارى ٥٦
مثقفو الغرب المعاصرون ونظرتهم للنبي ﷺ ٧٦
عصر الرسول ﷺ ٨٩
موطن الرسول ﷺ ٩٠
نسب المصطفى المختار ﷺ ٩٣
ميلاد المصطفى الحبيب ﷺ ٩٤
شبابه ﷺ ٩٨
رجولتــه ﷺ ١٠١
زواجه من خديجة (رضي الله عنها) ١٠٣
حادثة بناء الكعبة ١٠٦
إرهاصات ما قبل البعثة ١٠٨
البعثة والاصطفاء ١١٣
الوحي ١١٣
نزول الوحي ١١٣
بدء الدعوة ١١٧
أذى المشركين للرسول ﷺ ومالقي منهم ١٢٤

المضطهدون الأوائل والشهداء ١٢٨
الهجرة الأولى إلى الحبشة. ١٣٠
الهجرة الثانية إلى الحبشة ١٣٣
المقاطعة الظالمة ١٣٥
وفاة خديجة رضي الله عنها ١٣٧
وفاة أبي طالب ١٣٨
الإسراء والمعراج (٩ هـ) ١٤٠
العرض على القبائل. ١٤٥
اللقاء الأول بالأنصار ١٤٩
بيعة العقبة الأولى ١٥١
بيعة العقبة الثانية ١٥٤
هجرة أصحاب الرسول ﷺ ١٥٩
أهل الصفة ١٦١
هجرة النبي ﷺ ١٦٣
أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأهله ودورهم في الهجرة ١٦٣
علي رضي الله عنه وفداؤه للرسول ﷺ وأداء أماناته ١٦٩
الطريق إلى المدينة ١٧١
الوصول إلى المدينة ١٧٥
المدينة وسكانها ١٨١
بناء المسجد النبوي ١٨٤
المؤاخاة ١٨٦
بناء الرسول ﷺ بعائشة (رضي الله عنها) ١٨٧

تنمية المدينة ومجتمعها ١٩١
تغيير اسم المدينة ١٩١
محبة المدينة وتحريمها ١٩٢
التنمية السكانية ١٩٣
التنمية المعنوية ١٩٥
التنمية العلمية ١٩٧
التنمية الاجتماعية ٢٠٢
التنمية الصحية ٢٠٧
التنمية الاقتصادية ٢١٠
تنمية التجارة ٢١٢
التنمية الزراعية ٢١٧
تنمية التعدين ٢١٩
تنمية الصناعات ٢٢١
الحدادة ٢٢١
الدباغة والخرازة ٢٢٢
النسيج والخياطة ٢٢٣
الِـخَواصَـة ٢٢٧
تنمية الحيوانات وتربيتها. ٢٢٨
رعـي الغنـم ٢٢٩
الجمع والاحتطاب ٢٣١
الأُجراء ٢٣٣
معاهدة المدينة ٢٣٥

الإذن بالقتال ٢٣٧
صيام رمضان ٢٤٤
تحويل القبلة ٢٤٦
بداية السرايا والغزوات ٢٤٧
السرايا الأولى ٢٤٩
سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه إلى (سيف البحر) ٢٤٩
سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه ٢٥٠
سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنهم إلى (نخلة): ٢٥١
الغزوات الأولى ٢٥٥
غزوة الأبواء ٢٥٥
غزوة العشيرة: ٢٥٦
غزوة سفوان: (بدر الأولى) ٢٥٧
غزوة بدر (١٧ رمضان سنة ٢هـ) ٢٥٨
بين بدر وأُحُد ٢٧٢
غزوة بني قينقاع ٢٧٢
زواج علي وفاطمة (رضي الله عنهما): ٢٧٧
غزوة أُحد (شوال سنة ٣ هـ): ٢٨٤
أصحاب الرجيع: ٢٩٥
بئر معونة ٢٩٩
غزوة بني النضير (ربيع الأول ٤هـ) ٣٠٢
غزوة الأحزاب (الخندق) (شوال سنة ٥هـ): ٣١٠
غزوة بني المصطلق (المريسيع): (شعبان سنة ٦هـ) ٣٢٥

حديث الإفك ٣٢٧
غزوة الحديبية (شوال ٦ هـ) ٣٤٣
رسائل النبي إلى زعماء العالم ٣٥٥
كتابه إلى ملك الروم ٣٥٧
كتابه إلى كسرى فارس: ٣٧٢
سنة تسع للهجرة ٣٧٦
كتابه إلى المقوقس (عظيم القبط في مصر) ٣٧٩
كتبه إلى ملوك الحبشة ٣٨٤
كتابه إلى هوذة بن علي الحنفي في(اليمامة) ٣٩٠
كتابه إلى المنذر بن ساوي العبدي في البحرين ٣٩٥
كتابه إلى فروة بن عمرو الجذامي ٣٩٦
كتبه إلى ملكي عُمان ٣٩٨
كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ٤٠١
كتابه إلى جَبَلة بن الأيهم الغسّاني ٤٠٢
كتابه إلى يُحَنّة بن رؤبة وزعماء أيلة ٤٠٤
فتح خيبر (ربيع الأول سنة ٧هـ): ٤٠٩
عمرة القضاء: ٤١٥
غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨هـ): ٤١٩
فتح مكة (٢٠ رمضان سنة ٨هـ) ٤٢٤
غزوة حنين والطائف (شوال سنة ٨هـ): ٤٣٢
غزوة تبوك: (رجب سنة ٩هـ): ٤٣٩
حج أبي بكر بالناس (سنة ٩ هـ): ٤٥١

وفود القبائل ٤٥٧
وافِدُ دَوْس (الطفيل بن عمرو) ٤٦٠
وفد عبد القيس ٤٦٤
وفد ثقيف ٤٦٧
وفد بني تميم ٤٧٢
وفد بني عامر ٤٧٥
وفد بني حنيفة ٤٧٧
وفود اليمن ٤٨٢
وفد الأشعريين ٤٨٢
وافد مراد (فروة بن مسيك) ٤٨٤
وفد همدان ٤٨٤
وفد كنده ٤٨٦
وفد الأزد و(جُرش) ٤٨٧
وفد الحارث بن كعب ٤٨٩
وفود نصارى العرب ٤٩٣
وفد الداريين ٤٩٣
وفد تغلب ٤٩٤
وفود طي ٤٩٥
وفد فروة بن عمرو الجذامي ٤٩٦
وفد غسان ٤٩٧
وفادة عدي بن حاتم الطائي ٤٩٨
وفد نصارى نجران ٥٠٥

هدم الأصنام ٥١٩
سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم العُزى ٥٢٠
سريه عمرو بن العاص رضي الله عنه لهدم سُواع ٥٢١
سريه سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه لهدم مَناة ٥٢١
سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهدم االفُلس في طيء ٥٢٢
سرية الطفيل بن عمرو رضي الله عنه لهدم صنم ذو الكفين في دوس ٥٢٢
سرية جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه إلى ذي الخلصة ٥٢٣
حجة الوداع ٥٢٥
وقفات عند حجة الوداع ٥٤٦
حديث غدير خُـمّ ٥٥١
بعثُ جيش أسامة بن زيد ٥٥٣
إقامة دولة الإسلام ٥٥٩
تنظيم الدولة وولاياتها ٥٦٦
أهم الولايات التي عرفت في العصر النبوي ٥٧١
ولاية اليمن ٥٧١
مكة المكرمة ٥٧٣
الطائف ٥٧٣
البحرين ٥٧٥
عُمَان ٥٧٦
العدل والمساواة ٥٨٠
ترتيب الأمن والسلام ٥٨٩
بناء الآداب والأخلاق الاجتماعية ٥٩٩

البناء العسكري ٦٢٥
دولة الرسول ﷺ والسلام العالمي ٦٣٦
وفاة المصطفى ﷺ ٦٣٩
شكوى رسول الله ﷺ ٦٤٢
اشتداد المرض على رسول الله ﷺ ٦٤٣
اليوم الأخير في حياة الرسول ﷺ ٦٥٥
السواك ٦٥٨
تجهيز الرسول ﷺ والصلاة عليه ودفنه ٦٧٠
بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٦٨١
حادثة السقيفة ٦٨٢
أسباب اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٦٩٤
الخاتمة ٧٠٣
المصادر والمراجع ٧٠٥